

الغزو الصليبي .. والعالم الإسلامي

تأليف الدكتور
عَلَى عَبْدِ الْحَلِيمِ مُحَمَّد

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ — ١٩٩٣ م

دار التوزيع والنشر الإسلامية



٨ ميدان السيدة زينب ت : ٣٩١١٩٦١ ص . ب : ١٦٣٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى الذين ينتمون بأعمالهم إلى خير أمة أخرجت للناس

تمهيد :

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي جاء للبشرية كلها بالكتاب الذي أنزله الله إليه ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ولقد نزل الله هذا الكتاب على نبيه ورسوله محمد ﷺ . وقضيته الكبرى هي : توحيد الله وطاعته ، لتستقيم البشرية على هدي هذا الكتاب تعبد الله وحده لا شريك له آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، حتى لا يعبد غير الله في الأرض .

وفي هذا الكتاب شرع الله لمحمد صلوات الله عليه وسلامه من الدين ما لم يختلف في أصوله وجوهره عما شرعه لأنبياء الشريعة صلوات الله عليهم وسلامه : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى . وهو توحيد الله وعبادته والالتزام بشريعته .

وصدع محمد ﷺ بهذا الدين وبلغه للناس جميعا . فكبر على المشركين ما يدعوههم إليه . وتفرق الذين أوتوا الكتاب أمام دعوته فمنهم من هدى الله ومنهم من جحد فكفر ، ومنهم من كان في شك مما جاء به محمد صلوات الله عليه وسلامه ، فأخذ يجادل ويحاج ثم يماري ويتبجح .

وكان أمر الله لرسوله ﷺ واضحا وصريحا ، في أن يستمر في دعوته إلى التوحيد ، ولا يتبع أهواء من ضلوا وخالفوا ، وإنما يعلنهم بأنه ملتزم بهذا الكتاب مأمور بأن يعدل به بين البشرية كلها .

فوقف أهل الكتاب يجادلون ويمارون - وهم يعلمون أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق - لكنهم ما جاءوا في جدهم ذلك إلا بالحجة الداحضة ، فاستحقوا غضب

الله وعذابه .

ولقد أدى هذا الجدل وتلك المماراة إلى صراع بين الحق والباطل ، بين الضلال والهدى ، بين الكتاب الحق ، وتلك الكتب المحرفة ، بين الإسلام وأهل الكتاب من يهود ونصارى حرفوا الكلم عن مواضعه .

ولقد بدأ الصراع بين النصرانية المحرفة « الصليبية » والإسلام ، منذ دعا رسول الله ﷺ إلى التوحيد ، فضّل النصارى ووقفوا لدين التوحيد بكل مرصد ، وقعدوا لدعائه ورجاله بكل سبيل .

منذ وقف الروم للإسلام وللمسلمين في حياة الرسول ﷺ ، وفي حياة خلفائه الراشدين ... وإلى أن كانت الحروب المعروفة - في التاريخ - بالحروب الصليبية ، منذ ذلك الحين والصراع يأخذ صورة حرب سافرة تتقابل فيها الجيوش وتتصارع القوى في ميادين القتال .

وفي الجانبين إصرار - استمرار على طول التاريخ - لا يحيد عنه أحدهما : المسلمون يصرون على دين التوحيد وشرعه ومنهجه ، والصليبيون يصرون على الباطل ، ويدعون مع الله إلهين آخرين : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ والصراع مستمر بين الحق والباطل بين التوحيد والشرك .

ولقد كان للإسلام والمسلمين معارك نبيلة نازلوا فيها الضلال والباطل ، واستطاعوا في زمن غير طويل أن يبلغوا دين الله لعباد الله في كل أرض وصلوا إليها ، بل استطاعوا أن يضموا لجانب التوحيد أعداداً كبيرة ممن هدى الله من النصارى .

وكما انتصر المسلمون في كثير من هذه المعارك النبيلة غاية وهدفاً ، جاء عليهم حين من الدهر ذاقوا مرارة الهزيمة ، ودفعوا بها ثمناً باهظاً لتفريطهم في العمل بما جاء به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ومن الجدير بالتأمل أن المسلمين في مرحلة من مراحل انتصارهم على الصليبيين توهّموا أنهم انتصروا عليهم الانتصار الأخير ، أو هزموهم الهزيمة التي لا تقوم بعدها

للمصليين قائمة ، كإن ذلك يوم نجح المسلمون الذين اتحدت كلمتهم في طرد الصليبيين من الشرق الإسلامي باستيلاء الأشرف خليل بن قلاوون على عكا آخر ما كان بأيدي الصليبيين من بلاد المسلمين من حصون ، في أخريات القرن السابع الهجري .

وكان المسلمون في هذا التصور واهمين مخدوعين عن أنفسهم وعن عدوهم ، انخدعوا عن أنفسهم حين ألقوا السلاح ، وانخدعوا في عدوهم إذا تصوروه قد ألقى السلاح مثلهم ، بينما كان عدوهم قد غير السلاح فقط ولم يلقه وإنما استمر في حرب جديدة في أسلوبها ، فكان الصليبيون يحاربون من لا يحاربهم ويكيّدون لمن ألقوا إليهم السلام . ولقد استطاع الصليبيون أن يحققوا انتصارات كبيرة على المسلمين في مواطن عديدة ، وبخاصة في الفترة التي تحالفوا فيها شرقيين وغربيين على أن يقضوا على دولة الخلافة العثمانية في بداية القرن الرابع عشر الهجري . وقد نجحوا في ذلك وقضوا على دولة مسلمة استطاعت يوما أن تصل إلى جنيف وأن ترفع صوت الإسلام صوت الحق من قلب أوروبا الصليبية .

ولقد ضعف المسلمون في هذه الآونة الأخيرة إلى الحد الذي أغرى الصليبيين بأن يعودوا إلى السلاح السافر والاحتلال العسكري لكثير من بلدان المسلمين ، فتوزع الصليبيون فيما بينهم بلدان العالم الإسلامي ، واحتلوا من أرض المسلمين في أقصى المشرق إلى أرضهم في أقصى المغرب ما جعلهم بمسكون بناصية الأمور في هذا العالم الإسلامي المترامي الجوانب ، الذي ضعف حماته يوم تركوا كتابهم وسنة نبهم عليه الصلاة والسلام .

وكما كانت الدول التي حاربت المسلمين في الماضي هي إسبانيا والدولة البيزنطية ، والدول الأوربية الغربية ، كذلك كانت نفسها هي التي توزعت ميراث دولة الخلافة العثمانية ، كل ما حدث من تغيير هو أن الدولة البيزنطية حلت محلها دولة الاتحاد السوفيتي الشيوعية .

وأصبح العالم الإسلامي نهبا للسوفيت في الشرق إذا استولى على عديد من الولايات الإسلامية . ونهبا لانجلترا في الشرقيين الأقصى والأوسط وفرنسا في الشرق الأوسط والمغرب العربي وإيطاليا في جزء من المغرب العربي وإسبانيا في المغرب العربي كذلك

ولهولندا وكل دولة من الدول التي تقاسمت حق دولة الخلافة العثمانية .

وما إن استيقظ أبناء العالم الإسلامي بحركات الوعي الإسلامي في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري . حتى أجبر هؤلاء المحتلون على مغادرة البلاد الإسلامية بإزالة الوجود العسكري منها .

غير أن الأعداء تحالوا - وهي عادتهم - فما خرجوا من بلد مسلم إلا تركوا فيه من آثارهم ورجلهم ما يطمئنون به إلى أن يظلوا مسيطرين غالبين ، وهم يدركون أنه لن تكون لهم سيطرة على بلاد المسلمين إلا بشيء واحد : هو أن يحولوا بين المسلمين والتمسك بدينهم ، بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولقد أفلح أعداؤنا في إبعاد المسلمين عن كتابهم وشريعتهم إلى حد كبير :

أفلحوا حينما عملوا جادين على إغراء معظم دول العالم الإسلامي على أن تحكم بقوانينهم الوضعية ، متجاهلة الحكم بما أنزل الله وفق شريعة الإسلام ، وعلى هدي من منهجه ، وحينما جعلوا أغلب الدول الإسلامية تأخذ في نظام حياتها بكثير من عادات الغربيين وتقاليد مجتمعاتهم المخالفة لشريعة الإسلام ، فاتبعت تلك الدول المسلمة - يوم قبلت ذلك - فاتبعت غير سبيلها وتبنت غير منهجها ونظامها .

أفلح أعداؤنا في كل ذلك إذ استجاب لهم بعض الحكام المسلمين الذين تجاهلوا تماما نداء الله على المسلمين في كل زمان ومكان بأن لا يتبعوا سبيلا غير سبيل الله ، حتى لا يضلوا متفرقين ضعفاء ضائعين ، فلقد خاطب الله الأمة الإسلامية وحذرنا من اتباع غير الحق فقال سبحانه : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

أفلح أعداؤنا في أن يؤرثوا نيران الفرقة والخصام بين المسلمين - وهم في الأصل موقدوها - وأن يجعلوا من الأمة الإسلامية الواحدة أمما عديدة وجماعات شتى ، لتذهب ربحهم وتضيع هيبتهم ، مع أن المسلمين يدركون حقا أنهم أمة التوحيد أمة واحدة تعبد

ربا واحداً وتدين بشرع واحد ، بل يدركون أن رسل الله جميعاً أمتهم واحدة أمة الإسلام ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾^(١) فإذا كان المسلمون اليوم أكثر من خمس وأربعين دولة أو جماعة ، فإن ذلك يوضح لنا إلى أي حد نجح أعداؤنا في تمزيق الأمة الإسلامية وتشتيت أمرها وتفريق وحدتها ، بل نجحوا في إغراء بعض المسلمين بالمناداة بشعارات زائفة توحد بينهم بدلاً من أن يوحد بينهم دينهم وكتابتهم .

أما الصليبيون المعاصرون ، فقد أفلحوا في أن يقتنصوا من أبناء المسلمين من يكونون أبواقاً لهم ودعاة لباطلهم وحماة لكل زيف عن الحق ينادون به ، ولكل انحراف عن منهج الإسلام يجاهدون في سبيله ، - وبغض النظر عن أسلوب اقتناص أبناء المسلمين ، فهذا ليس مجال الحديث فيه - فخرج علينا هؤلاء الأبناء المخدوعون وأولئك الأعداء الخادعون ينادون بالبدع والضلالات ، ويروجون للأباطيل والخزعبلات ويتكبرون من أساليب التمرد على القيم الإسلامية كل خبيث وهدام ، وكل ضار بالدين والدنيا معاً .

ففشيت المجتمعات الإسلامية موجاتٌ إثر موجات من التيارات المعادية لدين الله المحاربة لسنة رسوله ﷺ الصادقة عن دين الله وعن سبيله المغرية بالباطل والهوى . فهذه موجة إلحادية زائفة ألبسوها ثوب حرية الفكر وحرية العقيدة ، وزيفوها بقالتهم الضالة المضلة من أن الدين والتدين من المسائل الشخصية التي لا يلام فيها الناس على إلحادهم وزيفهم وضلالهم .

وتلك موجة عاتية من الانحلال والفسوق ألبسوها خرقاً بالية مما أسموه الحرية أو الحرية الشخصية التي لا معنى لها سوى أن ينطلق الحيوان الكامن في الإنسان يعبر عن حيوانيته في غرض الطريق .

وهذه موجة ضارية صاخبة تستهدف إفساد المرأة المسلمة ، رزق شمل الأسرة

١ - سورة المؤمنون الآية : ٥٢ .

المسلمة ، غطوها بغلالة خادعة من قولهم : تحرير المرأة وتحرير المرأة وإخراجها من سجنها « بيتها » لتنهبها الأعين في الطرقات ، ولتفسدها مخالطة الرجال وتذهب بحيائها أزين ما فيها وأجمل ما كَمَّلَ الله به الإنسان .

ومالوا على أبنائنا بنين وبنات يغرونهم بالتمرد على الأسرة وعلى سلطة الوالدين ، ودعموا ذلك بالقصص والمسرحيات ونظم التعليم واستأجروا لذلك كتابًا وأدباء . وما تركوا لنا من جانب من جوانب حياتنا الإسلامية إلا حاولوا أن يفسدوه ، ومن عجب أنهم نجحوا في أغلب ما أرادوا . وموجات إثر موجات من الفكر المنحرف من وجودية وفوضوية وهيبية وعري و « خنفسة » وضياح .

وإن تعجب فعجب أن تجد هذه الدعاوى قبولاً في المسلمين وأن يروج لها بعضهم ، ولكن المتقبلين هؤلاء هم أصحاب النفوس المريضة والقلوب الآسنة والعقول العطنة . وأخشى أن يتزايد هذا الوبال فينسى المسلمون أنهم خير أمة أخرجت للناس بما يأمرهم به من معروف وما ينهون عنه من منكر .

وبعد :

فهذه حال الأمة الإسلامية أو قل : الدول الإسلامية العديدة المبعثرة - على غير نظام - في رقعة فسيحة من الأرض ، تحاول حين تصحو أن تبحث لها عن روابط تلم شعنها ، فيبئى لها ضعفها أن رابطتها في الإقليم أو العرق أو اللسان ، ذاهلة عن الرابطة الوحيدة التي لا رابطة سواها وهي : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، الكتاب الذي يجعل منها الأمة الواحدة ، خير أمة أخرجت للناس .

ومن أجل التعرف على هذا الواقع إيجابياته وسلبياته ، ومن أجل التعريف بهذا الماضي البعيد أو القريب للأمة الإسلامية في صراعها من أجل الحق ، ومن أجل الاطمئنان إلى مستقبل للأمة الإسلامية يوحد صفوفها ويلم شعنها ويربطها بسر قوتها وعزتها بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ - كان هذا الكتاب الذي بين يديك أيها المؤمن

المسلم .

من أجل إدراك الأهداف الحقيقية التي شن الصليبيون من أجلها حروباً ضد المسلمين كان هذا الكتاب الذى أعده حلقة من سلسلة طويلة في صراع الصليبيين مع المسلمين .

وربما كانت غايته من هذا الكتاب وهي التعريف بأبعاد هذا الصراع زماناً ومكاناً وفكراً وحضارة ، ربما كان تحقيق هذه الغاية يتطلب منى أسفاراً وكتباً ، لا كتاباً واحداً في هذا الحجم الذي ترى .

غير أنى في هذا الكتاب أركز على الفترة التى بلغت فيها الحرب الصليبية ضد العالم الإسلامى أوجها ، فاحتلت جيوش الصليبيين أرضاً في الشرق الإسلامى عزيزة غالية ، أرض فلسطين وبيت المقدس ، تلك الفترة الواقعة بين نهاية القرن الخامس الهجرى ٤٩٠هـ - ١٠٩٥م ونهاية القرن السابع الهجرى ٦٩٠هـ - ١٢٩١م ، وهى فترة عانيت البحث فيها والتحرى عن أبعادها في الفكر والحضارة ما يزيد على سنوات خمس أمارس تدريسها لأبنائي في الجامعة ، وأثير في أذهانهم حولها من المسائل والقضايا ما لا بد من إثارتها .

فإذا مد الله في العمر وهياً من الأسباب ، تحدثت في كتاب آخر عن الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ، وفي كتاب ثالث عن الحرب الصليبية التي شنتها على المسلمين الدولة الرومانية الشرقية « البيزنطية » . وفي كتاب رابع عن الحرب الصليبية فيما بعد العصر المسمى بعصر النهضة الأوروبية وإلى قرب نهاية القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع عشر الميلادي تقريباً - وبخاصة فيما يتصل بحرب دول الصليبيين في الشرق والغرب ضد دولة الخلافة العثمانية .

أما صليبية القرن العشرين الميلادى - الرابع عشر الهجرى ، فتحتاج إلى أكثر من كتاب ، فقد وصلت من جديد إلى احتلال بيت المقدس مرة ثانية وإلى احتلال فلسطين كلها وأجزاء من بلدان العالم الإسلامى حول فلسطين ، ذلك أن الصهيونية العالمية - وإن كانت تضمّر الشر لكل البشر ومنهم الصليبيون - إلا أنها استطاعت بمساعدة

صليبي القرن العشرين أن تحصل على أرض إسلامية وأن تحتل ثاني القبلتين وثالث الحرمين الشريفين .

وليس هدفي من وراء كتابة هذه السلسلة أن أؤرخ لهذه الحروب فللتاريخ رجاله وعلماءه ، وإنما الهدف الكبير هو أن أعرف الأمة الإسلامية على ألوان من الكيد لها يمارسها ضدها من يدعون صداقتها ، ومن تربطهم بها علاقات سياسية واقتصادية وثقافية ... أملاً في أن يستفيق المسلمون على حقيقة واحدة هي ضرورة التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وعندئذ لن يسع أحفاد الصليبيين إلا أن ينقموا كما انقما أسلافهم ، وأن يغيبوا عن سماء العالم الإسلامي ويحولوا عن أرضه .

من أجل ذلك سوف أجعل للكتاب مدخلا أتحدث فيه عن صليبية القرن العشرين ، وما حملته هذه الصليبية ولا تزال تحملها للعالم الإسلامي كله من كيد وشر ، وما دبرته وما لا تزال تدبره للحركة الإسلامية في مختلف أقطار العالم الإسلامي من حرب ومكر ، عسى الله أن يزيل بهذا المدخل الغشاوة عن بصائر بعض المسلمين وبعض حكامهم الذين يتصورون أنهم بحريهم للتطرف الديني ، وبمنعهم المسلمين من ممارسة حقوقهم السياسية يقدمون شيئاً لأقوامهم وأوطانهم ، عسى الله أن يزيل عنهم هذه الغشاوة ليقفوا على الحق ويعرفوا الحقيقة ، وليدركوا أنهم بحريهم للصحة الإسلامية مع حريهم للتطرف والإرهاب إنما يعينون أعداءهم على أقوامهم وعلى أنفسهم .

إن أعداء الأمة الإسلامية يوهمون كثيراً من المسلمين ومن حكامهم أن الخطر عليهم المهدد لهم هو الإسلام والحكم بشريعة الإسلام ، في خطة محكمة محبوكة الأطراف بدعوا فيها منذ زمن ليس بالقصير حيث سيطروا على التعليم مناهجه ومؤسساته في معظم بلدان العالم الإسلامي ، فأفسدوا المتعلمين وأفسدوا من وراءهم من الناس ، واستمروا في هذا الإفساد حتى أصبح من المسلمين اليوم من يعادى دينه ويصفه بالرجعية ويتهم القرآن الكريم بأنه لا يعدو أن يكون نصوصاً تاريخية ، ويرمى الشريعة بالغيبات والظلاميات والأصولية !!!

إن الصليبية اليوم لا تستعمل أسلحة الحرب إلا عندما تلبسها ثوب الباطل ، كما

سنرى في مدخل هذا الكتاب بإذن الله تعالى .

ثم أتت أثر هذا الغزو الصليبي للعالم الإسلامي في إطاره التاريخي خلال الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية القرن الخامس عشر الهجري سنة ٤٩١ هـ ونهاية القرن السابع الهجري سنة ٦٩٢ هـ في الفكر وقضايا المطروحة أمام المسلمين ، بل وفي الفكر لدى الصليبيين ، وفي الحضارة الإسلامية بكل ما تدل عليه كلمة الحضارة ، وفيما خلفته هذه الحروب في ثقافة المسلمين وعلومهم وفنونهم وأنماط حياتهم ، أى ما نسميه « أدب الأمة الإسلامية »^(١) .

عسى الله أن يجعل من كلماتي هذه تبصرة لكل من ألقى السمع وهو شهيد ...
إن الله على ما يشاء قدير .

وإذا كان لابد من حديث عن منهجية هذا البحث وخطوطه العريضة ، فأقول :
بدا لي وأنا أفكر في الموضوع وأمارس تدريسه تلك السنوات ، وأتنبأ للعمل فيه ليصبح كتابا ، بدا لي أن أجعله أبوابا أربعة :

الباب الأول منه تسيطر عليه قضية دوافع هذه الحروب الصليبية ، وهى دوافع دينية ، للكنيسة فيها قدم راسخة ، ودوافع سياسية مهدت لها بالحديث عن الغزو الصليبي للأندلس المسلمة والغزو الصليبي البيزنطي لعدد من بلدان العالم الإسلامي ، وتوسعت في الحديث عن الغزو الغربى للعالم الإسلامى - لأن ذلك صلب الكتاب وعموده - فبينت أثر الكنيسة في هذا الغزو ، وعرفت بالحملات الصليبية المشهورة ، وبالممالك التى استطاع الصليبيون أن يقيموها في بلاد المسلمين ، ثم تحدثت عن إخراجهم من هذه الجنة التى تفيض لبنا وعسلا كما تحدثت بذلك التوراة التى فى أيديهم .
ثم تحدثت عن الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب .

١ - لنا رأى فى الأدب الإسلامى - عبرنا عنه بتوسع فى كتابينا من سلسلة نحو أدب إسلامى معاصر : مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه وجمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه - الأول نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والثانى شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع .

وجعلت الباب الثاني : عن العالم الإسلامي الذي واجه الصليبيين فأوضحت ظروفه جملة ، ثم تحدثت عن الدول المسلمة التي واجهت الصليبيين فأوجزت في الحديث عن مسلمي الأندلس وعن دولة الخلافة العباسية ، لأن ذلك كان قبل الفترة التي نركز عليها الأضواء في هذا البحث .

ثم توسعت - خضوعاً لمنهجية البحث - في الحديث عن الفاطميين والسلاجقة والأرناؤقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك ولكنه توسع نسبي معقول ، وذلك أن هؤلاء هم الذين واجهوا الصليبيين ، وأن عدد منهم اتحدوا في جبهة حيناً من الزمان ، فأصلوا الصليبيين بهذا الاتحاد نيراناً حامية وكان ذلك من أكبر أسباب خروجهم من بلادنا .

وجعلت الباب الثالث لرصد نتائج هذه الحروب الصليبية في العالم الإسلامي وفي العالم الصليبي ، وبخاصة النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهو باب يعد مدخلاً للباب الرابع والأخير من البحث .

ثم كان الباب الأخير من الكتاب وهو أوسع أبواب البحث وأهمها ، إذ تحدثت فيه عن الفكر الإسلامي والحروب الصليبية ، وكيف انشغل ذلك الفكر بتلك الحروب فأثر فيها وتأثر بها ، وكيف سجلها ورصد أحداثها في فنون القول شعراً ونثراً وتأليفاً ، ثم تحدثت عن مشاهير المفكرين علماء وشعراء وكتاباً ، ممن كان لهم جهد في الحديث عن هذه الحروب فصاغوا في ذلك علماً وأدباً .

ثم كانت خاتمة البحث ، فرصدت فيه أبرز ما توصلت إليه ، وأهم ما دعوت إليه في هذا الكتاب .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . علي عبد الحليم محمود

المدخل إلى الكتاب

ويتناول ما يلي :

- أولا : نفوذ الغرب الصليبي على العالم الإسلامي اليوم .
- ثانيا : أهداف الصليبيين الجدد من تحدى الإسلام وحربه .
- ثالثا : وسائل الغرب الصليبي في حربه للإسلام والمسلمين .

أولا : نفوذ الغرب الصليبي على العالم الإسلامي اليوم

ما يشك عارف بالعالم الإسلامي وعالم الغرب في أن لعالم الغرب نفوذاً في العالم الإسلامي أى نفوذ ، وهو نفوذ منه ما هو واضح ظاهر لا يحتاج إلى استدلال أو إشارة إليه ، وذلك مثل النفوذ الثقافى والفكرى والتعليمى ، والنفوذ الاقتصادى والاجتماعى ، ومنه ما هو خفى على البسطاء فقط وهو النفوذ السياسى .

أما النفوذ الثقافى والفكرى والتعليمى فواضح لكل ذى عينين ولا يحتاج إلى دليل أو برهان - وسوف نتحدث فى وسائلهم لتحقيق أهدافهم - عن خططهم لإفساد التعليم فى معظم البلدان الإسلامية ، وكيف عيثوا بالمناهج والمؤسسات وإعداد المعلمين وكيف زاحموا لغة البلاد بلغاتهم ، وبخاصة فيما يتصل باللغة العربية .

وقد ترتب على سيطرتهم على التعليم ومؤسساته أن سادت فى بلدان العالم الإسلامى ثقافتهم وفكرهم ، ولغاتهم وما ترتب على ذلك من إخمال الإسلام وثقافته فى نفوس المسلمين ، وما أدى إليه ذلك من ضمور العلوم الشرعية فى معاهد التعليم ، بحيث نسى الناس - فى ظل الخطة التعليمية كثيرا من أحداث السيرة النبوية وجهلوا ما قام به الأسلاف من جهود من أجل المحافظة على السنة وكيف دققوا فى عدالة الرواة للحديث النبوي وضبطهم ، وتنوسيت جهود العلماء والأئمة فى الاجتهادات الفقهية التى استنبطوها من أدلتها من الكتاب والسنة ، وجهلوا كيف وضع علم أصول الفقه بل ربما لم يسمعوا عنه أبدا وهم المتعلمون المتخرجون فى الجامعات !!!

أهناك نفوذ للغرب فى التعليم أكثر من هذا ؟ لقد صاغوا عقول أبناء العالم الإسلامى بل شخصياتهم كما يرغبون ، وذلك الذى أدى إلى أن يهاجم بعض المسلمين الإسلام ، ولا ينتمى إليه عدد كبير من أبنائه ولا يعطيه ولاءه وحبه عدد آخر .

أقْبَعُ ذلك النفوذ فى التعليم والفكر والثقافة نفوذ ؟ لقد تعهدوا تربية الناشئ عندنا كما أرادوا ، ولقد استمروا فى تعليم اليافع والشاب فالناضج ما أمكن به اقتلاع هذا المتعلم

من جذوره ، لينتمى إلى غير دينه وغير حضارته ، وهل تفعل الجيوش الغازية أكثر من ذلك ؟

ولقد جلبوا إلينا أجهزة وآلات تشارك في صنع الفكر والثقافة كالصحافة والإذاعة مرئية ومسموعة والسينما والمسرح وغيرها ، فتعاونت تلك الأجهزة مع مؤسسات التعليم على تنشئة هذه الأجيال التي لا تعرف من دينها إلا القليل ، وتباهى بعضيان الأب والمعلم وتمرد على سلطان الأسرة والمجتمع .

ولقد تفاقم هذا النفوذ حتى أثمر أحسن ثمرة عندهم وأسوأه عندنا ، حيث ظهر ناس يجاهرون بعصيان الله ورسوله والتحدى لكل ما أمر به الدين تارة باسم الحرية الشخصية وتارة باسم أن الدين كان لناس غيرهم ولزمان غير زمانهم ، وجروء بعضهم على أن يؤلف ضد الدين وقيمه وأخلاقه فامتثلت أيدى الناس وعقولهم بقصص راذل لاهم له إلا تحريك الغرائز وتصوير الفضائح في الكتاب والسينما والمسرح والتلفاز . وإذا كانت الثقافة الغربية مليئة بهذا ولا ترى عارا ، فما لنا لا ننقل عنهم هذه الفواحش ؟ ولماذا لا نخذوا حذوهم وهم الأقوياء الذين يحتلون بلادنا ويعطوننا من خيراتها أو يحرمونها ؟

أفوق هذا النفوذ الثقافي الغربى نفوذ ؟

وأما النفوذ الاقتصادي للغرب في بلاد العالم الإسلامى ، فهو أوضح من الشمس في رابعة النهار ، إذ لا توجد بلد إسلامية عندها اكتفاء ذاتى يغطى احتياجاتها الأولية فضلا عن احتياجاتها الثانوية .

وعلى سبيل المثال فالناس دائما محتاجون إلى الطعام والملبس والسكن والسلاح الذي يدافعون به عن أنفسهم ، ومحتاجون إلى إنشاء المدارس والجامعات والمشافي ودور العلاج ووسائل النقل والمواصلات برية أو بحرية أو جوية ، فهل يمكن لبلد إسلامى أن يكتفى ذاتيا بتحقيق هذه الاحتياجات ؟ .

وبصورة أوضح : هل يوجد بلد إسلامى لا يمد يده إلى الدول الغربية يطلب منها

هذه الاحتياجات وأمثالها ، وغالبًا ما يكون هذا الطلب بالدين الآجل المضاعف الفوائد الربوية ، وإلى متى يظل حكام كثير من البلدان الإسلامية عاجزين عن أن يحققوا لبلادهم الاكتفاء الذاتي في بعض هذه الاحتياجات ؟ .

وإلى متى يظل العالم الإسلامي عاجزًا عن أن يحقق تكاملاً اقتصادياً يوفر له حاجاته الأولية ؟

وهل طمعنا في سوق إسلامية مشتركة جنوح في الخيال نستحق عليه العقاب بتجفيف منابع الإسلام الذي يشجع على هذه الأمانى ؟

وهل يستطيع بلد إسلامي خصيب الأرض تجرى فيها الأنهار العذبة - وما أكثر هذه الأقطار في العالم الإسلامي - أن يزرع من القمح ما يكفيه دون الحاجة إلى قمح الغرب وأمريكا بالذات ؟ أم أن التفكير في مثل هذا الخبل يؤدي بالغرب إلى أن يدبر انقلاباً عسكرياً مضاداً في تلك البلد التي جرئت أو جرؤ حاكمها على هذا التفكير ؟ وهل يمكن لبلد عربي نفطي أو بلد إسلامي نفطي أن تكون له الحرية في بيع نفطه إلى بلد إسلامي أو عربي غير نفطي ؟ أم أن الأمور في ذلك كله بيد الغرب وشركاته وحكوماته ؟

وهل يستطيع بلد عربي أو إسلامي أن ينقب عن النفط في أرضه دون استشارة الخبراء واستجلاب الآلات من الغرب ؟ وهل يتيح الغرب هذه الفرصة لأحد ؟ وكذلك شأن القطن والسكر والحديد و « الأسمنت » ، ومواد البناء كلها !!! وكذلك شأن وسائل النقل والمواصلات كلها برية أو بحرية أو جوية من القطار والسيارة والآلات والأجهزة التي تيسر الاتصال إلى الطائرة والسفينة التجارية أو الحربية !!!

وأكثر من ذلك وأفدح الاحتياج إلى السلاح من الغرب !!!

إنها عملية إذلال وعقود إذعان يخضع لها أي بلد عربي أو مسلم قبل أن يشتري صفقة سلاح بأبهة الأثمان وأفدح الربويات وبشرط ألا تستعمل ضد إسرائيل ، مع

أنه لا عدو لنا في المنطقة العربية سوى إسرائيل!!!

وهل في الإمكان أن يحدث تكامل في إنتاج الأسلحة بين عدد من بلدان العالم العربي أو عدد من بلدان العالم الإسلامي ؟ أم لابد من أن يكون الغطاء الفني والمالي والتقني وافداً من الغرب ؟

أوليس نفوذ الغرب الاقتصادي في العالم الإسلامي واضحاً لا يحتاج إلى دليل ؟ وهل يمكن والحال هكذا أن تقوم للعالم الإسلامي قائمة ؟ أو أن يضع قدمه في طريق التحرر الاقتصادي من الغرب وديونه وفوائده ؟ وهل يعني هذا النفوذ الغربي في عالمنا الإسلامي شيئاً أسوأ من التبعية للغرب ؟ .

وأما النفوذ الاجتماعي للغرب في عالمنا الإسلامي فيقصد به أن تسود عادات الغرب وتقاليده في عالمنا الإسلامي ، وأن تشيع في مجتمعاتنا هذه العادات والتقاليد .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن كل ذلك قد كان ...

ومن نظر إلى عاداتنا اليوم في الطعام والشراب عرف أنه لم يبعد عن الغرب في تناول الطعام باليد اليسرى لأنها التي تمسك « الشوكة » بينما اليمنى مشغولة « بالسكين » ، ورأى بعينه كيف شاع بيننا قرع الكؤوس ، وشرب الخمر ، والأكل واقفاً والأكل في الطريق ، وكيف يباع في بلادنا الإسلامية لحم الخنزير !!!

وأصبح ما نلبس شبيهاً بما يلبسون ، بغض النظر عن أن لباس المرأة الأوروبية يشكف عن زينتها بل ما هو أكثر من مواضع الزينة إذ يكشف عن شعرها ورقبتها وجزء من صدرها وظهرها وساقها وذراعيها ، وبغض النظر عن أن ملابس كثير من الرجال تجسم عوراتهم وتجعل الرجال يتشبهون بالنساء في الألوان ، والنساء يتشبهن بالرجال في الملابس ، كأن ذلك كله ليس مما حرمه الله ونهى عنه ديننا الإسلامي الحنيف ؟

وعلى نفس النسق الغربي أصبحت بيوتنا ، فلا عبرة لوضع المرحاض في البيت بحيث لا يستقبل الجالس فيه القبلة أو يستدبرها !!! وكيف أصبح التصميم للحجرات يخلط غرف جلوس الضيوف بأحشاء البيت ويكشف ما خبيء فيه ، وكيف تجاوزنا في

الارتفاعات ما أوصانا به ديننا فأنكشفت لنا عورات جيراننا .

وكيف ضاعت بيننا حقوق الجار ، كما يتجاهلوننا هم في مجتمعاتهم ؟
وكيف انكمش إفشاء السلام ؟ وكيف نحى إذا حيننا كما يفعلون ونقول كما يقولون
هاجرين لفظة السلام - وهى اسم من أسماء الله - إلى كلماتهم هم ؟
وكيف جفت العواطف بين أفراد الأسرة ، كما هى جافة عندهم ؟

وكيف شاع في بعض مجتمعاتنا مراقبة النساء للرجال ؟
وكيف هان أمر المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية حتى أضحت مطالبة بأن تعمل وتكفل
جانبا من تكاليف حياة البيت الذى تعيش فيه في ظل زوج له القومة وعليه السعى
في طلب الرزق والإنفاق على زوجه وولده وكل من يليه ؟

وكيف شاعت الأغاني الخليعة والكلمات المسفة بل شاعت الفاحشة بكسر الحاجر
الطبيعى بين الرجل والمرأة في الاختلاط وفي تحريم خلوة الرجل بالمرأة ؟
وكيف انتقلت إلينا منهم مصافحة الرجال للنساء الأجنبية بل وتقبيلهن عند اللقاء
وعند الانصراف ، فضلا عن مؤاكلتهن ومجالستهن وممازحتهن ؟
وكيف هجر الدين وأوشك أن يسجن في المسجد كما هو مسجون عندهم في
الكنيسة ؟

وكيف هجر المسجد إلا في يوم الجمعة كما هجرت الكنيسة إلا في يوم الأحد ؟
وكيف نقيم أعيادا لميلاد أبائنا كما يفعلون ؟ وكيف نصنع أعيادا أخرى ليست من
ديننا جريا منا على سنتهم في هذه الأعياد ؟

أليس ذلك كله - وهو قليل من كثير - دليلا على نفوذ عادات الغرب وتقاليده
في مجتمعاتنا المسلمة ؟

أبعد هذا النفوذ نفوذ ؟

وأما النفوذ السياسى : فيعنى أن تدور البلدان الإسلامية في فلك الغرب ونظرياته

السياسية ومنهجه في الحكم وفي العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، بحيث لا تستطيع دولة مسلمة أن تخرج عن هذا الإطار إلا باستئذان يأخذ شكل استشارة الخبراء الأجانب أو استفادهم في شكل لجان أو شركات أو مؤسسات . وبغض النظر عن أمرين بالغى الأهمية في هذه التبعة التي يراد لها أن تكون غير منظورة ، هما:

١ - ليس ضروريا أن يكون النقل عن الغرب في تجربته السياسية كاملا ، وإنما يمكن أن يكون ناقصا ، ويتسامح الغرب في هذا النقص في الأمور الآتية :

أ - ليس بلازم أن يكون هناك تحرر سياسى كامل وبخاصة فيما يتصل بقضايا تهم الغرب ويريد أن يحشد لها التأييد في هيئة الأمم مثلا ، فإن كانت دول الغرب تصدر عن إرادة حرة في تأييدها لكن ليس هذا من حق البلدان الإسلامية الدائرة في فلك التجربة السياسية الغربية .

ب - ليس بممكن أن يتغير دستور في البلاد الإسلامية من النمط الغربى المألوف لنا إلى نمط إسلامى مثلا ، بل أحيانا يرفض النمط العربى أو القومى ، ولا بأس بمادة في الدستور أو أكثر ترضى طموح المصلحين من أبناء بلد إسلامى بعينه تجنباً لإغضابهم وإثارة المتاعب السياسية !!

ج - ليس بمطلوب أن يتمتع المواطن في البلدان الإسلامية بما يتمتع به المواطن في الغرب من محاسبة الحاكم والحكومة لأن هذا في نظرهم ترف « ديموقراطى » يفسد بأكثر مما يصلح .

د - وليس من الضرورى أن تكون المجالس النيابية ممثلة لإرادة الأمة تمثيلا حقيقيا في ظل انتخابات نظيفة خالية من التزوير ومن القبض على مندوبى المرشحين ووضع العقبات أمام من لم يقبض عليه حتى تأتى الانتخابات كما يريد الحاكم . ولا بأس بأن ينه على المحافظين ومديرى الأمن بأن بقاءهم في مناصبهم مرهون بنجاح مرشح الحزب الحاكم !!!

أما في الغرب فإن هذه جرائم يحاسب عليها القانون وبعضها لا يسقط بالتقادم !!!

هـ - ولا بأس من أن يكون المجلس النيابي مؤيدا ومبررا لكل مشروع تتقدم به الحكومة حتى ولو كان مشروعا مقيدا للحريات ومناقضا للديمقراطية ، فما أسرع ما نسمع : موافقون ؟ موافقة . دون حياء من إذاعة هذا على الملأ . أما عند الغرب فلا وألف لا لهذه الفوضى وذلك الغش والتدليس !!!

و - ولا بأس في ظل التجربة الغربية في الحكم من أن يكون هناك تربح من الوظيفة الحكومية ، وفساد عند كبار المسؤولين في الذم والأخلاق ، ولا يجرؤ نائب أن يستجوب مستولا ، لأنه سريعا ما يرفض الاستجواب بسحر الكلمة : موافقون ؟ موافقة ...

ز - وليس من الضروري التقيد الشديد بمبدأ تكافؤ الفرص الذي هو أهم ما في « الديمقراطية » ، فليكن ابن المسئول أولى من غيره !!! أليس موضع الثقة إذ هو امتداد لأبيه !!! ولا بأس أن تتكسر القوانين وأن يتجاوز الحق في هذه السبيل !!! وحكايات المرموقين بالوراثة في البلدان الإسلامية أكثر من أن تحصى ، ويستطيع أن يدرك ذلك من يقرأ أخبار الوفيات عندما يموت كبير فإذا به أب أو عم أو خال أو قريب أو نسيب أو صهر لعشرات المسؤولين الكبار بل مئاتهم أحيانا !!

ح - وليس هناك مانع في ظل التجربة الديمقراطية الغربية أن يكون رؤساء الدول الإسلامية رؤساء مدى الحياة لأنه لا يمكن أن تجد التجربة الديمقراطية لهم نظراء في الذكاء والقدرات والعمل المتواصل آناء الليل وأطراف النهار والإخلاص والعناد الوطني والقومي والإسلامي . وبذلك يظلون في الحكم حتى يموتوا حتف أنوفهم أو بجرمة أو يقضوا ما بقي من حياتهم في السجون والمعتقلات أو رهن الإقامة الجبرية ، حيث تزول عنهم كل الصفات التي كانوا يتمتعون بها وهم حكام !!!

أما عند الغرب فالأمر ليس كذلك ، وفي أمريكا مثلا خمس رؤساء لا يزالون يعيشون ويستشارون في أمور الدولة !!!

ط - وليس هناك مانع في ظل التجربة الديمقراطية الغربية أن تداس حقوق الإنسان وأن يعذب صنوف التعذيب وأن يشرف على التعذيب رسل الديمقراطية من الأمريكان ما دام الذين يعذبون وتهدر آدميتهم من الإسلاميين أو المتهمين بالتطرف ، ولا مانع

في ظل هذا كله أن تعترض منظمات حقوق الإنسان ومنظمات العفو الدولية وأن تكتب تقارير ليكذبها المسؤولون في البلدان الإسلامية قبل أن يقرعوها وهم يعلمون تمام العلم صحة ما جاء فيها بل قد يكون بعضهم قد سمع أنات المعذنين وشاهد آثار التعذيب في المعذنين !!!

أما في الغرب فعدوان الشرطة على السائق « رودني » تسبب في قيام مظاهرات ومحكمة المتسبب والحكم عليه بعد إدانته .

ي - وليس في ديمقراطية الغرب في البلاد الإسلامية ما يسمح لأحد بالتعبير عن رأيه بالتظاهر السلمى أو النقد للحاكم والحكومة ، أو أن يقرأ ما يشاء بل أن يسمع ما يشاء - لأن أحدث ما سمعت أن عوقبت مدرسة لأنها تستمع إلى شريط مسجل - أيًا ما كان ما فيه - حتى حق الاستماع ليس مكفولاً !!! هل كان النظام الشيوعى الفقيد الذي توافد على العالم الإسلامى قبل التحول إلى الغرب هل كان يفعل أكثر من ذلك ؟ إن الخلاصة أن الغرب يمارس هوايته المفضلة وهي أنه يكيل بمكيالين أحدهما له ولأبنائه ، والثاني لأبناء الإماماء من العالم الإسلامى أولاً ومن العالم الثالث أو عالم الجنوب بعد ذلك .

٢ - والأمر الثانى : أن يحال بين المسلمين وبين التعبير عن آرائهم فضلاً عن وصولهم للحكم ، أو عملهم على توجيه الحكم نحو الإسلام كيلا تقع الكارثة ويثور البركان ويتحرك الزلزال ، وتمطر السماء حمماً من همجية الإسلام ووحشية الإسلام ، وتعصب الإسلام وإضماره العداوة بل حربه لليهود والنصارى ، وأخذ الجزية منهم وصفعهم على أفتيتهم ، إذا تركوا على دينهم ولم يكرهوا على دخول الإسلام بالسيف والقهر ومحاكم التفتيش ومؤسسات التبشير بالإسلام وجيوش المستغربين من المسلمين الذين يدرسون حضارة الغرب ليعرفوا كيف يضربونه في مقتل !!!

إن هذه الدعاوى هي السائدة في الغرب عن الإسلام ، كما أنها هي السائدة عند كثير من المسلمين الذين تعلموا في الغرب أو شوهت مناهج التعليم في بلادهم تشويها

غريبا !!! ولهم وللحكام في كثير من بلدان العالم الإسلامي وسائل يحققون بها هذا الهدف ، نذكر منها ما يلي :

أ - تشويه الإسلام تشويها علميا بأقلام المستشرقين باسم الموضوعية والحيادية ودوائر المعارف الإسلامية التي يكتبونها عن الإسلام والكتب الموسعة الجامعة^(١) .

ب - وتشويه الإسلام بأقلام بعض المسلمين الغافلين أو الواعين ابتداء من على عبد الرازق ومرورا بما لا أحب أن أسمى وانتهاء بسلمان رشدي ومتسلق آخر لا يزال طرى العظم ولكنه يتناول على كتاب الله وعلى الخطاب القرآني أو الإسلامي !!!

ج - وصف الإسلاميين بأوصاف واردة من الغرب مثل : الأصولية الإسلامية ، والتطرف الإسلامي ، والإرهاب الإسلامي ، ومحاولة الوصول إلى الحكم !!! ومعاداة الأجانب والسائحين ، والجماعات الإسلامية الرجعية التي تسرق الذهب وتقتل الآمنين من الناس على المقاهي وتختبئ في مزارع القصب والذرة ، والإرهاب المصدر من إيران والسودان وباكستان ، وبلاد تركب الأفيال وتلبس الأسمال .

ويعلم الله أن كل تلك التسميات وجميع هذه النعوت يبرأ منها الإسلام ويبرأ منها كل مسلم ولكن من يسمع ومن يدري ؟ مادام أبناء العمومة من اليهود في أمريكا قد ردّدوا هذه الكلمات فلا بد أنها صحيحة !!! وهل يعقل أن نشك في علمهم بالإسلام وموضوعيتهم وحرصهم على أن لا تروغ الشعوب الإسلامية بتطرف المسلمين وإرهابهم !!!

د - شن الهجمات على الحركات الإسلامية وتشويهها بصورة دورية مستمرة تستغل فيها كل وسائل الإعلام وأجهزته لتنفير الناس من الإسلام ومن الحركات الإسلامية ، وما أشك أن هناك جوائز أدبية وربما مادية ترصد كل حين لمن يشوه أكثر من أخيه ، ولمن يزيد حد الافتراء والكذب والتضليل عنده عن أخيه أما الجوائز الأدبية فيشدها القاصي والداني بتوسيد هؤلاء المشبوهين أعلى المناصب ومنحهم أسمى النياشين

١ - سنذكر طرفا من ذلك في هذا المدخل إذا أذن الله .

التقديرية والتشجيعية ، وأما الجوائز المادية فلا ندرى عنها أكثر مما تجلبه عليهم مناصبهم من مكاسب تبلغ الملايين أحيانا ... وأستطيع أن أضع اختبارا يخوضه من أراد وسمحت له نفسه بذلك ، وهو أن يؤلف كتابا يتهجم على الإسلام والقرآن والنبى ﷺ ، ويزرى فيه بالخطاب القرآنى ويشيد بفقد الثقة فى السنة النبوية ، يسمى القيم الإسلامية بالغيبات والظلاميات والسحر والشعوذة ، ينتظر قليلا ... وعندها تنهال عليه شهادات التقدير والتشجيع ويصبح علما فى الفكر والأدب والثقافة ويمنح جوائز عالمية ، فإن تصدى له أحد فهده حتمه الشرطة بجيش جرار^(١) ووصف مهددوه بالرجعية والتعصب وعداوة حرية الرأى !!!

من أراد الدنيا وزينتها فليفعل فسوف ينالها بكل تأكيد ، وشواهدى على صحة هذا الاختبار عشرات بل مئات من النكرات العلمية والأدبية والفكرية والفنية نالت هذه المكانة بتهجمها على الإسلام ، ابتداء من تركيا عقيب إسقاط الخلافة فيها ومرورا بكل البلاد الإسلامية فى الشرق والغرب ، ولا يزال العرض السخى مستمرا ... !!! وبعد فتلك كلمات فى النفوذ الغربى الصليبي على العالم الإسلامى يدركها أدنى الناس تأملا فيما يحيط بالعالم الإسلامى وأقلهم ذكاء ، وأزهدهم رغبة فى متابعة المخططات الغربية لضرب العالم الإسلامى ، فما بالك بمن كانوا فوق هذا المستوى من الإدراك ؟

ولم يعد هناك شك فى أنه قد أصبح من المسلمات فى الغرب بعد استعمال مصطلح : « النظام العالمى الجديد » وبعد انهيار ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى أن حملات ضارية تشن اليوم على الإسلام بوصفه العدو البديل الذى يشغل الغرب ، كما صرح بذلك أكثر من رئيس غربى ، ولم يعد هناك شك فى أن حملات ضارية تستهدف ضرب الإسلام ومنعه من أداء وظيفته الأساسية ، وهى تربية الناس تربية إسلامية صحيحة ، تنمى شخصياتهم تنمية صحيحة روحيا وعقليا وبدنيا واجتماعيا وجماليا ، وتولد فيهم الولاء لله والاعتزاز بالانتماء للإسلام والالتزام بكل ما دعا إليه الإسلام من

١ - هكذا فعلت إنجلترا مع سلمان رشدى ، وهكذا تفعل وسائل الإعلام مع كل من كان مثل سلمان رشدى - والعرض مستمر .

أحكام وأخلاق وآداب ، مع الغيرة الوطنية على أوطانهم وعلى أوطان العالم الإسلامى أن تدنس باعتداء أو تخضع لتبعية منظورة أو غير منظورة ، لينطلق الناس بهذه التربية يحيون حياة إنسانية كريمة تليق بتكريم الله للإنسان ، تشق طريقها بالإيمان والعلم والعمل والجد والإتقان ، وتتخذ ميدانها النفس الإنسانية والأسرة والمجتمع والأمة والعالم العربى والعالم الإسلامى والعالم كله ، ليحضى الركب نحو العدل والإحسان والشورى وهى أبرز حقوق الإنسان مسلما كان أو غير مسلم .

ما من شك فى أن الغرب ومن يوالونه من حكومات فى العالم الإسلامى يحاولون بين المسلمين وبين أداء هذه الوظائف ، ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ثانيا : أهداف الصليبيين الجدد من تحدى الإسلام وحره

للغربيين أهداف عديدة من وراء تحدى الإسلام وحره ومنعه من تحقيق أهدافه أو أداء وظائفه .

غير أننا لا نستطيع في هذا المدخل أن نرصد كل الأهداف ، فنكتفي بالأهداف العامة أو ببعضها ، تاركين التفصيل لمن هم أكثر قدرة منا على ذلك ، ومن هم في فسحة من أوقاتهم ، آملين أن يصدر كتاب مستقل في رصد هذه الأهداف وحصرها ، لنا أو لغيرنا من المشغولين بالدعوة الإسلامية .

ومن هذه الأهداف الكبرى التي أرصد بعضها هنا ما يلي :

أ - تجريد تشويه الغرب للإسلام بعد أن تناول الزمن بحركة التشويه أو حركات التشويه السابقة .

فلقد كانت حركات التشويه السابقة للإسلام تعتمد على ركائز أهمها :

● اتهام القرآن الكريم بأنه من صنع محمد ، مما دأبوا أن يسموه : « بشرية القرآن » .

● واتهام القرآن والإسلام بأنه دين محلي أو إقليمي أو جاء لعرب الجاهلية وحدهم .

● واتهام القرآن بأنه تلفيق من الكتب السابقة .

● واتهام القرآن وهو يتحدث عن عالم الغيب بأنه كتاب أساطير وخرافات .

● واتهام الرسول محمد ﷺ بأنه لفق القرآن من الكتب السابقة التي كان يعرفها

- في زعمهم -

● واتهام محمد ﷺ بأنه كان يصاب بنوبات من الصرع ، فإذا أفاق منها قال : إنه وحى أوحاه الله إلى .

● واتهامه ﷺ بأنه كان شهوانيا مزواجا لا يرى امرأة تحسن في عينه إلا تزوجها .

● واتهام كبار الصحابة بالاستبداد ، والتعصب والبداوة والجهل .

- واتهام مشاهير علماء المسلمين بالنقل أو السرقة من اليونان والروم والفرس وغيرهم .
- واتهام كبار المصلحين والمجددين المسلمين والقادة والفاحين بأنهم كانوا ينشرون الإسلام بالسيف والإكراه .
- واتهام الإسلام بأنه يرمى العبودية والرق ويحافظ عليها .
- واتهام المنهج الإسلامي في الحياة بأنه ضد المرأة وضد حرياتنا وحقوقها .
- أما تجديد حملات التشويه للإسلام ، فقد اعتمد كثيرا من تلك الركائز التي ذكرنا ثم زاد عليها ما يلي :
- التشكيك في صحة نقل القرآن إلينا عبر الأجيال .
- وترديد القول بأن الخطاب القرآني موقوف بمن نزل عليهم .
- واتهام الإسلام بأنه دين روجي لا علاقة له بشئون الدنيا وتنظيم سياستها .
- واتهام النبي ﷺ بأنه لم ينشئ حكومة في المدينة وإنما كان هو النبي المسموع الكلمة بحكم النبوة وكفى .
- ووصف المنافقين في المدينة بأنهم حزب المعارضة الإسلامي - جريا على ما ألفوا من حزب حاكم وحزب معارض -
- واتهام الإسلام بأن التمسك به هو سبب تخلف المسلمين وتراجعهم الحضارى وضعفهم وفسادهم .
- واتهام الإسلام بأنه يكره الأديان الأخرى ويجبر الناس على الدخول فيه أو القتل .
- واتهام الأحكام الشرعية في الحدود والقصاص بالوحشية والقسوة وإبادة الإنسان أو تشويهه .
- واتهام الأخلاق الإسلامية بأنها حجر على الحرية الشخصية وافتتات على الإرادة الإنسانية .

- واتهام العقلية العربية بالسطحية والسذاجة والعجز عن النظرة الشاملة العميقة .
- واتهام اللغة العربية الفصحى بأنها صعبة ، وبأنها السبب في تخلف المسلمين .
- واتهام المسلمين بالقذارة والتخلف والشهوانية .

وهم في كل هذه الحملات التشويهية لا يستندون إلا إلى أوهى الأدلة وأضعف الحجج والأسانيد ، ويخلطون دائما بين خطأ بعض المسلمين والإسلام ، وقد رد العلماء على هذه التهم وأمثالها بما لا نجد أنفسنا بحاجة إلى إعادته أو التذكير به .

غير أن حملات التشويه الجديدة تستهدف تنفير المسلمين عن الإسلام والتمسك به . بحيث يصبح الإسلام ومنهجه ونظامه بعيدا عن حياة المسلمين والتحكم به وإليه ، لتخلو الساحة للنظم الغربية المعادية ، وذلك عزل للإسلام عقيدته وعباداته ومعاملاته - وهي ثوابت فيه - عن الممارسة العملية في الحياة ، ووصف الإسلام ومنهجه «بالغيبات والظلاميات» . والأفكار التلغيفية الأسطورية السحرية ، والسرادية التي يمارسها المهووسون والواهمون سقط متاع الفكر الإنساني» كما يردد ذلك بعض المتنورين العقلاء المعتزين بعروبهم وإسلامهم المتصدرين للكتابة في الصحف العربية في البلاد المسلمة ، الذين كفروا بالعروبة والإسلام لأن مجرما لا يمكن أن يحسب على الإسلام ويستحيل أن يقره الإسلام على عدوانه على الكويت وأهله ، الذين هالهم أن يجرمهم صدام من التمتع بأموال النفط في علب الليل في أوروبا وأمريكا وتايلاند وسنغافورة ، وأصبح الغرب والأمريكان أحب إليهم وأقرب إلى نفوسهم من العروبة والإسلام^(١) !!! .

ولن نخسر العروبة ولا الإسلام شيئا وقد تجرد منهما هؤلاء المارقون شاربو الخمر ولاعبو الميسر ورواد علب الليل ، الخارجون من عروبهم وإسلامهم بما يقولون لا بما ندينهم به من مواقف نعرفها ويعرفونها كما يعرفون أبناءهم .

إنهم يركزون اليوم على الربط بين الإسلام والإرهاب والتطرف والرجعية والتخلف ومعاداة الديمقراطية والحريات والعدالة ، فضلا عن إصرارهم على تشويه عقيدة الإسلام

١ - نشر هذا الكلام بين علامتى التنصيص في جريدة الأنباء الكويتية ، وينشر أمثاله في صحف كثيرة في العالم العربى !!!

وشريعته وقيمه الأخلاقية .

ومن وراء هذا التشويه - كما ذكرنا - عزل الإسلام عن المسلمين وعن الحياة نفسها ، بعد نجاحهم إلى حد كبير في عزل المسلمين عن الإسلام .

« ولقد تكشف حملات الغرب المشوهة للإسلام بصورة حادة ، فشنت الحملات في الصحف والإذاعات والمحطات التلفزيونية ومراكز توجيه وقياس الرأي العام ، بل وفي المدارس والجامعات ضد الإسلام والمسلمين ، ابتداء من « واشنطن » العاصمة الأمريكية ، ومرورا « بباريس ولندن » ونهاية « بمانيلا » في الفلبين ومرورا « برانجون » في بورما »^(١) .

وليس ذلك خافيا على أحد ممن يراقبون ما يقوم به الغرب أو صليبيو الغرب ضد الإسلام والمسلمين على مستوى العالم كله .

ومن الجدير بالذكر والتنويه أن نقول : لم يعد اليوم خافيا على أحد التعاون الوثيق بين الصليبيين الجدد والصهيونية لضرب الإسلام والمسلمين ، إذ المعروف بين الناس أن الصليبيين واليهود بينهم عداوات تقليدية قديمة وأخرى وسيطة وثالثة حديثة ، وكثيرا ما اصطدما ، غير أنهم دائما يتحالفون ويتعاونون ويتقاربون كلما كان العدو المشترك بينهم هو الإسلام والمسلمون .

إن تاريخنا وتاريخهم شاهد صدق على ذلك في عديد من المواقف في التاريخ القديم والوسيط والحديث .

وحسبنا ما يقدمه هذا الكتاب من تحالفهم في فترة الحروب الصليبية على مدى قرنين من الزمان وهم يحاولون الاستيلاء على البلاد التي تفيض بالسمن والعسل ، في حملات صليبية سبعة كما يرى بعض المؤرخين .

وأوضح ما يكون هذا التعاون بين اليهود والصليبيين ماهو واقع اليوم من إنشاء

١ - إبراهيم نافع : الأهرام الصادر في ٢٩ / ٥ / ١٩٩٢ م .

دولة إسرائيل في فلسطين ، ومدها بالمال والسلاح المتطور والخبراء ، والمخزون « الاستراتيجي » للسلاح في إسرائيل ، وأحدث هذا التعاون : ما جاء في لقاء « رابين وكلينتون » في « واشنطن » بأن إسرائيل سوف تقوم بالنيابة عن الغرب - كأَنَّ الغرب بعيد عن المنطقة العربية بنفوذه وقواعده العسكرية - بصد تيار الأصولية الإسلامية عن العالم كله بوصفها هجمة بربرية جائحة لو تركت لقضت على العالم كله - على الرغم من أنها لا تملك من آلات هذا القضاء شيئاً سوى الجنازير والخناجر - !!!.

وذلك نوع من البحث لإسرائيل عن وظيفة بديلة من وظيفتها السابقة التي كانت توهم بمجدواها دول الغرب وهي صد تيار الشيوعية يوم كانت هناك شيوعية .

ومعنى ذلك أن تستمر إسرائيل في التسلط والسيطرة على العالم العربى أولاً والإسلامى ثانياً بأداء هذه الوظيفة التي تحمل إليها من الأسلحة المتطورة والأموال الضخمة والخبراء .

هذا هو التعاون بين الصليبية والصهيونية حديثاً نذكر به وننوه بخطره ، خشية أن ينخدع أحد في نوايا الطرفين !!!

ب - وتصوير الإسلام على أنه الخطر الأكبر الداهم الذي يهدد الغرب وحضارته ، ويوشك أن يقتلع الاستقرار والأمن من العالم كله .

والملاحظ الهام الجدير بالتأمل أن هذه التهمة للإسلام توظف حيث يريد الغرب أن يؤمن مصالحه ومصالح إسرائيل ، كان ذلك منذ زمن بعيد نسبياً ، ونستطيع أن نشير إلى هذه التهمة وتوجيهها لبعض الدول أو الحركات الإسلامية في شكل منتظم دائم لا يمل ولا يهدأ ، ومن ذلك ما نشير إليه فيما يلي :

● منذ زمن باكر نسبياً وجهت تهمة الخطر الإسلامى الداهم إلى دولة الخلافة الإسلامية ، وإلى السلطان عبد الحميد بالتحديد ، لأنه رفض أن يمنح اليهود وطناً في فلسطين - على الرغم من أنهم أغروه بحل مشكلة ديون الدولة - قائلاً لهم : إن فلسطين ليست ملكي حتى أمنحكم إياها .

وظل الغرب ومن ورائه اليهودية يعملون حتى أسقطوا دولة الخلافة بالدسائس واصطناع العملاء والثورات والانقلابات العسكرية ، وتصدر مصطفى كمال - نصف اليهودي-الحكم في دولة كانت تضم العالم الإسلامي معظمه ، ثم فتت الدولة وتقاسمتها دول الغرب ، ووعد « بلفور » وزير خارجية إنجلترا اليهود بوطن لهم في فلسطين التي آلت إلى إنجلترا بعد هذا التفتيت ، وبالفعل عملت إنجلترا في داخل فلسطين التي كانت تحكمها والتي قال قائدهم « مارشال ألني » غداة احتلالها بعد أن دخل بيت المقدس « الآن انتهت الحروب الصليبية » ١٩١٧م^(١) .

● ووجهت هذه التهمة حديثا لإيران ، لأن ثورة إسلامية قامت بها عقب نظام حكم الشاه الذي كان حليفا أو عميلا للغرب . وذلك خشية أن تهدد إيران أمن إسرائيل من جانب أو تتحدى مصالح الغرب من جانب آخر .

وأغرى بها الغرب العراق في لعبة سياسية بارعة أنهكت إيران والعراق عسكريا واقتصاديا ، حيث طالت الحرب تسع سنوات ، واستطاعت أن تجهز على جيشين كبيرين ربما يهددان أمن إسرائيل ، وراجت سوق السلاح وجنى الغرب أحلى الثمرات ، ولحق الغاشم الجهول صدام العراق جراحه ، وما فتىء أن أعاد تسليح جيشه بأموال دول الخليج التي دعمته بأمر الغرب ، فكان أن أغروه ثانية - وهو غبي لا يعي - بأن يشن حربا على الكويت في قصة محبوكة ، أدت في نهايتها إلى أن يتعضد نفوذ الغرب في العالم العربي وأن تبني أمريكا القواعد العسكرية في دول الخليج وأن توقع معاهدات واتفاقات عسكرية مع الكويت وبعض دول الخليج وأن تجنى من وراء ذلك أموالا طائلة أعدت منها على إسرائيل أموالا وسلاحا واتفاقية « استراتيجية » !!!

● ووجهت هذه التهمة للحكومة باكستان مظنة أن تكون قد ملكت قبلة ذرية ، فأغرت بها الهند تشن عليها حربا راح ضحيتها ألوف وألوف .

ولأن باكستان دولة أنشئت على أساس إسلامي فلا بد أن تفتت وأن تنفصل عنها

١ - ومكت بريطانيا لليهود في فلسطين بتدرج حتى استطاعت أن تقيم دولة سنة ١٩٤٨م .

« بانجلادش » وتتوالى عليها الانقلابات العسكرية ويلوثها الحكم الشيوعي فترة ليست بالقصيرة وتعج بالاعتقالات السياسية ، وتستثار مسألة كشمير ما بين آن وآخر ، كل ذلك لأن باكستان دولة مسلمة يظن أنها تملك أسلحة نووية ، ولا أنسى أبدا أن إسرائيل صرحت مرة بأن ضرب باكستان تأمين لها ، وسمت ذلك ضربة وقائية لحماية الديمقراطية من همجية الإسلام والمسلمين وخطرهم الداهم الذى يهدد اليهود والغرب وحضارته وحقوق الإنسان !!! .

● وتوجه التهمة اليوم إلى حكومة السودان ، ويزعم أنها حكومة إرهابية ترعى الإرهاب وتصدره إلى جاراتها ، وتغتال حقوق الإنسان ، وتتسبب في مجاعة لأهل الجنوب المتمردين ضدها !!!

وأكبر التهم أن رئيس إيران زارها !!!

وفي كل حين يكتب تقرير من المخابرات الأمريكية يتضمن أن حكومة السودان تنتهك حقوق الإنسان وتهدد الأمن العالمى بالإسلام وشريعته ، ويقترح لها أن توجه إليها الجيوش الدولية التابعة لهيئة الأمم أو للنظام العالمى الجديد « أمريكا والغرب » ويسلط عليها معارضون يعيشون في الغرب ويفكرون بعقليته تستضيفهم الإذاعة البريطانية ليقولوا فيها ما يفضح نواياهم ويكشف خباياهم ، ويحدد ولاءهم للغرب أكثر مما يوالون دينهم ووطنهم !!!

● وقال القذافي أخيرا إنه سيطبق الشريعة الإسلامية في ليبيا ، فالويل له ثم الويل والثبور وعظائم الأمور ، لقد صنف إرهابيا وقطعت عنه المواصلات الجوية ، والآن قد يصنف إسلاميا فتقطع شرايين ليبيا من النفط ، فليترقب ولينتظر ، وسوف تتفرج عليه الدول العربية ودول المغرب ، وتشارك في حصاره أو حربه كما تفعل الآن في إيقاف رحلاتها الجوية إلى ليبيا !!!

يا سبحان ربي العظيم ، ليبيا التى تحدث الحركة الإسلامية في داخلها بكل ما أوتيت ، تصنف خطرا إسلاميا يهدد الغرب وحضارته !!! اللهم إنا نسألك أن يكون ذلك صحيحا وليس من قبيل المناورات السياسية التى أشبعنا منها القذافي ، وأشبعنا منها

● ووجهت هذه التهمة الخطر الإسلامى الداهم على الغرب وحضارته إلى هيئة « الإخوان المسلمون » كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة ، فلماذا وجهت إليها هذه التهمة وطولب العالم وحكومات العالمين العربى والإسلامى بالتصدى لها وحربها والقضاء عليها ، ولماذا تحمس لذلك الغرب كله وبخاصة إنجلترا وأمريكا ؟

إن ذلك كان للأسباب التالية :

- أنها كونت جماعات من المجاهدين ذهبت إلى فلسطين تحارب اليهود وأبليت هناك بلاء حسنا ، فكيف يسكتون عنها ؟ .

لقد قامت الحكومة المصرية تقبض على المجاهدين ضد اليهود وهم فى طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد أن فرض الغرب الهدنة على العرب السذج آنذاك .

- وأنها أزعجت بريطانيا العظمى أثناء الحرب العالمية الثانية فطالبت الحكومة المصرية أكثر من مرة بالبطش بها والقضاء عليها ومنع مؤسسها من أن يرشح نفسه لعضوية مجلس النواب .

- وأنها حاربت الإنجليز المحتلين لأرض مصر فى قناة السويس قبل أن يفكر فى ذلك أحد ، وقبل الانقلاب العسكرى فى مصر سنة ١٩٥٢م .

- وأنها تصدت لكل حكومة لم تطبق الشريعة الإسلامية فى حكمها ، ولم تبال ما تعرضت له فى سبيل ذلك من محن وأهوال وقتل وتعذيب وتشريد ومصادرة للأموال وهتك للأعراض ، فى صورة وحشية لم يعرف تاريخ النضال السياسى نظيرا لها ، ولم تمارس مثله حكومة مع مواطنيها فى تاريخ العالم العربى .

- وأنها فهمت الإسلام وأفهمته لغيرها فى معناه الشامل المتكامل الذى ينظم مختلف شئون الحياة سواء منها ما كان عقيديا أو عباديا أو أخلاقيا أو فى التعامل مع الناس ، وسواء منها ما كان اجتماعيا أو سياسيا أو اقتصاديا أو فكريا أو ثقافيا ، إن هذا المفهوم

الشامل للإسلام كان قد ضاع أو انكمش بفعل القوى المعادية للإسلام من شرق وغرب ، وكان لابد من حركة إحياء لهذا المفهوم فتولت ذلك جماعة الإخوان المسلمين .
- وأنها بثت الوعي في الناس نحو أوطانهم ونحو الوطن العربي والوطن الإسلامي ونحو الأقليات المسلمة ، وعملت ما في وسعها ودعت غيرها إلى العمل على تحرير هذه الأوطان كلها من كل سلطان أجنبي .

- وأنها وأنها مما معروف ومسطور في قانونها الأساسي الذي كتب سنة ١٩٣١م فكيف لا تحارب ؟ وكيف لا تشن عليها حملات التشويه والتنفير ما بين آن وآخر ؟

• ووجهت هذه التهم إلى الجماعة الإسلامية بباكستان . وحوكم المودودي وحكم عليه بالإعدام وخفف الحكم، وروعت الجماعة وصودر نشاطها وضيق على رجالها لأنها فهمت الإسلام فهما صحيحا وعملت على مقاومة الاحتلال الإنجليزي في الهند ، منذ نشأتها الأولى سنة ١٩٤١م في لاهور بالهند واستمرت في كشف تضليل الإنجليز للمسلمين عن الإسلام ومحاولتهم عزلهم عنه .

ولقد كان مؤسس الجماعة « المودودي » داعية إسلاميا يُحتذى في فكره وعمله وتصديه للانحراف عن الإسلام مثل كتابته عن فضح القاديانية ، وتصديه لمفتريات غاندي عن الإسلام ، وردده على من أنكروا حجية السنة النبوية المطهرة ، وعلى من قالوا بإغلاق باب الاجتهاد ، وكانت للجماعة مواقف سياسية ضد سياسة الإنجليز ضد الهند وأطماعها في باكستان بعدوانها عليها سنة ١٩٦٥م وضد وحشية الهند في كشمير وغيرها .

إنهم يصورون الإسلام والعاملين من أجل الإسلام والجمعيات الإسلامية على أن ذلك كله خطر داهم يهدد حضارة الغرب ونفوذ الغرب في العالم الإسلامي ، عاملين جادين للقضاء على كل حركة إسلامية أو صحوة إسلامية أو حتى حركة إحياء علمي ، لكي تخلو الساحة لهم ولقيمهم وحضارتهم التي لا تتفق مع ديننا من جانب ، ولم تثبت كفاءتها في بلادها هي من جانب آخر ، فهي الحضارة التي جرّت على العالم حربين

عالميتين حركتهما الأطماع غير المشروعة في بلدان الآخرين ، يوهى حضارة لها معطيات تتناقض مع معظم القيم الخلقية في كل دين ، فمن معطياتها الربا وإباحة شرب الخمر وإباحة الزنا والشذوذ الجنسي ، كل ذلك من معطياتها بنصوص القوانين أو بالأعراف السائدة .

إن الحضارة التي تكيل بمكيالين وتزن بميزانين وتُصلى العالم كله وفي صورة مستمرة حربا باردة لا يراد لها أن تنتهى ، وحربا ساخنة تصطنعها لتبيع السلاح ، إنها الحضارة التي تكيل دول العالم الثالث بالديون وفوائدها العالية واحتكار زراعة القمح واحتكار نفط الآخرين وبخاصة دول العالم العربى النفطية ، واحتكار صناعة السلاح ، واحتكار هيئة الأمم ، واحتكار النظام العالمى الجديد ، واحتكار حق الاعتراض أو الرفض - الفيتو - لكل قرار يصدر من المنظمة الدولية لا يرضى هواها أو يدين إسرائيل بحجة أنه قرار غير متوازن !!!

إنهم يحاربون أى نظام حكم يتخذ من الإسلام منهجاً ومن شريعته قانوناً ، ويمنعونه بكل ما أوتوا من قوة من ممارسة الحكم بالإسلام في ظل ظروف عادية ، حتى لا تتاح للنظام الإسلامى فرصة النجاح في أى مكان .
ولعل حصار نظام الحكم في السودان وفي إيران أكبر شاهد على ذلك ، إن التهم تكال جزافا لهذين النظامين وإن جميع العقبات والمصاعب السياسية والاقتصادية والدولية تكس في طريق هاتين الدولتين ، إنها حملة تشويه واتهامات وكراهية لكل ما هو إسلامى .

ولست أستبعد بحكم المشاهدات والاستقراء للأحداث أن تغرى دول عربية أو مسلمة بالدخول مع إيران والسودان في حرب ، ثم تأتى جيوش النظام العالمى الجديد لتجتاح إيران والسودان كما فعلت بالعراق !!!
إنهم يسرون في هذا الطريق ، ولن يعجزوا أن يجدوا من يعينهم على ذلك ، ومن يبرره لهم .

ج - والسيطرة على المقدرات الاقتصادية للعالم الإسلامى ، وربما كان ذلك هو أهم أهدافهم من تحدى الإسلام والمسلمين .

وهذه المقدرات الاقتصادية في العالم الإسلامى هى : في اختصار شديد ما يغييه عن الغرب من القمح والسكر وسائر المحاصيل الزراعية ، والثروة الحيوانية ، وأخيرا المياه العذبة ، بحيث يظل العالم الإسلامى في حاجة إلى الغرب حاجة مادية ليعيش بالتالي في ذلة وعجز من أن يقوم بأمر نفسه في هذه الضروريات الحياتية ، فضلا عن السلاح الذي يقاوم عدوا معتديا .

إن سياسة الغرب هى أن تمنع العالم الإسلامى بكل الوسائل الظاهر منها والخفى من أن ينتج ما يكفيه أو يجعله غير محتاج للغرب ، وحلقات هذه السياسة أصبحت معروفة مكشوفة النوايا واضحة الأهداف ، بحيث تسعى في طريق مراحلها أو الخطوات فيه على النحو التالى :

● خبراء على مستوى عال ينصحون بالكف عن زراعة القمح لأسباب علمية واقتصادية وفنية - وما شاءوا من مبررات كاذبة ، وعن زراعة القطن وقصب السكر مثلا

ونصائح مماثلة في الثروة الحيوانية والسمكية

ونصائح مماثلة في الصناعة ثقيلها وخفيفها

ونصائح في تقليل عدد المواليد لكي لا تجد أدوات الإنتاج إن وجدت من يديرها ..

ونصائح في أن الصناعات التجميعية هى البداية وهى النهاية ، فنحن في مصر مثلا

بدأنا نهضتنا في أخريات القرن التاسع عشر - مع اليابان - ولكننا حتى الآن لا ننتج محركا لسيارة أو غيرها إنتاجا كاملا !!!

● والخطوة الثانية أن يبيع الغرب لنا ما نحن بحاجة إليه في العالم الإسلامى ونتيجة

لنصائح المخلصين فنحن في حاجة إلى كل شيء ، فليبيعوا لنا كل شيء بالسعر الذى يريدون والفائدة التى يقررون ، مع التفضل والإنعام .

● والخطوة الثالثة أن يستوفوا ديونهم وفوائدها من دول تعجز عن ذلك فتأتى التبعية وفرض الآراء فى السياسة والاقتصاد والنظم الاجتماعية ، حتى يبلغ بهم التبحر أن يقولوا للبلدان الإسلامية لا تنجبوا أبناء لأن ذلك يثقل كاهلنا فى إطعامهم لأننا الذين نورد إليكم القمح والسكر ، وقيمون فى معظم بلدان العالم الإسلامى مراكز لتنظيم النسل أو تحديده ، أما عندهم فيشجعون على زيادة النسل ويمنحون العلاوات الاجتماعية !!!

● والخطوة الرابعة أن تفقد معظم الدول الإسلامية القدرة على اتخاذ القرار ، وتنتظر الإذن لها ممن يعطيها القمح أو يحرمها من الطعام والشراب ، ومع فقد القدرة على اتخاذ القرار تأخذ الأمة فى التراجع الحضارى عموما والتخلف الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافى فضلا عن العلمى والتقنى .

● والخطوة التالية أن يقولوا هذا هو الإسلام وهؤلاء هم المسلمون يعيشون حالة على الغرب ولولا الغرب لجاعوا ، ومع ذلك يتشبث الإسلاميون بالإسلام !!! وتنطلى الخدعة على الحكام معظمهم وعلى الكتاب والمفكرين وعلى أجهزة الإعلام ووسائله ، فتسيل وسائل الإعلام وأجهزته بحاراً من السم تهاجم الإسلام سبب التخلف وتستعدى الحكام وأجهزة الأمن على كل ما هو إسلامى .

- ولقد حاولت بعض البلاد الإسلامية أن تنعتق من هذا الأسر وأن تنطلق فى تحقيق الاكتفاء الذاتى فى حاجاتها الأولية ، فكانت العقبات والعراقيل التى بثها الغرب فى الطريق ، لقد حاولت ذلك مصر منذ أيام محمد على باشا ، ولكن دول الغرب حالت بينها وبين ذلك ، وبخاصة أن محمد على حاول فى الصناعات الحربية كصناعة السفن والأدوات العسكرية فأجهضت محاولاته بإجماع غربي ، وظلوا بمصر حتى أوقعوها فى الديون ثم فى الاحتلال العسكرى ١٨٨٢م الذى قام به الإنجليز ، وظلوا محتلين لها أكثر من سبعين عاما حتى رحلوا باتفاقية جائرة على مصر سنة ١٩٥٦م ، ومع هذه المحاولات الجادة من محمد على فقد جاء الانقلاب العسكرى سنة ١٩٥٢م ليحول « محمد على » إلى خائن كان يعمل لصالح نفسه !!! ويجد من مزورى التاريخ ومنافقى الحكام من

يشوهون تاريخ هذا الرجل تشويها .

- وحاولت ذلك باكستان بعد إنشائها لتضم مسلمى شبه القارة الهندية معظمهم ،
وتصدت لها دول الغرب مجتمعة تستعدى عليها الهند عام ١٩٦٥م فى حرب ضارية
ظالمة ، وتفصل عنها « بنجلادش » فى عمل خيائى لوحدة الأمة سريعا ما تجاوزت معه
واعترفت به وكرسته دول الغرب وتابعتها فى ذلك معظم دول العالم الإسلامى التابعة
للغرب التى تسلم زمام أمرها إليه فى الخبز والزبد والسلاح !!!

وقامت قيامة الغرب ولم تقعد لأن باكستان قد تملك قنبلة ذرية ، وصنفت منذ
ذلك دولة إرهابية ترعى الإرهاب وتساند المتطرفين من المسلمين .

- وأجهضت فى أندونيسيا محاولات مماثلة ، ولا تزال أندونيسيا ذات الثلاث
عشرة ألف وستائة وسبع وسبعين جزيرة ١٣٦٧٧ ، وما يقرب من مائتى مليون نسمة ،
خاضعة لنفوذ هولندا ذات الأحد عشر مليوناً من البشر !!!
وبعد :

فهذه الأهداف الثلاثة مترابطة يؤدى بعضها إلى بعض ، فتشويه الإسلام يؤدى
إلى عزله وعزل الناس ، وإذا عزل الإسلام عن الناس وعزل الناس عن الإسلام ، سهل
تصويره على أنه خطر داهم يهدد حضارة الغرب ولم يجد من يدفع عنه هذه التهمة ،
وضرب هنا وهناك باستعداد أكبر عدد من الأعداء عليه ، وهذا وذاك يمهدان للسيطرة
الغربية على مقدرات العالم الإسلامى .

وهذه الأهداف الثلاثة أوضح الأهداف وأبرزها ، لكنها ليست هى وحدها
بالقطع ، إذ هناك عشرات الأهداف سواها مما لا يتسع المجال لها هنا فى هذا المدخل ،
لكننا نستطيع أن نشير فى إجمالها إلى أهداف أخرى جاءت فى مقررات مؤتمر لكونو بالهند
الذى عقد سنة ١٩١١م ومنها على سبيل المثال :

١ - النظر فى حركة الجامعة الإسلامية ، ومقاصدها وطرقها .

٢ - والتأليف بين حركة الجامعة الإسلامية وتنصير المسلمين .

- ٣ - والنظر في الانقلابات السياسية في العالم الإسلامي .
 - ٤ - وعلاقة هذه الانقلابات بالإسلام ومراكز التبشير .
 - ٥ - وموقف الحكومات من إرساليات التبشير .
 - ٦ - والإسلام ووسائل منع اتساع نطاقه بين الشعوب الوثنية .
 - ٧ - وتربية المبشرين على ممارسة تبشير المسلمين .
 - ٨ - وتأليف الكتب للمبشرين لمعاونتهم على تبشير المسلمين .
 - ٩ - وتأليف الكتب للقراء المسلمين لتشجيعهم على الدخول في النصرانية .
 - ١٠ - والتركيز على حركات الإصلاح الديني والاجتماعي .
 - ١١ - والارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات .
 - ١٢ - والتركيز على الأعمال النسائية عموما .
 - ١٣ - وتقرير المال اللازم للمطبوعات والمنشورات .
 - ١٤ - واتخاذ القرارات العملية في تبشير المسلمين والمسلمات .
 - ١٥ - وتوصية حكومات الغرب - إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وهولندا ، وأمريكا - بتيسير مهمة مراكز التبشير وأعمال المبشرين .
- ولكن ذلك كله لا يمثل سوى بعض الأهداف ، أما سائر الأهداف فلا يمكن حصرها ولكن يمكن معرفة غايتها وهي : « القضاء على الإسلام والمسلمين » ولقد عبر عن ذلك المستشرق ليون كاتيانسي (١٨٦٩ - ١٩٢٦ م) في مقدمة كتابه : « حوليات الإسلام » الذي أنفق فيه أموالا طائلة وجهودا هائلة ، حيث قال في مقدمته : إنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك « سير المصيبة الإسلامية » ، التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد (ﷺ) ويؤمنون به نبيا ورسولا .
- فما وسائل الغرب في تحقيق هذه الأهداف ؟ ذلك ما نحاول أن نوضحه في الصفحات التالية والله ولي التوفيق .

ثالثا : وسائل الغرب الصليبي في حربه للإسلام والمسلمين

الغرب بما له من نفوذ منظور أو غير منظور في بلدان العالم الإسلامي ، وبما له من قوة في وسائل الحرب وتقدم هائل في مجال التخابر والتجسس والرصد الدقيق ، استطاع أن يتخذ وسائل كثيرة مكنته من أن ينجح في حربه الصليبية ضد العالم الإسلامي المعاصر .

وتكاد هذه الوسائل لا تحصى من كثرتها وتعددتها ، ومادام الغرب قد حدد أهدافه على نحو ما سردنا آنفا فقد سهل عليه اتخاذ الوسائل العديدة التي ذكرنا منها اثنتي عشرة وسيلة فقط هي التي يتسع لها هذا المدخل ، وهذه الوسائل هي :

- ١ - الاستشراق ، وكتب المستشرقين المعادية للإسلام .
- ٢ - التبشير ومؤسساته وأعماله .
- ٣ - المؤتمرات ومقرراتها .
- ٤ - الندوات وقضاياها .
- ٥ - المجالات الموجهة ضد الإسلام .
- ٦ - الجمعيات المعادية للإسلام .
- ٧ - التعليم والثقافة والفنون .
- ٨ - واصطناع الخلافات بين الدول الإسلامية .
- ٩ - واصطناع الحروب بين البلدان الإسلامية .
- ١٠ - واتهام بعض الدول الإسلامية بالإرهاب .
- ١١ - وتجهيف منابع العمل الإسلامي الحديث .
- ١٢ - وضرب الحركات الإسلامية في كل مكان توجد فيه .

وسنحاول أن نلقى ضوءا على كل وسيلة من هذه الوسائل ، فنهي بذلك حديثنا في هذا المدخل بإذن الله تعالى ،

١ - الاستشراق وكتب المستشرقين المعادية للإسلام

الاستشراق حركة تأخذ الطابع العلمى ، يقوم بها باحثون غربيون غير مسلمين ، وتتسع هذه الحركة لتشمل الدراسات ، العربية والإسلامية أولا ثم الدراسات المتعلقة بالعلوم العربية والإسلامية بعد ذلك ويدخلون فيها العادات والتقاليد والموروثات فى الشرق الإسلامى كله .

وقد تحرك الغرب للدراسات الشرقية بعد الصراع الذى دار بين المسلمين والغربيين فى المجالات التالية :

أ - الحروب التى دارت بين المسلمين والإسبان فى الأندلس .
ب - والحروب التى دارت بين المسلمين والتحالف الغربى فى مصر والشام وهو موضوع هذا الكتاب .

ج - والصراعات والحروب التى دارت بين دولة الخلافة العثمانية والغرب فى أوروبا نفسها .

د - والصراع الذى دار بين المسلمين والقوى الغربية التى استولت على بلدان العالم الإسلامى بعد إسقاط دولة الخلافة العثمانية .

ولهذا الاستشراق أهداف دينية وأخرى سياسية ، أما الزعم بأن للاستشراق أهدافا علمية لذات العلم بالشرق فأنا أشك كثيرا فى صحة هذا ، فما كان الغربيون لينشئوا مراكز الاستشراق وينفقوا هذه الأموال الطائلة من أجل العلم الذى لا وظيفة له وهم المعروفون بماديتهم ونفعيتهم .

● وأهدافهم الدينية معروفة عند أدنى تصفح لكتبهم ودراساتهم وهى لا تخلو فى مجموعها من ثلاثة أمور :

- البحث عما يظنون أنه نقاط ضعف فى الإسلام بقصد تشويهه كما ذكرنا آنفا .
- والرغبة الملحة فى إخراج المسلمين من الإسلام بمحاولة إدخالهم فى النصرانية الذى يسمونه تبشيرا .

- وإظهار تميز النصرانية عن الإسلام وفضلها عليه .
- وأهدافهم السياسية واضحة كذلك عند أدنى نظر إلى أعمالهم وكتبهم ودراساتهم . ويمكن أن نشير منها إلى ما يلي :
- الاستفادة من هذه الدراسات لبسط نفوذ الغرب على العالم الإسلامى فى صورة احتلال لبلدانه أو وضعه تحت الوصاية أو الحماية أو الانتداب .
- وإضعاف شأن الإسلام والمسلمين ليفقدوا الثقة فى دينهم وفى أنفسهم ، فيسهل عليهم مكافحة الإسلام والتحكم فى بلاد المسلمين .
- ومعاونة الغاصبين المحتلين لبلدان العالم الإسلامى فى الحروب التى شنوها على بعض بلدان العالم الإسلامى ، كموقفهم من الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨م ، واحتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢م .
- ولقد قاموا فى سبيل ذلك بجمع المخطوطات العربية وتحقيقها وطبعها ونشرها ، وترجموا كثيرا منها إلى لغاتهم ، ووضع الفهارس المفصلة ، مما يجعل بعض الغافلين يثنون على هذه الجهود ، ويرونها عملا علميا جليلا ، ونحن نراها عملا علميا موظفا لخدمة أهدافهم التى ذكرنا ، وليس لذات العلم وليس بهذه الموضوعية التى تدعى إلا عند القليلين منهم .
- وسوف أكتفى هنا بذكر بعض أسماء المستشرقين وأسماء كتبهم التى تؤكد عداوتهم للإسلام والمسلمين :
- وقبل أن أسرد أسماءهم وأسماء كتبهم ، فيتصور بعض الناس أنى أتحميل عليهم كما تحاملوا علينا ، أذكر كلمة رجل مستشرق منهم هو المستشرق الألماني : « ستيفان فيلد » وهى كلمة لها دلالتها حيث يقول : « ... والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين ، وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة » .

وقال المستشرق : « رودنسون » : « ... ولم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته ، فاهتموا كثيرا بالأشياء الصغيرة والغريبة ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التي بلغتها أوربا ، ومن ثمَّ كانوا يكرهون النهضة فيه » .

ويقول : ليبولد فايس التمسوى الأوربي الذي هداه الله إلى الإسلام فسمى نفسه محمد أسد يقول في كتابه : « الإسلام على مفترق الطرق » « قد لا تقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقل متزن ومبنى على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يحتل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام ، ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي ، بل على أنه مُتهم يقف أمام قضاة .. وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام وللأمور الإسلامية ، تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقو أوربا ، وليس ذلك قاصرا على بلد دون آخر » .

وهؤلاء هم المستشرقون وتلك هي كتبهم :

١ - د . س . مرجليوث :

وهو مستشرق إنجليزي متصعب ضد الإسلام ، والقرآن ومحمد ﷺ - وكان عضوا بمجمع اللغة العربية بمصر وبالمجمع العلمي بدمشق ، وهو أستاذ لطله حسين الذي نقل عنه التشكيك في الرواية الشفهية في كتابه : في الشعر الجاهلي .

ومرجليوث من محرري دائرة المعارف الإسلامية المليئة بكثير من المغالطات والافتراءات للإسلام .

ومن كتبه الخاقدة :

- محمد ومطلع الإسلام أصدره سنة ١٩٠٥ م .

- الجامعة الإسلامية أصدره سنة ١٩١٢ م .

- والتطورات المبكرة في الإسلام أصدره سنة ١٩١٧ م .

٢ - ١ . ٥ . ١ . نيكلسون :

وهو إنجليزى من أكبر المتعصبين ضد الإسلام ، وبلغ من هذا التعصب أن زعم أن الإسلام دين مادى لا يعنى بالروح ، وهو من محررى دائرة المعارف الإسلامية ، ومن كتبه الخبيثة الهدف :

- متصوفو الإسلام أصدره سنة ١٩١٠ م .

- والتاريخ الأدبى للعرب أصدره ١٩٣٠ م .

٣ - ٥ . ٥ . ب . ماكدونال :

أمريكى شديد التعصب ضد الإسلام والمسلمين ، من محررى دائرة المعارف الإسلامية ، ومن أعضاء المجمع العلمى العربى بدمشق وهو الذى أحيا كتاب « ألف ليلة وليلة » وشجع على درسه ونشره ومن كتبه الخطيرة ضد الإسلام :

- تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام أصدره سنة ١٩٠٣ م .

- والموقف الدينى والحياة في الإسلام صدر عام ١٩٠٨ م .

٤ - هنرى لامنس اليسوعى :

فرنسى الجنسية بلجيكى المولد راهب يسوعى عاش في بيروت وتعلم في جامعة القديس يوسف بها ، وهو كثير الافتراءات على الإسلام ، حتى ضايق بذلك بعض المستشرقين فهاجموه فيما كتبوا في : مجلة الدراسات الشرقية الأمريكية .

ومن كتبه الحاقدة على الإسلام :

- الإسلام في إفريقيا الوسطى صدر عام ١٨٩٧ م .

- والإسلام عقائد ونظم صدر عام ١٩٢٦ م .

- وفي تاريخ الإسلام والإسلاميات .

- وثمانون مقالا في دارة المعارف الإسلامية .

٥ - جولد زهير :

مجرى عرف بعدائه الشديد للإسلام ، وهو من محررى دائرة المعارف الإسلامية ، انتقل إلى سوريا وفيها صحب الشيخ طاهر الجزائري ، ثم إلى فلسطين ثم إلى مصر - وكان يتزياً بزى الأزهرين - ويجلس في حلقات الشيخ محمد عبده .

ومن كتبه الحاقدة على الإسلام :

- الإسلام ألفه بالألمانية سنة ١٨٨١م ثم نقل إلى الفرنسية باسم : العقيدة والشرعية في الإسلام سنة ١٩٢٠م ثم نقله إلى العربية المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى بنفس العنوان .

- ودروس في الإسلام في جزئين كبيرين صدر ١٨٩٠م .

- وتاريخ مذاهب التفسير الإسلامى ١٩١٣م .

- وكتاب مجد المحال ١٩١٠م .

٦ - ١ . ج . أربرى :

إنجليزى متعصب جدا ضد الإسلام والمسلمين ، من محررى دائرة المعارف الإسلامية ، وهو أستاذ لكثير من المصريين الذين درسوا العربية والشرعية الإسلامية في إنجلترا .

ومن كتبه الحاقدة على الإسلام :

- الإسلام اليوم صدر سنة ١٩٤٣م .

- ومقدمة لتاريخ التصوف صدر سنة ١٩٤٧م .

- والتصوف صدر سنة ١٩٥٠م .

- وترجمة القرآن صدر سنة ١٩٥٠م .

٧ - ١ . هـ . ا . ر . جب :

إنجليزى من كبار المستشرقين وحاقدتهم على الإسلام ، كان عضوا بمجمع اللغة

العربية بمصر ، وهو من كبار محررى دائرة المعارف الإسلامية .

ومن كتبه التى تعادى الإسلام :

- المذهب المحمدى صدر عام ١٩٤٧ م .
- والاتجاهات الحديثة فى الإسلام صدر ١٩٤٧ م .
- وطريق الإسلام . ألفه مع آخرين .
- والإسلام والمجتمع الغربى . ألفه مع آخرين وهو كتاب ضخيم فى أجزاء .

٨ - ج . فون . جرونباوم :

ألمانى يهودى شديد الكراهية للإسلام والتعصب ضده عمل مدرسا بعدد من جامعات أمريكا ، فنفس فى محاضراته عن كراهيته للإسلام ، وهو أكثر المستشرقين اعتداء على القيم الإسلامية وتلفيقا فى الحديث عنها .

ومن كتبه الخافدة على الإسلام :

- إسلام العصور الوسطى صدر عام ١٩٤٦ م .
- ومحاولات فى شرع الإسلام المعاصر صدر عام ١٩٤٧ م .
- والأعياد المحمدية صدر عام ١٩٥١ م .
- ودراسات فى تاريخ الثقافة الإسلامية صدر عام ١٩٥٤ م .
- والوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية صدر عام ١٩٥٥ م .
- والإسلام صدر عام ١٩٥٧ م .

ومن أشهر الكتب التى ألفها المستشرقون أو غيرهم ، وهى معادية للإسلام ما نسرد أسماءها فيما يلى :

- ١ - مختارات عن إمرسون : ترجمته إلى العربية اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية وهو يهاجم الإسلام والنبي ﷺ - ولا أدرى لماذا ترجم إلى العربية ؟ .
- ٢ - والعالم الإسلامى اليوم للقس الخاقد على الإسلام : « زويمر » .
- ٣ - ومهد الإسلام لزويمر أيضا .

- ٤ - والشرق الأدنى والشرق الأقصى له أيضا .
- ٥ - وأخواتنا المسلمات له أيضا .
- وكل كتبه حافلة بالمفتريات على الإسلام والمسلمين .
- ٦ - ودراسة في التاريخ لأرنولد توينبي . وبخاصة فيما يتصل بالإسلام .
- ٧ - وقصة الحضارة لول ديورانت . وبخاصة فيما يتصل بالإسلام .
- ومن دوائر المعارف المعادية للإسلام :
- ١ - دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين ترجم منها إلى العربية .
- ٢ - دائرة معارف الدين والأخلاق .
- ٣ - دائرة معارف العلوم الاجتماعية .
- ومن الكتب التبشيرية التي أشار إليها القسيس زويمر في مؤتمر القاهرة التبشيري الذي عقد سنة ١٩٠٦ م . سردا :
- دين الإسلام .
- والشعائر الدينية الإسلامية .
- والإسلام والنصرانية في الهند والشرق الأقصى .
- وصليبيو القرن العشرين .
- ومصر والحروب الصليبية .
- والإسلام في الصين .
- وكلها لمبشرين شاركوا في مؤتمر القاهرة المشار إليه ومن أحدث الكتب :
- التهديد الإسلامي وهم أم حقيقة . لجون سبوزينو أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة الصليب المقدس بأمريكا وقد صدر عام ١٩٩٢ م .
- والإسلام في المغرب صوت الجنوب . لفرانسوا بورجا الفرنسي وقد نقل إلى العربية باسم : الإسلام السياسي صدر عام ١٩٩٢ م .

٢ - التبشير ومؤسساته وأعماله

التبشير مصطلح عندهم يعنى التنصير أى إدخال الناس فى النصرانية وبخاصة المسلمين ، وهى من الكلمات التى تدل عكس دلالتها ، إذ هى لا تحمل إلى الناس بشاره ، وإنما تنقلهم من ضلال إلى ضلال ، أو تخرجهم إن كانوا مسلمين من النور إلى الظلمات .

ويمكن أن نلخص أعمال التبشير والمبشرين فى كلمة قالها رئيس إرساليات التبشير الألمانية فى تقريره عن أعمال هذه الإرساليات الذى قدمه إلى جمعية التبشير الألمانية سنة ١٩٠٠م ، واسم هذا الرئيس « لبيوس » قال : « إنه لا يكفى المناضلة والمناوأة بل يجب حمل السلاح ... إن نار الكفاح بين الصليب والهلل - يقصد الإسلام - لا تتأجج فى البلاد النائية ، ولا فى مستعمراتنا فى آسيا وإفريقيا ، بل ستكون فى المراكز التى يستمد منها الإسلام قوته ويتنشر ، سواء أكان فى إفريقية أم فى آسيا ، وبما أن كل الشعوب الإسلامية تولى وجوها نحو الآستانة عاصمة الخلافة ، فإن كل المجهودات التى نبذلها لا تأتى بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لبانتنا فيها ، ويجب أن يكون جُل ما نتوخاه جمعية إرساليات التبشير الألمانية هو بذل مجهوداتها نحو هذه العاصمة وهى قلب العالم الإسلامى .

ومن كلماته أيضا : « إن الشرق يدعو الغرب لشد أزره ، فجل ما نتوخاه أن نحر الشرق بوساطة المسيح ، ونخلص الكنائس المسيحية من ظلم الإسلام ، ونفتح طريقا للسيد المسيح بإرجاع هذه الكنائس سيرتها الأولى ، هلموا إلى قلب العالم الإسلامى لنحرز فوز الصليب على الهلل » .

والتنصير وسيلة فعالة من وسائل حرب الإسلام والمسلمين ، فإنه يستهدف نقل المسلمين إلى النصرانية ، أكثر من نقل غير المسلمين إليها . والربط بين التنصير والتوجيهات السياسية الصليبية المعادية للإسلام أوضح من أن يحتاج إلى كشف أو تقديم أدلة وبراهين ، فقد جاء ذلك على ألسنتهم كما رأينا فى كلمة المبشر الألمانى التى ذكرناها آنفا ، وكما جاء على لسان ، « شاتليه » إذ يقول : « إن نزع المعتقدات الإسلامية ملازم

دائماً للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية ، والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام - يقصد التقسيم الذي أعقب ضرب دولة الخلافة العثمانية ، بتحالف القوى الصليبية واليهودية على إسقاطها - سيمهد السبيل لأعمال المدنية الأوروبية ، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، وسوق لا يمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية»^(١) .

ويقول مبشر آخر هو « بلس » :

« إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في إفريقيا ، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا »^(٢) ويواصل قائلاً : « إن الملحمة الكبرى بين أوروبا والإسلام ستنتشب في غربي إفريقيا أو شماليها .. »^(٣) .

ويقول مبشر ثالث هو : « وليم جفورد بالجراف » :

متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لا يبعده عنها إلا محمد وكتابه »^(٤) .

وجاء في مؤتمر أدنبرج وتوصياته ما يلي :

« إن ترقى الإسلام الذي يهدد إفريقيا الوسطى ، يجعل الكنيسة تفكر في مسألة دقيقة وهي : هل ينبغي أن تكون القارة السوداء إسلامية أم نصرانية » .

وقالت إحدى لجان هذا المؤتمر :

« ... والمتنصرون عرضة للهلاك في فارس ، وهدف للأخطار في البلاد العثمانية ، والمعضلة الإسلامية في إفريقيا أعقد منها في آسيا ، وكل ما يستطيعه المبشرون هناك هو منافسة المسلمين في التقرب إلى قلوب الوثنيين ليس إلا ، والبلاد التي يدخلها الإنجليز يكون باب التبشير فيها مفتوحاً ، إلا أن أهمية ذلك تقل إذا علم أن سياسية الإنجليز

١ - ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامي ترجمة مساعد الباقي ومحب الدين الخطيب ط منشورات العصر الحديث الثانية ١٣٨٧ هـ .
٢ - السابق : ٣٥ ، ٣٧ .

التي يشكو منها المبشرون مبنية على المجاملة القصوى إلى حد يضر بالمسيحية ، حتى إن الموظف يضطر للخضوع إلى العادات والتقاليد الإسلامية - واعتبار يوم الجمعة راحة ، والاشتغال في يوم الأحد كما هو الحال في مصر والسودان»^(٢) .

وجاء في المجلة السويسرية عن المؤتمر الاستعماري الألماني الذي عقد في سنة ١٩١٠م ما يلي :

« إن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، ولذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح للحكومة زيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة .

والمؤتمر الاستعماري مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطة الحياد تماماً في الشؤون الدينية ، يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية ، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليات التبشير التي تبث مبادئ المدنية خصوصاً ، بخدماتهم التهذيبية والطبية » .

ومن رأى المؤتمر :

أن الخطر الإسلامي يدعو إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ التدابير - من غير تسويق - في كل الأرجاء التي لم يصل إليها الإسلام بعد » .

ويقول القسيس زويمر في مؤتمر لكنو بالهند الذي عقد سنة ١٩١١م وهو مؤتمر تبشيري :

« ... والآن لم يبق غير ٣٧,١٢٨,٨٠٠ سبعة وثلاثين ومائة وثمانية وعشرين وثمانمائة مسلم تحت سلطة حكومات إسلامية ، وانتقلت السلطة السياسية على أكثر المسلمين من يد الخلافة الإسلامية إلى يد إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا .

وعدد المسلمين الذين تحت سلطة كل واحدة من هذه الدول يفوق عدد المسلمين الموجودين في كل أرجاء السلطنة العثمانية .

بل إن عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدولة النصرانية سيزداد كثيرا عقب انقلابات^(١) قريبة الحصول ، وبذلك تزداد مسئولية الملوك النصارى فى مهمة تنصير العالم الإسلامى .

ويقول القسيس « ولسون » فى تقريره الذى رفعه لهذا المؤتمر - مؤتمر لكنو :
« إنه لا يشك فى أن التربية الغربية^(٢) هى من قبيل قوة تنحل بها عرى الروابط الإسلامية »^(٣) .

وللتبشير مؤسسات كثيرة وأعمال خطيرة ضد الإسلام يمكن أن نشير إلى مجملها فيما يلى :

- ١ - عدد هائل من مراكز التبشير فى آسيا وإفريقيا ، ربما لكثرت يفوق الحصر بالنسبة لغير المتفرغ له .
- ٢ - عدد كبير من المدارس والكليات والمعاهد ، بحيث لا يخلو بلد إسلامى من مدرسة أو أكثر .
- ٣ - عدد كبير من الملاجئ ودور الرعاية التى تقبل الذين ينتصرون وتنفق عليهم .
- ٤ - عدد هائل من المستشفيات والمراكز الطبية .
- ٥ - عدد كبير من الأندية الرياضية والاجتماعية .
- ٦ - عدد لا بأس به من المطابع ودور النشر .
- ٧ - عدد هائل من الجمعيات الخيرية الخدمية .

١ - تأمل : انقلابات قريبة الحصول ، تتأكد أن هذه الانقلابات العسكرية فى العالم الإسلامى قد أعدها وخطط لها أعداء الإسلام .

٢ - يقصد بالتربية : السيطرة على مناهج التعليم فى البلدان الإسلامية وانظر ما حدث فى تطوير التعليم فى مصر فى السنوات القليلة الماضية حيث شارك فى تطوير التعليم بمصر تسع وعشرون خبيرا أمريكيا منهم خبيران يهوديان ، وكانت لهم الكلمة العليا فى تقليص كل ما هو إسلامى فى المناهج - مما أثار ضجة فى الصحف المصرية فى الشهور الثلاثة الأولى من سنة ١٩٩٢ م .

٣ - شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى . مرجع سابق .

● ومن أهم أعمال المبشرين المؤتمرات التي يتوافدون عليها من شتى أقطار العالم الإسلامي ، لتدارس ما قاموا به من أعمال تبشيرية والتواصي بما يجب أن يقوموا به في المستقبل ، وسوف نتحدث عن هذه المؤتمرات حديثا مستقلا في الحديث عن الوسيلة الثالثة من وسائلهم في تحقيق أهدافهم وهي المؤتمرات - عقب حديثنا هذا عن التبشير بإذن الله تعالى .

● ومن أهم أعمالهم تأليف الكتب عن الإسلام بقصد التخذيل عنه وتشويهه ، وقد ذكرنا أسماء بعض تلك الكتب آنفا .

● ومن أعمالهم المستمرة إصدار النشرات وتوزيعها من خلال مراكزهم ومؤسساتهم كلها ومن خلال الكنائس كذلك .

● ومن أعمالهم إقامة الحفلات الترفيهية بين البنين والبنات .

● ومن أعمالهم إعداد الرحلات السياحية بين البنين والبنات كذلك ولا يرون في هذا الاختلاط حرجا ولا بأسا*!!!

٣ - المؤتمرات ومقرراتها وتوصياتها

هذه المؤتمرات من أهم وسائلهم في تحقيق أهدافهم ضد الإسلام والمسلمين ، ولقد ازداد عدد المؤتمرات وكثر تنوعها في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين ، ولا يزال الاهتمام بهذه المؤتمرات موجودا حتى يومنا هذا ، وإن أخذت أسماء موهمة ليست من الصراحة مثل ما كانت ، فسوف نرى من أسماء مؤتمراتهم الصريحة مؤتمر التبشر ، ومؤتمر الاستعمار ، ولكنهم أخيرا عدلوا عن ذلك إلى مؤتمر الثقافة الإسلامية مثلا كما سنرى .

لقد كان الغربيون الصليبيون يتنادون إلى المؤتمرات ما بين حين وآخر ، ليستجيب لهم كل حاقد على الإسلام قادر على الكيد له ، ويحضرون ليتفوقوا على مخططات في الكيد للإسلام وتشويهه وتنفير الناس منه تمهيدا لتنصير الناس عموما والمسلمين خصوصا ، كما صرحوا هم بذلك مرات ومرات فيما نقلنا من كلماتهم آنفا .

ولقد كانت حلقات العمل المضاد محبوبة مسبوكة ، تبدأ بالبحث العلمى ونشر تراث المسلمين ، وتعليم لغتهم ودينهم باسم الاستشراق ، وهذه الحلقة من البحوث والدراسات تقدم الخدمات الجليلة للتبشير أو التنصير ، وهذا بدوره يخلع المسلمين من إسلامهم ويسلمهم ويسلم أوطانهم فرائس ضعيفة غير متمية للمحتل الذى سموه المستعمر أو الوصى أو من يتولى حكم البلاد الإسلامية تحت اسم الانتداب أو الحماية أو الوصاية أو الاستعمار ، وتلك حلقات عرفناها وسمعنا عنها وقرأنا عنها وقاومنا بفضل الله ما وسعنا منذ كنا في شرح الشباب وفي السنوات الأولى ونحن نخطو في مجال الحركة الإسلامية بين صفوف جماعة الإخوان المسلمين ، فلم يكن أمر هذه الحبكة خافيا إلا على الفارغين من الانشغال بقضايا أوطانهم في العالمين العربى والإسلامى .

وبفضل الله لا نزال نوالي الاهتمام بهذه التيارات المعادية للإسلامية ، حدثنا فيها أبناءنا في كل جامعة عملنا فيها ، وفي معظم الكتب التى وفقنا الله إلى تأليفها ، وسوف نظل كذلك حتى نلقى الله تبارك وتعالى .

هذه المؤتمرات كثيرة يتبنى الدعوة إليها المستشرقون ومراكز الدراسات الشرقية حيناً والجامعات الغربية حيناً ومراكز التبشير وجمعياته حيناً ، وكل مؤتمر منها له هدف محدد معروف لهم ولنا ، فهذا للتبشير صراحة وهذا لخدمة اللغة العربية والتراث ، وهذا للتعليم ، وذاك للثقافة ، وغيره للإصلاح الاجتماعى ، وغيره للرعاية الصحية أو رعاية الأسرة ، وما لا نهاية له مما نسمع ونرصده ونتتبعه^(١) .

غير أن هذه المؤتمرات جميعاً يضمها هدف واحد كبير هو البحث في سر هذه المصيبة الإسلامية أو الكارثة الإسلامية - كما يقولون - وكيف يواجهون المد الإسلامى أو الصحوة أو الحركات الإصلاحية الإسلامية أو التطرف أو الإرهاب باسم الإسلام !!! وسوف أكتفى بذكر نماذج من هذه المؤتمرات بل مجرد سرد أسمائها ، لأن مقررات مؤتمر واحد منها وتوصياته أكثر من أن تحصى ، فكيف ينهض - ولو بمجزء لها - مدخل الكتاب؟

ومن هذه المؤتمرات في الفترة القريبة منا وحدها ما يلي :

- ١ - مؤتمر القاهرة التبشيرية الذى عقد سنة ١٩٠٦ م .
- ٢ - ومؤتمر أدنبرج التبشيرية الذى حضره ١٢٠ مندوباً من إنجلترا وأمريكا ، وكان « روزفلت » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق مندوباً من هؤلاء المندوبين ولكنه أرسل اعتذاراً . وقد عقد هذا المؤتمر سنة ١٩١٠ م .
- ٣ - والمؤتمر الاستعماري الألماني أخريات سنة ١٩١٠ م . وكان من مجمل مقرراته ما يلي :
 - أ - الخطة العامة للنظام المالى والإدارى والدينى .
 - ب - وعلاقة الشرع الإسلامى بالقوانين الأوروبية .
 - ج - فى نظام التعليم .
- ٤ - ومؤتمر لكنو بالهند وهو تبشيرية عقد سنة ١٩١١ م ومن أهم مقرراته :

١ - بلغ عدد مؤتمرات المستشرقين الدولية من سنة ١٨٧٣ م إلى سنة ١٩٦٤ م ٢٦ سنة وعشرين مؤتمراً كما ذكر ذلك : نجيب العقيلي فى كتابه الموسع : المستشرقون ج٣ ص ١١٤٨ ط دار المعارف مصر ١٩٦٥ .

- أ - استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائي .
- ب - والنظر في حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها .
- ج - والنظر في حركة الانقلابات السياسية في العالم الإسلامي .
- ٥ - وعقدت مؤتمرات كثيرة لم يعلنوا عنها وإن تسربت أنباؤها - على الرغم من انشغال العالم بالحرب العالمية الأولى ثم القلق الأوربي الذي أعقب تلك الحرب ، ثم قيام الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م - أقول على الرغم من ذلك لم تتوقف المؤتمرات المعادية للإسلام .
- ٦ - ومؤتمر الثقافة الإسلامية في جامعة « برنستون » بالولايات المتحدة الأمريكية في صيف عام ١٩٥٣م .
- ٧ - ومؤتمر العلوم الاجتماعية في دمشق سنة ١٩٥٤م .
- ٨ - ومؤتمر التعليم الثانوي بمصر سنة ١٩٥٥م بإشراف هيئة اليونسكو .
- ٩ - ومؤتمر تبادل المدرسين بين البلاد العربية سنة ١٩٥٦م . بإشراف هيئة « اليونسكو » أيضا .
- ١٠ - والمؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية الذي عقد في دمشق سنة ١٩٥٦م ، وقد كان معاديا للغة الفصحى ومشجعا على إحلال العامية محلها .
- ١١ - وعشرات المؤتمرات التي عقدت في الولايات المتحدة في « واشنطن وبوسطن وشيكاغو » وغيرها لتمويل أعمال التبشير أولا ، ومعاداة الإسلام بعد ذلك .
- ١٢ - وعشرات المؤتمرات التي عقدت في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا ، وإيطاليا وإسبانيا وغيرها من البلاد التي اشتهرت بعداؤها للإسلام والمسلمين .
- غير أن ذلك لا يمنعنا أن نذكر للمستشرقين جهودهم في جمع التراث العربي والإسلامي وطبعه ونشره ، والاستيلاء على أصوله بوسائل مشروعة حيناً وغير مشروعة أحيانا .
- كما لا ننسى لهم الجهود الضخمة التي بذلوها في تحقيق التراث العربي .

٤ - الندوات وقضاياها

وهي من وسائلهم لتحقيق أهداف الغرب الصليبية في العالم الإسلامي ففيها يتحاورون ويتبادلون الآراء للكيد للإسلام والمسلمين .

جاء في جريدة الأهرام المصرية ما يلي :

« واشنطن مكتب الأهرام : في ظل اهتمام عالمي بالإسلام ودوره في المستقبل ، والذي أصبح من الموضوعات الرئيسية التي تشغل بال الإدارة الأمريكية والصحافة والرأى العام ، نظم معهد دراسات الشرق الأوسط - الأمريكي ، ندوة حول هذا الموضوع تحت عنوان : « أمريكا والإسلام وتحديات التسعينات » .

وجاءت الندوة التي اختلقت فيها المفاهيم عن الإسلام ، وهذه التحديات ، والتي استغرقت يوما واحدا استكمالا لتوصيات لجنة العمل الأمريكية الإسرائيلية « الإيباك » التي حذرت فيها مما يسمى بالخطر الإسلامي وتهديده للحضارة الغربية .

واستهدفت الندوة التحذير من الخطر النووي والكيمائى و « البيولوجى » الذى يمكن أن تمثله الدول الإسلامية ، على اعتبار أن التركيز على ما يسمى بالتطرف الدينى قد يهدد النظم فى الشرق الأوسط بينما السلاح النووى سيهدد ما يسمونه بالحضارة الغربية .

وتحدث فى الندوة « جوردون أوهرلر » من إدارة المخابرات الأمريكية نيابة عن مديرها « روبرت جيتس » .

قال : « أوهرلر » : - وهو المسئول عن متابعة العالم الثالث للأسلحة النووية - قال : إنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتى فإن صواريخه لم تعد تهدد أمريكا ، ولكن حصول دول العالم الثالث ودول الشرق الأوسط على « تكنولوجيا » الصواريخ سيهدد أوروبا والقوات الأمريكية خارج الولايات المتحدة .

ثم قال : إنه إذا حصلت دول الشرق الأوسط على رعوس نووية فإنها فى مرحلة لاحقة ، وبعد سنوات طويلة قد تهدد أمريكا ، وأشار إلى أن الصين وكوريا الشمالية

باعتا صواريخ وأسلحة لعدة دول في المنطقة ، كما باعتها التكنولوجيا التي لو تم تطويرها فقد تصبح مصدر خطر .

وقال : إن الصين باعت لإيران والجزائر مفاعلات لأغراض علمية وهي تتفاوض مع سوريا لتبيعها مفاعلا للأغراض السلمية .

وأشار إلى أن إسرائيل مستمرة في إنتاج الصاروخ « أرو » المضاد للصواريخ ، كما أن مصر تنتج صواريخ ، وليبيا قامت بتخزين مائة طن من المكونات الكيماوية في مصنع الرابطة الذي أوقفت تشغيله ، وأضاف أن ليبيا حصلت على صواريخ « أسكود » مداها ٣٠٠ كيلو متر ، من كوريا الشمالية .

وأوضح خبير الصواريخ الأمريكي أن هناك عدة دول بينها مصر والهند والجزائر وسوريا وكوريا تحاول الاستعانة بالخبراء الروس الذين يتقن الآلاف منهم إنتاج أسلحة كيماوية ، « بيولوجية » ونووية ، وذلك ليتعاونوا مع تلك الدول في إنتاج الأسلحة المطلوبة .

وأشار إلى أن إيران أصبحت متقدمة نسبيا في مجال الأبحاث النووية للأغراض السلمية التي يمكن تحويلها بسهولة إلى الإنتاج الحربي ، إلا أنه رفض الإجابة عن سؤال عن امتلاك إسرائيل للسلح النووى ، ورفضها التوقيع على اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية .

وتحدث في هذه الندوة أيضا : « زالمار خليل زاده » وكيل وزارة الدفاع الأمريكية للشئون الأمنية - وهو من أصل إيراني - وقال : إن إيران تحاول لعب دور في منطقة الشرق الأوسط وفي الجمهوريات الإسلامية - يقصد في الاتحاد السوفيتى السابق - وأشار إلى أن إيران نجحت في السودان ونقلت نشاطها إلى القارة الإفريقية ، وقال : إن هذا هو النجاح الوحيد الذى حققته .

وأشار إلى أن إيران تقدم مساعدة مالية وعسكرية للسودان ، كما تقوم بتزويدها بالبترول ، وتدريب قواتها العسكرية للضغط على مصر ودول المغرب والدول الصحراوية

ولا أود أن استطرد في ذكر نماذج من هذه الندوات فهي أكثر من أن أحصيا .
ولكنني أخلص من هذا إلى تأكيد حقيقة هي أن هذه الندوات كثيرة وأنها تستهدف
الكيد للإسلام والمسلمين ، وأنها تعقد على مستوى الغرب كله أوروبا وأمريكا وعلى
مستوى إسرائيل ، وكل هذه الندوات ذات دلالة واضحة على تحدى الإسلام
والمسلمين ، بناء على تصورات خاطئة أو حاكمة ، فهل يتشكك أحد بعد كل هذه
التصريحات بأن الغرب لا يشن حملة صليبية جديدة على العالم الإسلامي ؟ .

٥ - المجلات الموجهة ضد الإسلام

ما أكثر المجلات التي أصدرها الغرب الصليبي في معاداة الإسلام والعمل على تشويهه أو إخماله أو حربه وحرب المسلمين ، تمهيدا للاستيلاء على بلدانهم وأوطانهم بعد غزو فكرهم وثقافتهم وتغيير عاداتهم ونسق حياتهم اليومية .

كانت هذه المجلات وما في حكمها من صحف ونشرات ، تحقق للغرب الصليبي أهدافه منذ أكثر من قرن من الزمان أيام لم تكن الإذاعة المسموعة قد انتشرت ولا الإذاعة المرئية قد عرفت ، وأيام كانت السينما والفديو في طي الغيب .

أدت هذه المجلات عملها بكفاءة ولا تزال على الرغم من التقدم العلمي الذي اختصر المسافات ، ونقل الصوت والصورة في أسرع من لمح البصر ، لأن لكل من المجلات والمادة المكتوبة والإذاعة بنوعها والسينما والمسرح وظائف تخصها .

وعلى سبيل المثال :

فإن مسلسلا تلفزيونيا خبيثا كالذي يعرض هذه الأيام باسم : « الجريء والجميلة » يفسد من القيم الإسلامية ما لا تفسده عشرات المجلات ومئات المقالات ، وذلك أن الإذاعة بنوعها تقتحم على الناس بيوتهم بل مخادعهم ، أما المجلات فلها قراؤها وهم قلة إذا قورنوا بجمهور الإذاعتين . وإذا كان الأمر كذلك في مسلسل واحد ، فما بالناس والمسلسلات التلفزيونية والأفلام السينمائية المعادية لقيمنا الإسلامية مئات ومئات ؟

إن هذه الهجمة الإعلامية - كما سنتحدث بعد قليل عن الفنون - تستهدف أموراً في غاية الخطورة على مجتمعاتنا المسلمة يمكن أن نشير إلى بعضها بما يلي :

١ - تبديل القيم الخلقية الإسلامية وإحلال القيم الخلقية الغربية التي لا تحترم ديننا ولا تقيم وزناً لخلق محل قيمنا النابعة من صميم ديننا الخاتم .

٢ - والتهوين من شأن ممارسة الغرائز في غير قنواتها الشرعية التي أقرتها كل الأديان كالزنا وشرب الخمر وعدم احترام الأبوين والحقد على الناس وإضمار الشر لهم والإيقاع بهم لسبب أو لغير سبب .

٣ - نزع الأبناء من رعاية الأسرة وحنانها وتشجيعهم على التمرد على قيمها وآدابها .

٤ - تعويد الناس على التمرد على كل أنواع السلطة من البيت إلى المدرسة إلى النظم والقوانين .

٥ - غلق عواطف الشباب ، وإرخاء العنان لشهواتهم باسم الحرية الشخصية وحقوق التعبير عن الغرائز .

هذه المجالات التي هي إحدى وسائلهم في تحقيق أهدافهم لا يزال لها عمل جليل في الأوساط العلمية ، ولدى الباحثين الذين ينهرون بكل ما هو غربي أو يصدر في الغرب^(١) .

هذه المجالات كثيرة كثيرة لا أستطيع إحصاءها أو متابعتها ولكني أسرد أسماء بعضها هنا تاركا الحصر والتتبع لأهل العلم من رجال الإعلام عموما ورجال الصحف والمجلات على وجه الخصوص^(٢) .

ومن هذه المجالات :

١ - مجلة الشرق المسيحي والتبشير الإسلامي صدرت في ألمانيا سنة ١٩١٠ م .

٢ - مجلة العالم الإسلامي وهي إنجليزية صدرت في إنجلترا سنة ١٩١١ م .

٣ - مجلة إرساليات التبشير البروتستانتية السويسرية ، صدرت في بال بسويسرا سنة ١٩١١ م .

٤ - مجلة العالم الإسلامي الفرنسية ، صدرت في فرنسا سنة ١٩١١ م .

٥ - مجلة جمعية الدراسات الشرقية - أنشئت في ولاية « أوهايو » بالولايات

١ - خلال عملي في الجامعة وإشرافي على بعض الرسائل الجامعية ، كان يهولني كثرة استعانة الدارسين بالمراجع الغربية ، كأن الثقة في المادة العلمية لا تكون إلا فيما كتبه الغرب !!! وكنت أوجه وأنبه ولكنه تيار كاسح .

٢ - زادت هذه المجالات على ثلاثمائة مجلة متنوعة خاصة بالاستشراق وما يكتبه المستشرقون ، وهي تنشر بمختلف اللغات ، وكثير منها ينشر بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وتتناول بالبحث الشرق ولغاته وأدبائه وعلومه وآدابه وفنونه قديمها وحديثها ، مع العناية الخاصة بالإسلام في هذا الشرق ، والتركيز على دراسات في القرآن والسنة والنبي محمد ﷺ ، وعلوم الشريعة الإسلامية عموما والفقه الإسلامي بصفة خاصة .

المتحدة الأمريكية ، ولها فروع في كندا وأوروبا وهي من أهم المجلات .

٦ - مجلة الشرق والغرب ، صدرت في القاهرة للمبشرين .

٧ - مجلة الشرق الأوسط وهي أمريكية تصدر بالإنجليزية ويحررها مستشرقون وعرب معادون للإسلام .

٨ - مجلة القانون المقارن وغيرها .

وكثير من هذ المجلات أخذت على عاتقها مهاجمة الإسلام وتشويه حقائقه بطريقة ترضى عليها الطابع العلمى الذى يتضمن كثيرا من الأخطاء والمغالطات .
ولا ننكر أن بعض هذه المجلات تتضمن معلومات ودراسات جادة تفيد الدارسين ، ولكنها نادرة والنادر لا حكم له .

٦ - الجمعيات المعادية للإسلام

وهذه الجمعيات من الكثرة بحيث لا يستغرقنا إحصاؤها ، أو يغرينا ، وكل هذه الجمعيات إما أن يكون قد أنشأه المبشرون أو المستشرقون ، وكثير منها يعد جمعية أمّا تنفرع عنها جمعيات كثيرة في عديد من بلدان العالم الإسلامي .

ومما نحب أن نسرد أسماءه من تلك الجمعيات ما يلي :

- ١ - جمعية التبشير في أرض التوراة العثمانية .
- ٢ - جمعية الشبان المسيحيين من الإنجليز والأمريكان . أسست سنة ١٨٥٥ م .
- ٣ - جمعية الشبان المتطوعين للتبشير في البلاد الأجنبية .
- ٤ - جمعية تبشير الشبان .
- ٥ - جمعية اتحاد الطلبة المسيحيين في العالم .
- ٦ - جمعية الكنيسة البروتستانتية للتبشير في إفريقيا الغربية وهي من أقدم الجمعيات إذ أسست سنة ١٨٠٤ م .
- ٧ - الجمعية العامة لتبشير مصر ، أسست سنة ١٨٩٨ م .
- ٨ - جمعية تبشير الكنيسة بفارس أسست قبل سنة ١٨٩٢ م .
- ٩ - جمعية المبشرين الألمان بسومطره أسست سنة ١٨٧١ م .
- ١٠ - جمعية التبشير الهولندية .
- ١١ - جمعية التبشير الإنجليزونية بالهند ، ولها في الهند فروع عديدة بعضها خيرى .
- ١٢ - جمعية التبشير الأمريكية بالهند ، ولها فيها فروع عديد بعضها خيرى وبعضها تنصيرى في المسلمين خاصة .
- ١٣ - جمعية « ينش » الألمانية ، ولها ستة وثلاثون فرعا في عديد من البلدان الإسلامية .
- ١٤ - جمعية التبشير بالتوراة الإنجليزونية .
- ١٥ - جمعية التبشير الشرقية الألمانية .
- ١٦ - جمعية لإرساليات التبشير الشرقية الألمانية .

١٧ - جمعية التبشير الكنسية الإنجيلية . وهى أهم جمعية بروتستانتية ، وهى من

أقدم الجمعيات أيضا حيث أسست سنة ١٧٨٠ م .

١٨ - جمعية تبشير التوراة الطبية .

١٩ - جمعية الكنائس المسيحية الشرقية ، وهذه الجمعية هى الأم ولها فروع أربعة

هامة هى :

- فرع فى بلغاريا .

- وفرع فى الأستانة .

- وفرع فى شمالي سوريا .

- وفرع فى سوريا أيضا .

٢٠ - وعشرات من الجمعيات المنبثة فى بلدان العالم الإسلامى .

٧ - التعليم والثقافة والفنون

كان التعليم وما يزال من أهم وسائل الغرب الصليبي في تحقيق أهدافهم العامة والخاصة ضد الإسلام والمسلمين .

صرحوا هم بذلك في مناسبات عديدة فيما قالوا وفيما كتبوا ، ولم يخفوا حربهم هذه للإسلام والمسلمين ، استهانة بشأن المسلمين الذين أصبحوا جميعهم في قبضتهم بالاحتلال أو بسط النفوذ ، وثقة منهم في أن المسلمين سيظلون تحت سيطرتهم نيامًا مقهورين لا يستطيعون أن يردوا كيذا ولا أن يواجهوا حربا .

لقد بذل الأعداء جهودا في صبغ التعليم في البلدان الإسلامية بالصبغة الغربية ، حتى يضمّنوا ولاء المتعلمين للغرب وثقافته وحضارته ، يمهّدون بذلك لانسلاخ المسلم عن إسلامه وفقده اعتزازه بهذا الدين وبالانتماء إليه ، لتتم سيطرتهم على حاضرهم ومستقبله .

ولقد صنف القسيس زويمر كتابا جمع فيه كثيرا من تقارير المبشرين أو المنصرين في العالم الإسلامي كله ، وسمى هذا الكتاب : « العالم الإسلامي » .

ثم جاء من بعده القسيس الأمريكي « فلمنج » ونشر هذا الكتاب وكتب عليه « نشرة خاصة » تتداول بين المبشرين ، وأضاف إليه ما تقرر في مؤتمر القاهرة التبشيري المنعقد في سنة ١٩٠٦ م .

● وتحدث في الفصل الثاني منه عن الصعوبات التي تعترض تبشير المسلمين بالذات .

● وتحدث في الفصل الثالث عن الوسائل التي يمكن استغلالهم بها ، وتحييهم في المبشرين . وحدد من أهم هذه الوسائل ما يلي :

- العزف بالموسيقى .
- وعرض مناظر الفانوس السحري - حيث لم تكن السينما شائعة -
- وتأسيس الإرساليات الطبية .

● وتحدث في الفصل الرابع عن الصعوبات التي تقف في وجوههم وهم يحاولون إبداء تقرب واهتمام خاص بالأزهر والمتعلمين فيه حيث استحال عليهم أن يصلوا إلى تنصير أحدهم .

كما تحدث في هذا الفصل عن الصعوبات التي تقف في وجه تبشير المتعلمين من المسلمين الذين تعلموا في مدارس تسيير على الطريقة الأوربية كمدارس الحكومة ومدارس الإرساليات .

وقد جاء في كلام أحد أعضاء مؤتمر القاهرة المنعقد سنة ١٩٠٦م في منزل أحمد عرابي الزعيم المصري الوطني المفترى عليه^(١) في باب اللوق بالقاهرة مايلي :

« ... أما الذين تعلموا على الطريقة الشرقية في الأزهر وما يماثله فقد أفاض أحد أعضاء المؤتمر في وصف ما للجامع الأزهر القديم من النفوذ وإقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين في كل أقطار العالم ، وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ ألف سنة إلى الآن ، ثم قال : إن السنين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتمين أكثر منه في غيره ، والمتخرجون في الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين ، وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا ، خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا ...^(٢) ثم تساءل عما إذا كان الأزهر يهدد كنيسة المسيح بالخطر ؟ وعرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبها « لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة » ، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان

١ - تأمل كيفية اختيار منزل أحمد عرابي ١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ ١٨٤١ - ١٩١١م بالذات الذي ظل منفيا عن مصر تسعة عشر عاما عقب احتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢م ، وما يدل عليه هذا الاختيار من حقد وتسلط وقهر لمصر حكومة ونظاما ورجالا !!!

٢ - تأمل في نظرة الغربيين للصليبيين للأزهر وقارن ذلك بما قام به الانقلاب العسكري في مصر سنة ١٩٥٢م ، حيث بادر بحل الأوقاف الخاصة بالأزهر وحوّلها لخزانة الدولة ، وكيف قلل من شأن الأزهر فتندرت به وبمشايعه الصحف اليسارية وغيرها ، وكيف حلت هيئة كبار العلماء ، وكيف كان ضابط صغير الرتبة يناط به أمر الأزهر فيؤلى شيخه أو يعزله ، وكيف طورت مناهج الأزهر ففرغت من محتواها ، حيث ألغى شرط حفظ القرآن للمتقدم إلى التعليم في الأزهر !!

تعليم اللغة العربية ... ثم قال : إن في الإمكان مباشرة هذا العمل في دائرة صغيرة وهي أن تخصص أولا بتعليم المسلمين المنتصرين ، وتربيتهم تربية نصرانية ليتمكن هؤلاء من القيام بخدمة جليلة في تنصير المسلمين الآخرين ، وختم كلامه بقوله : ربما كانت العزة الإلهية دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا لتسرع في إنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير العالم الإسلامي^(١) .

ثم شرعوا ينشئون المدارس الخاصة بهم الخاضعة لسياستهم في التنصير من جانب ، ويعملون على تشويه المدارس والتعليم كله في البلاد الإسلامية من جانب آخر ، ويحاربون الأزهر وأمثاله من المعاهد ويعملون على عزله عن المجتمع من جانب ثالث وهكذا ...

وقد استطاعوا - بعد أن احتلوا معظم بلدان العالم الإسلامي - أن يوجهوا التعليم فيه بالسيطرة على مناهجه وإعداد معلميه على النحو الذي يحققون فيه أهدافهم ، بحيث لم يعد يتخرج في هذه المدارس والمعاهد وفق مخططاتهم ومناهجهم إلا الذين يوالون الغرب وحضارته وثقافته ، ونستطيع أن نشير إلى مجمل خططهم في تحويل ولاء المسلمين عن الإسلام إلى ولائهم للغرب في الأمور الآتية :

- إخمال تعليم اللغة العربية لحساب الاهتمام الشديد بلغاتهم كالإنجليزية والفرنسية وغيرهما .

- وتقليص عدد الساعات المقررة لتدريس الدين الإسلامي ، بحيث لا تزيد عن ساعتين في معظم بلدان العالم الإسلامي .

- وسوء اختيار المدرسين ، بحيث لم تراع فيهم مسألة أنهم قدوة لطلابهم في العلم والخلق والسلوك .

- وعملوا على إخمال الأزهر ومحاربهه وتقليص الأعمال التي يقوم بها المتخرجون فيه ، في الوقت الذي شجعوا على إنشاء جامعات تبني فكر الغرب وأسلوبه في الدراسة ، وتبعد كثيرا عن أن تعلم التدين والخلق إلى جانب المنهج العلمي والبحث .

١ - شاتليه : الغارة على العالم الإسلامي - مرجع سابق .

وقد أكدوا هم ذلك في مؤتمراتهم وصرحوا بأن التعليم على النحو الذى وضعوا له الخطط والمناهج هو الصالح لهم ولأهدافهم في بلدان العالم الإسلامى .
فقد جاء في تقرير اللجنة الثالثة من لجان مؤتمر أدنبرج المنعقد في سبتمبر ١٩١٠م ما يلى :

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التى أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ، يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها » ومن الواضح أن حل المسألة الشرقية في كلامهم هذا يعنى سيطرة الدول الغربية على الشرق وتنحية دولة الخلافة العثمانية .
وجاء في تقرير « باكر » عضو مجلس المستعمرات في « همبورج » الذى قدمه إلى المؤتمر الاستعماري الألماني الذى عقد عقب مؤتمر « أدنبرج » مما يتصل بالتعليم ما يلى :
« إن الحكومة لابد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين في المدارس العلمانية مادام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية ، ونحن نعترف بهذه الحقيقة بالرغم من اعتقادنا بأن المدارس العلمانية تزيد الإسلام نموا وارتقاء » .
ويقول مبشر آخر هو « ويلسون » في تقريره لنفس المؤتمر : « لا شك في أن التربية الغربية هى من قبيل قوة تنحل بها عرى الروابط الإسلامية » .

أما المعاهد والجامعات التى أنشئوها في مختلف بلدان العالم الإسلامى فهى اليوم أكثر من أن تحصى ، إذ في كل قطر إسلامى عدد من المعاهد والجامعات فضلا عن المدارس ، وهى وإن كانت غير أجنبية أحيانا إلا أن مناهجها وأهدافها أجنبية عن الإسلام مادامت تخرج طوائف من المتعلمين يعطون ولاءهم لغير الإسلام .

وللغربيين في تحويل المناهج وتطويرها أو تخريبها محاولات مستميتة ليس من آخرها ولا أهمها ما حدث في مصر من تطوير التعليم الذى يسبق التعليم الجامعى لتفريغه من معظم ماله من أهمية في تربية المسلم وتنشئته تنشئة إسلامية صحيحة ، وهو تطوير يتم بمعونة مالية أمريكية ومن خلال خبراء أمريكيان عددهم تسعة وعشرون عضوا منهم

اثنان من اليهود !!

وليس من أبرز محاولاتهم في إفساد المناهج والمتعلمين ما تغص به مكتبات الجامعات من موسوعات ودوائر معارف وكتب عامة كبرى ، ألقت كلها لتجعل من بين أهدافها تشويه الإسلام وصرف الناس عنه ، ومع ذلك فهي مراجع لها أهميتها عند الباحثين والدارسين في الجامعات .

وسوف أذكر نماذج فقط من معاهدهم وجامعاتهم ومدارسهم التي غرسوها غرسا في الأوطان الإسلامية يتخرج فيها طوائف عديدة من المسلمين الذين يعطون ولأهمهم للغرب وحضارته وثقافته !!!

ومن تلك المعاهد والجامعات والمدارس ما يلي :

١ - الكلية الإنجيلية في بيروت - وهي الجامعة الأمريكية - التي أنشئت سنة ١٨٦٦ م .

٢ - وكلية المبشرين بالآستانة .

٣ - وكلية غوردون بالسودان أنشئت سنة ١٩٠٣ م وسميت جامعة الخرطوم سنة ١٩٥٦ م .

٤ - والجامعة الأمريكية بالقاهرة التي أنشئت سنة ١٩١٩ م .

٥ - وجامعة عليكرة بالهند وهي وإن كانت قد اشتملت في مناهجها على علوم ومعارف ودراسات إسلامية وغربية إلا أن الجانب الغربي في هذه العلوم والمعارف يغطي أكثر من ٩٠ ٪ من المناهج كما صرح بذلك أبو الأعلى المودودي .

٦ - وعدد كبير من الجامعات والمعاهد المقامة في معظم أقطار العالم الإسلامي من أبرزها :

أ - جامعة استانبول التي أنشئت سنة ١٨٦٣ م باسم دار الفنون ثم طورت بعد إسقاط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ م وأعيد تنظيمها مرتين سنة ١٩٢٧ م و ١٩٣٣ م لتصبح جامعة غربية ..

ب - وجامعة البنجاب في لاهور بباكستان حاليا ، وقد أنشئت سنة ١٨٨٢م بتوجيهات الإنجليز ومشاركتهم .

ج - وجامعة الجزائر التي أنشأها الفرنسيون سنة ١٨٧٩م ثم أعادوا تنظيمها سنة ١٩٠٣م .

د - كلية روبرت في استانبول وهي كلية تبشيرية .

٧ - أما مدارسهم فهي أكثر من أن تحصى ، لكننا نشير هنا في إجمال إلى أهم هذه المدارس على النحو التالي :

أ - الجمعية العامة لتبشير مصر أنشئت سنة ١٨٩٨م ولها معاهد ومدارس في الدلتا والسويس ، ولها مكتبة ضخمة ومجلة شهرية .

ب - جاء في تقرير مقدم إلى مؤتمر أدنبرج ١٩١٠م ما يلي :

- عدد الجامعات والكليات التابعة للبروتستانت المنتشرة في كثير من بلدان العالم الغربي والإسلامي بلغ ٨٨ جامعة وكلية .

- وعدد من المدارس بلغ ٥٢٢ مدرسة .

- وعدد المدارس العليا بلغ ١٧١٤ مدرسة .

ج - والجمعية التبشيرية الإنجيلية في مصر ، ولها ستة معاهد ومدرستين للبنات في القاهرة ومدرسة عالية في حلوان ومكتبة هامة في القاهرة ، وهي التي تنشر مجلة الشرق والغرب ، ولها ثلاث مدارس في السودان الشمالي للبنات ، وعدد من المدارس في أواسط السودان ، ومدرسة في عطبرة .

ولهذه الجمعية في الهند أكثر من ألف مدرسة - قبل تقسيم الهند إلى الهند وباكستان -

د - وجمعية التبشير الأمريكية التي أنشئت سنة ١٨١٠م . ولهذه الجمعية عدد من المدارس العالية والابتدائية في بلاد الدول العثمانية ، والهند وسورية وفلسطين والأردن ، ومئات المدارس الابتدائية المنتشرة في معظم أقطار العالم الإسلامي .

هـ - وفرنسا عدد هائل من المدارس في كثير من الأقطار الإسلامية يديرها الرهبان ، وعدد كبير منها في مصر ، وهي منتشرة بصورة أكبر في البلدان الإسلامية التي احتلتها فرنسا .

و - وهولندا عدد كبير من المدارس وبخاصة في أندونيسيا .

ز - وإيطاليا عدد كبير أيضا من المدارس في بعض الأقطار الإسلامية .

ح - وألمانيا عدد مماثل في بعض الأقطار الإسلامية .

وأما الثقافة ، وكيف استغلها الغرب استغلالا لصالحه من جانب وإخمال ثقافتنا الإسلامية من جانب آخر ، فنذكر منها طرفا على النحو التالي :

للثقافة عندنا معشر المسلمين مفهوم يخصصنا إذ تعتبر مصادر هذه الثقافة الإسلامية بالدرجة الأولى القرآن الكريم والسنة النبوية وتراثنا الفكري والأدبي في مختلف عصور الإسلام أيا كانت اللغات التي يتحدث بها المسلمين ، ولقد كان ذلك كذلك على فترات طويلة في حياتنا الثقافية حتى يوم كانت رئاسة دولة الخلافة غير عربية ، إذ كانت تتوجه إلى مصادر الثقافة الإسلامية تنزود منها بما يعينها على فهم دينها وعلى بناء حضارتها الإسلامية .

أما بعد أن تحالفت دول الغرب الصليبي على الإسلام والمسلمين فقد حدث تحول عن مصادر الثقافة الإسلامية إلى مصادر أخرى للثقافة معادية كمصادر الثقافة الغربية وإحياء النزعات القومية وثقافتها لمناوأة الثقافة الإسلامية كالفرعونية والفينيقية والطورانية والبربرية وغيرها .

ولهذا الإخمال للثقافة الإسلامية عند الغرب خطتان :

إحداهما : مستمرة وهي تشويه الإسلام وثقافته .

والأخرى : تشجيع أي مؤلف معاد للإسلام يكتبه عربى أو مسلم .

وقد أوضحنا آنفا كيف يستفاد في ذلك من المؤتمرات والندوات والكتب والجمعيات .

وأما الفنون : فنعنى بها الإذاعة المسموعة والمرئية والسينما والمسرح والأغاني والموسيقى ودور اللهو والتمثيل والأندية الاجتماعية والرياضية .

وقد سيطر الغرب على هذه الفنون سيطرة كاملة وإن كان القائمون عليها في كثير من أقطار العالم الإسلامى مسلمين ، وقد أسهمت هذه الفنون في خدمة أغراض الغرب الصليبي من إخمال القيم الإسلامية وتحويل ولاء الناس إلى الغرب وحضارته ، ولا يخفى على أحد ما لليهود من سيطرة على أجهزة هذه الفنون ووسائلها ، وتحالفهم مع الغرب ضد الإسلام والمسلمين ونكتفى بضرب مثل واحد على ذلك وهو مسلسل « الجريء والجميلة » المكون مما يقرب من ألف حلقة كما يقول بعض النقاد ، وهو مسلسل يستهدف إفساد القيم الإسلامية في العلاقات الاجتماعية والفضائل الأخلاقية التي يحترمها الإسلام وقيم عليها بناء الإنسان وبناء الحضارة .

ومثله عشرات المسلسلات الأجنبية والمحلية ، وما تفرزه السينما من أفلام هابطة بحجة أنها تصور قطاعات من الشعب ، كأن الشعب ليس فيه إلا الهابط !!!

فإذا أضفت إلى ذلك ما تنشره بعض المجلات والصحف من موضوعات وقصص أقل ما فيها من ضرر هو إشاعة بعض الانحرافات وتوضيح وسائلها أمام القراء !!! هالك ما تهدف إليه هذه المجلات والصحف .

وبهذا يستطيع الغرب ومعه اليهود أن يستغلوا الفنون استغلالا يحقق مصالحهم في عداة الإسلام والمسلمين ، ويفوت علينا مصالحنا في اعتزاز الشباب بالقيم الإسلامية .

٨ - اصطناع الخلافات والحروب بين البلدان الإسلامية

واتهام بعضها بالإرهاب

وتلك خطة قديمة حديثة يدبر لها أعداء الأمة الإسلامية من يوم دخلوا مع مصر والشام في الحروب الصليبية موضوع هذا الكتاب ، وإلى أن تحالفوا حديثا مع اليهود وعملوا على إسقاط دولة الخلافة في تركيا ، ثم تعاونوا على إنشاء إسرائيل على أرض فلسطين ، ولا يزالون يصطنعون هذه الخلافات وتلك الحروب ويرددون تهم الإرهاب .

وهم يحققون من وراء ذلك أرباحا ومكاسب نشير إلى بعضها فيما يلي :

أولا : تفريق كلمة المسلمين وإضعاف شوكتهم .

ثانيا : تشويه صورة الإسلام والمسلمين الذين يتعادون لأنفقه الأسباب .

ثالثا : تسويق أسلحتهم بأموالنا والمضى في تطويرها والسيطرة على اقتصادنا .

رابعا : التمكن لمخططاتهم المعادية في بلدان العالم الإسلامي .

خامسا : الوصول إلى ثقة بعض بلداننا فيهم لأنهم عاونوهم بالسلاح ، كما حدث مع الكويت ودول الخليج العربى ..

● أما الخلافات التى أثاروها بين بلدان العالم الإسلامى فكثيرة منها مايلي :

أ - الخلافات التى أثاروها فى دولة الخلافة بتركيا بإنشاء الأحزاب المعارضة لدولة الخلافة مما أدى فى النهاية إلى إسقاطها .

ب - وإثارة النعرات القومية لتحل محل الإسلام والاعتزاز به .

ج - وإثارة الخلافات الحدودية بين كثير من بلدان العالم الإسلامى .

د - وإثارة الخلافات الفكرية والسياسية والاجتماعية مما فرق الكلمة .

هـ - وتكريس انفصال أجزاء من الوطن الإسلامى عن وطنها الأم كبنجلاديش

واليمن الجنوبي والسودان ، وجنوب السودان ، ودول الخليج ...

و - وإثارة الخلافات بين المسلمين فى قضايا الأخذ عن حضارة الغرب أو رفضها

مطلقا .

● وأما الحروب التي أثاروا وأرثوا نازها وباعوا لها السلاح فمنها ما يلي :

- أ - الحرب بين بنجلاديش وباكستان .
- ب - والحرب بين الأفغانيين والشيوعيين .
- ج - والحرب بين العراق وإيران .
- د - والحرب بين أبناء لبنان .
- هـ - والحرب بين ليبيا وتشاد .
- و - والحرب بين السودان وجنوبي السودان .
- ز - والحرب بين المغرب وجبهة البوليساريو .
- ح - والحرب الأهلية في الصومال .
- ط - والحرب الظالمة المعتدية من العراق باستيلائها على الكويت .
- ي - والحرب بين سوريا والأردن وبين الأردن والفلسطينيين ... إلخ

● وأما اتهام بعض الدول الإسلامية بالإرهاب بقصد حصارها فمنها ما يلي :

- أ - اتهام إيران بالإرهاب ومساندة الإرهاب .
- ب - واتهام باكستان بالإرهاب في كشمير .
- ج - واتهام السودان بمساندة الإرهاب .
- د - واتهام سوريا بنفس التهمة .
- هـ - واتهام ليبيا والعراق بذات التهمة .

والهدف من وراء هذه الاتهامات واضح معاد لا خلاف عليه عند أدنى الناس قدرة على مراقبة الأحداث للتعرف على المخطط المعادي للإسلام والمسلمين .

٩ - العمل على تخفيف منابع العمل الإسلامى

وذلك من وسائلهم فى معاداة الإسلام دعوة وحركة وتربية وتنظيما ، والمقصود بهذه المنابع كل ما له علاقة بتنمية الوعى أو الحركة أو الصحوة أو التمسك بمنهج الإسلام فى الحياة ، فهم يحاولون القضاء على هذه المنابع تحت شعارات ابتكروها مثل : الأصولية الإسلامية والتطرف الإسلامى والإرهاب الإسلامى ، وأكثرهم يعلم أن الإسلام لا يمكن أن يوصف بهذه الأوصاف ولكنه الكيد ، والبحث عن تبرير للهجمات الشرسة على الإسلام والمسلمين .

وهذه التسميات لا تختلف عن تسميات أخرى أطلقوها على الإسلام وهو منها براء مثل : الإسلام الحديث ، والإسلام اليوم والإسلام الوسيط والإسلام القديم وغير ذلك !!!

● فالأصولية الإسلامية تسمية ابتكروها أسوة بما كان عندهم من أصولية فى الكنيسة أى رفض للجديد أو رفض للعلمانية أو رفض لسيطرة الكنيسة على الدولة ، وهذا شأنهم ، وليس شأن المسلمين بحال .

إنهم يزعمون أن الأصولية الإسلامية تعادى الحداثة والحضارة الغربية وتريد أن تعود بالناس إلى الظلاميات والغيبيات والظلام ، وبالتالي فلا يجوز أن يعيش هؤلاء الناس فضلا عن أن يصلوا إلى الحكم ولو كان هذا الوصول عبر قنواتهم هم « الديمقراطية وتعدد الأحزاب وصناديق الانتخاب ... » وما جرى فى الجزائر أكبر دليل على تنكرهم لمبادئهم وكفرهم بمعتقداتهم .

ومن حرب الأصولية ألا يسمح لأى تجمع إسلامى بأن يعبر عن نفسه فى حزب ولكن الشيوعيين - بعد انهيار الشيوعية - يفعلون ، والملاحدة يجدون الطريق معبدة !!!

● والتطرف والإرهاب خلط بين المفاهيم ودليل جهل ، فالتطرف يتشدد مع نفسه فى التمسك بالدين ولا يؤذى بذلك أحدا إلا نفسه وقد منع الإسلام هذا التطرف وسماه التشدد فى الدين . ولم يقل أحد بأن التطرف عدوان على الآخرين .

والإرهاب يصفونه بأنه إسلامي ، وأقل الناس علما وفهما يدرك تماما أن الإسلام حرم الإرهاب أى ترويع المسلم أو تفزيعة ، وجعل قتله من أكبر الكبائر التى تضيق على القاتل منافذ الرحمة وتطرحه إن كان متمعدا فى جهنم فى آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة .

وما يمكن أن يسمى الذى يلقي قنبلة أو يقتل أحدا من الناس اغتيالا وغدرا إلا مجرما يستحق عقاب الدنيا فى ظل منهج الإسلام ويستحق عقاب الآخرة .

لكن إسرائيل المعتدية الباغية يهولها أن يقاومها أصحاب الحق والأرض فلتصطنع لهم التسميات ولتروها وسائل الإعلام الغربية التى تسيطر عليها ، وليرددها بعد ذلك الأتباع الذين يعيشون فى دائرة النفوذ الغربى .

● وأما مقاومة المد الإسلامى أو الصحوة الإسلامية ، فيعنون به ذلك التيار الإسلامى الذى يفهم الإسلام دعوة وحركة وتربية وتنظيما يؤدى إلى قيام حكومة إسلامية تحكم بما أنزل الله وهو : حركة « الإخوان المسلمين » المتنامية فى كثير من بلدان العالم الإسلامى المعتدلة فيما تقول وفيما تفعل وهى الحركة الإسلامية الأم لكل الحركات الإسلامية المعتدلة ، وفى حرب حركة الإخوان المسلمين تبارى من لا يعرفون فى وصفها بأوصاف ليست صحيحة ولا صادقة ، وإنما تهالك هؤلاء المتهمون إرضاء للغرب ولإسرائيل ، ثم ساق الله كلمة الحق على لسان من ليس من الإخوان المسلمين ولا كان منهم ، فقد نشرت صحيفة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٦ من شهر شوال ١٤١٣ هـ - ٨ / ٤ / ١٩٩٣ م ما يلى : « فى اللقاء الأخير الذى رأسه السيد راشد وكيل مجلس الشعب ورئيس لجنة الإرهاب بالمجلس ، وحضره كمال الشاذلى زعيم الأغلبية فى المجلس ، ثم عرض الصورة النهائية لتقرير اللجنة ... ولقد تحفظ زعيم الأغلبية كمال الشاذلى على اتجاه التقرير حول ربط الجماعات الإسلامية تاريخيا بجماعة الإخوان المسلمين مؤكدا أن الإخوان المسلمين لم يكونوا سببا من أسباب الإرهاب أو حلقة من حلقاته ، وإنه لا يعنى انحراف فرد فى جماعة انحرافا فى الجماعة كلها » .

وأنا أهدى هذه الكلمات العقلانية الموضوعية إلى الكاتب بأمر السماء - كما يسمى نفسه - الأستاذ ثروت أباظة بالنسبة لما كتبه من مهاترات وتهجمات على الجماعة في مقاله الحاقد المناق الذي نشره الأهرام الصادر في ٦ من شهر شوال ١٤١٣ هـ - ٢٩ / ٣ / ١٩٩٣ م ، لعله يدرك من هذا الكلام أنه كان متحاملا !!!

كما أواجهه بما جاء على لسان وزير الداخلية المستول عن مواجهة الإرهاب المنقب عن أسبابه وجذوره بحكم وظيفته فيما نشره الأهرام الصادر في ٨ من شهر شوال ١٤١٣ هـ - ٣١ / ٣ / ١٩٩٣ م من قول الوزير : « إن التحرك الفردي لم يعد قادرا أو كافيا لمواجهة خطر الإرهاب ، وإن الخطر لم يعد يحتمل أنصاف الحلول ، وعلى القيادات الدينية وخاصة « الإخوان المسلمون » أن تقف بحسم لمواجهة الإرهاب بغير حاجة إلى التبرير أو التماس الأعذار ، وعلى علماء الإسلام أن يفتندوا دعاوى الإرهاب بالتفسير الصحيح للدين »

ولست أدري من أين جاء الكاتب بأمر السماء بأحكامه الخرافية على الإخوان بأنهم ليسوا مسلمين ، وهل يمكن أن تكون مصادره عن الإخوان المسلمين أكبر وأدق من مصادر زعيم الأغلبية البرلمانية أو مصادر وزير الداخلية ؟ أدعو الله لي وله ولأمثاله بالهدى والبعد عن التحامل والظلم .

وحركة الإخوان المسلمين على الرغم من فقهها للإسلام واعتدال منهجها وخطتها في الإصلاح شجى عند أهل الغرب جميعا ومعهم اليهود فهم دائما ينصحون بمقاومتها ومنعها من التعبير عن نفسها من خلال قناة شرعية من قنوات التعبير عن الرأي .

إن الملاحظ أنه كلما حدث شيء يعكر صفو الغرب ومخططاته أو يعكر صفو إسرائيل تعالت الأصوات والأصضاء أن اضربوا جماعة الإخوان المسلمين ، وصبوا عليها من الاتهامات ما هي منه براء !!! ويحمل وزر هذه الحملات التشويهية شكول من الناس وألوان ، في مقدمتهم الغرب الصليبي الحاقد عليهم خشية أن يعودوا بالإسلام إلى مكان الحكم والتحكيم ، وعلى رأسهم إسرائيل وما عرفت من حرب الإخوان لها منذ عام

١٩٤٨م ، كما يحمله فلول اليساريين في مصر بالذات بعد أن انهارت أحلامهم وسقط مبدؤهم في حضيض آسِن ، فما أصبح لهم هاجس إلا التخوف من الإخوان المسلمين على إنجلترا وماركس ولينين وستالين وبريجنيف وما نادوا به من مبادئ إلحادية غاشمة ظالمة للناس والأشياء ، لفظها الناس كما تلفظ النواة وأخرجوها من حياتهم كما يخرجون الفضلات والنفايات عن أجسامهم !!!

كما يحمل وزر هذه التهم أولئك الذين يزعمون أنهم علمانيون يفصلون الدين عن الدنيا ، ويطالبون بعزل الإسلام من الحياة السياسية ، وماهم من العلمانية في شيء لأنهم ليسوا رجال مبادئ يثبتون عليها حتى ينسبوا إلى مبدأ ، وإنما هم بأعيانهم الذين كانوا بالأمس ملكيين يرددون عاش الملك المفدى وأصبحوا بالأمس القريب ثوريين أو انقلابيين عسكريين يرددون بالروح بالدم نفديك يا جمال ، ثم ياسادات ، ثم يا مبارك ، ولا أدري كيف يتقبلون المبدأ ونقيضه ولا يستحون !!!

كما يحمل وزر هذه التهم كل منافق عليم اللسان لا يخاف الله ولا يتبين عندما يجيئه الفاسق بالنبأ فيصيب الإخوان بجهالة فلا يسعه أمام الله إلا الندم .

ويا سبحان الله لقد تكفل بدفع التهم عن الجماعة زعيم حزب الأغلبية ووزير الداخلية ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وإن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور .

إن جماعة الإخوان المسلمين أثبتت في مختلف أطوار تاريخها الذي بلغ اليوم خمسة وستين عاما أنها جماعة تفهم الإسلام فهما صحيحا أساسه الكتاب والسنة ، وتنفر بل ترفض كل ما يخالف هذين الأصلين ، ولا يمكن أن تجد فيهما مبررا لإرهابي مجرم يقتل أو يؤذى مسلما أو مسيحيا أو زائرا للسياحة أو غيرها ، لأن ذلك حرمه الله ، وهي تؤمن بأن الدعوة إلى الله ذات مسائل معروفة نص عليها القرآن وليس من بينها الترويع ولا القتل وهي : الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هي أحسن .

وذلك تاريخ الجماعة وهذا نهجها في العمل والإصلاح وتأليف قلوب الناس

وجمعهم على الحق ، ومازعم أيام عبد الناصر من أن الجماعة دبرت اغتياله في حادث « المنشية بالإسكندرية » تكفل بالرد عليه ونفيه وتأكيد أنه مؤامرة دبرها الغشوم ليطش بالإخوان كما أوحى إليه شيطانه الأمريكى حيناً والروسى حيناً آخر ، أكد هذه الحقائق رفقاء جمال عبد الناصر الذين كتبوا مذكراتهم ونشروها على ملأ من الناس .

وما اتهمت به الجماعة قبل ذلك من أحداث فيها عدوان على أحد كان تصرف فرد أو أفراد ، ولم يكن نابعا من منهج الجماعة في العمل والإصلاح والدعوة والحركة والتنظيم .

وأما أن الجماعة دربت الشباب على استعمال السلاح وأنشأت ما عرف بالنظام الخاص سنة ١٩٤٣م ، فهذا حق لا ينكره إلا جاهل أو مكابر ولكن من يقرأ لائحة النظام الخاص وهى من أهم وثائق الجماعة وأوراقها التاريخية يدرك أنها أنشأت هذا النظام لمقاومة المحتل الغاصب لمصر من سنة ١٨٨٢م ولمقاومة اليهود الذين مكن لهم الإنجليز في فلسطين منذ وعد بلفور ١٩١٧م .

ثم جاءت الأحداث لتؤكد الهدف من هذا النظام يوم خاضت الجماعة بأفراد هذا النظام حربا ضد اليهود في فلسطين سنة ١٩٤٨م وحربا ضد الإنجليز في قناة السويس سنة ١٩٥١م ، وهذا ليس تهمة وإنما هو موضع فخر وتشريف للجماعة .

إن مقاومة المد الإسلامى المتمثل في جماعة الإخوان المسلمين خطة يضع تفصيلاتها الغرب الصليبي والصهيونية العالمية وتشارك فيها معظم بلدان العالم الإسلامى لأنها في دائرة نفوذ الغرب الاقتصادى أولا والسياسى بعد ذلك ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

● وأما ضرب الحركات الإسلامية في العالم كله ، فالمقصود بها الحركات أو الجماعات التى تتقيد في منهج عملها بأصول الإسلام من الكتاب والسنة ، وتتخذ خطوات وفق هذا المنهج لتوجد الحكومة الإسلامية التى تحكم فى الناس بما أنزل الله ، القادرة على تحقيق العدل والشورى والإحسان .

وقد تختلف هذه الجماعات أو الحركات الإسلامية في وسائل العمل من أجل الإسلام وبرامجه ومراحله ، ولكنها جميعا تتفق في وجوب أن تكون الوسائل مما شرع الله وأحل .

ولتكن أسماء هذه الجماعات أو الحركات ما تكون ، وفي مقدمة هذه الحركات ومن أكبرها حركة الإخوان المسلمين في العالمين العربى والإسلامى وفي المهاجر من أوروبا وأمريكا وأستراليا . وحركة الجماعة الإسلامية في باكستان ، وجماعة التبليغ ، والجماعة السلفية ، وجماعة الجهاد الإسلامى ، وجماعة جبهة الإنقاذ الإسلامى بالجزائر ، وحركة الاتجاه الإسلامى في تونس ، وجماعة جبهة الإنقاذ في السودان ، وجماعة الإخوان المسلمين في عديد من بلدان العالم .

كل تلك هى الجماعات أو الحركات الإسلامية بشرط تطبيق منهج الإسلام في العمل واتخاذ الوسائل المشروعة في تحقيق الهدف .

ونود أن نرصد أهداف كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة وهى حركة الإخوان المسلمين ليكون ذلك رداً على كل حاقد أو منافق أو جاهل ، وسوف ألتزم في تحديد هذه الأهداف بما جاء في قانون النظام الأساسى للجماعة الصادر في سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م والمعدل بموافقة الهيئة التأسيسية للجماعة في سنة ١٣٦٧ - ١٩٤٨م وقد جاءت هذه الأهداف في المادة الثانية من هذا القانون وهذا نصها :

مادة ٢ : « الإخوان المسلمون هيئة إسلامية جامعة تعمل لتحقيق الأغراض التى جاء من أجلها الإسلام الخنيف ، وما يتصل بهذه الأغراض من :

أ - شرح دعوة القرآن الكريم شرحا دقيقا يوضحها ويردها إلى فطريتها وشمولها ويعرضها عرضا يوافق روح العصر ويرد عنها الأباطيل والشبهات .

ب - وجمع القلوب والنفوس على هذه المبادئ القرآنية وتجديد أثرها الكريم فيها ، وتقريب وجهات النظر بين الفرق الإسلامية المختلفة .

ج - تنمية الثروة القومية وحمايتها ، وتحريرها والعمل على رفع مستوى المعيشة .

د - تحقيق العدالة الاجتماعية ، والتأمين الاجتماعى لكل مواطن ، والمساهمة في الخدمة الشعبية ، ومكافحة الجهل والمرض والفقر والريضة ، وتشجيع أعمال البر والخير .

هـ - تحرير وادى النيل والبلاد العربية جميعا والوطن الإسلامى بكل أجزائه من كل سلطان أجنبى ، ومساعدة الأقليات الإسلامية فى كل مكان ، وتأييد الوحدة العربية تأييدا كاملا ، والسير إلى الجامعة الإسلامية .

و - قيام الدولة الصالحة التى تنفذ الإسلام وتعالجه وتحرسها فى الداخل وتبلغها فى الخارج .

ز - مناصرة التعاون العالمى مناصرة صادقة فى ظل المثل العليا الفاضلة التى تصون الحريات وتحفظ الحقوق ، والمشاركة فى بناء السلام والحضارة الإنسانية على أساس جديد من تآزر الإيمان والمادة ، كما كفلت ذلك نظم الإسلام الشاملة .

مادة ٣ - يعتمد الإخوان المسلمون فى تحقيق هذه الأغراض على الوسائل الآتية وعلى كل وسيلة أخرى مشروعة :

أ - الدعوة : بطريق النشر والإذاعة المختلفة من الرسائل والنشرات والصحف والمجلات والكتب المطبوعات وتجهيز الوفود والبعثات فى الداخل والخارج .

ب - التربية : بطبع أعضاء الهيئة على هذه المبادئ ، وتمكين معنى التدين العملى لا القولى فى أنفسهم أفرادا وبيوتا وتكوينهم تكوينًا صالحًا بدنيا بالرياضة وروحيا بالعبادة ، وعقليا بالعلم - وتثبيت معنى الأخوة الصادقة والتكامل التام والتعاون الحقيقى بينهم حتى يتكون رأى عام إسلامى موحد ، وينشأ جيل جديد يفهم الإسلام فهما صحيحا ويعمل بأحكامه ويوجه النهضة إليه .

ج - التوجيه : بوضع المناهج الصالحة فى كل شئون المجتمع : من التربية والتعليم ، والتشريع ، والقضاء ، والإدارة ، والجندية ، والاقتصاد ، والصحة العامة والحكم ... إلخ والاسترشاد بالتوجيه الإسلامى فى ذلك كله ، والتقدم بها إلى الجهات المختصة ،

والوصول بها إلى الهيئات النيابية والتشريعية والتنفيذية والدولية ، لتخرج من دور التفكير النظرى إلى دور التفكير العملى .

د - العمل : بإنشاء مؤسسات اقتصادية واجتماعية ودينية وعلمية ، وبتأسيس المساجد والمدارس والمستوصفات والملاجئ ... إلخ وتأليف اللجان لتنظيم الزكاة ، والصدقات لأعمال البر ، والإصلاح بين الأفراد والأسر ، ومقاومة الآفات الاجتماعية ، والعادات الضارة ، والمخدرات والمسكرات والمقامرة والبغاء ، وإرشاد الشباب إلى طريق الاستقامة طبقا للوائح الخاصة التى تتفق مع القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٤٥م الخاص بتنظيم الجماعات الخيرية وأعمال البر وتسجيلها بوزارة الشؤون الاجتماعية » .

وأغلب الجماعات والحركات الإسلامية مشغولة قطعا - فم نعتقد - فى تحقيق أهدافها وبرامجها بشرح دعوة القرآن الكريم ، ما يشك فى صحة ذلك منصف ، ولكن البرنامج ربما لا يكامل عند بعض هذه الجماعات والحركات ، وربما تدخل بعض هذه الجماعات بين وسائلها ، وسائل غير الدعوة والتربية والتوجيه والعمل أى الوسائل المشروعة ، فأتخذوا من الوسائل ما ليس بعيدا عن الشبهات أو غير مقبولة شرعا فى نظر بعض الجماعات ومقبولة عند بعضها لاختلاف اجتهاد هؤلاء عن أولئك، لا تعتمد فيها لمخالفة الإسلام .

وهذه الحركات والجماعات الإسلامية فى مختلف أقطار العالم الإسلامى أسهمت بكل تأكيد فى إيجاد صحوة إسلامية عامة وفى تنامى حركة إحياء الدين الصحيح ، وفى فهم عميق لأبعاد السياسة الغربية والسياسة اليهودية فى تحدى الإسلام والعروبة وكل ما يمكن أن يجمع كلمة المسلمين على سواء .

كما أسهمت هذه الجماعات والحركات الإسلامية فى حركة تنوير علمية توجه من خلالها مئات الدراسات العلمية المنهجية على أعلى مستوى ، لسد الفراغات فى المجتمعات التى يعيشون فيها .

ولقد بصّرت هذه الجماعات والحركات الإسلامية أصحاب الحقوق بحقوقهم فى أوطانهم ، وفى عالمهم الإسلامى ، وفى العالم كله ، ما يشك فى ذلك من يتبع بإنصاف

أعمال هذه الجماعات والحركات الإسلامية .

ولقد شعر المسلمون عموماً والعرب بخاصة في هذا الوقت الذي شكل فيه ما يعرف بالنظام العالمي الجديد بمدى ما يقع عليهم من ظلم بتشجيع إسرائيل على تلك الجرائم التي ترتكبها كل يوم ضد أصحاب الحق وأصحاب الأرض ، ومن كيل بمكيالين ووزن بميزانين في مناطق عديدة في العالم يسام فيها المسلمون الخسف باسم النظام العالمي الجديد .

١٠ - النظام العالمى الجديد

ذلك النظام الذى جعل من أمريكا ودول أوربا التى شاركتها فى حرب الخليج هو وسيلة للغرب فى إحكام السيطرة على العالم الإسلامى من خلال السيطرة على هيئة الأمم المتحدة ، وقد حقق النظام العالمى الجديد هذين الهدفين فى ممارسات عديدة ضد الإسلام والمسلمين والعرب ، فلقد صرح أكثر من رئيس غربى - بعد انهيار الاتحاد السوفيتى - بأن الغرب لم يعد أمامه من عدو أهم من الإسلام والأصولية الإسلامية . ولقد مارس النظام العالمى الجديد أعمالا عدوانية للإسلام والمسلمين فى المواقف التالية :

- أ - الموقف المنحاز لإسرائيل والتهاون معها فى تنفيذ قرارات الأمم المتحدة وهى عشرات القرارات أحدثها القرار ٨٩٩ الخاص بإعادة العرب المطرودين من فلسطين .
 - ب - والموقف المنحاز ضد مسلمى البوسنة والهرسك وهو موقف مخز اعترض عليه بعض زعماء الغرب أنفسهم .
 - ج - والموقف المنحاز ضد السودان .
 - د - والموقف الحاقد المنحاز ضد إيران .
 - هـ - والموقف المزرى إزاء ما يقع على المسلمين من اضطهاد وعدوان فى كشمير وبورما والفلبين وفلسطين .
 - و - ورفع سيف الاتهام بالإرهاب وما يترتب عليه من حصار اقتصادى لكل دولة لا تحارب الإسلاميين وتضطهدهم وتمنعهم من ممارسة حقوقهم السياسية .
 - ز - والوقوف فى وجه أى وحدة أو اتحاد إسلامى أو عربى .
- وليس الذى يحدث الآن فى المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وسوريا والعراق والسعودية ودول الخليج وأخيرا باكستان ، ليس ذلك إلا دليلا على أن ضرب التيار الإسلامى والجماعات الإسلامية باسم التطرف والإرهاب تقوم به دول الغرب الصليبي تعاضدها إسرائيل بحجة القضاء على العدو الذى حل محل الاتحاد السوفيتى المنهار .

وهذه الدولة العربية والإسلامية إنما تسهم من حيث تدرى أو لا تدرى في تقليص أثر الإسلام وإضعاف علاقته بالناس وعزله عن ساحة الفكر والعمل ، يواكبها في ذلك عدد كبير من اليساريين المسيطرين سيطرة تامة على وسائل الإعلام الذين يهولهم أن يكون هناك حكم إسلامي في أى بلد من بلدان العالم الإسلامي .

ولقد انجرف إلى هذا المستنقع الذي يحارب الإسلام والجماعات الإسلامية كثير من المثقفين ، فتخلوا عن وظيفتهم الأولى وهي الحوار والإقناع إلى البحث عن تنظير وتبرير للحكومات وهي تقمع بكل شدة كل عمل إسلامي دون تفريق بين إرهابي ومعتدل ، إن هؤلاء المثقفين أصبحوا يربطون بين الإرهاب وبين الإسلام ، وهم في ذلك جد مخطئين إن أحسنا بهم الظن ، وجد حاقدين منافقين إن أخذناهم بما يقولون .

إنهم اليوم يضربون الحركات الإسلامية عموما ، ويضربون مفهوم الإسلام السياسى ، ويضربون الأصولية الإسلامية التي أقحموها على فكرنا ولغتنا وتراثنا ، ويضربون الشريعة الإسلامية نفسها وأهداف الإسلام ومقاصده في هذه الحملة الضارية التي أصيبت بمعنى الألوان فهي لا تفرق بين أسود وأبيض ، ولكن الله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .



الباب الأول



دوافع الصليبيين في حرب المسلمين

الباب الأول

دوافع الصليبيين في حرب المسلمين

ويتناول :

١ - توطئة في دوافع هذه الحروب

٢ - الدوافع الدينية

٣ - الدوافع السياسية

وتشمل موضوعات ثلاثة :

أولها : الغزو الصليبي للأندلس المسلمة

ثانيها : الغزو الصليبي الذي قام به البيزنطيون

ثالثها : الغزو الصليبي الغربي للشرق الإسلامي

ويشمل :

أ - الكنيسة وهذه الحروب

ب - الدول الأوروبية التي شاركت في هذه الحروب

ج - الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي

د - الممالك الصليبية في الشرق الإسلامي

هـ - إخراج الصليبيين من الشرق الإسلامي

٤ - الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب

١ - توطئة في دوافع هذه الحروب

اشتركت عوامل عديدة في إثارة هذه الحروب ودفعها إلى الوصول إلى غاياتها ، ولم تكن هذه العوامل في جوهرها وحقيقتها إلا ظروفًا أحاطت بالصلبيين في مجتمعاتهم التي يعيشون فيها •

وربما كان بعض هذه العوامل راجعًا إلى ظروف المجتمع في العالم الإسلامي آنذاك - وبخاصة عندما تكون ظروف العالم الإسلامي ، قد بلغت من السوء والاضطراب والفرقة ذلك الحد الذي بلغته - غير أن ما يعنينا في هذه الكلمات ، هو العوامل التي تتصل بالصلبيين أنفسهم •

تلك العوامل التي دفعت الحروب الصليبية إلى غايتها ، كان أبرزها ما يتصل بالناحية الدينية ، وموقف الكنيسة من هذه الحروب ، وإن كانت هذه الناحية لم تكن وحدها هي المؤثرة الفاعلة ، وإنما تعاونت معها نواح أخرى لاتقل عنها أهمية ، كالناحية السياسية والناحية الاجتماعية والاقتصادية •

ومن جملة هذه العوامل أو الدوافع ، قامت الحروب الصليبية على قدم وساق ، وامتدت أخطارها وآثارها في العالم الأوربي كله ، وفي العالم الإسلامي غربه وشرقه •
ولسنا نبالغ حينًا نقول : إن هذه الدوافع قد استمرت ، حتى بعد أن وضعت الحملات العسكرية أوزارها - في أخريات القرن السابع الهجري - استمرت إلى ما بعد ذلك بكثير من القرون ، بل استمرت إلى الفترة التي تحالفت فيها دول أوروبا - من جديد - ضد دولة الخلافة العثمانية في القرن الرابع عشر الهجري ، والتي استطاعت بهذا التحالف أن تقضى على دولة الخلافة وأن تتقاسم فيما بينها بلدان العالم الإسلامي غربه وشرقه •
ولقد وضّح « النبي » وهو يحتل بيت المقدس في العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي ، أن تحالف دول أوروبا ضد دولة الخلافة كان امتدادًا لتلك الحروب الصليبية التي

بدأت في القرن الخامس الهجري عندما قال وهو يُستولى على بيت المقدس : « الآن انتهت الحروب الصليبية »

ونحن بدورنا نقول : إن الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي لم تنته بعد احتلال الصليبيين لبيت المقدس ، ولا بعد زرعهم لدولة إسرائيل في قلب الجزء العربي من العالم الإسلامي ، ذلك أن الدوافع قائمة والأسباب متجددة •

ويوم يفيق العالم الإسلامي على تلك الحقيقة التي ذكرنا ، ربما يفكر في خطة تنهى الحروب الصليبية ، وتضع حداً لأخطارها وأثارها •

أما قبل ذلك الوعي ، فسوف تظل هذه الحروب تزيد المسلمين خسارة إلى ما خسروا فيها من قبل ، وسوف يظلون الجانب المغلوب ، إلى أن تتغير ظروف دول الغرب فتعجز عن تأريث هذه الحروب والحشد لها ، وربما طال أمد الفترة الزمنية التي تتغير فيها ظروف دول الغرب نحو الوضع الذي يعجزها عن المضي في هذه الحروب •

والأمر إذن متروك لأبناء العالم الإسلامي ، إن شاءوا خرجوا من دائرة الهزيمة ، وإن شاءوا ورثوا أجيالهم أسوأ مايورث الآباء للأبناء •

وعن هذه الدوافع سوف تكون كلمتا في هذا الباب الأول من الكتاب والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط •



٢ - الدوافع الدينية

لابد لنا من إشارة إلى الظروف الدينية التي عاشتها أوروبا - غربيها وشرقيها - قبل الحروب الصليبية ، قبل أن نتحدث عن الدوافع الدينية التي أدت إلى هذه الحروب .
والظروف الدينية في أوروبا مرتبطة أشد الارتباط بالكنيسة ، والكنيسة قد انشقت منذ زمن باكر إلى كنيسة كاثوليكية يرأسها بابا روما - أوروبا الغربية - وأرثوذكسية وبيروتستانتية ، فضلا عن الانقسام الكبير الذي حدث في أخريات القرن الرابع الميلادي عندما انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى امبراطوريتين ، البيزنطية في شرق أوروبا والغربية في روما .

وفي القرن العاشر الميلادي - الرابع الهجري تقريبا - عاشت البابوية أسوأ ظروفها ، وكانت السلطة تباع وتشترى حسب الأهواء السياسية ، فقد سيطرت على الكنيسة والبابوية أسر كبيرة مثل أسرة « أورسينى » وأسرة « كولونا » فأضعفت سلطان الكنيسة .

أما في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري - وهو القرن الذي حدث قرب نهايته أن وجهت الكنيسة الحروب الصليبية إلى الشرق الإسلامي - فقد كانت الكنيسة الرومانية الغربية قد استعادت كثيرا من نفوذها بعد الإصلاحات الكنسية الهامة التي قام بها البابا « جريجوريوس » السابع .

كما استطاع البابا « انيوشانسيس » الثالث ، أن يكون الحكم المسموع الكلمة في أى نزاع ينشأ بين دول أوروبا .
لكن كنيسة الدولة الرومانية الشرقية « بيزنطة » كانت على خلاف يفتري حينا ويشدد حينا مع كنيسة روما .

وكان بابا كنيسة روما يوطد سلطته على كل مكان يستولى عليه الإسبان من

المسلمين ، قبيل الحروب الصليبية ، ممازاد نفوذ البابا ووسّع سلطانه ، وجعله في زمن ليس بالطويل لايجد منافساً له في إسبانيا كلها ، من أى كنيسة .

ولم تتحسن العلاقات بين الكنيستين أو الدولتين رومة وبيزنطة إلا في سنة ١٠٧٣م - ٤٦٦ هـ حينما قرر الامبراطور ميخائيل السابع امبراطور بيزنطة أن يعقد اتفاقاً ودّياً مع روما - وخصوصاً بعد أن تم في العام نفسه انتخاب « الكاردينال هيلد براند » المعروف بصلابته ليكون « بابا » لرومة فاتخذ اسم جريجورى السابع ، فأرسل ميخائيل السابع إلى البابا الجديد يهنئه بانتخابه ويلمح إليه في رغبته في ازدياد الصلة بينهما .

وقد رحب البابا بذلك وأرسل من قبله بطريرك البندقية « دومنيكوس » مندوباً عنه إلى القسطنطينية لينهى إليه بما يجرى من الأمور فيها .

واقترح البابا جريجورى بأن الامبراطور ميخائيل صادق في عرضه ، وبخاصة بعد أن انتهى إليه ماكتبه « دومنيكوس » من أحوال القسطنطينية ، كما وقف جريجورى كذلك على الأحوال في آسيا الصغرى ، لذلك من أهمية في حركة الحجاج إلى بيت المقدس .

ولم تكن فلسطين آنذ مقفلة في وجه الحجاج ، غير أن الرحلة إليها عبر آسيا الصغرى لم تلبث أن أصبحت مستحيلة إذا لم يجر منع الغارات التركمانية .

أعد « جريجورى » سياسة جديدة ، في ضوء ماتراى له من فكرة سياسية بارعة تكاد تكون خيالية ، فالحرب المقدسة التي أحرزت نجاحاً كبيراً عند اندلاعها في إسبانيا ، لابد من امتدادها إلى آسيا الصغرى .

والمعروف أن أصدقاءه في بيزنطة في أشد الحاجة إلى مساعدة حربية ، فيبعث إليهم جيشاً من الفرسان المسيحيين ، يخضعون لأوامر الكنيسة ، وفي هذه الحالة يتولى البابا بنفسه قيادتهم - نظراً لأن ثمة من المشاكل الكنسية التي تتطلب الحل ، فتقوم عساكره بطرد المسلمين من آسيا الصغرى (وهذا جزء من الخطة الخيالية) ، ثم يعقد بعدئذ مجمعاً بالقسطنطينية ، حيث يحسم مسيحيو الشرق - في ذلة ومسكنة ما كان بينهم من منازعات .

ويعترفون بسيادة روما (وهذا هو الجزء الثاني من الخطة الخيالية) .

غير أن « جريجورى » لم يستطع أن ينفذ خطته هذه ، لأن صلابته التى عرف بها أدت إلى وقوعه فى مشكلات عديدة مع حكام الغرب وأمرائه ، مما أنساه اهتمامه أو مطامعه فى الشرق . .

على أن العلاقات بين العالم المسيحى فى الشرق والغرب ، لم تبلغ من البرود مثلما بلغته سنة ١٠٨٧م - ٤٨٠ هـ وهى السنة التى مات فيها « جريجورى » السابع .
فالإمبراطور الشرقى « البيزنطى » - الذى وجد فى هنرى الرابع ملك ألمانيا حليفاً ضد البابا - وجد نفسه وقد قطعه البابا من الكنيسة ، ولم يكتف البابا بذلك بل أخذ يشجع المغامرين الغلاظ من النورماندين على أن يهاجموا إخوانهم المسيحيين ، على حين أن العدو الأساسى للبابا - وهو هنرى ملك ألمانيا - كان يتلقى علناً المساعدات من « البيزنطيين » ، فاشتدت حدة المراتة والكراهية بين الجانبين .

وفى سنة ١٠٨٨م اجتمع مجلس الكرادلة واختاروا « أودو دى لاجيرى » بابا لهم وأسمى « إيربان الثانى » .

وإذا كان « إيربان » قد ورث إرثاً شاقاً فإن ما تمتع به من كياسة ودهاء جعله يضعف مركز هنرى الرابع ملك ألمانيا بأن شجع ابنه « كونراد » على التمرد عليه .
كذلك نجح « إيربان » فى أن يخضع لسيادته كل النظام الكنسى فى فرنسا، وفى إسبانيا كان لنفوذه السيادة والسلطان ، وأخذت بعد ذلك البلاد النائية فى أوروبا تعترف بسلطته الروحية .

وأظهر « إيربان » مزيداً من الصبر والتحمل مع الأمراء العلمانيين فى كل مكان فى أوروبا .

ولم يجرى عام ١٠٩٥م - ٤٨٩ هـ إلا وكان البابا « إيربان الثانى » السيد المطاع فى العالم المسيحى فى الغرب . (١)

١ - ستيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية - ترجمة د . السيد الباز العرينى ١٥٠/١ - ١٥٣ باختصار وتصرف

البابا « إيريان الثاني » يعد للحروب الصليبية

بعث البابا برسائل إلى أساقفة فرنسا والبلاد المجاورة يطلب إليهم الاجتماع به في « كلير مونت » في شهر نوفمبر في الفترة ما بين ١٨ و ٢٨ من هذا الشهر - وشهد نحو ثلاثمائة من رجال الدين ، وناقش معهم البابا إيريان عددا من الأمور التي تتصل بالكنيسة وأنظمتها ، وكان ذلك هو الهدف القريب لهذا المؤتمر ، أما الهدف الحقيقي أو البعيد فقد اتضح عندما أعلن البابا أنه سيلقى خطابا هاما في جلسة علنية يوم الثلاثاء ٢٧ من نوفمبر ، وألقى خطبة هامة في هذا المؤتمر هي خطبة الدعوة إلى الحروب الصليبية - المقدسة - وقد احتشد لهذا الخطاب جموع من القسس والعلمانيين ، بلغ عددهم من الضخامة أن « الكاتدرائية » التي أُنْعِدَ بها المجمع لم تتسع لهم ، فقرر إقامة الكرسي البابوي على منصة مرتفعة تطل على الفضاء ، خارج الباب الشرقي للمدينة ، ولما اكتمل اجتماعهم نهض البابا إيريان فحاطبهم قائلا : « أيها المسيحيون : إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها ، وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا ، وذاك الجبل الذي عليه تألم ومات من أجلنا ، وذلك الضريح الذي تنازل لأن يدفن فيه ضحية للموت .. كلها أضحت ميراثا لشعب غريب ، وغاب بهاؤها الأصلي ، وهياكلها قد خربت ، وأشعة نورها الساطعة تحولت إلى ظلام حالك ، وهي تستحق الندب الشديد والبكاء . ولم يعد لله من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية ، وجهات آسيا الأكثر ثروة وغناء أضحت في فقر مهين .

وأنطاكية ، وأفسس ، ونيقية ، قد صارت مدن الإسعاعيليين ، والأتراك قد مدوا ولايتهم إلى حدود « هاليبوتوس » لا ، بل إلى أبواب القسطنطينية .

ومن هناك ذراع هذه الشعوب القوى يهدد بالاستيلاء على كل ممالك الغرب ..

ثم واصل قائلا : « لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون ضدّ الإسلام تلك الأسلحة التي تتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر ، لأخذ الثأر عن بعض إهانات ..

فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هي لأخذ النار من إهانات ضد البشر ، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله ، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط ، بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى .

فانخذوا محجة القبر المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم ، فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا .

ثم واصل قائلا : فإذا انتصرتكم على أعدائكم ، فالملك الشرقي يكون لكم قسما وميراثا ، وأما إذا قتلتم فلکم المجد لأنكم تموتون في المكان الذي فيه مات يسوع المسيح » .

ثم أخرج علامة الفداء المقدسة وهي « صليب الخلاص » عندهم وقال : « احمليه على عواتقكم ، أو على صدوركم ، وليشرف فوق أسلحتكم وفي رؤوس سناجقكم » (١) وهذا الخطاب أو تلك الخطبة على لسان أى مؤرخ ممن أوردوها ، ليست الرواية اللفظية الدقيقة ، وإنما هي صياغة هؤلاء المؤرخين ورواياتهم في ضوء الأحداث التالية (٢) ولكي يدعم البابا إربان الرغبة في الاشتراك في الحروب الصليبية في نفوس الأمراء والنبلاء - وبخاصة أن أكثر من استجابوا له في مجمع « كلير مونت » كانوا من الفقراء والوضعاء - على حد تعبيرهم - أصدر قرارا ببذل التحلل من العقوبات الدنيوية عن الذنوب التي ارتكبتها من اشترك بنية خالصة في الحرب المقدسة .

ولم يكتف البابا بذلك - في باب التشجيع - وإنما أضاف إليه : أن كل ما يمتلكه المشتركون في القتال من متاع الدنيا ، سوف يكون تحت حماية الكنيسة أثناء تغييهم في الحرب ، ويعتبر الأسقف المحلي مسئولا عن سلامته ، وينبغي أن يرده كاملا حينما يعود المحارب إلى وطنه .

١ - باركر أرنست : تاريخ الحروب الصليبية : تعريب مكسيموس مظلوم طدير الفرنسيكان .

٢ - ستيفن رنسان : تاريخ الحروب الصليبية - ترجمة الباز العريضي : ١٦١/٨ .

ط دار الثقافة بيروت ١٩٦٧ م .

وعمل إيربان على أن يكون قائد الحملة من رجال الكنيسة وتحت إشرافه وليكن مندوبا عنه ، فاتخذ المجمع قرارا بالإجماع بأن يكون أسقف « لى بويه » قائدا للحملة - هو أدهار -

وجعل « إيربان » لهذه الحروب قوانين أهمها :

أن كل مشترك في هذه الحملة لابد أن يحمل علامة الصليب ، ولابد أن يجعل على كتف سترته صليبا من نسيج أحمر اللون ، وكل من يتخذ الصليب ينبغى أن يوفى بالوعد بالمسير إلى بيت المقدس ، فإذا لم يوف تعرض للقطع من الكنيسة •

ولا ينبغى لأحد أن يسير هذه الحروب إلا بعد مشورة مستشاره الروحى ، وينبغى أن يتجهز كل فرد لمغادرة وطنه في عيد العذراء (١٥ من أغسطس) في السنة التالية بعد أن يتم جمع المحصول •

وينبغى أن تلتقى الجيوش في القسطنطينية • (١)

ولم يكتف إيربان الثانى بذلك ، وإنما أخذ يتنقل بين المدن والبلدان داعيا للحرب الصليبية ، فعند مجعما في ليموج في شهر ديسمبر ١٠٩٥م - ٤٨٩ هـ وكرر الدعوة نفسها في : أنجزومان وتورز وبواتيه وبوردو وتولوز وغيرها ، واستغرق ذلك من شهر يناير إلى شهر يونيو سنة ١٠٩٦م - ٤٩٠ هـ

كما طلب البابا من الأساقفة أن يبشروا للحروب الصليبية ، فأثبرى أساقفة من أمثال : روبرت أربسيل ، والراهب الطواف بطرس الزاهد ، ولعلنا بذلك الذى قلنا - تؤكد أن فكرة الحروب الصليبية نبتت من البابا إيربان الثانى ومن خطبته التى كانت في مجمع كلير مونت ، وليس صحيحا ما تردد في عدد من البحوث الحديثة (٢)

١ - السابق : ١٦٣/١

٢ - مثل كتاب : الحروب الصليبية وانها في الأدب العربى في مصر والشام - لمحمد سيد كيلانى •

غير أن بطرس الزاهد هذا قام بدعاية لهذه الحروب لا ينكر أثرها ، يقول عنه : ستيفن رنسيان : « عرفه معاصروه باسم بطرس الصغير ، غير أن ما اتخذ فيا بعد من رداء الزاهد جعله معروفا عادة باسم « الزاهد » الذي اشتهر به في التاريخ . كان بطرس قصير القامة ذا لون داكن وجه طويل نحيل أشبه مايكون في قبحه بوجه الحمار الذي يمتطيه ^(١) ، والذي لقي من التكريم والتبجيل مثل مالفى بطرس . درج بطرس على أن يسير حافي القدمين وقد ارتدى ملابس رثة . لم يتناول في طعامه الخبز أو اللحم ، بل جعل غذاءه السمك ، واتخذ النبيذ شربا له .

وعلى الرغم من حقارة مظهره ، فإنه ادخر من القوة ما كان يثير الرجال . أحاط به جو غريب من السلطة والنفوذ ، فيروى « جيبرت نوجنت » الذي يعرفه شخصيا فيقول : ما يردده بطرس أو يعقله ، يتراءى على أنه من صنع الله ^(٢)

ومالقيه بطرس من نجاح في دعوته ليس مرده إلى قدرته البيانية فحسب ، وإنما يرجع إلى أسباب عديدة كانت تشجع الناس في أوروبا على الانخراط في هذه الحروب ، فقد كانت أحوال شألى غربى أوروبا في غاية السوء سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، فنظام الإقطاع بكل مفاسده ، والفيضانات والأوبئة وماتلاها من جفاف ومجاعة سنة ١٠٩٥ م ، فضلا عن تساقط الشهب في تلك الفترة - الذي أدى إلى هجرة كبيرة بين الناس - كل ذلك كان من أسباب استجابة الناس لما يردده بطرس عن حرب يستولى فيها الناس على البلاد التى تفيض عسلا ولبنا بلاد الشرق الإسلامى .

١ - هذا الوصف غير لائق من المؤلف لأن عيب الحلقة غير أخلاقى وغير مرضى .

٢ - ستيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ١٦٩/١

وهذه الأزمات التي عانت منها أوروبا أشار إليها البابا إيربان في خطبته فيما يذكره روبرت الراهب : « ليس بوسعكم أن تدبروا في هذه البلاد الطعام للسكان ، وهذا هو السر في أنكم تستهلكون سلعتها وتشنون فيما بينكم حروبا لانهاية لها » ^(١)

وأوشكت أن تتجه الحملة إلى غايتها بقيادة الأسقف أدهمار نائب إيربان لولا أن ريموند الرابع أمير تولوز وبيروفانس وأحد كبار قادة فرنسا وأمرائها أعلن عزمه على المشاركة في هذه الحروب التي دعا لها البابا .

ولم تكن هذه المرة الأولى التي أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، إذ سبق له أن شارك في حربهم في إسبانيا كما يروى ميخائيل السرياني أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوي أدهمار . ^(٢)

وإذا كان بطرس الزاهد قد قام بمجهودات في الدعاية للغزو الصليبي ، وجمع من حوله ألوف الراغبين في الاشتراك في هذا الغزو من مختلف أقاليم فرنسا ، إلا أن هذه الجموع كانت من الطبقات الدنيا وكانت على جانب كبير من الفوضى والاضطراب ، بل أبعد ما يكونون عن التنظيم السياسي أو العسكري .

ونستطيع القول بأن جموع بطرس الناسك هذا لم يجمعهم نظام ولم يتول أحد قيادتهم ، ولا شك أن البابا كان يأمل في أن يصل هؤلاء الحجاج وأتباع بطرس سالمين إلى القسطنطينية ، وأن ينتظروا بها حتى يقدم المندوب البابوي والقادة العسكريون فيدخلونهم في صفوف الجيش المسيحي الكبير . ^(٣)

١ - السابق : ١٧١/٨ .

٢ - د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ١٣٤/١ ط الانجلو المصرية سنة ١٩٧١م

٣ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ١٧٢/٨ .

وكانت خطة البابا في تجميع جيوش الغزو الصليبي بالقسطنطينية تعكس ثقته في الامبراطور ألكسيوس وفي ترحيبه بهذه المجموع ، إذ كان ألكسيوس هو الذى طلب من أوروبا الغربية المعونة بهذه الجيوش ليقف بها في وجه السلاجقة الذين يهددون بيزنطة .

وكان ألكسيوس في صراعه مع السلاجقة بآسيا الصغرى يتخذ كل الوسائل التى تمكنه من التغلب عليهم ، حتى أسلوب الدس وإحداث الفرقة والحروب الداخلية بين السلاجقة ، ولما ضعف السلاجقة بهذه الخلافات رأى أن يستعين بجيوش أوروبا في القضاء على السلاجقة ، وهامى الجيوش قد وصلت .

غير أن تلك الكثرة التى تجمعت بها الجيوش وهذه الأنباء التى سبقتها إلى بيزنطة من أعمال التخريب والعدوان التى قامت بها هذه الجيوش على البلاد التى مرت بها في الطريق إلى القسطنطينية ، جعلت امبراطور بيزنطة ألكسيوس يتخوف من العاقبة .

فقد كانت هناك جيوش غير نظامية أخرى جمعها زعيم يسمى والتر الملقب بالفلس وعبر بها هنغاريا إلى أراضي الدولة البيزنطية ، وفي هذا الطريق نهبت « الجيوش » وسلبت واعتدت على الناس .

فكان قرار ألكسيوس أن تظل هذه المجموع خارج أسوار القسطنطينية إلى أن يصل بطرس الزاهد ، ولما وصل بطرس أحسن الامبراطور استقباله ووفر له ولغيره ما استطاع من المؤن ، ونصحهم جميعا بانتظار قوات نظامية من الغرب قبل مواجهة السلاجقة .

ولكن بقاء هذه الجيوش خارج أسوار العاصمة أدى إلى كثير من العدوان والسلب والنهب للقرى المجاورة ، بل حدث اعتداء من هذه الجيوش على بعض الكنائس .

ونستطيع أن نسمى جموع بطرس الزاهد وجموع والتر المفلس حملة العامة أو الدهماء أو حملة الشعوب كما سماها بعض كتاب الغرب ^(١) ، بينما يمكن أن نسمى الجيوش المنظمة بحملة الأمراء .

١ - صاحب هذه التسمية : حملة الشعوب هو : رنسان .

بعد هذا الاستعراض لكبريات الأحداث في هذا الغزو الصليبي ، تلك الأحداث التي يرجع معظمها إلى رغبة الكنيسة في شن هذه الحروب والتي بسببها قال بعض المؤرخين إن الدافع الديني كان من وراء هذه الحروب • بعد هذا الاستعراض يحين لنا أن نناقش هذا الدافع الديني ونبين فيه وجه الصواب بإذن الله تعالى ، فنقول :

عندما ننظر إلى هذا الدافع الديني للغزو الصليبي للشرق الإسلامي نجد الكنيسة قد حملت العبء الكبير في الدعاية للحرب والتبشير بها وذكرت في دعايتها والتبشير بها سببا جوهريا - من وجهة نظرهم - هو أن حجاج بيت المقدس من النصارى كانوا يلقون معاملة سيئة من المسلمين - السلاجقة - الذين كانوا يحكمون بيت المقدس وفلسطين ، وذهب بطرس الزاهد وغيره في تصوير ما يعانيه النصارى على أيدي المسلمين مذاهب أبعد مما تكون عن الحقيقة ، إذ زعم أن المسلمين يعتدون على الحجاج النصارى ويستولون على أموالهم ويفتكون بهم وبمن معهم - وهذا سوف نبين وجه الصواب فيه بعد قليل • أقول : لعل تدخل الكنيسة بهذا الشكل السافر واشتراك القساوسة وإثارة هذا السبب الخاص بما يلقون من سوء معاملة - على زعمهم - لعل كل ذلك هو الذي صبغ هذه الحروب بصبغة دينية ، وجعل بعض المؤرخين يتحدثون بتوسع عن الدافع الديني لهذه الحروب •

غير أن الحق : أن هذا الدافع لم يكن وحده - بل لم يكن أقوى الدوافع - في إثارة الحروب الصليبية ، بل أكاد أؤكد أن الدوافع السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت أقوى من هذا الدافع الديني •

ويمكن أن نلخص هذا الدافع الديني - من وجهة نظر الأوربيين - في أمور أهمها :
إدعائهم أن المسيحيين المقيمين في العالم الإسلامي يلقون من سوء المعاملة من الحكام المسلمين ما يستوجب على المسيحيين الأوربيين نجدتهم •
وادعائهم أن الحجاج المسيحيين يتعرضون للعدوان في طريقهم إلى الحج وإلى مزيد من الاضطهاد وهم يؤدون حجهم •

وادعاؤهم أن كنائس المسيحيين في الشرق الإسلامي قد تعرضت للتخريب وأن الأديرة تعرضت للإغلاق أو المصادرة ، وأن بعض هذه الكنائس قد تحولت إلى مساجد .. ونحاول أن نناقش هذه الادعاءات في ضوء الحق والواقع وربما استعنا في ذلك ببعض أقوال الأوروبيين أنفسهم .

أما ادعاؤهم أن المسيحيين المقيمين في البلدان الإسلامية يلقون معاملة سيئة من الحكام المسلمين . فهو ادعاء باطل في مجمله من وجهة نظر الإسلام ومن حيث الواقع الذي عاشه المسيحيون في بلاد الإسلام .

فمن وجهة نظر الإسلام :

الأصل في معاملة المسلمين لأهل الكتاب من يهود ونصارى - إذا كانوا يعيشون بدار الإسلام قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١)

قال القرطبي : « وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم ، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسول والشرائع والمثل ، وخصوصا ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وملكته وأمته ، فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة ، فنبه على محملهم ، ثم جعل للقتال غاية وهي إعطاء الجزية بدلا عن القتل . وهو الصحيح » (٢)

وقال القاضي أبو يعلى : الجزية موضوعة على الرؤوس .. إما جزاء على كفرهم لأخذها منهم صقارا ، أو جزاء على أمانتنا لهم لأخذها منهم رفقا . (٣)
« والجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين الأحرار البالغين » ..

١ - سورة التوبة : الآية : ٢٩ .

٢ - القرطبي : الجامع لأحكام القرآن الكريم : ٢٩٤٨ ط دار الشعب القاهرة .

٣ - أبو يعلى الحنبلي : الأحكام السلطانية : ١٥٣ ط الحلبي القاهرة ١٣٨٦ هـ .

وإذا أعطى أهل الجزية الخيرية لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم إلا أن يتجروا في بلاد غير بلادهم التي أقروا فيها وصولها عليها... ويخلى بينهم وبين أموالهم كلها وبين كرومهم وعصرها ما ستروا خمرهم ولم يعلنوا بيعها من مسلم ، ومنعوا من اظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين ...

ولا يعترض لهم في أحكامهم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالربا ...

وعلى الإمام أن يقاتل عنهم عدوهم ويستعين بهم في قتالهم ...

وما صولحو عليه من الكنائس لم يزيدوا عليها ولم يمنعوا من إصلاح ما وهى منها ، ولا

سبيل لهم إلى إحداث غيرها ...

ويأخذون من اللباس والهيئة ما يبينون به من المسلمين ...

ومن لدنهم في أداء جزية أدب على لدده وأخذت منه صاغرا ...

قال علماءنا : أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجازر ، فأما مع تبين عجزهم فلا تحل عقوبتهم ، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه ، ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء .^(١)

أما معاملة أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلاد المسلمين ، فقد روى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة »^(٢)

وروى الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما »^(٣)

١ - الفرطى : الجامع لأحكام القرآن الكريم : ٢٩٤٨ - ٢٩٥٤ باختصار .

٢ - أبو داود : سننه باب الإمارة الحديث رقم ٣٣ .

٣ - الإمام البخارى : صحيحه : ١٢٠/٤ ط دار الشعب القاهرة .

هذا هو الأصل في معاملة المسلمين حكاما وأفرادا لأهل الكتاب في بلاد المسلمين ، لا
يجل لأحد ظلمهم ولا انتقاص حقوقهم ، فضلا عن اضطهادهم في دينهم والعدوان
عليهم .

فإن أخطأ حاكم أو واحد من المسلمين فأساء معاملة أحد أهل الكتاب فهو آثم
لمخالفته أصول الدين الإسلامي وآدابه ، وماتعرض المسيحيون بشيء مما يدعيه هؤلاء
المدعون في دينهم أو أمواهم إلا في حدود هذا الخطأ الذي يكون فرديا في أغلب الأحوال وهو
في الوقت نفسه خروج من المخطيء عن نظم الإسلام وأحكامه .
ولن ينسى التاريخ للمسلمين أنهم يوم فتحوا الأندلس سنة ٩٣ هـ - ٧١١ م وأدخلوا
الإسلام إلى أسبانيا معظمها ، لم يلغوا المسيحية منها ولم يمنعوا مسيحيًا من إقامة شعائر
دينه ، بينما حين استطاع « فرديناند وإيزابيلا » الاستيلاء على بلاد الأندلس من المسلمين
سنة ٩٠٩ هـ - ١٠٥٢ م أصدر مرسوما يقضى بالغاء شعائر الدين الإسلامي في جميع أرجاء
البلاد .
ويعترف بذلك بعض كتاب الغرب ، فهذا توماس . و . أرنولد يقول في : تسامح
المسلمين مع المسيحيين في إسبانيا : « أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو
اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الايام الأولى التي أعقبت الفتح العربى
فلننا لانسمع عن ذلك شيئا . . (١) »

على أنه في الأحوال التي كان يعتدى فيها المسيحيون على الدين الإسلامي ، كانوا
يحاكمون أمام قضااتهم وفقا للقوانين المعمول بها في بلادهم ، ولم يتعرض لهم المسلمون في
إقامة شعائرهم الدينية . . (٢) »

وإذا نظرنا إلى ذلك الشعور الدينى الذى أحيا أكثرية الإسبان المسلمين ، وذلك
التحدى والحقد الذى غلا في صدور المسيحيين حتى دبروا المؤامرات بمؤازرة إخوانهم في

١ - توماس . و . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام : ١٥٧ ترجمة د . حسن إبراهيم وآخرين .
٢ - السابق : ١٥٨ .

الدين الذين كانوا يقيمون خارج حدود بلادهم لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي يمتاز ببعده تاما عن الاضطهاد الديني ، إذا استثنينا ثلاثا أو أربعاً من حالات الاستشهاد الحقيقي (١) .

ولكن في عهد دولة المرابطين التي تولت حكم بلاد الأندلس ، انفجر بركان التعصب الديني في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي - السادس الهجري - من جانب المتحمسين من رجال الدين الإسلامي ، وقاسى من جراء ذلك المسيحيون واليهود وطائفة الأحرار المسلمين الذين نادوا بحرية الفكر كالفلاسفة والشعراء ورجال الأدب .

ولكن هذه الحوادث لم تكن إلا استثناء للتسامح الديني الذي اتسم بذلك الطابع الذي عرف به أمراء المسلمين في إسبانيا نحو رعاياهم من المسيحيين (٢) .

أما من وجهة نظر التاريخ :

ففى مستهل القرن العاشر الميلادي - الخامس الهجري تقريبا - أسلم « تيودور » أسقف بيت جرماى النسطوري ، ولم يذكر المؤرخ الكنسي الذي سجل هذه الواقعة شيئا عن استخدام أية قوة أو إرغام في إسلام هذا الأسقف ، ولو أن شيئا حدث من ذلك لسجله من غير شك (٣) .

ويقول : ثومبسون Thompson : « إن ما اعترى المسيحيين في الشام وأسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين ، لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم (٤) .

أما ادعاؤهم أن الحجاج من النصارى كانوا يتعرضون للاضطهاد والعدوان وهم في طريقهم إلى بيت المقدس - قبيل الحروب الصليبية - فادعاء باطل كذلك .

١ - السابق : ١٦٤ .

٢ - السابق : ١٦٧ .

٣ - ابن العبري أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ط الصالحاني بيروت ١٨٩٠م ج ٣ / ٢٣٠ وابن العبري

زوخ سورياني اسمه : جريجوريوس .

٤ - د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٣١ / ١

يقول أحد كبار المؤرخين الأوربيين : إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر الميلادي بالذات ، لا يصح أن تتخذ بأي حال سببا حقيقيا للحركة الصليبية ، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي ، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة ، وإنما سمح لهم أيضا بتشديد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكباتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت .^(١)

ويقول مؤرخ أوربي آخر : من الواضح أن مثل هذه الروح السامية التي عومل بها المسيحيون في البلدان الإسلامية ، لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بالشذوذ - مثل الخليفة الحاكم بأمر الله - من تصرفات تجاه أهل الذمة . فلم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١م - ٤١٢ هـ إلا وعاد المسيحيون في مصر والشام يحفظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين ، كما عقد صلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية ، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس ، ثم وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة في أمن وسلام .^(٢)

ومعنى ما ذكرنا أن أكثر من مؤرخ أوربي مسيحي منصف قد قرروا في صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين في الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الامبراطورية البيزنطية .

وأعود فأقول : إن ادعاءهم تخريب الكنائس وهدم الأديرة أو مصادرتها لم يرق عليه من دليل ، وإنما هي شائعات ربما أدى إليه تصرف بعينه في قرية بعينها ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يعتبر هو الأصل في معاملة المسلمين للمسيحيين وكنائسهم في البلاد الإسلامية .

١ - د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٣٠/١ نقلاً عن : Vasiliev: Byzantine Empire, I. p. 393

٢ - السابق : ٣٠/١ نقلاً عن : Setton. Op. Cit. Vol. I p. 74

وإذا كان لي في ختام الحديث عن هذا الدافع الديني للغزو الصليبي للعالم الإسلامي أن أقول كلمة فهي :

لست أشك في أن الدافع الديني لهذه الحروب موجود عند الصليبيين بعامة ، وعند بابوات الكنيسة بخاصة ، ولكن الذي حرك هذا الدافع وأهاجه ، ليس تلك الأسباب التي تذرعوها بها من سوء معاملة المسلمين للمسيحيين في البلاد الإسلامية أو غيرها من ادعاءاتهم - وإنما هي عندى أحقاد توارثتها أجيال الصليبيين على الإسلام والمسلمين من لدن كان للإسلام وجود ، ومنذ وقف المسلمون في مواجهة الدولة الرومانية وإلى القرن العشرين الذي نعيش الآن ربه الأخير .

بل إن المستشرق المشهور الأميرليون كايثاني (١٨٦٩ - ١٩٢٦ م) الذي بذل معظم أمواله ليؤرخ لحركة الفتح الإسلامي في كتابه المعروف : « حويلات الإسلام » ليوضح لنا سر الحقد على الإسلام والمسلمين في مقدمة كتابه حيث يقول :

« إنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية (كاستروفيكا إسلاميكا) التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض مايزالون يدينون برسالة محمد ﷺ ويؤمنون به نبيا ورسولا .^(١)

وحسبنا هذا لتؤكد أن الأحقاد قديمة وحديثة هي التي أذكت نيران الغزو الصليبي في أخريات القرن الخامس الهجري ، وهي التي تعطى هذا الغزو القدرة على المضى في التاريخ حتى يومنا هذا . بل وبعد هذا القرن العشرين الذي نعيش ربه الأخير .

١ - د . على عبد الحليم محمود : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ط دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٧٨ م .

٣ - الدوافع السياسية

عند النظر في الدوافع السياسية للحروب الصليبية نجد من الضروري أن نعود إلى الوراء قرونا ثلاثة على وجه التقريب ، قبل أن تغزو قوات الصليبيين الشرق الإسلامي في نهاية المائة الأولى من القرن الحادى عشر الميلادى - نهاية القرن الخامس الهجرى • ذلك أن النظر إلى الغزو الصليبي على أنه بدأ في أخريات القرن الخامس الهجرى نظر قاصر ، فالحق أنه بدأ في الأندلس المسلمة قبل ذلك بأكثر من قرنين من الزمان ، كما بدأت مناقشات هذا الغزو منذ شعرت الدولة الرومانية الشرقية بيزنطة بضعف الخلافة العباسية واستيلاء بعض الأمراء على كثير من ولاياتها وأطرافها • فنحن الآن أمام موضوعات ثلاثة ونحن نتحدث عن الدوافع السياسية للغزو الصليبي للعالم الإسلامي •

اولها :

الغزو الصليبي الذى قام به بعض أمراء الإسبان يؤيدهم عدد من أمراء أوروبا - فرنسا بالذات - للأندلس المسلمة •

ثانيها :

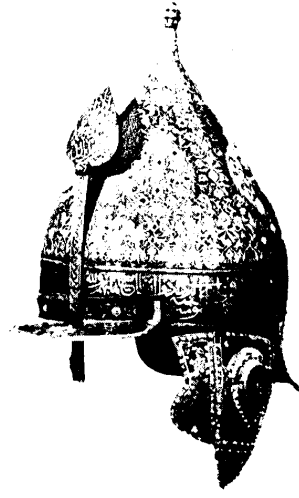
الغزو الصليبي لأطراف الدولة العباسية وللولايات الفاطمية في الشام ، الذى قامت به الدولة البيزنطية •

ثالثها :

الغزو الصليبي للشرق الإسلامي - الشام ومصر وآسيا الصغرى - الذى قامت به

أوروبا أغلبها تدعمها الكنيسة وتؤيدها وتقودها وتهدد بالحرمان من يقعد عن المشاركة في هذا الغزو .

ومن خلال هذه الموضوعات الثلاثة نستطيع أن نتعرف على الدوافع السياسية للغزو الصليبي للعالم الإسلامي ، من خلال عالم الصليبيين .
فإذا انتهينا من ذلك كان لابد أن نعترف بأن ظروف العالم الإسلامي في الأندلس وفي آسيا الصغرى وفي مصر والشام ، كانت واحدا من الدوافع السياسية التي شجعت الصليبيين على القيام بهذا الغزو ، إذ كان العالم الإسلامي يعيش ظروفا سياسية سيئة ، وتسيطر على حكاهم الخلافات السياسية وتنازع الأمراء ، كما تسيطر عليه الخلافات المذهبية ، بين أهل السنة ويقودهم العباسيون ومن تابعهم ، والشيعية تحت قيادة الفاطميين في مصر والشام .^(١)



١ - سوف نتحدث بالتفصيل عن ذلك في الباب الثاني من هذا البحث بإذن الله تعالى .

أولها : الغزو الصليبي للأندلس المسلمة :

فتح الله الأندلس على المسلمين يوم استطاع طارق بن زياد أن يعبر المضيق المسمى الآن باسمه ، وأدخل الفاتحون الإسلام إلى إسبانيا منذ سنة ٩٢ هـ - ٧١١ م وظل بها الدين الإسلامي حتى سنة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م .

وظلت الأندلس المسلمة تعطى عطاء الإسلام في العلم والمعرفة والسياسة والحكم والعدالة ، والثقافة والحضارة ، ما يقرب من ثمانية قرون ، نعم اضطربت أمور المسلمين فيها حيناً من الزمان وبخاصة في عهد ملوك الطوائف ولكنها استتبت نسبياً في عصرى المرابطين والموحدين وإن كان عهد الموحدين كان عهد ضعف وتحاذل سياسى وضياح لكثير من القرى والمدن بوقوعها في أيدي الإسبان ، وعهد بنى الأحمر أشد ضعفاً وتحاذلاً إذ هو العهد الذى انتهى فيه الوجود الإسلامى في الأندلس ، يوم أصدر « فرديناند وإيزابيلا » مرسوماً يقضى بإلغاء شعائر الدين الإسلامى في جميع أرجاء البلاد وكان ذلك سنة ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢ م - الأمر الذى لم يفعله المسلمون يوم كانت الأندلس كلها في سلطانهم . . . إنها حقاً ساحة الإسلام في التعامل مع أهل الكتاب من يهود ونصارى .

يقول : توماس . و . أرنولد : « لقد كتبت إسبانيا الإسلامية في القرون التى تقع بين هذين التاريخين ^(١) صفحة من أنقى صفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس Provence إلى الممالك الأوربية الأخرى ، وأنت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة .

ومن هنا تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلى حتى جاء عصر النهضة الحديثة . . (٢)

١ - يقصد بالتاريخ الأول : ٧١١ م والثانى ١٥٠٢ م في كلام سابق له .

٢ - توماس . و . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . ترجمة د . حسن إبراهيم وآخرين - ١٥٤ .

ثم يواصل هذا المؤلف قوله : « أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي ، فإننا لانسلم عن ذلك شيئا . »

وفي الحق : إن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد .^(١) هذه كلمات عابرة عن الإسلام في الأندلس بقلم كاتب مسيحي منصف يقول الحق ولا يحكم التعصب شأن عدد كبير من الكتاب الصليبيين .

فما الدافع السياسي على غزو الصليبيين للأندلس ؟ من المسلم به أن الكنيسة لم تكن راضية عن إقامة المسلمين لدولة إسلامية قوية في الأندلس ، لذلك عمدت - على طول فترة بقاء المسلمين في الأندلس - إلى إثارة الملوك والأمراء الأوربيين على المسلمين في الأندلس .

ومن بواكير الغزو الصليبي للأندلس المسلمة ما قام به شارل الأول - امبراطور الغرب وملك الفرنجة من غزو إسبانيا المسلمة سنة ٧٧٨ م - ١٦١ هـ . غير أن المسلمين هزموه في سرجوسة « سرقسطة » ففي ربيع ٧٧٨ م جهز جيشا وسار في طريقه إلى إسبانيا ، وعندما وصل نهر الجارون قسم جيشه إلى قسمين على أن يسير كل منهما بجهة ويلتقيا أمام سرقسطة ، وسقط بيد الفرنجة هويسكا وبرشلونه وجيرونا ، والتقى الجيشان عند سرقسطة ولكن المسلمين أنزلوا بهم خسارة فادحة وقتلوا « إيجيهارد » قائد جيش شارل ، وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في الإنتاج الأدبي وشعر الملاحم .

والغزو الصليبي الثاني للأندلس المسلمة كان في عهد البابا الإسكندر الثاني الذي بادر بأن وعد ببذل الغفران لكل من قاتل من أجل الصليب في إسبانيا وشرع البابا في تأليف جيش لمواصلة عمل راميرو الذي كان هاجم المسلمين فقتل على يد أحدهم ، فأثار موته خيال أوروبا - واندفع البابا يجهز هذا الجيش ويشجع عليه بمغفرة الذنوب . وكان ذلك

في سنة ٤٥٦ هـ - ١٠٦٣ م .

وفي سنة ٤٦٦ هـ - ١٠٧٣ م أعد « إبلس كونت روسي » حملة جديدة ، ودعا البابا جريجوري السابع كل أمراء المسيحية للانضمام إليها ، فأعلن عند تذكيره العالم : أن مملكة إسبانيا تنتمي إلى المقر المقدس ، وأن المسيحيين سوف ينعمون بما يفتحونه من أيدي الكفار من الأراضي .

وفي سنة ٤٧١ هـ - ١٠٧٨ م شن ألفونس السادس ملك قشتالة حملة غزو صليبي - ساعده فيها « هيو الأول » دوق برجنديا ، واستطاعت هذه الحملة أن تستولى على مدريد وطليلة سنة ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م ، فضاع على المسلمين معقل من أهم معقلهم هو طليلة .

وكان لسقوط طليلة دوى هائل في جميع أرجاء العالم المسيحي واستثار الشعور والحماسة لطرده المسلمين كلية من إسبانيا (١) .

ومنذ سنة ١٠٨٧ م - ٤٨٠ هـ اشتدت دعوة الفرسان المسيحيين للقدوم إلى إسبانيا لمقاومة المرابطين ، وبذل البابا إيربان الثاني كل ما يستطيع من مساعدة عن طيب خاطر ، بل إنه أخطر الحجاج المتوجهين إلى فلسطين : إنه لخير لهم أن ينفقوا أموالهم في عمارة المدن الإسبانية التي نجت من تخريب المسلمين .

على أن الحملات الموجهة إلى إسبانيا ظلت حتى نهاية القرن الحادي عشر تجتذب من الشمال الفرسان المسيحيين المغامرين .

ولم تنته هذه الحملات المستمرة إلا بعد الاستيلاء على : وشقة سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م ، وعلى باربسترو في سنة ٤٩٤ هـ - ١١٠١ م .

ثم كانت غزوات صليبية على المسلمين في الأندلس بقيادة ألفونس الأول الذي ظل يغير على المسلمين حتى هلك أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤ م - ٥٣٠ هـ .

١ - رنسان : تاريخ الحروب الصليبية - باختصار وتصرف : ١٣٧/١ .

ثم حدث غزو صليبي لطرطوشة سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٨م بقيادة « ريموند نرتجار الرابع » كونت برشلونة .

وفي سنة ١١٤٧م - ٥٤٣ هـ قام ألفونس الأول بحملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس استعان فيها بأسطول صليبي يحمل جماعة من الإنجليز والألمان والفلمنكيين - كانوا في طريقهم إلى الشام للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية - فاستوقفهم ألفونس الأول وتمكن بهم من طرد المسلمين من لشبونة .^(١)

ولعل هذا يوضح أن الغزو الصليبي للعالم الإسلامي - كان من وجهة نظرهم حربا واحدة في ميدان واحد هو - حيث يوجد المسلمون - في الغرب - الأندلس - أو في الشرق - الشام ومصر وآسيا الصغرى .

ثم استمر الغزو الصليبي للمسلمين في الأندلس يتخذ شكل حملات عسكرية حيناً وشكل مؤامرات ودسائس يوقعها الصليبيون بين حكام المسلمين أحيانا أخرى ، وفي شكل منظمات عسكرية دينية كهيئة القديس جوليان والتي تسمت فيما بعد باسم منظمة القنطرة في بعض الأحيان .

وكانت البابوية من وراء هذه المنظمات تشجعها وتدعمها حتى استطاع البابا إسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث أن يسهما في إقامة أشهر منظمة عسكرية دينية عرفتها إسبانيا هي منظمة « سينتاجو » اشتدت بها حماسة المسيحيين في حرب المسلمين في الأندلس .

وبهذا أصبح الصراع بين المسلمين والصليبيين في الأندلس صراعا عاما شاملا تناول كل بقاع الأندلس التي يقيم فيها المسلمون .

وقد اجتهد البابا أنوسنت الثالث في إثارة الحماسة الصليبية في إسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالي البلاد الغربية على المشاركة في الحرب الدينية ضد المسلمين ، واستطاع

١ - د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية : ٧٥/١ .

ان يجمع عددا كبيرا من فرسان أوروبا تحت زعامة رئيس أساقفة « ناربون » واشترك فيها ملك أرغونة وملك نافارى ، وملك قشتالة وغيرهم .
واستطاعت هذه الجيوش أن تنزل هزيمة كبيرة بالموحدين في موقعة العقاب سنة ١٢١٢م - ٦٠٩ هـ .

ومنذ هذه المعركة لم يستطع المسلمون أن يلمعوا شملهم أو يواجهوا أعداءهم في الأندلس ، بل ظلت المعازل والحصون والمدن تنهار أمام غزوات الصليبيين ، بحيث لم يبق للمسلمين في الأندلس - عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادى - سوى مملكة غرناطة الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة حيث عاشت هذه المملكة بعد ذلك نحو من قرنين ونصف قرن من الزمان ^(١) ، ولكنها سقطت أخيرا فريسة سهلة في يد فرديناند وإيزابيلا ملكى قشتالة سنة ١٤٩٢م - ٨٩٨ هـ بعد حصار طويل .
ثم قام فرديناند وإيزابيلا في الأندلس بأعمال وحشية متبربرة ضد المسلمين في الأندلس . سوف نتحدث عنها فيما بعد .

وبعد : فهذا واحد من الدوافع السياسية للحروب الصليبية لمسنا أثره في الأندلس المسلمة ، وهو وإن كان قد ظهرت فيه سمات الغزو السياسى إلا أننا لا نستطيع أن نجرده من الارتباط بالدوافع الدينية المحركة له والموجهة لأهدافه في كثير من الأحيان .

ثانيها : الغزو الصليبي الذى قام به البيزنطيون :

تعتبر الدولة البيزنطية - بحكم موقعها - أقرب القوى المسيحية إلى بلاد المسلمين من جهة شمال الشام الضارب إلى الغرب .
ومنذ سنة ١٢ هـ - ٦٣٣م وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصبحت الشام بلادا إسلامية ، وزال الوجود الرومانى البيزنطى أو كاد عن الشام كله ، وبمضى الوقت

١ - السابق : ٧٧/١ .

أصبحت حمص ومنبج وغيرها بلادا خاضعة للمسلمين .

« أما ولايات الدولة البيزنطية التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليقينية والنسبورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد . » (١)

وفي سنة ٤٥ هـ - ٦٦٥ م استأنف الأمويون مد الدعوة الإسلامية في اتجاه أملاك الدولة البيزنطية فوصلت فتوحاتهم إلى بحر إيجه وعبروا تراقيا وهاجموا القسطنطينية سنة ٤٩ هـ .

وفي سنة ٩٩ هـ - ٧١٧ م استطاعت حملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك أن تعبر البوسفور وأن تحاصر القسطنطينية أكثر من عام (٢)
وقد بدأ الغزو الصليبي للمسلمين في أخريات عهد بني أمية ، فشن البيزنطيون هجوما على الشام سنة ١٢٨ هـ - ٧٤٥ م ، وفي سنة ١٢٩ هـ استرد البيزنطيون جزيرة قبرص .

وفي سنة ١٦٢ هـ - ٧٧٨ م هاجم الإمبراطور البيزنطي المسلمون في شرقي الأناضول فرد عليه الخليفة المهدي العباسي ، ثم استطاع هارون الرشيد سنة ١٦٥٠ هـ أن يلزم « ابرين » إمبراطورة البيزنطيين بجزية سنوية ، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في الطريق ، وكانت الفدية سبعين ألف دينار كل سنة (٣)

ولما تولى أمر البيزنطيين نقفور امتنع عن دفع الجزية ، فسار إليه هارون الرشيد فطالب بالصلح فأجيب إليه ، ثم نقضه نقفور بعد ذلك ، فسار الرشيد إلى بلاد الروم ثانية وفتح

١ - توماس . و . أرنولد : الدعوة الى الاسلام : ٧٤ .

٢ - ابن الأثير : الكامل أحداث سنة ٩٩ هـ .

٣ - السابق : الكامل : أحداث سنة ١٦٥ هـ .

هرقلة سنة ١٩٠ هـ - ٨٠٤ م . (١)

وفي سنة ٢١٤ هـ - ٨٢٩ م هاجم الإمبراطور البيزنطي تيوفيل أطراف الدولة العباسية وظلت هذه الحروب قريبا من ثلاثين سنة ، ولكن امبراطور البيزنطيين طلب الصلح بعد أن توغلت جيوش المسلمين في بلاد الروم .

ولكن تيوفيل عاد فهاجم أعالي الشام ومابين النهرين حتى بلغ زبطرة وقتل من فيها - وكان ذلك في زمن المعتصم - « وأغار على ملطية وغيرها من المدن والحصون . وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وأذانهم » (٢)

ومن أجل ذلك سار المعتصم إلى عمورية وفتحها ودمرها - ردًا على تدمير تيوفيل لزبطرة - وزبطرة مسقط رأس المعتصم وعمورية مسقط رأس تيوفيل -

وفي القرن العاشر الميلادي - الرابع الهجري - أخذت الدولة البيزنطية في شن سلسلة من الغزوات على الدولة الإسلامية - في الشرق - وبخاصة بعد أن ضعفت الدولة العباسية بالانقسامات التي وقعت فيها .

ففي سنة ٩١٣ م - ٣٠١ هـ أغارت الدولة البيزنطية - في عهد قسطنطين السابع ، واستطاعت الاستيلاء على أرض روم من المسلمين ، وأجبرت حكام ملطية وديار بكر وميافارقين على دفع إتاوة للبيزنطيين .

وفي سنة ٣٣٦ هـ - ٩٤٨ م غزا البيزنطيون المسلمين واستولوا على مرعش وطرسوس وديار بكر وسميساط ، وما جاءت سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٩ م حتى كانت جيوش البيزنطيين قد وصلت إلى ماوراء نهر دجلة .

على أن تلك الحروب لم تكن سوى مقدمة لحركة شاملة أزمنت الدولة البيزنطية القيام

١ - السابق : أحداث سنة ١٩٠ هـ .

٢ - السابق : أحداث سنة ٢٢٣ هـ .

بها للانتقام من المسلمين مما حل بها على أيديهم طوال القرون الثلاثة السابقة .

وكان أن نجح القائد نقفور فوقاس في طرد المسلمين من جزيرة كريت سنة ٣٥١ هـ - ٩٦١ م . وقام بغزو إقليم قيليقية الذي كان تابعا لسيف الدولة الحمداني واستولى في سنة ٩٦٢ م على مركزين من أهم مراكز ذلك الإقليم هما : عين زربة ، وسييس ، ومن هناك اتجه إلى أطراف بلاد الشام لينتزع من سيف الدولة عين تاب ومنيج .

ثم اختار نقفور فوقاس ألا يعطى خصومه فرصة للاستعداد فزحف مباشرة - وبصحبه القائد حنا شمشقيق - على حلب ، واستولى عليها في أواخر ديسمبر سنة ٩٦٢ م ، وعندما عجز نقفور فوقاس عن الاستيلاء على قلعة حلب ، اكتفى بتدمير المدينة وأحرق المساجد ، ثم قفل راجعا إلى قيليقية ومعه عدد كبير من أسرى المسلمين .^(١) وفي سنة ٣٥٣ هـ - ٩٦٤ م غزا نقفور فوقاس الحمدانيين في الشام ، وأرسل إنذارا إلى الخليفة العباسي يهدده بأن الجيوش البيزنطية ستستولى على بلاد العراق والشام ومصر ، وأنه من الخير للخليفة أن ينسحب إلى بلاد الحجاز ويترك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين .

وهذا الإنذار كان يفيض بالروح الصليبية إذ ضمنه الأمباطور عبارات دينية حماسية ، وفيه تهديد صريح بهزم الكعبة ونشر المسيحية في الشرق والغرب جميعا .^(٢) واستطاع نقفور فوقاس استرداد جزيرة قبرص من المسلمين سنة ٩٦٤ - ٩٦٥ م وعاد إلى غزو قيليقية ، فاستولى على المصيصة وطرسوس بعد حصار طويل لها . وفي سنة ٩٦٦ م غزا نقفور فوقاس بلاد النهرين فهاجم آمد - وإن كان لم يفتحها - فانصرف إلى دارا ونصيبين .

١ - د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية : ٦٠/١ نقلا عن ابن الأثير .

٢ - السابق : ٦١/١ نقلا عن : Schlumberger; Nicephore Phocas. P. p 427

وفي سنة ٣٥٥ هـ - ٩٦٥ م اتجه نقفور فوقاس إلى أطراف الشام ، حيث « نازل البيزنطيون أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها ، فلم يمكنهم فتحها ، فحربوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس » .

ثم أغار على معرة النعمان وكفرطاب وشيزر التي أحرق مسجدها وحوله إلى رماذ ، ثم استولى على حماة وحمص وأحرقهما ، ثم عبر الجبال إلى ساحل لبنان فاستولى على جبلة وعرة وانطرطوس . وأقام في الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد » (١) .

ثم استطاعت جيوش نقفور أن تستولى على أنطاكية سنة ٣٥٩ هـ - ٩٦٩ م وأن تطرد منها سكانها المسلمين ، يقول في ذلك ابن الأثير : « وأخرجوا المشايخ والعجايز والأطفال من البلد ، وقالوا لهم : اذهبوا حيث شئتم ، وأحلوا محلهم جموعا غفيرة من المسيحيين » (٢) .

كما استولت جيوش نقفور في نفس السنة على « ملازكرد » من أعمال أرمينية ، فضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة .

وما مات نقفور فوقاس إلا أن أدخل الجزء الشمالى من بلاد الشام بأكمله تحت سيطرة البيزنطيين . الذين يصفهم ابن الأثير بقوله : عظمت شوكتهم وخافهم المسلمون في أقطار البلاد (٣) .

كان ذلك الغزو الصليبي في عهد نقفور فوقاس . فلما خلفه الإمبراطور حنا شمشقيق - الذى كان قائدا لجيوشه - وكانت الدولة الفاطمية قد نجحت في غزو مصر ٣٥٩ هـ - ٩٦٩ م بالقضاء على الإخشيديين فيها ، وجعلت من مصر وملحقاتها في الشام إلى دمشق مركزا للخلافة الشيعية المنافسة للخلافة السنية في بغداد - استطاع حنا شمشقيق في هذه

١ - ابن الأثير : الكامل : أحداث سنة ٣٥٨ هـ .

٢ - السابق : أحداث سنة ٣٥٩ هـ .

٣ - ابن الأثير : الكامل : أحداث سنة ٣٥٩ هـ .

الظروف أن يقوم بحملة على آسيا الصغرى سنة ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م ساعده فيها ملك أرمينية ، حيث اتجه إلى أطراف بلاد النهرين في خريف عام ٩٧٤ م ثم دخل نصيبين في أكتوبر من نفس السنة : « فغنموا وسبوا وأحرقوا وخرّبوا البلاد وفعلوا مثل ذلك في ديار بكر ، ولم يكن من أبى تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعى في دفعه ، لكنه حمل إليه مالا كَفَّه به عن نفسه »^(١) .

وفي ربيع سنة ٩٧٥ م - ٣٦٥ هـ اتجه حنا شمشقيق نحو الشام فغادر أنطاكية مخترقا وادى نهر العاصى .

فبادرت حمص بدفع الأتاوة له دون مقاومة .

وقاومت بعلبك ولكنها انهزمت في النهاية ولقيت من القسوة ما لقيت .

واتجه الإمبراطور صوب دمشق فأعلن المستبد بها أفتكين ولاءه للإمبراطور البيزنطى ودفع له الجزية .

وأعلنت حلب تبعيتها للإمبراطورية البيزنطية^(٢) .

« ومن دمشق اتجهت الجيوش البيزنطية صوب طبرية حيث اتخذ الزحف البيزنطى طابعا صليبييا واضحا ظهر بجلاء في الرسالة التى أرسلها الإمبراطور حنا إلى ملك أرمينية آشور الثالث ، والتي ذكر له في عبارات عاطفية ، كيف أن رجاله يزحفون نحو الأرض المقدسة التى شهدت مولد المسيح والتي دفن فيها مما يثبت صدق الروح الصليبية في تلك الحملة .

وكان أن شق حنا طريقه إلى بيت المقدس دون أن يصادف مقاومة تذكر .

فتعهدت عكا بدفع الأموال للإمبراطور رمزا للتبعية .

وسقطت قيسارية في قبضة القوات الإمبراطورية .

١ - ابن الأثير : الكامل : أحداث سنة ٣٦١ هـ .

٢ - عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ص ١٤١ وما بعدها .

وإذا كانت الحامية الفاطمية في بيروت قد قاومت إلا أنه نجح في إخضاعها وأسر جزءاً كبيراً منها .

وبعد ذلك اتجه صوب صيدا التي بادرت بدفع الأموال وإعلان الخضوع . ولم يستعص على الإمبراطور سوى طرابلس بسبب حصانة موقعها ، إذ أنزلت حامية المدينة بمعاونة الأسطول الفاطمي الهزيمة بالجيش الإمبراطورية ، فعبر حنا الشمشقيق عن غضبه بإتلاف الضياع المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون .

على أن الإمبراطور لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس ، فاكتفى بإخضاع بعض الفلاع والمراكز مثل بانياس ، ثم عاد إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية حيث مات في أوائل سنة ٩٧٦ م^(١) .

ومنذ عام ٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م دخلت الدولة الفاطمية طرفاً مباشراً في الحرب مع الدولة البيزنطية ، حيث استطاع الفاطميون أن يخلصوا دمشق من يد الخائن أفتكين وأن يستولوا عليها سنة ٣٦٨ هـ وأخضعوا جنوب الشام لسلطانهم ، ثم اتجهوا إلى حلب ، وهنا حما البيزنطيون أمير حلب سعد الدولة ثم خليفته سعيد الدولة أبا الفضائل .

وهذا أصبح النزاع صريحاً بين الفاطميين والبيزنطيين ، وأخذت الدولة البيزنطية تنظر بعين الحذر للدولة الفاطمية وتخطط للعدوان عليها .

فقد حاول باسل الثاني إمبراطور البيزنطيين أن يعقد هدنة مع الفاطميين ونجح في ذلك سنة ٩٨٧ هـ فعقدتها لمدة سبع سنوات وتعهد بإطلاق سراح أسرى المسلمين ، والدعاء للخليفة الفاطمي في جامع القسطنطينية .

غير أن هذه الهدنة لم تطل ، فسرعان ما عاد باسل الثاني إلى الشام وكان في يد الفاطميين فاستطاع الاستيلاء على شيزر منهم ، كما استولى على حمص ودمرها وكذلك

١ - د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٦٦/١ - ٦٧ .

انطربوس ، فى حفن صمءء طرابلس تلك المرة واستطاعء حامفءها الفاطمفة الءفاع عنها^(١) .

ثم عاء الإمبراطور باسل الثانف إلى الشام سنة ٣٩٠ هـ - ٩٩٩ م فاستعاء شفر - بعء أن كان الفاطمفون قء اسءولوا علفها - وأحرق حمص واسترء بعلفك ، ولكنف فشل أمام طرابلس .

ولقد كانت الحروب البفرنطفة ضء بلاد الشام - التى كانت فى حوزة الفاطمفف - خاتمة الحروب البفرنطفة أو الغزو البفرنطفف لكءفر من بلدان العالم الإسلامف ولولا جهود باسل الثانف لامتء نفوذ الفاطمفف فى الشام إلى ما وراء أنطاكة .
أما فى القرن الحاءى عشر المفلاى - الخامس الهجرى تقرفا - فقد ءوقف العءوان البفرنطفف على العالم الإسلامف .

غير أن هذا ءوءقف لم فطل ، فما إن ءحلت الءولة البفرنطفة عن العءوان على العالم الإسلامف ، ومحاولة السفررة علفه ، حءف أسلمء القفااء - مع مشاركة ضففلة فى الحروب - للءول الأورفة ، تغزو العالم الإسلامف بضراوة بالغة القسوة فى أخرفاء القرنفف الحاءى عشر المفلاى - الخامس الهجرى .

وبعء : فهذا أءء الأسباب السفسافة التى ءفعت الءولة البفرنطفة إلى شن غارات ضارفة على العالم الإسلامف ، ءسءهء اسءءصال هذا الءفن والقضاء على أهله ، وبسط النفوذ السفساف الصلفبف على معظم بلاده ، بل بلغ ببعضهم الطمع حء الرغبة فى الاسءلاء على الحجاز وهءم الكعبة ، ونشر المسفحة فى العالم الشرقف كله .
ولاء أن ءشفر إلى نءائج هذا الغزو البفرنطفف للعالم الإسلامف فنقول :

« من الواضح أن الحرب التى شنفا البفرنطففون على المسلمفن سنة ٩٧٥ م - ٣٦٥ هـ لم ءحقق هءفها الصلفبف إلا فى نطاق جزئف .
نعم إنفا أءء إلى سفررة الإمبراطورفة البفرنطفة على أطراف حوض نهر العاصف فضلا

١ - فففى بن سعبء الأنطاكى : كتاب التاريخ ١٦٦ .

عن دمشق وطبرية والجزء الشمالى من ساحة بلاد الشام ، ولكن الإمبراطور البيزنطى حنا شمشقيق ارتد مسرعاً قبل أن يؤمن هذه المكاسب ويصل إلى بيت المقدس ، فضلاً عن بقاء طرابلس - ذات الموقع الهام - فى أيدي الفاطميين .

لذلك ظلت الفكرة السائدة طوال عصر الحروب الصليبية هى أن الصليبيين الغربيين وحدهم هم أصحاب الفضل فى استرداد بيت المقدس من المسلمين ، وليس للبيزنطيين أى فضل سابق فى ذلك .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحملات المتتالية التى قام بها الأباطرة البيزنطيون ضد المسلمين فى القرن العاشر أدت إلى إشكالات ومناقشات قانونية طويلة فيما بعد (١٠٩٨ - ١٠٩٩ م) عندما اشتد النزاع بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول ملكية المدن الكبرى ببلاد الشام .

وإذا كان البيزنطيون قد استطاعوا إثبات حقهم الشرعى فى ملكية أنطاكية بحكم فتحهم لها فى القرن العاشر ، فإنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال تطبيق هذا المبدأ على طرابلس وبيت المقدس^(١) .



١ - د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٦٦/١ - ٦٧ .

ثالثها : الغزو الصليبي الغربي للشرق الإسلامي :

١ - الكنيسة وهذه الحروب

بعد أن تولى « ألكسيوس كومنين قيادة الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ م عكف على معالجة أمور الدولة السياسية : اليونانيون من الغرب والسلافيون من الشمال ، ولما انتهى من ذلك اتجه إلى الوقوف في وجه السلاجقة ، فأزعم التبة على طلب النجدة من الغرب اللاتيني لإنقاذ الإمبراطورية وأهلها - والمسيحية وكنائسها - قبل فوات الأوان ، فإن بيت المقدس وأنطاكية والرها صارت فعلا للمسلمين ، ولا غرو أن تصير لهم القسطنطينية في العاجل القريب .

بهذا كله أرسل ألكسيوس إلى البابا إيربان الثاني كتابا هو في الواقع مفتاح العمل الذي أدى إلى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى في التاريخ العام .
ولعشرين سنة خلت فكر البابا جريجورى السابع في مثل ذلك العمل وأضفى عليه من معهود همته وحدته : استجابة لدعوة إمبراطور بيزنطى سابق .

ومنه يتضح أن فكرة الحروب الصليبية نبعت لا من القسطنطينية بل من روما .
والواقع أن ألكسيوس كومنين أراد الحصول على جيوش من غرب أوربا لاستعادة ممتلكات الدولة البيزنطية في آسيا فحسب ، على حين اهتم إيربان الثاني اهتمامه المعروف من أجل استعادة بيت المقدس والأراضي المقدسة ، وجعل من ذلك محور بيانه في الخطبة التى ألقاها بمجمع كلير مونت الدينى بفرنسا الحالية سنة ١٠٩٥م وفى سائر الخطب التى استنهض بها الفرنسيين أبناء جنسه .

ولم يكن بين هذين الهدفين من تناقض أو خطر سوى أنه لما كان من المستطاع تحقيق كل منهما على حدة ، صار من المحتمل منذ البداية أن يتقلب حب إنقاذ الأراضي المقدسة على فكرة الدفاع عن إمبراطورية البيزنطيين ، لما فى إنقاذ الأراضي المقدسة من روعة فى أخيلة الفروسية الأوربية » .^(١)

١ - هـ - ١٠ ل فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ١٧٣ - ١٧٤ ترجمة مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ط دار المعارف بمصر ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠م

ولقد قربت الحروب الصليبية بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية بيزنطة وروما ، يتحدث عن ذلك فشر في كتابه : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى : « على أن تلك السحب القائمة لم تظهر في الأفق حين بدأت الحروب الصليبية بدأها الصاحب المموم ، لأن عاطفة الأخوة المسيحية تغلبت على المنافسات والكراهات التي صدع أشباهها وحدة الكنيسة بعض أحيان التاريخ ، ولأن المسيحيين تركوا ذكريات انقساماتهم جانبا ، وضربوا مواضع الريبة بينهم عرض الحائط ، في سبيل المشاركة في حرب عامة من أجل قضية مقدسة .

والأدلة كثيرة على تلك الحال العاطفية التي غمرت فروسية غرب أوروبا وهي تعد العدة للذهاب إلى الشرق استجابة لنداء البابا إيربان الثاني إذ أن الأوان لأوروبا التي طالما تعرضت لإغارات المغيرين عليها من كل جانب ، أن تشن هي عليهم الحرب في عقر دارهم ، ولاسيا بعد أن ذهب المسلمون عن صقلية وإقريطشن ، وسيطرت أساطيل البندقية وجنوة وبيزا على البحر الأبيض المتوسط ، وغدا الطريق البرى من غرب أوروبا إلى القسطنطينية مفتوحا للأسفار منذ تحول المجريون إلى المسيحية واندمج البلغار يون في الدولة البيزنطية .

يضاف إلى ذلك أن المسيحيين استولوا على طليطلة بإسبانيا من الأمويين ، وأن النورمانين هاجموا إفريقية الإسلامية من صقلية ٠٠٠ » (٢)

«وما يجدر ذكره كذلك أن الكنيسة في فرنسا أضفت على طبقة الفرسان شيئا من طموحها الروحي ، ولذا امتازت نظم الفروسية الفرنسية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى - أى غداة الحروب الصليبية - بتقديرها لواجبات القوى نحو الضعيف ، واصطبغ الإعداد لرتبة فارس بكل مظاهر القداسة التي ابتكرتها التقوى المهيمنة على ذلك العصر ، فيغتسل المتأهل للفروسية بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحبى ليلته بالصلاة ، حتى إذا أقبل الصبح قصد الكنيسة حيث يعترف بذنوبه وخطاياها ، ويتناول العشاء الربانى ،

١ - السابق : ١٧٧ - ١٧٨

ويتلو عليه القس واجبات طبقته وهي : الدفاع عن الدين ، وإيواء الأرامل واليتيم والبائس والمحروم والمظلوم ، أى أن الفارس يُضحي صليبيًا بمعنى الكلمة ، وذلك قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بدأها المعروف^(١) .

ولقد أوجت الكنيسة الغربية نيران هذه الحروب الصليبية - على الرغم من الدعوة إلى السلام التى كانت تنزعها الكنيسة الشرقية على ألسنة بعض رجالها مثل القديس باسيل الذى نادى بأن كل من يرتكب جريمة القتل فى الحرب لابد من منعه لمدة ثلاث سنوات من ممارسة التناول تكفيراً عن خطيئته .^(٢)

أقول إن الكنيسة الغربية رأت غير ما رأت الكنيسة الشرقية فى الحرب بل رأت غير ماترى المسيحية نفسها من عدم الالتجاء إلى الحرب أو العنف فقد رأى القديس أغسطين ذاته أن الحرب يصح أن تنشب بأمر الله^(٣)

ولم تحفل الكنيسة - الغربية بدعوة السلام - وإنما حرصت على أن توجه غريزة المقاتلة إلى مسالك تخدم قضيتها ، فالحرب المقدسة مثلاً التى هى حرب لصالح الكنيسة أضحت جائزة بل مرغوبا فيها .

فقد أعلن البابا ليو الرابع - فى منتصف القرن التاسع - أن كل من يموت فى سبيل الدفاع عن الكنيسة سوف يلقى من الله الجزاء الأوفى .

كما أن البابا يوحنا الثامن - بعد سنوات قليلة - جعل ضحايا الحرب المقدسة من الشهداء ، فإذا لقوا مصرعهم متقلدين سلاحهم انمحت ذنوبهم .
وقرر البابا نقولا الأول : أن كل من وقع تحت طائلة حكم الكنيسة لما ارتكبه من الذنوب ، ينبغى ألا يحمل السلاح إلا من أجل قتال الكفار .^(٤)

١ - السابق ١٧٨

٢ - رنسان : تاريخ الحروب الصليبية ١٢٥/١

٣ - السابق : ١٢٦/١

٤ - السابق : ١٢٧/١

وما نشك في أن الكنيسة كانت المحركة الأولى لهذه الحروب ، فقد دعت إليها الكنيسة الغربية كما أسلفنا وتعهدوا البابوات واحداً بعد آخر ، وكان البابا إيربان الثاني أكبر المحرضين من البابوات على خوض هذه الحروب ، كما كان الدعاة إلى هذه الحروب من رجال الدين المسيحي أمثال بطرس الناسك ، وروبرت أربسيل ، ووالتر « الملقب بالفلس » كان هؤلاء وغيرهم معالم بارزة على موقف الكنيسة من هذه الحروب .

ولا عجب أن تكون للكنيسة تلك اليد الطولى في تحريك الحروب الصليبية لأن الكنيسة في هذه الفترة من الزمان - فترة العصور الوسطى - بلغت من النفوذ في العالم حدا جعل البابا في نظر المسيحيين آنذا ملك الملوك وأمير الأمراء ، مما حدا بالكنيسة أن تنظم أمورها على أساس اقتطاعى أدى إلى إحكام الصلة بين الكنيسة والجهاز السياسى في أوروبا الغربية كلها .

ففى منتصف القرن الحادى عشر - ١٠٥٠ وما بعدها - وهى فترة انطلاق الحروب الصليبية من أوروبا الغربية ضد الشرق الإسلامى لتخليص بيت المقدس - كان شأن الكنيسة أخذاً فى التسامى ، حتى جاء وقت البابا جريجورى السابع ١٠٧٣ - ١٠٨٥م فوقف من الإمبراطورية موقفاً عنيدا لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية وبأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسية والدينية .^(١)

وعن طريق سلاح الحرمان والطرده من رحمة الكنيسة - بالنسبة للفرد أو للجماة - استطاع جريجورى السابع أن يخضع الجميع .

فأخذ البابا منذ ذلك الوقت يعامل ملوك أوروبا وأمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها ، فاعتبر البابا نفسه رأس العالم المسيحي بأجمعه ، فأخذ يمد أنفه إلى كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى لغرب أوروبا ، زيادة على الهيئات الدينية .^(٢)

١ - د - سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى : ٣/٢ ط سجل العرب ١٩٧١م .

٢ - السابق : ٥/٢ . بتصرف واختصار .

وعن طريق سلاح الحرمان والطرده من رحمة الكنيسة - بالنسبة للفرد أو للجماعة - استطاع جريجورى السابع استطاع أن يخضع الجميع فأخذ البابا منذ ذلك الوقت يعامل ملوك أوروبا أمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها ، فاعتبر البابا نفسه رأس العالم المسيحى بأجمعه ، فأخذ يمد أنفه الى كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى لغرب أوروبا ، زيادة على الهيئات الدينية^(١) .

كل ذلك النفوذ مما سهل للكنيسة أن تقود الحروب الصليبية وأن تدعو إليها ، وأن تعتبرها حربا من أجل الكنيسة ، وأن تسميها - بناء على هذا الاعتبار - الحرب المقدسة . ومن أجل إرضاء الكنيسة - وهذا نفوذها وتلك عقوباتها - اتجه بعض ملوك أوروبا مثل : لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد ملك إنجلترا إلى فرض ضرائب على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الحروب الصليبية .



(١) السابق : ٥/٢ بتصرف واختصار .

ب - الدول الأوروبية التي شاركت في هذه الحروب

نعنى بهذه النقطة من البحث أن نؤكد على أن الغزو الصليبي الأوربي للعالم الإسلامي لم يكن موجها من دولة أوروبية بعينها - حتى ولو كان أثرها بارزا في هذا الغزو كفرنسا على سبيل المثال - وإنما تحالفت فيه وشاركت في الإعداد له والقتال في سبيله دول عديدة من أوروبا .

وربما كان لكل دولة من هذه الدول مصلحة خاصة في المشاركة في هذا الغزو ، ولكن المصلحة المشتركة لكل الدول الأوروبية التي أسهمت فيه أمر مسلم به لدى من يدرس هذه الفترة من التاريخ .

وتكاد تكون الغاية الكبرى لاشتراك دول أوروبا في غزو العالم الإسلامي هي عدااء الإسلام والحقد عليه وعلى المسلمين ، فضلا عما فيها من الاستيلاء على بلاد المسلمين في المشرق العربي وهي بلاد - كما سبق أن قلنا - تذكرها التوراة فتصفها بأنها تفيض عسلا ولبنا . وقد أعلن لهم البابا وهو يجيشهم ويحمسهم أن الذين يحتلون من بلاد الشرق الإسلامي بلدا ، يكون حقا لهم .

وفي مجال الحديث عن الدول الأوروبية التي شاركت في هذا الغزو فإننا سنولى اهتماما بالدول التي شاركت مشاركة إيجابية فعالة دون أن نستوعب في الحديث كل موقف لأي دولة شاركت مشاركة غير إيجابية .

وأول هذه الدول التي حملت عبء الغزو الصليبي وبالغت في الحروب الدائرة ضد المسلمين في تلك الفترة هي : فرنسا .

ولنلق نظرة على جهودها في هذه الحروب :

ولقد شاركت فرنسا في هذا الغزو الصليبي بقيادة : جود فرى دى بويون (١٠٥٨ -

١١٠٠ م) وهو دوق « اللورين الدينا » .

توجه هذا القائد الفرنسى ومعه أخوه « بلدوين » إلى غزو الشرق الإسلامى فكان من أوائل الأمراء الذين شاركوا فى هذه الحرب واتجه هو وأخوه إلى القدس فى الحملة الصليبية الأولى (٤٩٠ هـ - ١٠٩٦ م) واتخذت جيوشه إلى بيت المقدس طريق هنغاريا ثم القسطنطينية ثم اتجه إلى البلاد الإسلامية حتى وصل إلى بيت المقدس .

وكانت هنغاريا قد اكتوت بنيران النهب والعدوان من الحملات الصليبية التى سبقت جيش جودفرى والتى كانت تحت قيادة بطرس الناسك مرة وتحت قيادة فولكار أحيانا .

لذلك عمد جود فرى إلى طمأنة ملك هنغاريا على بلاده ، فتعهد له بأن جيوشه لن تعتدى على شىء وقدم أخاه بلدوين رهينة عند الملك حتى تعبر الجيوش هنغاريا .

كما تعهد جود فرى للإمبراطور الرومانى البيزنطى بأن جيوشه لن تعتدى على شىء من ممتلكات الدولة البيزنطية وهى تعبر إلى بيت المقدس وكتب معه بذلك معاهدة ، وكان المقابل من الإمبراطور البيزنطى هو إمداد الصليبيين بالمؤن حتى يصلوا إلى جبهة الحرب . - وبغض النظر عن أن جود فرى لم يوف بالتزامه فى عدم العدوان على ممتلكات الدولة البيزنطية فإن الإمبراطور البيزنطى أراد أن يستغل هذا الجيش لصالح دولته - التى كانت فى صراع مع المسلمين - كما أشرنا إلى ذلك آنفا - فأراد أن يكون ولاء جود فرى له ، فرفض القائد الفرنسى ذلك ، لتبعيته أولا للإمبراطور هنرى الرابع الغربى ، ولأنه بهذه الحرب إنما نفذ رغبة البابا إيربان الثانى ثانيا . الأمر الذى ترتب عليه نزاع بين الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس وبين جود فرى - ليس هنا محل ذكره بالتفصيل ، وإنما انتهى الأمر بينهما باتفاقية عقدت فى شهر إبريل ١٠٩٧ م ، تضمنت اعتراف جود فرى بأن ما يستولى عليه من بلاد المسلمين يرده إلى الإمبراطورية البيزنطية - على اعتبار أنها كانت أملاكها قبل أن يفتحها المسلمون - وعلى ضوء ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تكتف بالمطالبة بأنطاكية والرها عندما استعادها الصليبيون من المسلمين وإنما طمعت فطالبت ببيت المقدس وطرابلس .

وقد عمل الإمبراطور البيزنطى على تكريم جود فرى بعد هذه الاتفاقية وأمر بمساعدته

في نقل جيوشه إلى الشاطئ الآسيوي انتظارا للحملة الصليبية التي يقودها بوهيموند .
واستطاع جود فرى أن يشهر نفسه في حصار القدس سنة ٤٩٣ هـ - ١٠٩٩ م فانتخب
حاكما للمدينة بعد الاستيلاء عليها ، ورفض لقب « ملك » لأسباب دينية ، ولقب بلقب
« حامى القبر المقدس » .

وكان جود فرى عنيفا في حربه استطاع أن يجبر عددا من المدن السورية المسلمة على
أن تدفع له أتاوة .

وكان أول حاكم لاتينى للقدس ، ثم خلفه على القدس أخوه : بلدوين واتخذ لقب
ملك .

وشارك من فرنسا أيضا ريموند الرابع (كونت تولوز في جنوب فرنسا) وكان من قواد
الحملة الصليبية الأولى كذلك .

وهو أول أمير صليبي حمل الصليب في مجمع كلير مونت ، وقاد جيشا من البروفنساليين
إلى القسطنطينية ، وقد أبلى في حصار نيقيا وأنطاكية والقدس ، وتنازع مع بوهيمند حول
أنطاكية وامتلاكها .

وحارب في عسقلان .

وقرب نهاية حياته حاصر طرابلس التي جعلها سليلوه في النهاية كونتية .

وفي الحملة الثانية شارك من فرنسا الملك لويس السابع .

وفي الحملة الثالثة شارك من فرنسا الملك فيليب الثانى (أغسطس) .

والحملة الرابعة جيشتها فرنسا وإن قادها « أنريكو داندالو البندقى » . فضلا عن
حملة الأطفال التي خرجت من فرنسا كذلك .

وفي الحملة الصليبية الخامسة ، اشترك من فرنسا : يوحنا برين ، وهو من شمبانى في
شرقى فرنسا - وهو زوج الملكة ماريا .

أما الحملة الصليبية السابعة فقد حملت فيها فرنسا العبه الأكبر حيث قادها مليكها
لويس التاسع وهاجم مصر ووصل إلى المنصورة ولكنه انهزم هناك وأسر وسجن في دارابن

لقمان في المنصورة وظل سجيناً حتى افتدى نفسه ، غير أنه كان ممثلاً بالحقد على الإسلام والمسلمين فعاد إلى الهجوم على المسلمين بعد ذلك ، حيث قاد الحملة الصليبية الثامنة وأغار على تونس ، غير أنه توفي في أثناء هذه الحملة .

ولقد استمرت فرنسا بعد هذا الغزو الصليبي العسكري للعالم الإسلامي تحمل أعباء غزو للعالم الإسلامي من نوع آخر ، غزو استشراقي جاء بعده غزو تبشيري جاء بعده احتلال لعدد من البلدان الإسلامية في العصر الحاضر - القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين - الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين الميلادية .

ومن أهم الدول الأوروبية التي أسهمت في الغزو الصليبي للعالم الإسلامي إيطاليا : ولقد كان لإيطاليا في خوض هذه الحروب مجهودات ضخمة نذكر منها : الحملة الصليبية الأولى على العالم الإسلامي حيث قاد فيها جيشاً كثيفاً الأمير الإيطالي « بوهيمند الأول (١٠٥٦ - ١١١١ م) أمير أنطاكية - وكان قد أقسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول ، ولكنه عندما احتلت أنطاكية أعلن نفسه أميراً عليها وخاس بعهد مع ألكسيوس مما جره إلى حرب معه .

وكان بوهيمند « النورمانى » عندما سمع بالغزو الصليبي للعالم الإسلامي وعرف طبيعة هذا الغزو وأعجبه أهدافه ، سارع إلى تكوين جيش نورمانى كبير ، واصطحب معه ابن أخته تنكرد وعدداً من أمراء النورمان في جنوب إيطاليا وصفلية .

واخترقت الحملة البلقان شرقاً إلى القسطنطينية ، وبعد تفاهم مع إمبراطور البيزنطيين ألكسيوس استطاعت الحملة أن تعبر إلى الشاطئ الآسيوى في أخريات شهر إبريل ١٠٩٧م - ٤٩١هـ .

كذلك كان لابن أخت بوهيمند « تنكرد » مشاركة وعمل في غزو بلاد المسلمين ، وقد عين تنكرد أميراً لأنطاكية ، عينه خاله بوهيمند .

ومن القواد الإيطاليين الذين شاركوا في الغزو الصليبي للعالم الإسلامي « بويه » رئيس أساقفة ميلان .

وشاركة في حملة على العالم الإسلامي سنة ١١٠٠ م - ٤٩٤ هـ عدد من القواد
الإيطاليين مثل : البرت كونت بياندرات ، وجيبرت كونت بارما ، وهيو كونت مونتيبللو .
ومن الإيطاليين الذين شاركوا في هذه الحروب « روجر الثاني » ملك صقلية .
وكذلك شاركت ألمانيا في الغزو الصليبي للعالم الإسلامي .
فكان من قوادها الذين قادوا الجيوش الصليبية للغزو « كونراد الثالث » ملك ألمانيا
(١٠٩٣ - ١١٥٢ م) .

ولقد اشتركت ألمانيا في الحملة الصليبية الأولى ، وكانت من أكثر دول أوروبا حماسا
لهذه الحرب المقدسة ، حتى إن حماس الألمان لم يتوقف بعد رحيل بطرس الناسك عنهم
- وهو يدعو لهذه الحرب - وإنما خلف وراءه ألماناً متعصباً هو : « جوتشالك » الذي حشد
جيشاً ألمانياً كثيفاً بقصد الذهاب إلى الشرق الإسلامي وقتال المسلمين هناك .
وفي نهاية إبريل سنة ١٠٩٦ م خرج من بلاد الراين « فولكمار » الذي لم نعرف شيئاً
عن أصله ، يقود ما يزيد على عشرة آلاف رجل للحاق ببطرس الناسك في الشرق .
سلك فولكمار الطريق الذي يجتاز بوهيميا ويؤدي إلى المجر ، ولم تنقض أيام ٠٠ حتى
ارتحل « جوتشالك » - وهو من قدامى أتباع بطرس - على رأس جيش كبير نسبياً ، واتخذ
الطريق الرئيسي الذي سلكه بطرس على امتداد الراين وعبر بأفاريا .
وفي تلك الأثناء احتشد جيش ثالث بقيادة سيد إقطاعي صغير من سادة بلاد الراين
هو : « إميخ » كونت لايزنجن - الذي حاز شهرة في الخروج على القانون واللصوصية ،
وزعم « إميخ » أن في بدنه صليبا من صنع المعجزات والكرامات ٠٠٠
غير أن جيش « إميخ » اشتمل أيضاً عدداً من النبلاء الفرنسيين والألمان أمثال :
أميرى زفايردكن وهما : سالم وفيرنبرجر ، وهارتمان أمير ديلنجن ، ودروجو أمير نسل ،
وكلا رامبالد صاحب فندي ، وتوماس أمير لافير ، ووليم فيكونت ميلون الملقب
بالنجار ٠٠٠

ولعل بطرس وجود فرى هما النموذج الذي أوحى للسيد « إميخ » أنه من اليسير

الإفادة من الحماس الدينى لتحقيق أرباح شخصية لنفسه ولأتباعه ، لذلك شن هجوما على اليهود فى ألمانيا فى قرية أشبير ولكن الأسقف تدخل فأنقذ اليهود منه ، وكذلك شن على اليهود هجوما فى فورمز والقرى المجاورة لها وفى هذه المرة لم تجد حماية الأسقف لهم فقضى إميخ على عدد منهم يقارب ٥٠٠ شخص^(١) .

وكذلك فعل إميخ مع اليهود فى ماينز وكولونيا ، وهو فى عدوانه ذاك يظهر لجيوشه أنه ينتقم من أعداء المسيح نفسه وهم اليهود قبل أن يتوجه إلى أعداء المسيحيين وهم المسلمون ، وإن كانت الحقيقة هى الرغبة فى المنافع الشخصية والأطباع المادية سواء فى حربه ضد اليهود أو ضد المسلمين .

وحاول فولكمار أن يقلد إميخ فى العدوان على اليهود فى ألمانيا ولكنه لم ينجح فى ذلك إلا فى أضييق الحدود . وكذلك كان موقف جوتشالك من اليهود ، غير أن الجيش المجرى بقيادة كولومان لم يمكنه من ذلك .

وأحب هنا أن أوضح أن عداء الصليبيين فى تلك الفترة لليهود ، لا يعود إلى ما زعموه من أنهم أعداء المسيح شخصا ، وإنما يعود إلى أن اليهود رأوا فى هذه الحروب الصليبية تهديدا لمصالحهم المادية فى الشرق الإسلامى ، بل وفى أوروبا نفسها ، فأخذوا يتواصلون فيما بينهم بعدم التعاون فى شن هذه الحروب - الأمر الذى أحقد عليهم كل متحمس متعصب من الأوربيين لهذه الحروب .

ولم يستطع جوتشاك وجيوشه ولا إميخ وجيوشه ولا فولكمار وجيوشه ، لم يستطع أى منهم أن ينفذ بجيوشه إلى بلاد الشرق الإسلامى ليقا تل المسلمين هناك ، إذ قضت عليهم أطباعهم وهم فى الطريق .

أما كونراد الثالث ملك ألمانيا فإنه اشترك فى الحملة الصليبية الثانية (الفاشلة) تحت تأثير القديس برنارد ، وسبق جيش كونراد الثالث الجيش الفرنسى الذى يقوده لويس السابع ، فقابله المسلمون على حدود الشام ، وهناك هزموه هزيمة منكرة وقضوا على جيشه ،

١ - ستيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ١٩٩/١ - ٢٠١ باختصار وتصرف .

وأضطروا أن يفر إلى القسطنطينية ، عاجزا عن أن يحقق شيئا من الأمانى التى كانت تجول بخواطر جيوشه من الاستيلاء على خيرات الشرق الإسلامى • كما اشترك فردريك إمبراطور ألمانيا وبصحبه ابنه فرديك أمير سوابيا ، وإن كان نصيب فردريك الأكبر هو الفرق فى نهر بقليلية •

ومن البلاد الأوربية التى شاركت فى هذا الغزو الصليبي للعالم الإسلامى النمسا • وكانت النمسا فى ذلك الوقت تتبع ألمانيا ويحكمها كما يحكم ألمانيا فردريك الأول - الذى غرق فى نهر بقليلية - وقد اشترك فى الحملة الصليبية الثالثة على العالم الإسلامى واصطحب ابنه كما سبق أن ذكرنا ، ولكن حملته تلك وإن أخافت المسلمين ، وجعلت صلاح الدين الأيوبي يقيم لها أكبر وزن إلا أنها فشلت بموته غريقا • كذلك شارك فردريك الحفيد فى حملة صليبية على العالم الإسلامى جاءت متأخرة نسبيا سنة ١٢٢٨ م - ٦٢٦ هـ وكانت حملته تلك سببا فى أن ينزل المسلمون للنصارى عن القدس والناصرة وبيت لحم صلحا • وتوج هذا الحفيد ملكا على بيت المقدس • وكان هذا الحفيد قد اشترك فى الحملة الصليبية الرابعة التى استجابت لها النمسا سنة ١١٩٣ م - ٥٨٩ هـ والتى شنت عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي • وقد استطاعت هذه الحملة أن تستولى على بيروت ، ثم غادروها حينما هاجم المسلمون صور • وقد انتهت هذه الحرب بهدنة لمدة ثلاث سنوات طلبها الصليبيون فأجيبوا لها • ومن الدول التى شاركت فى هذه الحروب « إنجلترا » • وذلك أن ملكها ريتشارد الأول - ريكاردوس قلب الأسد - شارك فيليب الثانى ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ - ٥٨٥ هـ • وقد استطاعت هذه الحملة أن تستولى على عكا من المسلمين بعد حصار دام حوالى عامين •

ولما عرف عن ريتشارد من فظاظة تركه شريكه ملك فرنسا وانسحب كما تركه كونراد ملك ألمانيا - وصاحب عكا - وانفرد ريتشارد بقيادة الجيوش ، فسار بإزاء البحر إلى

قيسارية فاستولى عليها ، ثم أخذ يافا ، ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى بيت المقدس ،
وتغيرت الأحوال فاستطاع صلاح الدين أن يسترد منهم يافا .
ثم اضطربت صحّة ريتشارد وجاءته أنباء سيئة عن بلاده ، ففعل راجعا إلى بلاده بعد
أن خلف وراءه عددا من الإشكالات والاضطرابات بين الصليبيين أنفسهم .
غير أنه فشل تماما في الاستيلاء على بيت المقدس ، وإن كان قد تصالح مع صلاح
الدين على أساس التمسك بحق الصليبيين في حماية الأماكن المقدسة - وبخاصة كنيسة
القيامة - مع ضمان حرية الحجيج والعبادة للصليبيين . وهو ما يعرف بصلح الرملة
١١٩٢ م وهو صلح أرضى الجانبين المسلمين والصليبيين في تلك الظروف المرحلة بالنسبة
لها .

وهكذا وضعت المخطوط النهائية لهذه الحملة الصليبية التي سموها الحملة الثالثة .
ومن أمراء انجلترا الذين شاركوا في هذه الحروب : هنري دى شامبني ابن أخت
ريتشارد وملك الصليبيين في الشام .

فعندما وفد الألمان إلى الشام سنة ١١٩٧ م - ٥٩٤ هـ وعاثوا فسادا فتصدى لهم
الملك العادل وأحاط بهم قرب عكا عند رأس الماء بمرج عكا عندئذ أسرع هنري دى
شامبني إلى حشد القوى الصليبية ، ودارت معركة بينه وبين المسلمين قرب غزة ، فكانت
الهزيمة حليفة الصليبيين بقيادة هنري دى شامبني .

ومن الدول التي شاركت في هذه الحروب هنغاريا .
فقد أعد ملكها أندراوس الثاني جيشا صليبيا كثيفا اتجه به نحو الشرق الإسلامي ،
واستطاع أن يصل إلى سورية وأن ينتشر في القرى الواقعة بين بيسان وبانياس وصيدا
والشقيف ، غير أنه في الحقيقة كان جيش لصصوص وقطاع طريق إذ كان هدفه النهب
والسلب ، ثم عاد الملك ولصوصه إلى بلادهم بعد أن نهبوا ما نهبوا .

كذلك كان لقبرص وملكها عمورى لوزنجنان - الذي اختير زوجا للملكة إيزابيلا
- ملكة بيت المقدس - ليستطيع أن يدافع عن ملك الصليبيين المتهرئ في الشام . ولقى

توحيد تاجي قبرص وبيت المقدس على يد عموري رضا جميع أطراف الصليبيين البابا والإمبراطور الروماني الغربي ، ومعظم أمراء الصليبيين في الشام والداوية والاسبتارية . واتجه عموري من قبرص إلى الشرق الإسلامي واستطاع أن يستولى على بيروت سنة ١١٩٧ م وكان لهذا ما كان من سوء الوقع في نفوس المسلمين ، لما لذلك من أهمية في السيطرة الصليبية على شاطئ الشام وبخاصة فيما بين طرابلس وعكا . وكان ذلك تشجيعا لأمير أنطاكية بوهيمند الثالث على الاستيلاء على اللاذقية وجبله فحاول ولكنه فشل أمام احتياطات الملك الظاهر الأيوبي .

وبعد :

فلسنا نغنى بهذا الجزء من البحث استقصاء لكل من شارك من دول أوربا في الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي ، استقصاء تاريخيا ، وإنما هدفنا أن نوضح في هذه الكلمات ضخامة هذا الغزو الناتجة عن ضخامة عدد الدول الأوروبية الغربية المشتركة فيه . أما الاستقصاء التاريخي لهذه الحروب فيلتمس في كتب التاريخ . تاريخ الحروب الصليبية بشكل مباشر وتاريخ أوربا في العصور الوسطى بشكل غير مباشر . فنحن مثلا لم نتحدث هنا عن اشتراك جنوا وصقلية وإسبانيا والداغررك ، ولا عن عدد كبير من الأمراء والقواد ، لأن الاستقصاء التاريخي ليس من هدفنا ، وإنما الهدف هو توضيح حجم هذه الحروب ، والأبعاد السياسية لهذا الغزو .

ج - الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى

نود فى هذا الجزء من البحث أن نتعرف على هذه الحملات الصليبية الغازية للعالم الإسلامى كما وردت فى كتب التاريخ موضحين ما حققته مقاومة المسلمين لها من انتصارات ، وما استطاعت هذه الحملات أن تستولى عليه من بلاد المسلمين . وسوف لا نفيض فى التفصيلات على نحو ما تسطره كتب التاريخ ولكننا سوف نرقب النتائج على الجانبين ، النتائج الحربية ، أما النتائج العامة لهذا الصراع فسوف نورد له بابا من أبواب هذا الكتاب^(١) .

ونود فى مستهل هذا الحديث أن نؤكد أن الوعاء الزمنى المتعارف عليه بين المؤرخين لهذه الحروب وهو قرنان من الزمان على وجه التقريب هو وعاء تقريبى فحسب ، لأنه يمثل الفترات الحاسمة فى هذه الحروب دون أن يمثل كل أطوارها .

فالحق أن هذه الحملات قد امتدت فيما بعد هذا الزمن المتعارف عليه ، كما أنها لها جذور قبل ذلك التاريخ ، ولو شئنا الدقة - بالنظر إلى الأسباب والنتائج - لقلنا إن بدايتها بدأت قبل تاريخها المعروف بزمان غير قصير ، كما أن نهايتها العسكرية فقط قد امتدت بعد تاريخ انتهائها المعروف بأكثر من قرن من الزمان . أما نتائجها غير العسكرية فانها استمرت قرونا عديدة ربما وصلت إلى هذا القرن الذى نعيشه - القرن الرابع عشر الهجرى ١٣٩٩ هـ .

أما العداء نفسه بين دول العالم الأوروبى المسيحى ودول العالم الإسلامى ، فإنه قائم كذلك حتى يومنا هذا .

وربما انتهت هذه الحروب من وجهة نظر المسلمين ، أما من وجهة نظر الدول الأوربية الصليبية فإن الكيد لا يزال مستمرا والحرب لا تزال دائرة ، وكل الذى اختلف هو أسلوب الحرب فقط .

١ - هو الباب الثالث من أبواب هذا الكتاب وهو : « نتائج الحروب الصليبية » فى العالم الإسلامى وفى دول أوروبا .

ولنتحدث عن المشهور من تلك الحملات :

الحملة الصليبية الأولى :

مؤثر هذه الحرب هو البابا إيربان الثانى الذى ارتقى عرش البابوية فى شهر مارس

١٠٨٨ م .

« قدم البابا إيربان الثانى إلى فرنسا فى أواخر صيف سنة ١٠٩٥ م فكان فى فالنس

فى ٥ أغسطس ، وبلغ لى بويه فى ١١ أغسطس .

ومن لى بويه بعث برسائل إلى أساقفة فرنسا والبلاد المجاورة يطلب إليهم الاجتماع به

فى « كليرمونت » فى نوفمبر ٠٠٠

وكان إيربان الثانى على اتصال بماركيز بروفانس الذى اشتهر وقتذاك بقيادته

للحروب المقدسة فى إسبانيا ، ولابد أنه وقف على تجاربه فى هذه الحروب ٠٠٠ » .

وانعقد مجمع كليرمونت فى الفترة الواقعة بين ١٨ نوفمبر إلى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م

وشهده نحو ثلاثمائة من رجال الدين .

وأعلن البابا أنه سيلقى بيانا هاما يوم الثلاثاء ٢٧ من نوفمبر واحتشد لهذا السبب

عدد كبير من القسس والعلمانيين ، لم تتسع لهم الكاتدرائية فجلس البابا على منصة

خارج الكاتدرائية وألقى فيهم خطبته الشهيرة ، التى لم يستطع أحد من المؤرخين أن

يرونها بألفاظها .

« ٠٠٠ على أننا نعلم على وجه التقريب ما قاله إيربان فعلا :

إذ استهل خطابه فيما يبدو بإخطار سامعيه بضرورة بذل المساعدة لإخوانهم فى

الشرق ، فالعالم المسيحى فى الشرق التمس منه المساعدة ، لأن التُرك مضوا فى زحفهم

فى جوف البلاد المسيحية ، وأخذوا يسيئون معاملة السكان ويدمرون مشاهدهم

وأضرحتهم .

١ - استيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ١/٥٩ - ١٦١ بتصرف واختصار .

غير أنه لم يتحدث فحسب عن رومانيا (أى بيزنطة) بل أكد ما لبثت المقدس من قداسة خاصة ، ووصف ما يعانيه الحجاج أثناء سفرهم من العذاب والمتاعب ، وبعد أن وصف الصورة القائمة ، وجّه ندائه الشهير : فليطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق • ينبغي أن يسير الأغنياء والفقراء سواء ، ينبغي أن يكفوا عن قتل أحدهم الآخر ، وأن يباشروا عوضاً من ذلك القتال الحق ، فيؤدّون ما أمر الله به أن يعمل ، وسوف يكون مرشداً وهادياً لهم ، ومن يلق مصرعه في المعركة تحلل من ذنوبه ، وغفر الله أخطائه • فالحياة هنا أضحت تعسة كثيرة الشرور ، بعد أن أضنى الناس أنفسهم في تدمير أجسادهم وأرواحهم •

استبد بهم هنا الفقر والبؤس ، وسوف ينعمون هناك بالسعادة والرخاء ، ويكونون أصدقاء أوفياء لله ، فلا ينبغي التمهّل والإرجاء ، فليستعدوا للمسير عند حلول الصيف وليكن الله هاديهم » •

تحدث إيربان في حماس ، وبكل ما اتصف به الخطيب الشهير من براعة ، وكانت الاستجابة سريعة وقوية إذ تحلل الخطاب هتافات الحاضرين « هكذا أراد الله » Deus Volt ولم يكد البابا ينتهى من خطابه حتى نهض من مجلسه أسقف لى بويه فركع أمام عرش البابا والتمس منه الإذن بأن يلحق بالحملة المقدسة ، وتزاحم مئات من الحاضرين لينهجوا مثاله ، ثم ركع الكاردينال جريجورى على ركبتيه وأخذ يتلو بصوت جهورى قداس الاعتراف Coufitear فيرده وراه جموع الحاضرين ، فلما انتهت الصلاة نهض إيربان مرة أخرى ، وتلا التحلل ، وأمر سامعيه بالانصراف إلى بلادهم «^(١)» •

أراد إيربان بذلك أن يوضح أنه لا بد أن تخضع الحملة لإشراف الكنيسة ، فينبغى أن يتولى قيادتها أحد رجال الكنيسة وليكن مندوبه فاتخذ المجمع قراراً بالإجماع بأن يكون أسقف لى بويه قائداً للحملة •

ولا نحب أن نتوسع في الحديث عن موقف إيربان الثانى فى تأريث هذه الحروب ، فقد

١ - السابق : ١٦١/١ - ١٦٢ باختصار •

أشرنا إلى طرف من ذلك ونحن نتحدث عن الدوافع الدينية لهذه الحروب .
ولكن لابد أن نشير إلى أن إيربان الثانى طلب إلى الأساقفة أن ييسروا للحروب
الصليبية ...

ومن هنا ظهر بطرس الناسك ، ووالتر المفلس وغيرها .
وقد انقسمت هذه الجيوش الصليبية فى الحملة المسماة بالحملة الأولى إلى قسمين :
قسم على مستوى الشعوب والفقراء والضعاء - كما يقول مؤرخوهم - وقد سمي هذا
القسم : حملة الشعوب .
وقسم على مستوى الأمراء والحكام والقواد والإمبراطور .

أ - حملة الشعوب

وكان جيش بطرس الناسك مؤلفاً من جهات عديدة من أوروبا ومن فئات مختلفة من
الناس ، وكان بعض المشتركين فى الجيش قد اصطحبوا زوجاتهم وأطفالهم .
وكان منهم فلاحون وأهل مدن ، وصغار النبلاء وبعض قطاع الطرق والمجرمين ،
وباختصار لم تكن تنتظمهم رابطة ما إلا أن تكون رابطة الحماس لغزو الشرق الإسلامى
والاستيلاء على الأرض التى تفيض عسلاً ولبناً والاستيلاء على قبر المسيح .
وتحرك بطرس ومعه هذه الجموع حتى وصلوا كولونيا فى يوم سبت النور ١٢ من إبريل
١٠٩٦ م ، وأراد بطرس أن يترتب فى هذه المدينة ليحصل جيشه على المؤن من جانب
وليضم إليه بعض نبلاء الألمان من جانب آخر .
وفعلاً حقق بطرس هدفه ، فحصل جيشه على المؤن واستجاب له من صغار الأمراء
الألمان : هيو : كونت توبنجن ، وهنرى : كونت شنار تزنبرج ، ووالتر : كونت تيك ، وأبناء
كونت تسمرن الثلاثة .

وغادر بطرس كلونيا في ٢٠ من إبريل ١٠٩٦ م بعد أن لحق به من الألمان أعداد كبيرة بقيادة : جوتشالك ، وإميخ كونت لايزنجن ، واتجه بطرس راكبا حماره إلى المجر وسار الألمان على خيولهم وبقية الجيش كانوا مترجلين - وكان قد وصل إلى المجر قبل ذلك بقليل والتر المفلس وجموع ممن ألهبت كلمات الكنيسة حماسهم وصلوا في ٨ من شهر مايو واجتازوا المجر بإذن من ملكها ٠٠٠ ثم عبروا نهر السّاف عند بلجراد إلى الأراضي البيزنطية - غير أن والتر المفلس وأتباعه قد نهبوا بعض القرى مما أدى إلى أن يستخدم أحد قادة المجر السلاح ضد هذه الجموع ، لكن والتر استطاع أن يواصل سيره حتى وصل إلى القسطنطينية في منتصف شهر يوليو ١٠٩٦ م -

عندئذ كان ملك المجر على حذر من بطرس وجنوده بعدما رأى ما فعلته جنود والتر المفلس ، وعند سيملن أخذ بعض القادة المجرين بعض الاحتياطات وتخوف بطرس وجنوده من ذلك ، فهاجم أحد قادة جيوش بطرس مدينة سملن واستولوا على قلعتها وصرع هناك ما يقرب من أربعة آلاف مجرى ٠٠ ثم أسرعت جيوش بطرس في اجتياز نهر السّاف خوفا من أن يتعرضوا للانتقام المجرين .

وعندما وصل بطرس بجنوده إلى نيش لم يسمح له بالذهاب إلى وجهتهم حتى يقدم الرهائن فقدم جفرى بول ووليم بريتيل رهائن . ثم واصلوا سيرهم إلى مدينة صوفية - على أنه حدثت اشتباكات بينهم لا نحب أن نتوسع في ذكرها - المهم أن بطرس وجنوده وصلوا القسطنطينية في أول أغسطس ثم جاءت جموع والتر المفلس ثم جاءت جموع أخرى من الحجاج الإيطاليين وانحازوا جميعا إلى حملة بطرس ٠٠ ثم عبروا البوسفور إلى آسيا وكانوا في طريقهم ينهاون ويسلبون .

واقترح الإمبراطور ألكسيوس امبراطور بيزنطة على بطرس أن ينتظر حتى تصل القوات الصليبية الرئيسية المنظمة قبل أن يشن هجومه على الصليبيين ٠٠ ولكن قواد بطرس أغراهم السلب والنهب في القرى والأراضي التي كانت بأيدي المسلمين الأتراك ٠٠٠ وظلوا يواصلون زحفهم حتى أصبحوا على أبواب نيقية عاصمة السلطان

السلجوقى قلعج أرسلان وغنموا منها ما وقع تحت أيديهم وأتوا من الشنائع ما يذكره أحد المؤرخين حين يقول : إنهم كانوا يشوون الأطفال على السفافيد ، وكان الذى قام بهذا الهجوم جماعة من الجنود الفرنسيين ، فأغرى ذلك جيش من الألمان بقيادة رينالد ، فخرجوا ينهبون متجاوزين نيقية حتى وصلوا إلى قلعة اكسيريجوردون واحتلوها ، غير أن جنود المسلمين طوقتهم وأرغمتهم على الاستسلام .

وشجع هذا النهب والسلب الجنود الصليبيين المعسكرين في كيفتيوت على أن يهاجوا القرى والمدن الإسلامية انتقاما لما حدث لإخوانهم في اكسيريجوردون وانشق القواد بعضهم على بعض ، وتغلب القائد الفرنسى جفرى بوريك بسانده الرأى العام الطامع من الجنود فتحركوا من كيفتيوت إلى نيقية وفى الطريق كمن لهم من الجنود المسلمين من أصلوهم نارا حامية وردوهم على أعقابهم إلى قلعتهم بل اقتحموا عليهم القلعة وهزموهم هزيمة منكرة وأسروا منهم أعدادا كبيرة فضلا عن قتلوهم ، وطاردوهم إلى قلعة أخرى كان قد فر إليها عدد منهم ، وهناك قضوا عليهم وكان من قتل الصليبيين في تلك القلعة : والتر المفلس . ورينالد برايس . وفولك أورليان ، وهيو توينجن ، والتر تيك ، وكتراد ، وألبرت تسمرن . ولم ينج إلا جفرى بوريك الذى يقول عنه أحد المؤرخين : إن تهوره هو الذى أدى إلى هذه الكارثة .

يقول ستيفن رنسيان تعليقا على حملة الشعوب هذه :
« هذه كانت خاتمة حملة الشعوب الصليبية ، لقد تكلفت إزهاق أرواح عديدة من الناس . وقد استنفذت ما عند الإمبراطور ورعاياه من الصبر ، وعلمت الناس أن الإيمان وحده لن يفتح الطريق إلى بيت المقدس . إذا تجرد من الحكمة والنظام »^(١) .

١ - ستيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ١٩٤/١ م .

ب - حملة الأمراء والإمبراطور

كانت هذه الحملة أكثر نظاماً وأدق إحكاماً فقد سبقتها استعدادات كبيرة كجمع المال وتجهيز الأدوات والآلات وإعداد الجيوش وترتيب الحكومة التى تتولى شئون البلاد أثناء غيابهم فى هذه الحروب .

وأول من ارتحل من هذه الجيوش المنظمة هو : هيو كؤنت فرماندوا وهو الابن الأصغر لهنرى الأول ملك فرنسا ، وقد شجعه على المضى فى هذه الحروب أطباعه فى أموال الشرق وتشجيع أخيه الملك فيليب ، وانضم إليه عدد من الأمراء مثل دروجى صاحب نسل وكلامبالد صاحب فاندای ووليم النجار وسائر الفرسان الذين عادوا من حملة إميخ المنهزمة .

واجتازت جيوش « هيو » روما وفى إيطاليا صحبهم - متسرعا - ولیم أحد أقارب بوهيمند فعبر البحر مع « هيو » ، غير أن أسطولهم ذاك قد ضربته عاصفة أغرقت عددا كبيرا من سفنه ، وكان نصيب « هيو » نفسه أن ألقت به الأمواج على الشاطئ شبال دورازد ، ومن دورازد لقي معاملة طيبة إلى أن ذهب إلى القسطنطينية فاحتفل به الإمبراطور ألكسيوس ولكن بحذر حيث منعه من الاتصال بالحجاج الإيطاليين .

وأدرك ألكسيوس أن هذا الغزو الأوربي الصليبي ربما أضر بمصلحته هو فأخذ لنفسه العهود والمواثيق على أمراء الغرب الغازين من أمثال جودفرى عندما وصل إلى القسطنطينية - عبر طريق غير الطريق الذى عبرته الحملات الصليبية التى سبقته . وأخذ عليه الإمبراطور المواثيق والرهائن على أن يمنع جنوده من النهب وأن يكون وليا له - غير أنهم لا عهد لهم - فسرعان مادب الفساد بين الإمبراطور وجودفرى . فمنع الإمبراطور عنهم المون وأخذوا هم فى العدوان على القرى والمدن . ولما لم يجد جودفرى مناصا ولا ملجأ أعطى يمين الولاء لألكسيوس هو وبلدوين وعدد من الأمراء الأوربيين الغازين وأقسموا على الاعتراف بألكسيوس سيذا على كل مايفتحونه من بلاد المسلمين .

وأما بوهيمند فإنه أعلن أنه سوف يشترك في هذه الحروب وأمام الجيش المحتشد خلع بوهيمند رداءه الأحمر الثمين ومزقه قطعاً صغيرة جعل منها صلباناً لقادته وبادر أتباعه بالانضواء تحت لوائه وحذا حذوه عدد كبير من أتباع أخيه ، وعمه ووجر صاحب صقلية . وبادر وليم ابن أخت بوهيمند بالمسير مع الصليبيين الفرنسيين ، وعلى الرغم من أن جيش بوهيمند كان أقل عدداً من جيش جودفرى فإنه كان أكثر عدة وتدريباً . وأبحرت الحملة من باري في شهر أكتوبر ، وشارك فيها مع بوهيمند تانكرد الأخ الأكبر لوليم ، وابن إيما أخت بوهيمند ، والماركيز أودو ، وابنا عمه رتشارد ورانيولف أمير سالرنو ، ورانيولف بن رتشارد ، وجفرى كونت روسيجنونلو وإخوته : روبرت صاحب أنسا ، وهرمان صاحب كان ، وهمفرى صاحب مونتى سكابيوسو ، والبريد أمير كانيانو ، وجيرار أسقف أريانو ، وكل هؤلاء من نرمان صقلية .

أما نرمان فرنسا الذين انضموا إلى بوهيمند فممنهم روبرت صورديفال ، وبويل شارتر . . (١)

وفي أول إبريل بلغ الجيش النرمان روسه (كوشان الحالية) في تراقيا وعندئذ قرر بوهيمند أن يسرع إلى القسطنطينية حتى يقف على مايجرى من المفاوضات بين الإمبراطور وقادة الغرب .

وكان بوهيمند وجيشه في نظر ألكسيوس أخطر الجيوش الصليبية الغربية لأن النرمان أعداء ألداء للدولة البيزنطية من قبل .

وحاول ألكسيوس أن يتعرف على دخيلة بوهيمند فاجتمع به اجتماعاً لم يضم أحداً وتبين أنه صديق وعندئذ دعا جودفرى وبلدوين - وكانا مقيمين في قصره - ليشتركا في المباحثات .

ولم يتردد بوهيمند في أن يحلف يمين الولاء للإمبراطور ويطلب منه أن يعينه قائداً أعلى

للقوات الإمبراطورية في آسيا • غير أن الإمبراطور لم يستجب لهذا الطلب لعدم ثقته في بوهيمند على الرغم من يمين الولاء •

وبعد ذلك - أغدق الملك على بوهيمند ووعدته الوعود - وتقرر استدعاء جيش بوهيمند إلى القسطنطينية ، وفي ٢٦ من إبريل عبر بوهيمند البوسفور ليلحق بجيش جودفري ، أما تانكرد الذى كره سياسة خاله بوهيمند فإنه اجتاز المدينة ليلا وبصحبه ابن عمه ريتشارد أمير سالرنو كما يتجنب بذل يمين الولاء للإمبراطور ألكسيوس •

وفي نفس اليوم قدم إلى القسطنطينية ريموند كونت تولوز وورث بروفانس ، وشريك الإسبان في حرب المسلمين هناك ، ومستشار البابا إيربان في الحروب الصليبية وغزو العالم الإسلامى - وقد اشتهر ريموند باسم : كونت سان جيل - وقد نذر ريموند أن يقضى ماتبقى من حياته في الأراضي المقدسة •

ويقول رنسيان عنه : « ما قام به ريموند من أعمال تدل على أنه عنيد مغامر ، يسعى للحصول على الكسب والربح شديد الغرور »^(١)

وقد انحاز إلى جانب ريموند عدد كبير من نبلاء جنوب فرنسا كما دبر ريموند أن يكون في صحبته أوهمير أسقف لي بويه •

وفي طريق هذه الحملة إلى القسطنطينية اعتدت ونهبت في عدد من القرى ، وقد عرض الإمبراطور البيزنطى على ريموند يمين الولاء له ، كما فعل سائر الأمراء الصليبيين لكن ريموند - لصلته بالبابا وكراهته لبوهيمند الذى أشيع أنه سوف يكون القائد العام للصليبيين - قال إنه جاء إلى الشرق ليعمل في سبيل الله ولا مانع عنده إذا قام الإمبراطور نفسه بقيادة الجيوش الصليبية المتحدة أن يكون هو تحت قيادته وبعد مناقشات أقسم ريموند يمينا للإمبراطور أقل من يمين الولاء •

وهناك جيش صليبي رابع جاء من الغرب قاده روبرت الترنندى وصهره ستيفن كونت بلوا وابن عمه روبرت الثانى • وصحبه في هذه الحملة عدد كبير من الأمراء والنبلاء من

١ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ٢٣٠/١

نرمانديا وانجلترا واسكتلنده وبريتاني ، وأصبح هذا الجيش لكثرة من اشترك فيه من الأمراء يسمى نفسه الجيش المتحد وهو الجيش الوحيد الذى التقى بالبابا إيربان وحصل منه على البركة .

وقد أقام هذا الجيش فى القسطنطينية أسبوعين قبل أن يجتاز البوسفور إلى آسيا . وبعد أن عبرت الجيوش الصليبية البوسفور تنفس ألكسيوس الصعداء فهو وإن كان قد استعان بدول أوروبا الغربية على المسلمين إلا أنه لم يكن يتصور أن يمد بهذه المجموع الكثيفة من الجيوش الحرارة التى تعد فى الدرك الأسفل من الحضارة - على حد تعبير أحد مؤرخيهم^(١) .

وقد تم التفاهم والتخطيط بين الحملات الصليبية الغربية وبين البيزنطيين حول الخطة الحربية لمواجهة المسلمين ، وكان يساند الصليبيين الغربيين جيش من الصليبيين البيزنطيين .

وكان هدف الجيوش كلها هو الاستيلاء على نيقية عاصمة السلاجقة ، واختارت هذه الجيوش أن تهاجم المدينة فى غيبة سلطانها قلع أرسلان الأول ، حتى يكون فى هجومهم عليها انتقاما لما لقينته جيوش بطرس الناسك من هزيمة فيها من قبل .

وحوصرت نيقية بالصليبيين جودفرى وجيش بوهيمند بقيادة تانكرد وبترس الناسك ومن بقى معه بعد الهزيمة السابقة كل أولئك حاصروا المدينة من شاليها وريموند وعساكره أمام السور الجنوبى ، واحتشدت كل الجيوش الصليبية بعد قدوم روبرت النورماندى وستيفن بلوا ، وحتى الإمبراطور ألكسيوس قررا أن يكون بجيوشه على مقربة من نيقية .

وفى ٢١ من مايو ١٠٩٧م - ٤٩٠ هـ وصل السلطان قلع بجيوشه وحاول أن يشق طريقا إلى المدينة من جنوبها فاشتبك مع الصليبيين بقيادة ريموند وأهمير أسقف لى بويه وخف لمساعدتهما روبرت فلاندر وعساكره، ودارت المعركة يوما بأكمله ولكن السلطان لم يستطع النفاذ إلى المدينة فقرر الانسحاب وقد خسر الصليبيون خسائر فادحة فقتل منهم

١ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ٢٤٢/١

عدد كبير ومن سلم أصيب معظمهم بجراح ، ولكن انسحاب السلطان قلعج أرسلان رفع من معنويات الصليبيين ، فضلا عن أن الصليبيين قد قطعوا رؤوس من قتلوهم في هذه المعركة وألقوا بها من فوق أسوار المدينة •

ولم يستطع الصليبيون أن يفتحوا نيقية مما جعلهم يطلبون معونة بحرية من الإمبراطور ، وعجز الصليبيون ومعهم الإمبراطور أن يدخلوا المدينة عنوة ، وإنما استسلم سكان المدينة وكان معظمهم من المسيحيين ودخلها جيش الإمبراطور ليلا وهكذا سقطت نيقية بعد حصار وامتناع دام حوالى شهر من الزمان غير أنها عادت للإمبراطور البيزنطى لا للصليبيين الغربيين •

ثم أخذت هذه الجيوش الصليبية أهبتها للزحف على قونية مستعينين بفرق من الجيش البيزنطى فضلا عن الإمدادات والمؤن ومن الحق أن نقرر كما ورد ذلك في أكثر من كتاب من كتب التاريخ الأجنبية أن الدولة البيزنطية والصليبيين الغربيين تقاسموا الجهود والحروب ضد الأتراك المسلمين •

ذلك أن الصليبيين انصرفوا إلى محاربة المسلمين في فريجيا وضور ليوم وقونية بينما اتجهت جيوش الإمبراطور البيزنطى إلى حرب المسلمين في الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى في مسيا وأيدنيا وليديا •

كما لايفوتنى أن أنه إلى أن سقطت نيقية شجع الدول الأوربية وبخاصة من كانوا مترددين في الاشتراك في هذه الحرب ، فتوالت الإمدادات على الصليبيين من أوروبا وهم في طريقهم إلى الشام •

وفي ضور ليوم دارت معركة بين جيوش الصليبيين الكثيفة وبين المسلمين فكانت النتيجة لصالح الصليبيين واحتلوا ضورليوم • وكان انتصار الصليبيين الغربيين ذاك إيذانا بأن قوة جديدة ظهرت في الشرق الإسلامى تناوى القوة الإسلامية وتحقق عليها بعض الانتصارات •

ودخل الصليبيون عغب ذلك قونية وفد أخلاها قلعج أرسلان ، وأخذوا منها الزاد والماء

لاجتياز الصحراء إلى هرقله ، واستطاعوا الاستيلاء على هرقله ، ومن هرقله انقسمت جيوشهم إلى قسمين :

قسم بقيادة تانكرد ومعه بلدوين اتجهوا صوب قيليقية في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى ، وقسم بقيادة المندوب البابوي وجوفري وبوهيمند وريموند اتجهوا صوب قيصرية متخذين طريقا شاليا شرقيا .

واستولوا على قيصرية ومنها اتجهوا إلى بلاكنتيا ، ثم واصلوا سيرهم مخترقين سلسلة جبال طوروس إلى مرعش فاحتلوها وأقاموا بها أياما .
ومن مرعش اتجهوا صوب الشام فهبطوا سهل أنطاكية في أكتوبر ١٠٩٧م ثم وصلوا إلى الجسر الحديدي على مسير مرحلة من المدينة .

وهنا أدت الدولة البيزنطية عملا لتثبيت به هذه الانتصارات لصالحها هي فبعد أن أحكم الإمبراطور حصون نيقية ، وجه صهره إلى أيونيا في جيش كبير وكانت قد سبقت الجيش أنباء الانتصارات ، فسرعان ما استسلم أمير أزمير وأمير إفسوس حيث انقطعوا عن الدولة السلجوقية . ثم أخذ الإمبراطور يستعد لاسترداد إقليم ليديا من المسلمين وكذلك غرب فريجيا وقد نجح في ذلك ، فأنجه صوب الشمال حيث هزم الأتراك عند بلوادين . . . وهكذا تم للبيزنطيين الاستيلاء على الجزء الغربي من الأناضول . . وأصبح مستعدا للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية .

ولعل أبرز نتائج الحملة الصليبية الأولى هو استيلاء البيزنطيين على الأناضول ، فهي لانتقل أهمية عن استيلاء الصليبيين الغربيين على فلسطين في هذه الحملة .

وربما كان من نتائج الصراع الذي دب بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول تسليم إقليم قيليقية ومدنها الثلاث طرسوس وأدنة والمصيصة ، أن استطاع الأرمن - مستغلين هذا الصراع من جانب وانهمام المسلمين وتخليهم عن تلك المدن من جانب آخر - إلى تأسيس دولة أرمنية قومية خاصة بهم في الطرف الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى هي مملكة أرمنية الصغرى .

غير أن بلدوين البولوني كان طامعا بأرمينيا ليؤسس فيها مملكة له تتبع الصليبيين الغربيين وتكون مرتكزا لهم . فأخذ يخطط لذلك واستطاع أن يحرز تقدما في الاستيلاء على المواقع والمدن والقلاع في شالي الجزيرة ، وعاونته على ذلك بعض الأرمن الذين رأوا في قدوم الصليبيين الغربيين خلاصا لهم من حكم المسلمين من الأتراك .

فاستولى بلدوين على تل باشر والرواندان . وفي ذلك الوقت سمع حاكم الرها باستيلاء الصليبيين على تل باشر من السلاجقة فأرسل إلى بلدوين يدعوه إلى مساعدته خشية أن تضع الرها من أيدي المسيحيين إلى أيدي المسلمين وصادف ذلك هوى في نفس بلدوين فأسرع إلى الرها في قوة خفيفة من الفرسان استطاعت أن تفلت من حامية سميساط التركية ، واستقبل الأرمن من أهل الرها بلدوين وجنوده بفرح عظيم متناسين الفجوة بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية .

وأوعز حاكم الرها إلى بلدوين بمهاجمة سميساط لأنها كانت عدوهم الألد فنفذ بلدوين وهاجم سميساط ، ولكنه تلقى هو والأرمن درسا بالغا من المسلمين حيث قتل المسلمون قرابة ألف من الأرمن بينما فر الباقون . وهنا فكر بلدوين أن يجعل من الرها إمارة لاتينية لا أرمنية ، ففاوض حاكم الرها - المسن الضعيف الذي لاقب له - على أن يتناهى ويجعله وريثه في الملك في مقابل حمايته له من أعدائه ، وقبل حاكم الرها وأعلن بلدوين ابنا له بالتبني وورثا للحكم من بعده ، وسريعا ما قامت ثورة أهلية في الرها قتلت حاكمها فانتقلت مقاليدها إلى بلدوين البولوني . وما يشك كثير من المؤرخين في أن بلدوين كانت له يد في الإطاحة بثوروس حاكم الرها .

فكان بلدوين بذلك أول أمير صليبي استطاع أن يحقق لنفسه هذه المكاسب الشخصية وأن يكون صاحب إمارة في الشرق . كما كان أول أمير صليبي يخرج على الاتفاق مع الإمبراطور البيزنطي .

وبعد أن استقر بلدوين في الرها أخذ يستعد للاستيلاء على سميساط على الضفة المقابلة للفرات والتي تهدد الرها ، وقبل أن يذهب بلدوين إلى سميساط محاربا عرضها

عليه أميرها بيعا فاشتراها منه بمبلغ عشرة آلاف دينار ذهبا . وطمع بلدوين وأهل الرها في حصن سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب واستطاع بلدوين أن يستولى عليها فأمن بذلك الإمارة الجديدة إمارة الرها .

وفي ذلك الوقت زحفت الجيوش الصليبية على شبال الشام قاصدة أنطاكية . . . وكانت في حكم ياغى سيان أحد رجال السلطان ملكشاه ، غير أن رضوان تتش لم يكن راضيا عن ياغى سيان وكان يشعر بأن أنطاكية له ميراثا عن أبيه وأخيه .

وقد سِرَ هذا الوضع على الصليبيين أن ينفذوا إلى أغراضهم وبخاصة أن خلافا حادا كان ناشبا في ذلك الوقت بين ابني تتش رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق والذي انحاز فيه ياغى إلى جانب ملك دمشق فخسر وقوف ملك حلب إلى جانبه عندما هاجمه الصليبيون .

وعلى الرغم من أن أنطاكية كانت من أشد المدن حصونا وأقواها مقاومة للغزاة إلا أن تدفق الصليبيين عليها : بوهيمند ورجاله من الشمال ، وروبرت أمير فلاندرز وروبرت أمير منديا وهيو أمير فرمندا وستيفن أمير بلوا الذين اتخذوا مواقعهم بين باب بولس في الشمال وبين باب الكلب ، وريموند والمندوب البابوي أوهمير في الجهة الغربية ، وجودفري وجنوده في الجهة الشمالية ، كل ذلك جعل التحصين غير مجد ، فإذا أضفنا أن أهل أنطاكية من المسيحيين السريان والأرمن كانوا أميل إلى الصليبيين عرفنا إلى أى مدى كانت محنة ياغى سيان .

وعلى الرغم من كل تلك الظروف فإن حصار الصليبيين لأنطاكية استمر سبعة أشهر من أكتوبر ١٠٩٧م حتى يونيو ١٠٩٨م وإن كان ابن الأثير حددها بتسعة أشهر في حوادث سنة ٤٩١ هـ ^(١)

وقد حاول ياغى سيان أن يستنجد بملك دمشق فأرسل إليه ابنه شمس الدولة كما أرسل إلى جناح الدولة أمير حمص وإلى كربغا أتابك الموصل ، وإلى سائر البلاد والأطراف

١ - ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٤٩١ هـ .

يستصرخ ويستنجد ، غير أن الإمدادات الصليبية الضخمة عن طريق البحر التي قامت بها الأساطيل الإيطالية والفلمنكية والسكندنافية استطاعت أن تفت في عضد المسلمين وبخاصة عندما استطاع بعض هذه الأساطيل أن يستولى على ميناء اللاذقية .

وأخذ الصليبيون يعتدون على القرى المجاورة لأنطاكية في حوض نهر العاصي وعندئذ خرج ياغي سيان وقام بهجمة على الصليبيين أوشكت أن تشتت شملهم ولكن مهارة ريموند جعلت ياغي سيان يعود إلى داخل أنطاكية متحصنا بها .

كذلك دارت معركة بين المسلمين وبين الصليبيين عند البارة في نهاية شهر ديسمبر ١٠٩٧م كان النصر فيها حليفا للمسلمين كما يذكر ابن العديم .^(١)

وهكذا دارت المناوشات بين الطرفين مما أقنع الصليبيين بالتخلي عن فكرة الابتعاد عن أنطاكية ونهب بعض القرى المجاورة .

وساءت أحوال الصليبيين ونفدت مئوتهم وهددوا بالمجاعة فهرب بعضهم من المعركة - وكان من الهاربين بطرس الناسك ووليم النجار ، اللذين قبض عليهما رجال بوهيمند ولقيا من التوبيخ شيئا كثيرا ، وأخذ عليهما تعهدا بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس .

وأخذ بوهيمند يضع الخطة التي تجعل أنطاكية له هولا للإمبراطور البيزنطي - حسب المواثيق والأيمان - فعمل على طرد قائد البيزنطيين المشارك في الحصار وشوه سمعة الإمبراطور في نفوس الصليبيين لعدم مساعدته الإيجابية وتقديم المؤن ، وفي الوقت الذي بدا فيه بوهيمند هو الفائز الوحيد هدد بترك حصار أنطاكية ما لم تكن له إن فتحت وعندئذ وافقه الأمراء الصليبيون خشية أن ينسحب .

ولكى يأمن بوهيمند نجدة المسلمين لأنطاكية أرسل يتودد إلى أمير دمشق دقاق وأرسل سفارة للتحالف مع الفاطميين - وكان الفاطميون آنذ قد جهزوا جيشا استطاع أن

١ - ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب : ١٣٢/٢ ط دمشق ١٩٤٥-١٩٥١م .

يستولى على بيت المقدس سنة ١٠٩٨م وتسلم مفتاحه من سكان^(١) . أى تسلمها من

السلاجقة المسلمين .

وجرى التفاوض بين الصليبيين بقيادة بوهيمند وبين الفاطميين بقيادة الأفضل ابن بدر الجمالى ، على أن يكون شمال الشام للصليبيين بينما تكون فلسطين للفاطميين كل ذلك عزز وضع الصليبيين في بلاد المسلمين وزاد من ثقتهم في أنفسهم .

وقد وضع رضوان تتش ملك حلب خطة للقضاء على الصليبيين ولكن المسيحيين والأرمن علموا بهذه الخطة فأعلموا بها بوهيمند الذى أفسدها بشن هجوم سريع على حصن حارم ، فوقع في يده وهو أهم حماية لأنطاكية من جهة حلب .

وفي هذه الأثناء خرج ياغى سيان لمهاجمة الصليبيين ولكنه عاد عندما خشى بوهيمند وفرسانه بعد انتصارهم في موقعة العمق واستيلائهم على حصن حارم .

وفكر الصليبيون بأن الوقت قد حان لمهاجمة أنطاكية وبخاصة أنهم بنوا قلعة على تل قريب من أنطاكية في مدة الحصار ؛ وأن المؤن عن طريق البحر وأدوات الحرب والحصار تتوالى عليهم من الأسطولين الإنجليزى والجنوى . ثم أدت الخيانة لهم أهم الأعمال وأكثرها حسا في الاستيلاء على أنطاكية ، فقد كاتبهم سرا رجل اسمه نيروز مسيحي أرمنى الأصل - صادر ياغى سيان أمواله فأظهر دخوله في الإسلام فوثق به ياغى سيان وعهد إليه حراسة أبراج المدينة في الجهة الجنوبية - وقال في كتابه لبوهيمند : أنا في البرج الفلانى وأنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتنى وأعطينتى كذا وكذا ، فوافقه بوهيمند وبذل له مالا وإقطاعا^(٢) وكتم بوهيمند سر هذه المؤامرة حتى على الصليبيين أنفسهم ، ولكى يبدو بطلا في نظرهم .

على أن بوهيمند اتجه إلى برج نيروز الزراد الخائن ودخل أنطاكية وقتل من فيها من المسلمين وسط فرح وتهليل من المسيحيين والأرمن من سكان أنطاكية يقول ابن القلانسى : « فقتل وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال ما لا يدركه حصر »^(٣)

١ - ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق : ١٣٥ ط بيروت ١٩٠٨م .

٢ - ابن الانير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ .

٣ - ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق : ص ١٣٥ .

وبسقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين أصبحوا أكثر ثباتا واطمئنانا في الشرق الإسلامي .
وكان كربوغا أتابك الموصل قد اتجه بجيوشه لنجدة أنطاكية لكنه تَعَوَّق بحصاره للرها التي كانت في حوزة بلدوين ، فلما جاء إلى أنطاكية كانت قد سقطت في أيدي الصليبيين وحولوا مساجدها إلى كنائس .

وتجمع جيش إسلامي في مرج دابق من كربوغا ودقاق بن تتش وطفكتين أتابك وأرسلان صاحب سنجار وسلطان بن أرتق والأمير جناح الدولة حسين صاحب حمص .
ومن مرج دابق أخذ هذا الجيش يزحف على أنطاكية عن طريق نهر العاصي وهاجموا حامية صليبية عن جسر الحديد فقتلوا رجالها عن آخرهم . في ٤ يونيو ١٠٩٨ م . ثم وصلت جيوش السلاجقة إلى أسوار أنطاكية وهموا باقتحامها ولكنهم رأوا حصارها فحاصروها ثلاثة أسابيع عانى فيها الصليبيون كثيرا من الجوع والعطش وفر كثير منهم قافلا إلى بلاده وفي وصف مجاعتهم تلك تحدث أكثر من مؤرخ كابن العديم وابن الأثير ، حيث أكلوا الميتة والدواب وورق الأشجار ، بينما يرى ابن القلانسي وابن العبري أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون في الاستسلام ، ولكن كربوغا رفض هذا وقال لهم : « لا تخرجون إلا بالسيف » (١)

وقد تسلل عدد من الجنود والقادة من المواقع الأمامية إلى منازل المدينة ودورها مما دعا بوهيمند إلى إحراق منازل المدينة ليجبر الصليبيين على العودة إلى المواقع الأمامية .
غير أن الجيوش التي حاصر بها كربوغا أنطاكية لم تلبث أن دب بينها الخلاف خلاف بين العرب والترك من جانب وخلاف بين كربوغا وبعض القادة والجنود من جانب ثان ، وتدير بتخذيّل القوات - قام به رضوان صاحب حلب وأخو كربوغا - من جانب ثالث .

ومع كل ذلك قد أرسل بوهيمند إلى كربوغا سفارة يتفاوض معه لترك الحصار فأبى .
ولما لم يجد الصليبيون مناصا من الحرب خرجوا لقتال المسلمين ، واقترح على كربوغا أن

١ - ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٣٦ وابن العبري تاريخ مختصر الدول : ١٩٦ ط بيروت .

يقتلهم وهم خارجون ثُلّاً وجماعات قليلة فأبى وقال : نملهم حتى يتكامل عددهم
وخرجهم فنقتلهم •

وهكذا تجمع الصليبيون وواجهوا جيشاً من المسلمين مفكك العرى ، فهزّم المسلمون
وفر القادة وتعقبهم الصليبيون إلى جسر الحديد وحارم و« نهب من المسلمين من الآلات
والخيّام والكراع والغلات مالا يحصى ، ومن انقطع من المعسكر نهبه الأرمن »^(١)
وبانتصار الصليبيين في هذه المعركة اعتبروا أنفسهم منتصرين على سلاجقة الروم
وسلاجقة الشام وفارس ، وتسلم الصليبيون من أحمد بن مروان قلعة أنطاكية وأصبحوا
سادتها دون منافس •

غير أن مااتفق عليه من أن أنطاكية تكون للإمبراطور البيزنطي لم يوف به أحد ،
ومارضى به القواد الصليبيون من أن أنطاكية لبوهيمند غداة هدهم بالانسحاب لم يلق
قبولا كذلك ، وأخذ النزاع يدب بينهم ، فاستولى بوهيمند على الأجزاء الشمالية والشرقية
والوسطى من المدينة واحتل ريموند السنجيلي القطاع الجنوبي الغربي منها •
وبالنظر إلى سوء حال الصليبيين في أنطاكية فقد طلبوا من الإمبراطور ألكسيوس أن
يحضر إلى أنطاكية ليتسلمها منهم بشرط أن يعاونهم في غزو فلسطين والاستيلاء على بيت
المقدس ، غير أن الإمبراطور ماطل وتباطأ ، فما كان منهم إلا أن شرعوا في التحرك نحو
بيت المقدس في إبريل ١٠٩٩م - ٤٩٢ هـ • غير أنهم لم يتحركوا فعلاً إلا في نوفمبر
١٠٩٩م - ٤٩٣ هـ انتظاراً لما يمكن أن يمدّهم به الإمبراطور •

ولقد شعر الصليبيون أن هدفهم الحقيقي - على الأقل بالنسبة لعدد كبير من
قوادهم - هو أن يؤسس كل منهم لنفسه إمارة في الشرق الإسلامي •
وطال النزاع بين بوهيمند وريموند حول أنطاكية ولم يحله إلا توجه الصليبيين إلى
مهاجمة معرة النعمان والاستيلاء عليها ، ثم ! إيثار ريموند إلى أن يكون قائد الجيوش
المتجهة إلى بيت المقدس بينما أثر بوهيمند أن يظل في أنطاكية دعماً لحقه في امتلاكها •

١ - ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب : ١٣٧/٢ •

وآثر الصليبيون أن يهاجموا بيت المقدس متخذين الطريق الداخلى ، نظرا لطول الطريق الساحلى ، واستأنفوا زحفهم فعمروا بمصياف فخرج إليهم أميرها وعقد معهم اتفاقية ثم اتجهوا نحو بعين ومنها إلى سهل البقاع وحاصروا حصن الأكراد حتى أسقطوه فى يناير ١٠٩٩م والتفوا برسل أمير حمص الذى اتفق معهم كذلك .

ومن حصن الأكراد اتجهوا إلى عرقة شالى طرابلس وتابعة لها - وكانت طرابلس كلها تابعة لبنى عمار ، وقد اتفق أبو على فخر الملك مع الصليبيين على أن يعطيهم أموالا ، فقبلوا منه ذلك ولكنهم طمعوا فيما هو أكثر فهاجموا عرقة وانطرسوس واستولوا عليها ، وبعد استيلائهم على انطرسوس وهى ميناء تابع لبنى عمار سهل عليهم الحصول على المؤن بوساطة الأساطيل الإيطالية والبيزنطية .

كذلك حاصروا جبلة وخضع أميرها لهم على مال وخيول يقدمها لهم ، غير أن حصارهم لعرقة طال أكثر من أربعة أشهر ، وعندئذ أصر جودفرى على الإسراع فى الزحف نحو بيت المقدس وأقنع سائر الأمراء بذلك - على الرغم من أن الإمبراطور ألكسيوس كان قد وعدهم بالانتظار حتى آخر يونيو ليحمل عنهم عبء المعركة ضد المسلمين - علما بأنه كان متفقا مع الفاطميين أصحاب فلسطين آنذاك - غير أنهم لم ينتظروا وعد الإمبراطور واتجهوا من طرابلس إلى بيروت فوصلوها مساء يوم ١٩ مايو .

ودهش الفاطميون من نكوص الصليبيين وإخلافهم لعهدهم ، إذ كان الفاطميون قد أرسلوا للصليبيين واتفقوا معهم على عدم معونة السلاجقة أو الوقوف بجانبهم فى مقابل أن يكون شمال الشام للصليبيين وفلسطين للفاطميين .

والحق أن الأفضل الجمالى خُدع فى الصليبيين يوم أجابوه إلى طلبه ذاك ، وكان قصير النظر عندما يتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين من السلاجقة ، وهو الآن يدفع أبهظ الأثمان فالصليبيون على أبواب بيت المقدس - الذى هو فى أيديهم - فراسلهم وعرض عليهم العهود والمواثيق بأن يمكنهم من الحج وأغدى عليهم الهدايا أميراً أميراً ، ولكن هيهات .

فهاهم أهل بيروت يذلون للصليبيين المال والنصح والمثونة بل الدخول في طاعة الصليبيين ، ومر الصليبيون بصرفند وصور ، ثم عكا التي قام حاكمها بتموينهم وتعهد بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس ، فتقدم الصليبيون إلى قيسارية ثم إلى أرسوف ، ثم احتلوا الرملة التي هجرها أهلها • وعقدوا في الرملة مجلس حرب قرروا فيه الزحف على بيت المقدس مباشرة - متخلين عن الرأي القائل بضرورة مهاجمة الفاطميين في مصر لاعتقادهم أن مفاتيح بيت المقدس في القاهرة - وفي طريقهم إلى بيت المقدس رحب بهم المسيحيون ورأوا فيهم جيش الخلاص •

وفي اليوم السابع من شهر يونيو كان الصليبيون أمام أسوار بيت المقدس • وفي ذلك الوقت كان افتخار الدولة - حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل - قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار وقطع موارد الماء وأخفى المواشى وقوى التحصينات ، وكان معتمدا في الدفاع عن بيت المقدس على المصريين والسودانيين دون المسيحيين الذين طردهم •

وفي منتصف يونيو من نفس العام ١٠٩٩م وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوية واستولت عليه وأحضرت هذه السفن للصليبيين مؤنات ومعدات بينما كانت الحامية الفاطمية محصورة في بيت المقدس دون مدد من مصر •

وهاجم الصليبيون بيت المقدس هجوما شاملا واستطاعوا اقتحام المدينة بعد حصار واستعداد دام واحدا وأربعين يوما ، ولم يكن أمام الجند إلا الاحتباء بالمسجد ، وقد تبعهم الصليبيون داخل المسجد وأحدثوا به مذبحه وحشية ونهبوا قبة الصخرة - وفي الحق إن ذلك لم يتم للصليبيين في سهولة وإنما قاومتهم الحامية ما استطاعت ثم ألقت السلاح في النهاية بعد أن أعطى لهم الصليبيون الأمان فخرجوا إلى عسقلان ومعهم افتخار الدولة •

وقد أفاض المؤرخون في وصف بشائع الصليبيين وقتلهم العلماء بالمسجد وقتلهم النساء والأطفال وكل من رأوا في الطريق من المسلمين ، ولم يكن ذلك وقفا على المؤرخين المسلمين ، وإنما شارك فيه مؤرخو الصليبيين أنفسهم ، فهذا وليم الصوري المؤرخ

الصليبي يقول في وصف هذه المجزرة البشرية « أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أنارت خوف الغزاة واشمئزازهم » وآخر منهم يقول : إنه لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة وأن دماء القتلى بلغت ركبته ، ولعل هذا هو الذى دعا بعضهم أن يعتبر هذه الوحشية وصمة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى .

والحق أن هذه الوحشية ليست مستغربة من الصليبيين في أى صراع لهم مع المسلمين في الأندلس وفي الشرق الإسلامى وفي أى مكان وحتى الآن في أى وقت يتمكنون فيه من التغلب على المسلمين .

أما العباسيون أو الفاطميون فقد وقفوا من هذه المجزرة وقفة المتفرج الذى لا يبالى إلا مصلحته الشخصية .

وقد واصل الصليبيون استيلاءهم على مدن فلسطين دون مقاومة حقيقية تردعهم وتردهم إلى الصواب .

فاستولوا على نابلس وحاصروا عسقلان بعد حرب ضارية مع الفاطميين فيها ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، ولم يمض وقت طويل حتى كان في أيدي الصليبيين : بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرة .

ولم يكن ذلك في الحق استيلاء على فلسطين كلها ، إذ بقيت عسقلان في أيدي المسلمين وغيرها من القرى والمدن المحيطة بما في أيدي الصليبيين منها .

ويقول أحد المؤرخين الأجانب : « ويمكن تشبيه المراكز الصليبية في الشام عندئذ بالجزر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوبة من الدخلاء الفاصيين »^(١)

وقد أخذ الصليبيون بعد ذلك ينظمون أنفسهم في الأماكن التى احتلوها من المسلمين وينشئون مآسومهم مملكة بيت المقدس ، مما سوف نتحدث عنه ونحن نتحدث عن : « الممالك الصليبية في الشرق الإسلامى » بعد أن ننتهى من الحديث عن الحملات الصليبية بإذن الله تعالى .

١ - د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ٢٦١/١ نقلًا عن Grousset: Hist. des Croisades. I, p.181

الحملة الصليبية الثانية

لم يستطع الصليبيون أن يعيشوا في هدوء أو أمان بعد أن احتلوا بيت المقدس ، لأن حروباً مستمرة كان يشنها عليهم المسلمون الفاطميون من جانب والأتراك من جانب والسلاجقة من جانب ثالث والأرمن من جانب رابع والأتابكة من جانب خامس .

وإذا كان الصليبيون منذ فتحوا بيت المقدس في ١٥ من شهر يوليو سنة ١٠٩٩م - شعبان سنة ٤٩٢ هـ إلى أن شنوا على الشرق الإسلامي حملتهم الثانية ١١٤٧م - ٥٤٢ هـ قد عاشوا في الشرق الإسلامي ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، فإن المؤكد أنهم لم يستقروا في إقامتهم ببلاد المسلمين ولم يشعروا بالأمن - وهم منتصرون محتلون لبعض البلاد - والأكثر تأكيداً أن عدم استقرار الصليبيين في الشرق الإسلامي ، كان بسبب تحين المسلمين لأي فرصة يستعيدون فيها تلك البلاد من أيدي غاصبيها من الصليبيين .

أقول هذا لأدفع عن الأذهان شبهة ردها بعض الكتاب وهي أن المسلمين بعد أخذ بيت المقدس منهم قد رضوا بالواقع وكانوا سلبين في رد العدوان إلى أن ساءت ظروف الصليبيين أنفسهم .

نعم : نحن لا ننكر أن اضطراب أمر الصليبيين وسوء أحوالهم يساعد المسلمين على التغلب عليهم وطردهم من الشرق الإسلامي ، ولكن المنطق يقضى بأن هذا وحده لا يخرجهم من بلادنا ، بل لا يزهدهم في الإقامة فيها .

ولقد عاش الصليبيون في الشرق الإسلامي نصف قرن بين حملتهم الأولى والثانية يعانون حقاً من الحروب التي يشنها عليهم المسلمون في كل عام تقريباً ، بل لانبالغ حيناً نقول : إن الحملة الثانية لم يكن لها من أسباب سوى الهزائم التي أوقعها المسلمون بالصليبيين والبلاد والقلاع والحصون التي استعادوها منهم ، وشعور الصليبيين بأنهم

يعيشون في الشرق الإسلامي على كتيب من الرمال يوشك أن ينهار بهم ، فصرخوا يطلبون من ملوك أوروبا وأمرائها النجدة والغوث .

ولكى نتصور مدى الفلق الذى عاش فيه الصليبيون هذا النصف القرن الذى نتحدث عنه ، نرى أن نستعرض في إيجاز تلك الحروب التى شنّها المسلمون على الصليبيين فنقول :

لم يستقر الصليبيون بعد استيلائهم على بيت المقدس إلا عاما وبعض عام حتى شن عليهم الفاطميون حربا سنة ١١٠١م - ٤٩٤ هـ استهدفت تخليص الشام من أيديهم ، فوجه إليهم الوزير الأفضل حملة كبيرة بقيادة سعد الدولة القواسى الذى كان حاكما لبيروت من قبل .

وتجمعت قوات هذه الحملة في عسقلان ولما أكملت استعدادها توجهت إلى الرملة لتهديد يافا وبيت المقدس ، ودارت المعركة في اليوم السابع من سبتمبر ١١٠١م واستشهد قائد المعركة في ميدانها وقتل عدد من المسلمين ، ولم يحالفهم النصر . وفى نفس هذا الوقت استطاع السلاجقة أن يقضوا على حملة صليبية خرجت من غرب أوروبا قاصدة بيت المقدس لتعزيز الوجود الصليبي فهاوصل من أفراد هذه الحملة المنهزمة إلا فلول .

وماضى على ذلك شهور حتى كان الفاطميون يعدون العدة لحرب ثانية ضد الصليبيين في الشام ، ففي منتصف شهر مايو من عام ١١٠٢م - ٤٩٥ هـ جهز الوزير الأفضل جيشا قوامه العرب والسودان بقيادة شرف المعالى ابن الوزير الأفضل .

راجعت هذه الحملة إلى عسقلان وركزت فيها ، ومنها اتجهت إلى مهاجمة اللد والرملة وبازدر لتهديد يافا وبيت المقدس كذلك . وخرج إليهم بلدوين الأول ، واستطاعت جيوش الفاطميين أن نهزم بلدوين أول الأمر ، وتقتل منهم مفتلة عظيمة ، وفر كثير منهم إلى يافا بينما فر الباقيون ومعهم ملكهم بلدوين إلى الرملة في ١٧ مايو ١١٠٢م . وذهبت

جيوش المسلمين إلى الرملة وفر بلدوين متنكرا بمساعدة أحد الخونة ، واستعاد المسلمون الرملة من الصليبيين وقتلوا من الصليبيين مئآت وأسروا مئآت .

ثم حاصرت جيوش الفاطميين يافا ، فهرب بلدوين إلى أرسوف ثم دخل يافا عن طريق البحر ، وفي نفس الوقت وصلت إلى ميناء يافا مائتا سفينة تحمل أعدادا كبيرة من الصليبيين جنودا وحجاجا ومعدات حرب ، فوجدها بلدوين فرصة فهاجم جيوش المسلمين وانتصر عليهم .

ولما علم الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي أسرع بإرسال حملتين إحداها برية بقيادة تاج العجم ، والأخرى بحرية بقيادة القاضي : ابن قادوس ، غير أن القائد لم يتفاهما ولم ينسقا العمل فيما بينهما ، واستنجد بلدوين بأمر الرها وأمير أنطاكية من الصليبيين ، فانهزم جيش الفاطميين كذلك .

غير أن جيوش المسلمين لم تياأس على الرغم من هذه الانهزامات المتوالية وإنما كان الوزير الأفضل مصرا على طرد الصليبيين من الشام ، فجهز جيشا كبيرا في صيف عام ١١٠٥م - ٤٩٨هـ من المصريين والسودانيين وبعض فرسان العرب وجعل قيادته لابنه سناء الملك ، وأعد الأفضل أسطولا بحريا لمساندة الجيش من البحر ، وطلب مساعدة سلاجقة دمشق فأجابه طغتكين وأرسل إليه عددا غير قليل من الفرسان - وكانت تلك أول مرة يشترك فيها السلاجقة مع الفاطميين في حرب الصليبيين .

نعم لم يستطع الجيش الفاطمي ومن يعاونه أن ينتصر على الصليبيين ولكنهم في الوقت نفسه لم يشعروا بالاستقراء على الرغم من هذه الانتصارات التي حققوها ضد المسلمين ، لأن المسلمين لم يسكرتوا عاما ولا شهرا على بقاء الصليبيين في بلادهم .

ففي عام ١١٠٦م أغار الفاطميون على الصليبيين في يافا وأرسون كما أغاروا في سنة ١١٠٧م على الخليل ، بل إنهم وصلوا إلى أسوار بيت المقدس سنة ١١١٠م - ٥٠١هـ وأغار طغتكين أمير دمشق على الجليل وأصابت جيوشه قائدها هيو بجرح خطير أودى بحياته سنة ٤٩٩هـ - ١١٠٥م ولم تتوقف هجمات المسلمين على البلدان التي اغتصبها

الصلبيون أبدا ، بحيث عاشت مملكة بيت المقدس الصليبية من عام تأسيسها بين حروب يشنها مسلمو الشام وحروب يشنها مسلمو مصر ولو ذهبنا نستقصى كل معركة لاتسع بنا المجال إلى غير الحد الذى نريد من القول في هذا المقام .

وإذا كانت هذه صورة مصفرة عن المعارك التى شنها على الصليبيين الفاطميون والسلاجقة فإن الأتراك من المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدي ، أو مؤثرين للسلبية ، وإنما هاجموا الصليبيين وأزعجهم وظلوا في حروب معهم أقل ماتوصف به : أنها حروب مقلقة للصلبيين حملت عددا غير قليل منهم على أن يرحل إلى بلاده مؤثرا السلامة .

ففى سنة ١١١١م - ٥٠٥ هـ هاجمهم مودود أتابك الموصل ، وهو وإن كان لم ينتصر على الصليبيين إلا أنه في منتصف مايو عام ١١١٣م - ٥٠٦ هـ شن عليهم هجوما في طبرية قتلوا فيه وغنموا كثيرا ، ولا بد أن ننوه إلى أن مودود كان يرى هذه الحرب جهادا في سبيل الله - وقد حقق مودود عليهم بعض الانتصارات وأوقع بلدوين وبطرقه في كمين . وفى نفس الوقت قامت قلعة عسقلان الإسلامية بهجوم على بيت المقدس . ولولا أن يد القيلة امتدت إلى مودود وهو يؤدى صلاة الجمعة في الجامع الأموى بدمشق لرأينا منه جهادا مشرفا ضد أعداء الله .

وفى سنة ١١١٥م - ٥٠٩ هـ وجه السلطان محمد السلجوقى حملة لقتال الصليبيين فعبرت إليهم الفرات بقيادة برسق ، واستطاع برسق أن يهاجم قلعة أفامية التابعة لإمارة أنطاكية الصليبية ، وهنا دخل التآمر المعركة فأغرى الصليبيون بعض أمراء المسلمين بالوقوف معهم ضد برسق حتى هزموه .

وفى سنة ١١٠٠م - ٤٩٤ هـ استطاع المسلمون الأتراك أن ينصبوا كميناً لبوهيمند أمير أنطاكية وأن يوقعوه في الأسر . ولم يستطع بلدوين بقواته أن يفكه من أسره الذى أوقعه فيه الملك غازى كمشنكين ، ولم تهدأ حروب الملك غازى ضد الصليبيين حتى استطاع أن يحتل ملطية وأن يأسر صاحبها الصليبي سنة ١١٠١ - ٤٩٥ هـ .

وفى سنة ١١٠٤م - ٤٩٧ هـ هاجم الأميران : جكرمش أتابك الموصل وسقمان بن

أرتق صاحب ماردین وحصن کیفا ، الصليبيين ، وفي موقعة حران استطاعا أن يوقعا
بالصليبيين هزيمة أبادت جيش الرها ، وحاول بلدوين وجوسلين الفرار ولكنها وقعا في
الأسر في يد الترك من المسلمين ، ولقد أدى ذلك إلى زعزعة إمارتي الرها وأنطاكية •
وفي سنة ١١١٩م - ٥١٣ هـ حشد أيلغازي جيوشا من التركمان ومعهم بعض الأمراء
العرب واتجهوا نحو الصليبيين لانتقاد حلب من الأمير الصليبي روجر الأنطاكي ، ودارت بين
القوتين معركة البلاط قرب أرتاح ، انتهت بتدمير الجيش الصليبي كله ، وخرقائدهم روجر
صريعا في المعركة وفي نفس العام استطاع إيلغازي أن يحتل الأثارب من الصليبيين وبعدها
استعاد زردنا ، ولكن الصليبيين استطاعوا أن يهزموا المسلمين في دانيث •
وفي سنة ١١٢٣م - ٥١٨ هـ استطاع تلك الأرتقي أن يأسر بلدوين الثاني عند
أورش قرب قنطرة سنجة - وقد كان بلدوين ذاهبا ليفك أسر جوسلين فذهب إليه أسيرا ،
وأضحى تلك قابضا على ملكي الرها وبيت المقدس •
وفي نفس العام هاجم الفاطميون بيت المقدس من جديد ، فحاصروا يافا وأوشكت
على الاستسلام ولكنهم هزموا أمام الصليبيين •
وفي سنة ١١٣٣م - ٥٢٧ هـ استطاع المسلمون أن يهاجموا طرابلس وأن يهزموا أميرها
الصليبي بونز •
وفي سنة ١١٣٤م - ٥٢٨ هـ أغار الأمير سوار أمير حلب على الممتلكات الصليبية
مثل الجزر وحصن زردنا ومعرة النعمان ومعرة مصرين •
وفي سنة ١١٣٥م - ٥٢٩ هـ بدأ زنكي يوجه هجماته ضد الصليبيين شرقى نهر
العاصي فاستولى على الأثارب وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب وأعاد المسلمين
من أهالي تلك البلاد إلى ديارهم ورد إليهم أملاكهم ، وقام في السنة نفسها بغارات على
شيزر وحمص وقنسرين •
وفي سنة ١١٣٦م - ٥٣٠ هـ أغار نائب زنكي « سوار » على الصليبيين فوصل إلى
اللاذقية ، وتقول المراجع إنه أغار على مائة قرية صليبية وعاد معه « مايزيد على سبعة

آلاف أسير مابين رجل وامرأة وصبي وصبيه ، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير»^(١)

وفي سنة ١١٣٧م - ٥٣١ هـ أغار المسلمون على إمارة طرابلس فقتلوا أميرها بونز وأسروا عددا كبيرا من أتباعه فضلا عن الغنائم ٥٠٠^(٢)

وكان لزنكي سنة ١١٣٨م - ٥٣٢ هـ أحسن المكاينة في نفوس المسلمين عندما ثبت لحنا كوين امبراطور البيزنطيين فشل خطته بالاستيلاء على حلب .
ويتميز زنكي من بين أمراء المسلمين بأنه الرجل الذي أدرك بدقة أن طرد الصليبيين من بلاد المسلمين يحتاج إلى أمرين جوهريين :

أولهما : أن هذه المعركة جهاد في سبيل الله قبل كل شيء .
الثاني : أن توحيد جهود المسلمين وتوحيد صفوفهم خطوة ضرورية قبل خوض أى معركة ضد الصليبيين .

ومن هذا المنطلق بدأت أعمال زنكي ضد الصليبيين تؤتى أكلها وأطيب ثمارها - على الرغم من التحالف الذى تم بين الصليبيين الأوربيين وبين الإمبراطور البيزنطى .
ففى ٢٨ من نوفمبر سنة ١١٤٤م - جمادى الأولى ٥٣٩ هـ حاصر عماد الدين زنكى الرها واستطاع أن يستعيدها من الصليبيين فاستولى عليها فى ديسمبر ١١٤٤م - جمادى الثانية ٥٣٩ هـ وقد لقى المسيحيون من السريان والأرمن من سكان الرها المعاملة الإسلامية التى جعلتهم يشعرون بعدالة زنكى وإنصافه .

واستولى زنكى على سروج فى يناير ١١٤٥م - رجب ٥٣٩ هـ
وما إن قتل زنكى بيد أحد خدمه - فى مؤامرة صليبية فى أغلب الظن - حتى تولى ابنه نور الدين محمود حلب بينما تولى ابنه سيف الدين غازى الموصل .
وقد انتهز « جوسلين » فرصة موت عماد الدين زنكى ليستعيد الرها فأخذ يتصل سرا

١ - ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

٢ - السابق : حوادث سنة ٥٣١ هـ .

بالأرمن من سكان الرها - الذين كان زنكى قد أحسن معاملتهم - ونجح فعلا في الاستيلاء على الرها يساعده بلدوين في أواخر أكتوبر سنة ١١٤٦م - ٥٤٢ هـ لكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعة الرها فطلب النجدة من أمراء طرابلس وأنطاكية والوصية على عرش بيت المقدس .

غير أن نور الدين محمود خف إلى المدينة وحاصرها حصارا مراً لم يسع جوسلين إزائه إلا الهروب هو وقلة معه أما غالبيتهم فقد قتلوا بأيدي السلاجقة الذين كانوا في قلعة الرها . وكان من بين القتلى بلدوين نفسه كما أصيب جوسلين إصابة بالغة . وهكذا كانت محاولة جوسلين الاستيلاء على الرها وبالأعلى عليه وعلى الصليبيين وعلى الخونة من الأرمن سكان الرها .

ولم يتوقف نور الدين محمود عند استعادته الرها فواصل جهاده في سبيل الله لاسترداد بلاد المسلمين من غاصبيها ، فاستطاع في عام ١١٤٧م - ١١٤٨م - ٥٤٢ هـ أن يستولى على عدد من القلاع مثل : بسرفوت وأرتاح والأتاب وكفر لانا وغيرها .^(١)

وهكذا نستطيع من خلال هذا الاستعراض للمقاومة التي قام بها المسلمون للاحتلال الصليبي أن نؤكد أنه ما مر عام أو بعض عام إلا وشن المسلمون حربا على المعتدين ثم انتهت هذه الفترة التي بين الحملتين الأولى والثانية وهى نصف قرن تقريبا ، ولم يعرف المسلمون اليأس ولم يستسلم قادتهم لهذا العدو الغالب .

ولعل صحة المسلمين وبخاصة بعد انتصارات عماد الدين زنكى وولده نور الدين محمود واستطاعتهم احتلال أهم مدينة يعتز بها الصليبيون بل وأول مدينة احتلوها ، لعل ذلك هو الذى حرك جموع أوروبا من جديد لتوجه إلى العالم الإسلامى غزوا يرد على الصليبيين ما فقدوا .

ولقد قاد هذه الحملة الثانية سنة ١١٤٧م - ٥٤٣ هـ أكبر دولتين فى أوروبا فى ذلك الوقت فرنسا وألمانيا وكان على رأس الجيش ملكا الدولتين لويس السابع وكتراد الثالث .

١ - ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٤٢ هـ .

ونسق الملكان فيما بينهما فاتفقا على أن يسلكا الطريق البرى إلى الشرق وأن يسبق الجيش الألمانى إلى القسطنطينية ، حتى لا تكون هناك متاعب فى التموين والإمدادات •
ولقد كان لهذه الحملة هدف هو الوقوف فى وجه نور الدين واسترداد الرها من جانب ،
وتأمين الإمارات الصليبية فى الشام كله من جانب ثان •
غير أن الحملة انصرفت عن هدفها ذاك إلى مهاجمة دمشق وإقامة إمارة صليبية جديدة •

ولقد استطاعت الجيوش الإسلامية أن تفوت على هذه الحملة هدفها معا وأصبحت بحق فى نظر المؤرخين : حملة الفشل والخيبة •
فلقد كان لهذه الحملة أهداف أهمها تثبيت دعائم الاحتلال الصليبي لبلدان العالم الإسلامى التى وقعت فى أيديهم واسترداد الرها • غير أن زكى ولديه أفسدا عليهم تحقيق هذه الأهداف ، كذلك تلك الحروب التى شنها عليهم المسلمون فى أماكن عديدة وعلى فترات متقاربة •

ولقد أدى فشل هذه الحملة إلى زعزعة سمعة الصليبيين وضياح هيبتهم ، بينما ازداد نفوذ المسلمين وارتفعت روحهم المعنوية وأغراهم ذلك بالصليبيين يحاربونهم ويهددون بقاءهم فى بلاد المسلمين •

بل لقد استيقن عدد كبير من أمراء المسلمين ومقاتليهم أن الصليبيين لا يستطيعون أن يواجهوا المسلمين إذا اتحدوا ، وعندئذ أصبحت الوحدة بين المسلمين أملا يراود كل مخلص من أمراء المسلمين وقوادهم •

ولقد أكد بعض المؤرخين أن فشل هذه الحملة هو نقطة التحول نحو انهزام الصليبيين وزوال وجودهم من العالم الإسلامى •

الحملة الصليبية الثالثة

سبق أن أشرنا إلى أن فشل الحملة الصليبية الثانية كان نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية ، تحول في ضياع هبة الصليبيين في الشرق الإسلامي ، وتحول في تجمع الجيوش الإسلامية لمواجهة أعدائهم •

وقد جرت الأمور بعد الحملة الثانية بين المسلمين والصليبيين على النحو الذي نشير إليه في اختصار في الاشتباكات التالية :

عقب فشل الحملة الثانية ، حاول ريموند أمير أنطاكية أن يهاجم مدينة حلب فجمع جيوشه واتجه بها نحو بحيرة العمق استعدادا للانقضاض على حلب ولكن نقطة نور الدين محمود جعلته يبادر ريموند ولا ينتظر أن يدافع عن حلب ، فخاض معركة ضارية ضد الصليبيين عند « يفرى » إلى الشمال الشرقي من بحيرة العمق ، وكسّر الصليبيين وهزمهم وقتل وأسر ، وساق إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهم ، من الغنائم والأسرى شيئا كثيرا • وكان ذلك في سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٩ م •

وفي نفس العام هاجم نور الدين قلعة « إنب » وحاصر ريموند ورجاله ، واستطاع أن يقضى عليهم جميعا ، وكان من بين القتلى ريموند نفسه • وذلك بداية عام ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م • وكان لذلك رنة فرح عظيمة في العالم الإسلامي •

واتجه نور الدين إلى الاستيلاء على معاقل إمارة أنطاكية فهاجم حصن حارم وصالحه الصليبيون على نصف أعمال حارم ، واستولى على فاميه •

وفي نفس العام ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م استطاع السلطان مسعود السلجوقي أن يستولى على مرعش وحاصر تل باشر مقر جوسلين الثاني •

وكذلك استطاع قرا أرسلان الأرتقي أن يستولى على « كركر » شمال سميساط ، وعلى حصن منصور •

وفي سنة ٥٤٦ هـ الرابع من شهر مايو سنة ١١٥٠ م وقع جوسلين الثاني أسيرا في قبضة المسلمين وسلموه لنور الدين ، وظل معتقلا تسع سنوات ، وفي صيف هذا العام استولى السلطان مسعود على بهسنى ورعيان وحاصر تل بآشر نفسها ، واستولى نور الدين على قلعة عزاز التابعة لإمارة أنطاكية وباختصار فإن إمارتى الصليبيين : الرها وأنطاكية أصبحت معظمها في أيدي المسلمين .

وفي سنة ٥٤٦ هـ وبداية ٥٤٧ هـ استطاع مسعود الاستيلاء على عينتاب ودلوك . . . واستولى قمر تاش الأرتقى على سميساط والبيرة ، واستولى نور الدين محمود على الراوندان ثم على تل بآشر التى استسلمت فى عام ٥٤٦ هـ - وكانت تلك الإمارات قد اشتراها إمبراطور البيزنطيين من الصليبيين بالمال ولكنه خسرها بهذه الصورة - وبهذا أصبحت إمارة الرها إمارة إسلامية .

وفي سنة ٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م استطاع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن يستولى على عسقلان التى كانت فى أيدي الفاطميين مستغلا سوء أحوال الدولة الفاطمية بمصر ، وبذلك أصبح خالصة للصليبيين ساحل الشام وفلسطين جميعا وخسر المسلمون بعسقلان قاعدة بحرية طالما هاجموا منها الصليبيين .

ويعتبر عام ٥٥٠ هـ عام وحدة وتجمع القوى الإسلامية ، فقد استطاع نور الدين أن يضم إلى أملاكه دمشق - وكانت فى حماية الصليبيين تدفع ضريبة لبلدوين الثالث - فاتحدت الشام كلها تحت ملك نور الدين . وامتد بصر نور الدين إلى تنسيق العمل مع مصر حتى يكون جبهة قوية ضد الصليبيين ، غير أن مرضا ألم بنور الدين أعاقه عن إكمال خطته ويمكن الصليبيين من تحقيق بعض الانتصارات على المسلمين . ولكن نور الدين تمائل للشفاء واستطاع أن يقف من الصليبيين وقفته التى تؤرق وجودهم حقا . وقد هلك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس فى ١٠ فبراير ١١٦٢ م - ٥٥٩ هـ وتولى من بعده أخوه عمورى الأول الذى كانت نفسه ممتلئة بالأطباع السياسية فامتد بصره إلى مصر - بعد أن عجز سلفه عن أى توسع فى الشام الذى وحده نور الدين - وبخاصة أن

الحكم الفاطمي في مصر كان متهاكاً مهزوزاً - فقد كان الوزير طلائع بن رزيك -
الأرمني الأصل - يلهو بالخلفاء الفاطميين الصغار ، حتى تخلصوا منه في مؤامرة أدت إلى
قتله ، ثم انتقل الصراع إلى شاور حاكم صعيد مصر الذي استولى على الوزارة ،
وضرغام ، وقد كان صراعا دفعت مصر ثمنه قلقا واضطرابا وضعفا ، مما أطمع عموري
الأول فيها فاتجه لغزو مصر في شهر سبتمبر سنة ١١٦٣ م - ٥٥٨ هـ ولكن ضرغام أجبره
على الانسحاب إلى فلسطين .

غير أن حنكة نور الدين السياسية جعلته يجبر عموري على الانصراف عن مصر ،
وذلك بأن قام بعدد من الهجمات ، فهاجم حارم ، وهاجم إمارة طرابلس عام ٥٥٨ هـ ثم
رأى نور الدين أن يستجيب للمعونة التي طلبها منه شاور الوزير المخلوع لتستقر الأمور في
مصر ولتستطيع مواجهة الغزو الصليبي فأرسل حملة بقيادة أسد الدين شيركوه الذي
اصطحب ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، واستطاع شيركوه أن يفوت على الصليبيين
أطاعهم في مصر ، واستقر الأمر لشاور فيها ، غير أن شاور لم يف بما وعد به نور الدين
يوم طلب مساعدته ، وطلب من شيركوه الخروج من مصر ، بل استنجد بالصليبيين
ليخرجوه ، فعلا وصل عموري الأول إلى فاقوس وكان شيركوه قد احتل بلبس ، وأخذ
جيش الصليبيين في حصار شيركوه - غير أن براعة نور الدين السياسية جعلته يعزز موقفه
قائده بحملات يشنها على الصليبيين في الشام ، مما جعل عموري يقنع من الغنيمة
بالإياب ويقبل أن يرحل عن مصر هو وشيركوه .

وكان نور الدين - في أثناء انشغال عموري بمهاجمة مصر - قد هاجم أنطاكية وحصن
حارم ، ودارت بينه وبين الصليبيين معركة حامية في أرتاح هزم فيها الصليبيين هزيمة منكرة
وأسر جميع أمرائهم الذين اشتركوا في المعركة : بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، وريموند
الثالث أمير طرابلس ، وجوسلين الثالث ، وهيو الثامن لوزجنان وحاكم قيليقية ، ثم استولى
على حارم سنة ٥٥٩ هـ - أغسطس ١١٦٤ م وعلى بانياس في أكتوبر ١١٦٤ م .
وساءت سيرة شاور في مصر ، فاستنجد الخليفة العاضد بنور الدين ، وصادف ذلك

الاستنجد هوى في نفس نور الدين ، خشية أن يستولى على مصر الصليبيون ، فوجه إليها جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، واستنجد شاور بالصليبيين ، فأجابه عمورى الأول على الفور ، وخفّ إليه شاور ليقابله ويقوده إلى الضفة الشرقية للنيل في القاهرة بينما كانت جيوش شيركوه في الضفة الغربية وتعهّد شاور بإعطاء الصليبيين أجرا على قتال أسد الدين ورضخ الخليفة الفاطمي المغلوب على أمره ، وعبرت جيوش الصليبيين ومعها جيوش شاور إلى غربى النيل ولم يجد شيركوه بدا من التقهقر إلى الصعيد وقرب المنيا دارت معركة بين الجيشين كان النصر فيها حليف شيركوه ، واتجه شيركوه إلى الأسكندرية فحرب به أهلها ثم استطاع الاستيلاء على صعيد مصر ، غير أن الصليبيين هاجموا الاسكندرية وحاصروا فيها صلاح الدين ، وكان أن وقع اتفاق - للمرة الثانية - على أن يترك الطرفان مصر لشاور والفاطمين .

وأصبح الموقف في إجماله تنافسا بين نور الدين وعمورى الأول على الاستيلاء على مصر وكان الصليبيون حلفاء شاور قد أساءوا معاملة المصريين وأرهقوا ميزانيتهم ، مما أضطر شاور معه أن يقلب لهم ظهر المجن وأن يستنجد من جديد بنور الدين على الصليبيين .

واتجه عمورى الأول إلى مصر وهاجم بلبس واحتلها وقتل فيها مقتلة عظيمة ثم اتجه إلى القاهرة ووجه نور الدين جيشا إلى مصر بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وفى هذه المرة لم يجد عمورى الأول مبررا للاصطدام بجيوش شيركوه ففقل راجعا ، بينما رحب المصريون بشيركوه الذى أنقذهم من خطر الصليبيين ، فعينه الخليفة الفاطمي وزيرا له ، وقد بلغ استياء الناس من شاور أن عملوا على قتله ، وما هى إلا فترة حتى توفى أسد الدين شيركوه فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي .

وقد واجه صلاح الدين في مصر حملة صليبية تحالف فيها الصليبيون مع البيزنطيين وهاجموا دمياط وحاصروها ولكن قوة صلاح الدين وخبرته ومعونة نور الدين له ، وما قام به

نور الدين من هجوم على الصليبيين في الشام ، كل هذا جعل هذه الحملة تعود بالخزى والفشل من حيث أنت ، وذلك عزز مكانة صلاح الدين في مصر .
وامتد نظر نور الدين إلى توحيد جهود المسلمين وتكوين جبهة قوية ضد الصليبيين ، فضم الموصل إليه بعد وفاة أخيه قطب الدين ، واستولى على نصيبين ووادي الخابور ، فأصبحت هناك جبهة إسلامية لمواجهة الصليبيين تمتد من العراق إلى الشام فمصر ، وكان ذلك معناه هزائم متوالية للصليبيين .

وبدأ العمل المنسق ضد الصليبيين :

ففي سنة ٥٥٧ هـ - في ديسمبر ١١٧٠ م اتجه صلاح الدين إلى مهاجمة الصليبيين في فلسطين فحاصر قلعة الداروم جنوبى غزة وحاول الاستيلاء على غزة ولكنه لم يوفق .
فعاد إلى مصر ليستعد لغزو جديد وإن كان قد استطاع أن يستولى على مدينة أيلة وأسر حاميتها الصليبية ، وظل نجم صلاح الدين يصعد في مصر - على الرغم من إسقاطه الخلافة الفاطمية فيها ، وخلافه مع سيده نور الدين محمود ، إلى أن استقر له أمر مصر تماما بوفاته نور الدين سنة ٥٦٩ هـ - ١٥ من مايو سنة ١١٧٤ م .
وأخذ صلاح الدين على عاتقه أن يؤمن الوحدة الإسلامية من جانب وأن يقضى على الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي من جانب آخر .
ففي الجانب الأول - كان أمر الشام قد اضطرب بعد وفاة نور واختلاف أبنائه وأبناء إخوته ، مما شجع الصليبيين على مهاجمة الشام ودمشق ، فاستنجد المسلمون بصلاح الدين ووعده بتسليمه دمشق ، وصادف هذا العرض قبولا في نفس صلاح الدين لأنه بذلك يوحد صفوف المسلمين ، فسار إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ - أواخر نوفمبر ١١٧٤ م واستقبل فيها أحسن استقبال ، وأعلن صلاح الدين أن هدفه هو حرب الصليبيين ، ولم يفتر صلاح الدين حتى استطاع أن يوحد بين مصر والشام من جديد - على الرغم من التضحيات التي قدمها والمؤامرات التي تعرض لها ، والخلافات التي خاض غمارها .

متهورا صليبيًا هو أرناط - أسير المسلمين في قلعة حلب سنين عديدة^(١) خاس بعهد الصليبيين مع صلاح الدين وخرق الهدنة بينها وكرّ بجيوشه من الأردن إلى تيمياء أملا في الاستيلاء على المدينة المنورة وذلك في صيف سنة ١١٨١ م - ٥٧٨ هـ واستولى في طريقه على قافلة للمسلمين وغنم منها كثيرا من المال وأسر عددا من الرجال ، مما أغضب صلاح الدين فكتب إلى ملك بيت المقدس يذكره بالهدنة ويطلب منه أن يأمر أرناط برد الأموال وفك الأسرى ، وقد حاول ملك بيت المقدس فرفض أرناط .

عندئذ لم يجد صلاح الدين بدا من حرب ضد الصليبيين طالما تمناها فأعد جيشا كثيفا وخرج به من مصر سنة ٥٧٨ هـ - مايو ١١٨٢ م واتجه إلى الأردن لتأديب أرناط ، فدمر مزارع القمح التابعة للصليبيين ، وفي ذات الوقت كان ابن أخيه فرخشاه نائب السلطان صلاح الدين في دمشق ينسق العمل العسكري بهجوم على الصليبيين من جانب آخر فأغار على طبرية وعكا واستولى على الشقيف أرنون وغنم من الصليبيين وأسر ، ثم انتقل إلى الضفة الشرقية للأردن فأغار على السواد .

وكان صلاح الدين بعد أن هاجم أرناط قد اتجه إلى دمشق ، ومنها تحرك في ربيع الأول من سنة ٥٧٨ هـ - يوليو ١١٨٢ م إلى سهل الأفحانة وعسكر فيه بينما أرسل ابن أخيه فرخشاه إلى مهاجمة إقليم الغور حول بيسان ، فقهر الصليبيين وغنم منهم كثيرا في حين التف صلاح الدين في خفة لتلتقى جيوشه بجيوش ابن أخيه ، وأخذ الجيشان في مهاجمة حصن الكوكب الذي يشرف على إقليم الغور واستعد الصليبيون والتقوا بالمسلمين عند كفر بلا ولكن النصر كان حليف المسلمين^(٢) .

غير أن صلاح الدين كان قد علّ على أن معركة كبرى فاصلة لابد أن تدور ضد الصليبيين فعاد إلى دمشق وأخذ يدبر ويخطط لتلك المعركة ، فرأى أن الخطوة الأولى هي فصل إمارتي طرابلس وأنطاكية عن بيت المقدس ، فكان لابد أن يوحد الجهود فاستطاع

١ - ظل أسيرا من سنة ١١٦٠ م إلى ١١٧٥ م .

٢ - ابن واصل : مفرج الكروب : ١١٥/٢

جمع حلب إلى قبضته مع دمشق والقاهرة واستطاع أن يكون موضع رضا الخليفة العباسي ، ولم تعد الموصل تهدده ولا سلاجقة الروم ، كما خطبت الدولة البيزنطية وده .
وهنا أخذ صلاح الدين يرسم الخطة لضربة قاصمة للصليبيين فكانت معركة حطين أهم المعارك وأخطرها بل هي المعركة التي حددت وجود الصليبيين في الشرق الإسلامي .
ففى شهر جمادى الثانية من سنة ٥٧٩ هـ - سبتمبر ١١٨٣ م تحركت جيوش صلاح الدين من دمشق فعبرت نهر الأردن ثم زحفت على بيسان واستولت عليها في سهولة ، ثم عسكر صلاح الدين عند عين جالوت ، بينما عسكر الصليبيون عند القولة قرب عين جالوت وانتظر صلاح الدين أن يهجم عليه الصليبيون لتدور المعركة لكنهم لم يفعلوا تخوفا من قوة جيوش المسلمين - على الرغم من مناورات صلاح الدين وهجومه على كثير من أطراف الصليبيين .

وظلت الأمور بين صلاح الدين والصليبيين مناوشات ومناورات حتى كان عام ٥٨٣ هـ - مارس ١١٨٧ م حيث أخذ صلاح الدين من دمشق يجمع جيوشه من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر .

واتجه صلاح الدين نحو الجنوب فوصل إلى رأس الماء شألى غربى حوران وترك فيها ابنه الأفضل ليكون مركز تجمع للإمدادات والنجادات ، واتجه صلاح الدين إلى بصرى لحماية قافلة الحجاج المسلمين من عدوان أرناط ولما اطمأن على سلامتها اتجه إلى مهاجمة أرناط فسار إلى الكرك والشوبك وحاصر أرناط في الكرك حصارا مرأ ، وحدث اشتباك بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية هزم فيه المسلمون الاسبتارية والداوية في شهر مايو ١١٨٧ م - ٥٨٣ هـ وكان نصرا حاسما ، فتجمع الصليبيون تحت قيادة لوزنجان في صفورية ومعهم صليب الصليبوت ، وأسرع صلاح الدين فزحف على طبرية في شهر يوليو ١١٨٧ م فاستولى عليها دون قلعته ، وانتظر رد فعل هذا الهجوم لدى الصليبيين وكان يرغب في أن يزحف الصليبيون إليه في طبرية ليصلوا بمجتهدين ، وفعلوا توجه الصليبيون إلى طبرية ، فما كان من صلاح الدين إلا أن حرك جيوشه خمسة أميال فقط ، وعسكر عند قرية حطين الوفيرة الماء والمراعى .

ووصلت جيوش الصليبيين إلى قرب حطين في هضبة تسمى قرون حطين وهم في أشد حالات العطش والإرهاق « وأصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت الخامس بقين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ فركبوا وتقدموا إلى الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض ، إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتتلوا واشتد القتال ٠٠٠ وكان الفرنج في حملاتهم يرجون الخلاص مما هم فيه فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك - الذى كان صلاح الدين قد نذر دمه - وأسروا صاحب جبيل وابن هنفرى ومقدم الدادية ، وكثر القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا ، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الواقعة ٠٠٠ » (١) .

وقتل صلاح الدين أرناط بيده جزاء تهجمه على قوافل حجاج المسلمين وعزيمه على مهاجمة الحرمين الشريفين في المدينة ومكة .

واستولى المسلمون على صليب الصليبوت ، وكان ذلك في نظر الصليبيين خذلانا . وكانت حطين من أعظم انتصارات صلاح الدين والمسلمين ، وكانت النهاية الحقيقية للوجود الصليبي في بلاد المسلمين .

وأخذ صلاح الدين بعد هذا الانتصار يستولى على البلاد التى كانت في أيدي الصليبيين واحدة واحدة ، وبخاصة ثغور البحر التى تمد الصليبيين بالأمداد ، فاتجه إلى عكا واستطاع أن يستولى عليها سلما وأمن أهلها وغنم المسلمون غنائم هائلة ، وكان دخول صلاح الدين عكا في سنة ٥٨٤ هـ - ١٠ يوليو ١١٨٧ م .

واستولت جيوش المسلمين على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والغولة والطور ٠٠ ثم حصن يابا ويافا وسبسطية وقلعة تبنين ، واستسلمت صرغندا وصيدا

١ - ابن الأثير : الكل حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

وبيروت • ثم اتجه صلاح الدين إلى جبيل وسلمت له ، ثم استولى على عسقلان في أوائل سبتمبر سنة ١١٨٧ م كما استولى على الرملة وبيننا والداروم وغزة وبيت جبرين • ولم يكن أمامه بعد ذلك إلا الاستيلاء على بيت المقدس •

فعرض صلاح الدين على الصليبيين تسليم بيت المقدس فرفضوا فأقسم أن يأخذها بحد السيف ، وهاجم المدينة من شاليها عند باب العمود أو كنيسة صهيون واشتد الهجوم وأدرك الصليبيون أن لا فائدة ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون تسليم المدينة والأمان لأهلها ، ولكن صلاح الدين رفض لأنه كان قد طلب ذلك نفسه منهم فأبوا •

غير أن صلاح الدين بعد مشاورات رأى أن يترك الصليبيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة وواحد للطفل ، واشترط أن يؤدي الفداء في مدى أربعين يوما ومن لم يؤد صار مملوكا • وهكذا خرج الصليبيون من بيت المقدس فدخلها صلاح الدين في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ - ١٢ أكتوبر ١١٨٧ م •

واتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى الاستيلاء على ما بقى للصليبيين على شاطئ البحر مثل صور وطرابلس وأنطاكية ، فضلا عن الحصون الداخلية مثل حصن الأكراد والمرقب ، وصفد ، وحصن كوكب •

وقد وفق صلاح الدين في الاستيلاء على كل مملكة بيت المقدس ما عدا صور التي ترك صلاح الدين احتلالها غداة احتل عكا ، فكانت مركز تجمع للصليبيين • كل هذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين على الصليبيين في مدى سنوات ثلاث متوالية من ٥٨٣ هـ إلى ٥٨٦ هـ - ١١٨٧ م - ١١٩٠ م لم تبق للصليبيين من مملكة بيت المقدس سوى صور ، ولم تبق لهم من إمارة طرابلس سوى طرابلس العاصمة فقط وقلعة أنطربوس وحصن الأكراد ، ولم تبق لهم من إمارة أنطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب •

وكان معنى ذلك زوال الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي ، وكان أثر ذلك في

صليبيّ أوروبا ندما على عدم استجابتهم لنجدة إخوانهم في الشرق ، لذلك أخذوا يتجمعون لمهاجمة المسلمين ، وكتب البابا جريجورى الثامن كتابا إلى ملوك إنجلترا وفرنسا وألمانيا يحثهم على حرب المسلمين .

واستجاب لهذا النداء ملك إنجلترا وملك فرنسا وامبراطور ألمانيا ، وتحركت الجيوش إلى الشرق الإسلامي ، غير أن ملكي إنجلترا وفرنسا قضيا مع جيوشهما فصل الشتاء في صقلية من شهر سبتمبر ١١٩٠ م إلى شهر مارس ١١٩١ م . بينما اتجه امبراطور ألمانيا في شهر مايو ١١٨٩ م - ٥٨٥ هـ وبصحبه ابنه على رأس جيش كثيف إلى الشرق مارا بالقسطنطينية ، وعلى الرغم من الخلافات بين امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا والإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني فإن إمبراطور ألمانيا عبر القسطنطينية إلى آسيا الصغرى في شهر مارس ١١٩٠ م وما لبث هذا الجيش أن دخل أرض قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم واستطاع امبراطور ألمانيا على الرغم مما تعرض له من مناوشات أن يقنع قلج أرسلان أنه ما قصد بلاده ولكن قصد بيت المقدس ، فعبّر إلى أرمينية ولقى من أميرها ليو الثاني ترحيبا كبيرا ، ومساعدات جمة واقترب الجيش من البلدان الإسلامية ، وأخذ صلاح الدين يستعد لملاقاته ، فأعلن الدعوة للجهاد وطلب المعونة من أمراء المسلمين جميعا حتى إنه طلب مساعدة أمراء المسلمين في المغرب الإسلامي . وأخذ يستعد من الناحية العسكرية فهدم بعض الأسوار حتى لا يتحصن الصليبيون بداخلها ، وأخذ العالم الإسلامي يغلي ترقبا لهذا الهجوم الألماني العنيف . ولكن الله سلم إذ غرق فردريك بربروسا وهو يعبر نهرا صغيرا في قليقية ، وأفلت زمام الجيش بهلاك قائده وتفرق جنوده ومضى ابن فردريك فترة ولما برى رأى أن يتجه بجنوده إلى عكا فحاصرها في أوائل أكتوبر ١١٩٠ م .

وظلت عكا مستعصية على الصليبيين على الرغم من اشتراك أمراء كثيرين في حصارها ومنهم طليق صلاح الدين جاي لوزجنان الذي شارك في حصارها فضلا عن كونراد مونتفرا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا الذي وصل إلى عكا في صيف ١١٩٠ م كذلك وصل إلى عكا ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد بعد قليل ، وقاومت عكا واشتبك

صلاح الدين مع الصليبيين اشتباكات عدة ، ثم داهمه الوباء فاضطر أن يبتعد عن أرض المعركة التي غصت بجثث القتلى ، وكانت تلك فرصة للصليبيين فضيقوا الخناق على عكا ، فاستولوا عليها بمعاهدة في شهر يوليو سنة ١١٩١ م بعد حصار دام عامين .
وكان استيلاء الصليبيين على عكا انتقاما مما حققه صلاح الدين في حطين ، وعاد ملك فرنسا إلى بلاده فتولى زعامة الصليبيين ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد الذي كان باطشا منتهورا لاقى إحسان صلاح الدين إليه في مرضه بالغدر والخيانة والتهور ، فقد قتل أسرى عكا من المسلمين دون استثناء .
واستطاع ريتشارد أن يستولى على حيفا وأرسوف بعد معركة حامية مع المسلمين بقيادة صلاح الدين في أرسوف .
وطمع ريتشارد بعد هذا النصر فزحف على بيت المقدس - فاتجه إلى الرملة واللد ، وعلم بأن صلاح الدين قد أحكم مداخل بيت المقدس ، فيئس من الاستيلاء عليها فعاد إلى الرملة يائسا خائبا باحثا عن الصلح مع صلاح الدين ، وتعثرت المفاوضات حينما استولى خلالها صلاح الدين على يافا ، ولكن الصليبيين استطاعوا ردها .
وكانت ظروف انجلترا قد اضطربت وأمل ريتشارد في الاستيلاء على بيت المقدس قد تبدد ، والمرض قد داهمه فاضطر إلى عقد صلح الرملة في شهر سبتمبر ١١٩٢ م شوال ٥٨٨ هـ .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة .

الحملة الصليبية الرابعة

تعد هذه الحملة نتيجة مباشرة لوفاة صلاح الدين في شهر صفر سنة ٥٨٩هـ - مارس ١١٩٣م . فمئذ وفاته دعا البابا أنوسنت الثالث إلى حرب صليبية ضمن خطة وضعها للكنيسة على رأسها مشروع محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق واغتصاب بيت المقدس من المسلمين .

فدعا في منتصف سنة ١١٩٨م - ٥٩٤هـ إلى حملة صليبية رابعة ، واستجاب له فيها عدد من الأمراء وتولى قيادتها عدد من البارونات الفرنسيين والفلمنكيين وإن كانت الغلبة للعنصر الفرنسى .

وبعد مداولات بين أمراء الحملة وقوادها رأوا أن يتجهوا بها إلى مهاجمة مصر أولا ثم بيت المقدس بعد ذلك .

وبدأت الاستعدادات بالتعاون مع البندقية لتمدهم بالسفن واحتشد الصليبيون في البندقية في صيف ١٢٠٢م - ٥٩٨هـ ، غير أن البنادقة اشترطوا على الصليبيين ثمنا لهذا التعاون أن يهاجروا مدينة زارا ويستردوها من ملك هنغاريا واستجاب الصليبيون لذلك على الرغم من غضب البابا وإصداره قرار الحرمان ضد الحملة كلها ثم قصره على البنادقة أخيرا .

وبينا يستعد الصليبيون للاتجاه نحو مصر إذا بثورة تنشب في القسطنطينية تطيح بالإمبراطور إسحق الثانى ، فيفر ابنه الكسيوس إلى الغرب طالبا المساعدة من البابا ومن الصليبيين عارضا في مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ومساعدة الصليبيين في حملتهم ضد مصر .

وصادف ذلك هوى في نفس البابا ومصلحة لدى البنادقة ، وتشفيا من الصليبيين في الدولة البيزنطية . فاتجهت جموع الصليبيين إلى القسطنطينية واستولت عليها ١٢٠٤م وقاموا بتخريبها والعدوان على أهلها حتى قمنى بعض البيزنطيين أن لو كانت القسطنطينية

قد وقعت في أيدي المسلمين ، وقد أحرق الصليبيون بعض الكنائس والجامع القديم الذي
بنى في عهد بنى أمية وقاموا بسلب المدينة •
واستولت الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الأرثوذكسية ورأسها أول كاثوليكي منذ
إنشائها •
ولقد كان من نتائج هذه الحملة أن فترت همة المحاربين في الحروب الصليبية الآتية ،
لاستيقان الناس بأنها غارات بربرية وليست حروبا دينية •
كما عمقت هذه الحملة الخلاف بين مسيحي الشرق ومسيحي الغرب ، وجعلت
الطريق البرى إلى الشام أشد وعورة وأعظم خطرا •
كما أغرت كثيرين من فرسان الصليبيين في الشام إلى أن يتركوا الشام ومتابعة
ويتجهوا إلى قبرص أو البلقان ليهنئوا بحياة مستقرة •
وبالجملة فقد أضعفت الحملة الصليبية الرابعة مركز الصليبيين في الشرق الإسلامى
وزعزت مكانتهم •
لذلك قرر أحد مؤرخى الحروب الصليبية : « أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرا
بفشل الحركة الصليبية بأكملها » ^(١)

الحملة الصليبية الخامسة

لم تستقر الأمور بين المسلمين والصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة - على
الرغم من الاتفاقات والمعاهدات - ذلك أن الصليبيين أسرع إلى نقض المهود والغدر
والخيانة وتلك كانت طبيعتهم •
فقد أراد الاستتارية في حصن الأكراد أن يستولوا على مدينة حمص سنة ٦٠٤هـ -
١٢٠٧م فتكررت هجبتهم عليها حتى وصلوا إلى أسوارها فاستنجد صاحب حمص آنذاك

١ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية: ٩٤٠،٢ نقلا عن : Grousset: op Cit, Tome III, p. 175.

أسد الدين شيركوه الثانى بالملك الظاهر صاحب حلب فسير إليه عسكرياً منع عنه الصليبيين .

وفى شتاء سنة ١٢٠٧م - ٦٠٤هـ استولى قراصنة صليبيون من قبرص على سفن مصرية وأسروا من فيها، فخرج إليهم السلطان العادل على رأس جيش قاصدا عكا ، وانتهى الأمر برد أسرى المسلمين .

ثم اتجه العادل إلى حصن الأكراد لإبعاد خطر الاستتارية عن حمص فعسكر عند بحيرة قدس قرب حمص ، وجمع هناك قوة من عدد من الأمراء ثم أعلن أنه يقصد طرابلس بينما قصد حصن الأكراد فهاجمه وأسر خمسمائة رجل وغنم وإن كان لم يستطع الاستيلاء على الحصن لمناعته .

ثم زحف العادل إلى طرابلس واستولى في طريقه إليها على حصن القليعات ولكنه أطلق سراح حاكمه .

وقد أدت حروب العادل هذه إلى أن يسرع يوهيمند الرابع صاحب طرابلس إلى طلب الصلح فأجابه العادل إلى ذلك .

كما أن الملك حنا برين عقد معاهدة مع السلطان العادل مدتها ست سنوات من ١٢١١م - ١٢١٧م - ٦٠٨هـ - ٦١٤هـ . وإن كان حنا هذا أخذ يدبر مع الصليبيين حملة لغزو مصر عقب انتهاء الهدنة مباشرة فأخذ يرسل روماً ويطلب إعداد هذه الحملة ، وما إن انتهت الهدنة حتى كانت دعوة حنا برين قد أثمرت ، وبدأت الجموع الصليبية تشق طريقاً نحو الشرق .

كما دعا البابا أنوسنت الثالث الحملة صليبية جديدة سنة ١٢١٣م وأعلن أن هذه الحملة يجب أن تتجه نحو الشام مباشرة .

ووصلت الحملة الصليبية إلى الشام في ٦١٥هـ - خريف ١٢١٧م تحت زعامة ليوبولد السادس دوق النمسا وأندريه الثانى ملك هنغاريا ثم لحق بهما بهايو ملك قبرص . واجتمعوا في عكا في شهر أكتوبر ١٢١٧م وقرروا البدء بمهاجمة القلعة الجديدة التى

شيدھا العادل على جبل الطور للسيطرة على إقليم الجليل واتجه إليهم الملك العادل ، ولكنه آثر الانسحاب من وجههم فاستولوا على بيسان ، ثم عبروا الأردن واوغلوا حتى وصلوا إلى نوى •

ووجہ العادل اهتمامه إلى الدفاع عن دمشق وبيت المقدس ، واتجه الصليبيون إلى قلعة الطور ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها •• ثم عاد ملك هنغاريا إلى بلاده ولم تحقق حملته مع ملك النمسا شيئا سوى هدم حصن الطور الذى هدمه العادل بنفسه لما رأى مايجره عليه من عدااء الصليبيين •

أما دعوة حنا برين لمهاجمة مصر لأنها عند الصليبيين هى مفتاح بيت المقدس لذلك تدفقت جموع الصليبيين على الشام استجابة لدعوة البابا أنوسنت الثالث والملك حنا برين •

وخرج حنا برين لمهاجمة مصر ومعه تلك الجموع والاستتارية والداوية والقبارصة قاصدا دمياط في ٦١٦هـ - مايو ١٢١٨م وكان حنا زعيم الحملة ، ولم ينس الصليبيون أن يتصلوا بملك الحبشة المسيحي ليعاونهم في ضرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة •

ووصلت سفنهم دمياط ، وعلم الملك الكامل بن الملك العادل بوصولهم ، فأسرع بالتحرك إلى جنوب دمياط ، بينما رسا الصليبيون على الضفة الغربية للنيل ، وأخذ الصليبيون يهاجمون برج السلسلة ثلاثة أشهر ثم استولوا عليه في نهايتها ، وقد حاول المسلمون إقامة العوائق في النيل حتى لا تدخله سفن الصليبيين ولكن الصليبيين أفسدوا كل هذه العوائق •

وانتظر حنا برين في مواجهة الجيوش الإسلامية حتى جاءه مدد من أوروبا على رأسه الكاردينال « بلاجيوس » مندوب البابا والقائد الأعلى للصليبيين في حملتهم على مصر • وحاول الملك المعظم أن يشغل الصليبيين عن مصر فهاجم قيسارية وهدمها واستولى عليها، لكنه لم يستطع المضى في الاستيلاء على مايريد من القلاع والحصون • وتوفى الملك

العاقل فى جمادى الثانية سنة ٦١٥هـ - ٩ أكتوبر ١٢١٨م وخلفه ابنه الملك الكامل فى

حكم مصر وابنه الملك المعظم فى حكم دمشق •

وفى شهر رجب من نفس العام هاجم الملك الكامل الصليبيين فى دمياط ولكن الصليبيين تغلبوا عليه • ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى دبر الأكراد مؤامرة للإحاطة بالملك العادل فاضطر إلى الفرار ليلا فلما رأى الجند فرار السلطان تخاذلوا وانصرفوا فعبث الصليبيون النيل إلى الضفة الشرقية وأصبح سقوط دمياط وشيكا • غير أن وصول الملك المعظم لنجدة أخيه الملك الكامل جعل دمياط تثبت أمام هجمات الصليبيين •

واستنجد المسلمون بإخوانهم فى الشرق والغرب وأجابهم عدد لا بأس به ، وفى نفس الوقت وصلت للصليبيين إمدادات ضخمة من جزيرة قبرص •

وصادف ذلك هجوم جيوش جنكيز خان للدولة الخوارزمية، فاضطرب الكامل وأحس أن حماية الجبهة الإسلامية الشرقية من المغول عمل ضرورى فعرض الصلح على الصليبيين فرفض الصليبيون وبخاصة بلاجيوس مندوب البابا هذا الصلح وإن قبله حنا برين •

فهاجم الصليبيون معسكر الملك الكامل ، وفشلوا فى ذلك ومنوا بهزيمة ولكنهم ظلوا محاصرين لدمياط، وجاءتهم نجدة من الإنجليز والفرنسيين فى حين ساءت الأحوال فى مصر وغلت الاسعار فسقطت دمياط فى أيدى الغزاة فى شهر شعبان ٦١٦هـ - نوفمبر ١٢١٩م وأعملوا القتل فى أهلها والإفساد لكل ما فيها ، ثم اتخذوا منها مركزا وحصنا يهددون منه القاهرة ويتحكمون منه فى شرق البحر المتوسط •

وفى ذلك الوقت كانت جيوش التتار قد وصلت إلى قرب بغداد واستنجد الخليفة العباسى بالملك الأشرف أخى الملك الكامل ولكن الأشرف اعتذر بأنه ذاهب لنجدة أخيه ضد الفرنج •

وقد اغتر الصليبيون باستيلائهم على دمياط ورفضوا عروضاً من الملك الكامل كانت مغرية حقا ليجلوا عن دمياط • فاتجهوا إلى مهاجمة القاهرة وتحركوا نحوها فى أواخر يونيو

١٢٢١م - ٦١٩هـ وكان الملك الكامل قد نقل معسكره إلى فارسكور حيث خيم بالمنزلة الجديدة التى شيدها على الشاطئ الشرقى للنيل « المنصورة » وجمع الملك الكامل وأخوه المعظم والأشرف كل قوة يمكنهم جمعها واستعدوا لمواجهة الصليبيين .

وعرض الملك الكامل على الصليبيين عرضه من جديد ولكنهم أبوا وشرعوا فى التحرك نحو القاهرة وتقدموا وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هى : بحيرة المنزلة من الشرق وفرع دمياط من الغرب والبحر الصغير من الجنوب .

ووقفت السفن الإسلامية فى النيل لتسد الطريق عليهم وتمنعهم من الاتصال بمركزهم فى دمياط وكان وقت الفيضان للنيل ، فقطع المسلمون السدود فغرقت أكثر الأرض المحيطة بالصليبيين ولم يبق لهم للعودة إلى دمياط سوى طريق ضيق ملأه الملك الكامل بالقوات العسكرية التى أخذتهم وهم يحاولون العودة إلى دمياط .

وساء موقف الصليبيين وتجمدوا عند البرامون فلا يستطيعون المضى ولا العودة ولا يستطيعون القتال فى الوحل فطلبوا هم الصلح هذه المرة خانعين طالبين النجاة بأنفسهم فقط فاجابهم الملك الكامل إلى ذلك بشرط أن يرسلوا له برهائن من الملوك حتى يسلموا دمياط للمسلمين، وجلوا عن دمياط فى رجب سنة ٦١٨هـ سبتمبر ١٢٢١م ودخلها الملك الكامل والمسلمون .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة التى دعا إليها حنا برين والبابا أنوسنت الثالث وعادت من غزو مصر بالخزى والمذلة والانسحاب .

الحملة الصليبية السادسة

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة ، اضطربت أحوال الصليبيين فى الشام ووقع بينهم من الخلاف مازعزع مكانتهم وما جعل بعضهم يتجه إلى أوروبا والبابا من جديد طالبين حملة صليبية تعزز وجودهم فى الشام .

وقد كان نزاع حاد قد نشأ بين البابوية والإمبراطورية فى غرب أوروبا وقد استمر هذا

النزاع قرنين من الزمان على وجه التقريب ؛ وكان سببه التنافس بين السلطين الدينية والعلمانية فى أوربا .

ومن أجل هذا الصراع بين الكنيسة والسلطة العلمانية لم تحدث استجابة لطلب الصليبيين فى الشام بعد فشل الحملة الخامسة على مصر .

فإذا أضفنا إلى تلك الأحداث، أحداثا أخرى جرت للمسلمين وبالتحديد لابناء العادل: الكامل والمعظم والأشرف أبناء أخى صلاح الدين ، وماوقع بينهم من خلاف حاد أوشك على التحارب والتقاتل ، بل دخلت فيه فعلا حرب مرثية وأخرى غير مرثية . *

بالإضافة إلى خطر خارجى اخذ يهدد الدولة الأيوبية من الخوارزميين الذين شتتهم جنكيز خان ، فتجمعوا فى أصفهان وأخذوا يهددون الشام والعراق ، كل ذلك جعل الملك الكامل يستعين - مخطئا فى ذلك من غير شك - بالإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا ، للتغلب على متاعبه الداخلية مع أخويه والخارجية مع الخوارزميين فى مقابل أن يتنازل له عن بيت المقدس وكل ما حققه صلاح الدين من انتصار فى حطين .

وقبل فردريك الثانى هذا العرض وتجهز وأعد جيشا لمساندة الملك الكامل ضد الخطرين اللذين يهددانه .

وفى ذات الوقت أخذ البابا هنريوس الثالث يلح على الإمبراطور فردريك الثانى ليعد حملة صليبية للشرق تستعيد هبة الصليبيين والكنيسة هناك، ولما مات البابا هنريوس الثالث خلفه جريجورى التاسع وأخذ يلح كذلك من أجل أن يقوم الإمبراطور بهذه الحملة ، فأبحر الإمبراطور من برنديزى قاصدا بلاد الشام، ولكنه عاد مدعيا المرض، فاعتبر البابا هذه العودة نكوصا فأصدر ضده قرار الحرمان فى آخر سبتمبر سنة ١٢٢٧م . فخشى الإمبراطور غضبة البابا فخرج قاصدا عكا وكان جزء كبير من جيشة قد سبقه إلى بلاد الشام .

وكان فردريك لا يجب أن يدخل فى حرب مع المسلمين لأسباب كثيرة ربما كان منها

عناذه للبابا وكرهيته للكنيسة وربما كان منها حبه للمسلمين والإسلام بحكم نشأته في صقلية المسلمة .

وكانت حملة فردريك هي الحملة الصليبية الملعونة من الكنيسة، وأخيرا وصل رجال الإمبراطور إلى عكا في ٦٢٥هـ - إبريل ١٢٢٨م بينما تخلف الإمبراطور نفسه في قبرص . فخابت آمال الكنيسة والصليبيين والملك الكامل جميعا في حملة فردريك ، وعندما وصل فردريك إلى عكا في أخريات عام ٦٢٥هـ - سبتمبر ١٢٢٨م بهدف الحصول على بيت المقدس من الملك الكامل مقابل حمايته من أخيه المعظم ، وجد المعظم قد مات والكامل قد أمن هذا الشر، وأصبح فردريك في حرج من أمره وكذلك الملك الكامل ، فالكامل لا يود أن يجارب الصليبيين في هذه الظروف القلقة داخليا، وفردريك ما خرج ولا استعد لحرب المسلمين وإنما لحماية الكامل في مقابل بيت المقدس - دون حرب - ولو فكر في الحرب فلن يستجيب الصليبيون له وهو محروم من الكنيسة، فلم يجد أمامه إلا أن يفاوض ويستعطف ليأخذ بيت المقدس فيعزز بها مكانته في أوروبا كلها وبلغ من استعطافه أن كتب للسلطان الكامل : « أنا مملوكك وعتيقك ، وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أنني أكبر ملوك البحر. وقد علم البابا والمملوك باهتامي وطلوعي، فإن رجعت خائبا انكسرت حرمتي بينهم، وهذا القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخبروها فليس لها دخل طائل ، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر » ومن عجب أن وافق الكامل وأجاب فردريك إلى ماطلب وعقد معه اتفاق يافا سنة ٦٢٦هـ - فبراير ١٢٢٩م وفيها هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين ويأخذ فردريك بيت المقدس ولكن لا يجدد سور القدس وتكون قرى القدس للمسلمين لاحكم فيها للفرنج ، وأن يكون الحرم كله بأيدي المسلمين وليس للفرنج إلا الزيارة »

وبدموع فردريك واستعطافاته حقق ما عجزت عنه ملوك الفرنج وأمراء الصليبيين منذ انتزع صلاح الدين القدس منهم .

وقد كان لذلك أسوأ الأثر في نفوس المسلمين حتى إنهم أقاموا المآتم وقالوا المراثى في

القدس ، وذهب فردريك إلى بيت المقدس وتوج نفسه لأن الكنيسة رفضت أن تتوجه ، وعندما زار فردريك المسجد الأقصى ، علم أن السلطان الكامل أمر المؤذنين بعدم إقامة الأذان طيلة وجود الإمبراطور في المدينة فاستاء فردريك لذلك وقال للقاضي شمس الدين : « أخطأت فيما فعلت والله إنه كان أكبر غرضي في البيت المقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل » ^(١) ثم إن فردريك رأى قسيسا بيده الإنجيل يهيم بدخول المسجد الأقصى فزجره الإمبراطور وطرده، وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن وقال: « إنما نحن ممالك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره » ^(٢) .

ثم ذهب فردريك إلى يافا ثم غادرها إلى عكا تاركا بيت المقدس، وكانت عكا تعيش صراعا بين الصليبيين الذين فيها ، وحاول فردريك أن يبرر أعماله أمام رجال الدين ولكنه عورض .

وكان البابا قد أمر جيوشه بالاعتداء على أراضي فردريك وممتلكاته في إيطاليا وساعده في ذلك حموه حنا برين، فوجد أن مصالحه تقتضي أن يغادر عكا ويتجه إلى مملكته، فوصل إلى إيطاليا في ١٠ يونيو ١٢٢٩م .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية السادسة وقد أخذت بيت المقدس هدية من الملك الكامل الذي ضيع جهد عمه صلاح الدين في الاستيلاء عليه .

١ - د . سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١٠٩٥/٢ نقلا عن : السلوك للمقرئ: ٢٣١/١ .
٢ - السابق : ١٠٩٥/٢ .

الحملة الصليبية السابعة

منذ عقد الملك الكامل صلح يافا مع فردريك الثانى امبراطور ألمانيا ، وشنون البيت الأيوبي فى اضطراب •

وقد أحس الصليبيون بذلك ، وبخاصة الاسبتارية فأغاروا على منطقة بعرين فى خريف سنة ١٢٢٩م - ٦٢٧ هـ ، ونهبوا البلاد وقتلوا وأسروا وسبوا •
وكان الملك المظفر صاحب حماة غير مستعد للدخول معهم فى حرب فقبل أن يدفع لهم مبلغا من المال ، ولما لم يستطع الوفاء بما وعد،تجمع الاسبتارية والداوية فى قوة كبيرة ، وهاجما الملك المظفر ، فاشتبك معهم فى معركة عند أفيون بين بعرين وحماة وأنزل بهم هزيمة منكرة سنة ٦٢٨ هـ وساق أمامه الأسرى •

وفى سنة ١٢٣٣م - ٦٣٠ هـ رغب الاسبتارية فى الحصول على أموال فرضوها على المظفر ، فاستعانوا بجميع قوى الفرنجة مثل الداوية وإمارة أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس وصليبي قبرص ، ثم زحفوا على حصن بعرين ليلا ، فاحتلوا البلد واستعصت عليهم القلعة وعادوا بأسلاب وأموال كثيرة دون أن يصطدموا فى حرب مع المسلمين •
وقد كان الأيوبيون فى ذلك الوقت مشغولين بمناوأة علاء الدين كيقباد سلطان سلاجقة الروم الذى استولى على خلاط ، مما جعلهم يسكنون على هذا العدوان الصليبي على بعرين •

وفى هذه الفترة كان الداوية يحتلون حصن بغراس بينما كان الأيوبيون يسيطرون على حصن دريساك وبين الحصنين مسافة قصيرة ، مما كان يجدد الاشتباكات بين الطرفين ، ويولد الرغبة عند كل طرف فى الاستيلاء على حصن الطرف الآخر •
فأغار الداوية على حصن دريساك سنة ٦٣٤ هـ - صيف عام ١٢٣٧م ولكن المسلمين قاوموهم ، ووصلت للمسلمين قوة من حلب فاستطاعوا التغلب على الداوية وقتلوا معظمهم وأسروا عددا منهم •

والحق أن البيت الأيوبي في هذه الآونة كان يعاني من أخطار أربعة :

أولا : انقساماتهم الداخلية فيما بينهم •

ثانيا : جلال الدين والخوارزمية الذين استولوا على خلاط •

ثالثا : علاء الدين كيقياد سلطان سلاجقة الروم •

رابعا : الصليبيين في الشام كله •

ولقد دارت من أجل ذلك معارك عديدة فتغلبوا إلى حد ما على انقساماتهم الداخلية وحاربوا علاء الدين ثم حالفوه ، وحاربوا الخوارزمية ومعهم حليفهم علاء الدين حتى قضا عليهم وأجلوهم عن خلاط • ثم حاربوا علاء الدين ثانيا • وكان خطر خامس يترصد بهم ويوشك أن يطبق عليهم هو خطر المغول الزاحفين صوب الشرق •

ثم توفي الملك الكامل ٦٣٥ هـ - ١٢٣٨م بعد قضائه على مؤامرة من إخوته تستهدف القضاء عليه وخلفه في حكم مصر ابنه الصالح أيوب ، وزاد الانقسام بين أبناء البيت الأيوبي وتضعفت مكانته ، مما أطمع الصليبيين في عمل مضاد جديد •

فدعت البابوية إلى حرب صليبية جديدة فاستجاب لها عدد من أمراء فرنسا وأعدت حملة بقيادة ثييبوب الرابع وصلت إلى عكا ٦٣٧ هـ - سبتمبر ١٢٢٩م وكان الناصر داود صاحب الأردن قد استطاع أن يستولى على بيت المقدس من الصليبيين لأنهم نقضوا الهدنة وحصنوها ، وعندئذ فكر قواد الحملة الصليبية الفرنسية في مهاجمة بيت المقدس أو دمشق أو مصر أو عسقلان واختلفوا ثم هاجموا عسقلان واستولوا في طريقهم إليها على قافلة من المسلمين ، واتجهوا صوب غزة لللاقاة جيوش سيرها ضدهم العادل الثاني فلقوا هناك هزيمة منكرة وعادت فلولهم خائبة إلى عكا •

ولكن النزاع بين الأمراء الأيوبيين جعل الصالح إسماعيل يتحالف مع الصليبيين ضد بقية أمراء بني أيوب وفي مقابل ذلك سلمهم القدس وعسقلان وطبرية - وذلك في إثر عزل العادل الثاني وتولية الصالح أيوب أمور مصر ٦٣٧ هـ - ١٢٤٠م • وقد أدى ذلك إلى

زعزعة مركز الصالح إسماعيل وثورة الناس عليه وبخاصة عالمان جليلان هما : العز بن عبد السلام وابن الحاجب ، حتى إن جنود الصالح إسماعيل انسحبت من جيشه رافضة الدخول في معركة ضد المصريين وتجمعوا مع المصريين لحرب الصليبيين في غزة وهزمهم هزيمة نكراء .

ولم تجد هذه الحملة الفرنسية بدا من العودة إلى بلادها ، فعادت بعد أن عقدت معاهدة مع الصالح أيوب ٦٣٩ هـ - ١٢٤٠ م .

وما إن عاد ثيوت وحملته إلى غرب أوروبا ، حتى وصلت حملة انجليزية إلى عكا بقيادة ريتشارد كورنول أخو هنرى الثالث ملك إنجلترا . واتجه إلى تحصين عسقلان ليأمن أى هجوم من جانب مصر ، واعترف الصالح أيوب بحق الصليبيين في ملكية الشقيف أرنون وإقليم الجليل ، وبيت المقدس وبيت لحم ومجدل وعسقلان ، وكان هدف ريتشارد تثبيت عمل ثيوت وإتمامه ، ثم قفل راجعا إلى بلاده .

وفي سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م استعان الصالح أيوب بالحوارزمية ضد أقربائه - أمراء دمشق والأردن وحمص الذين تحالفوا مع الصليبيين لغزو مصر - فاندفع الحوارزمية نحو بلاد الشام فاستولوا على كثير من القرى والمدن في طريقهم إلى دمشق واستعصت عليهم دمشق فاتجهوا صوب الجليل فاستولوا على طبرية ونابلس ، ثم اقتحموا بيت المقدس في شهر صفر سنة ٦٤٢ هـ - ١١ يوليو ١٢٤٤ م واستولوا عليها ، وقضوا على كل معالم النصرانية فيها وطردها منها الصليبيين إلى غير رجعة ، فعادت بيت المقدس نهائيا إلى المسلمين وظلت في أيديهم سبعة قرون متوالية حتى دخلها الجنرال ألنبي القائد الإنجليزي سنة ١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م وقال كلمته المعروفة - الآن انتهت الحروب الصليبية .

واستطاع الحوارزمية مشتركين مع المصريين بقيادة ركن الدين بيبرس أن يواجهوا الصليبيين ومن يحالفهم من منافقي المسلمين - على حد تعبير أبى شامة في الروضتين ، في غزة ٦٤٢ هـ - أكتوبر ١٢٤٤ م ، وأن يوقعوا بهم هزيمة نكراء كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين بعد حطين ، حتى سهاها بعض المؤرخين « حطين الثانية » وفي سنة ٦٤٥ هـ -

١٢٤٧م استطاعت جيوش الصالح أيوب أن تستولى على قلعة طبرية من الصليبيين وفي نفس العام استولت الجيوش الإسلامية على عسقلان ، وأصبح السلطان الصالح أيوب يسيطر على مصر والشام وبيت المقدس وفي بيت المقدس جاء إلى الصالح أيوب ملك البيت الأيوبي لتقديم الولاء والطاعة ، في حين أضحي أمر الصليبيين في الشام في تباب وضياح .

وعندما سقطت بيت المقدس في أيدي الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤م استنجد بطرق بيت المقدس بالقرب الأوربي والبابا وطلب المعونة ، فانعقد مجمع ليون في صيف عام ١٢٤٥م وقرر إنفاذ حملة صليبية إلى الشرق ، ولكن الخلافات بينهم جعلتهم لم يبادروا إلى إنفاذها .

وكان لويس التاسع ملك فرنسا مريضا آنذاك فنذر إن شفى أن يشن حملة على المسلمين ، فلما شفى أخذ يستعد طيلة ثلاث سنوات ثم أبحر في أواخر شهر أغسطس ١٢٤٨م قاصدا الشرق ومعه زوجه وأخواه : روبرت وشارل ، وكان هدف الحملة توسيع النفوذ الفرنسي أكثر من تثبيت المكانة الدينية للصليبيين في الشرق .

واتجهت الحملة إلى مصر قاعدة الإسلام القوية آنذاك وتوقفت في قبرص لتتجمع الجنود والإمدادات ، والسفارات الودية بينه وبين المغول والداوية والاستتارية .

وفي شهر مايو ١٢٤٩م تحركت جيوش لويس التاسع من لياسول إلى دمياط فوصلتها في أوائل شهر يونيو ، وعندئذ أرسل لويس التاسع خطابا إلى الملك الصالح أيوب يهدد ويتوعد ويدل ، جاء فيه أن مسلمي الأندلس : « يحملون إلينا الهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان .. فلو حلفت لي بكل الأيمان ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصليبان ماردتني ذلك عن الوصول إليك .. » ووصلت الرسالة إلى الملك الصالح وهو على فراش مرض الموت فكتب رادا عليه : « فلو رأيت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم

الحصون والسواحل وإخراينا منكم الديار الأواخر والأوائل لكان منك أن تعض على أناملك للندم»^(١)

ولما وصل لويس إلى دمياط كان الصالح أيوب قد حصنها وملأها جندا وعتادا ووضع أمامها الجيش الذى يحول دون نزول الصليبيين ، وقرر الصليبيون النزول على الشاطئ الغربى من النيل وماكان نزولا سهلا وإنما دارت معركة رهيبة بينهم وبين المسلمين ، وكانت الغلبة للصليبيين لكثرة عددهم ، واتجه الجيش الأيوبي إلى أشموم طنّاح ، تاركا دمياط للصليبيين وخرج من دمياط أهلها وحاميتها بعد أن أشعلوا النار في سوقها ، فتملكها الصليبيون بغير قتال •

ثم بقى الصليبيون في دمياط خمسة أشهر في انتظار مدد من أوربا ، وكان الصالح أيوب ينظم الدفاع من فراش الموت •

ووصل الفونس أخو لويس التاسع ومعه المدد في أواخر أكتوبر ١٢٤٩م وقرر الصليبيون الزحف على القاهرة فتحركوا في نوفمبر ١٢٤٩م وفي اليوم التالى من زحفهم توفى الصالح أيوب في المنصورة ، فأخفت زوجه شجرة الدر نبأ موته من أجل المعركة وجمعت الأمراء القواد وأخذت منهم البيعة لتوران شاه ابن الصالح أيوب وأرسلت في إحضاره من حصن كيفا ، واستمر الاستعداد للحرب وكانت المراسيم تصدر باسم السلطان الميت •

غير أن خبر الوفاة تسرب وعرفه الصليبيون فأسرع لويس في الهجوم فتحركت جيوشه من دمياط إلى القاهرة عن طريق الدلتا في طريق ملء بالترع والقنوات واستمر الصليبيون في سيرهم حتى حصروا بالمياة من شياهم الشرقى ببحيرة المنزلة ومن غربهم بدمياط ومن جنوبهم ببحر أشموم « البحر الصغير » وكان بحر أشموم في طريقهم إلى المنصورة واستغل الأمير فخر الدين الموقف الطبيعى ، فهاجم الصليبيين بين فارسكور وشرمساح هجبات محدودة عرقلت سيرهم وأوقعت عددا منهم في الأسر •

وأدرك لويس التاسع صعوبة موقفه وهو عاجز عن العبور إلى المنصورة والمسلمون

١ - القرىزى : السلوك : ٣٣٤/١ - ٣٣٥

أمامه على الضفة الأخرى للنهر ، فعبر بحر أشموم عن طريق مخاضة دله عليها أهل سلمون - وغالبيتهم نصارى - وما علم الأمير فخر الدين بعبور الصليبيين من عند سلمون حتى جمع رجاله ووقف في مواجهة الصليبيين •

وقد عبر روبرت أخى لويس بحر أشموم مع مقدمة الجيش الصليبي وبادر باقتحام المنصورة ومعه الملك لويس التاسع ، غير أن جيوش المسلمين بقيادة بيبرس البندقدارى انقضوا على الصليبيين فزعزعوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وقتل روبرت نفسه وقتل من الداوية أكثرهم ، وكان ذلك ابتداء النصر على الفرنج ، وهزت الصدمة الملك لويس ولكنه تجلد وأقام على النيل جسرا من الصنوبر ليعبر عليه النيل تداركا للموقف ، غير أن الجيوش الإسلامية استبسلت وهاجمت معسكر الصليبيين يوم الجمعة ١١ فبراير وقاوم لويس التاسع طوال اليوم وعادت جيوش المسلمين إلى المنصورة •

وساء موقف الصليبيين وأدركوا أنهم أمام قوة يحسب لها أكبر حساب ، ثم حضر تورانشاه إلى مصر ففرح به المسلمون واستبشروا وارتفعت روحهم المعنوية وأدرك لويس صعوبة الزحف إلى القاهرة ففكر في العودة إلى دمياط غير أن المسلمين كانوا قد قطعوا على الصليبيين بسفن أعدها تورانشاه واستولت تلك السفن على سفن الإمدادات الصليبية وعلى من كان فيها وماكان فيها ، وانتصرت السفن الإسلامية على الصليبيين في ثلاث معارك •

واستعد الصليبيون للعودة إلى دمياط ملاذا وحيدا لهم فأحرقوا أخشابهم وخربوا سفنهم ، وأدرك لويس أنه في الموقف الضعيف الحرج فبدأ يتفاوض مع المسلمين لترك دمياط وأخذ بيت المقدس ، وكان في الحقيقة يريد أن يخرج وباقي جيشه سالما من هذا المأزق ، غير أن طلبه رفض ، فلم يجد بدا من الانتقال إلى دمياط فكان انسحابا أشبه بالهروب من المعركة •

ولم تكد جيوش الصليبيين تصل إلى فارسكور حتى قرر المسلمون مهاجمتهم فيها ، ودارت معركة رهيبة وقع فيها الجيش الصليبي كله مابين قتيل وأسير حتى لويس التاسع

نفسه سيق مكبلا بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان وعهد بحراسته إلى الطواشي صبيح المعظمى .

وقد وضع تورانشاه من الشروط لتسليم لويس وأسرى الصليبيين ماشاء ، واتفق على أن تسلم له دمياط وأن تعقد هدنة مدتها عشر سنوات ووافق لويس التاسع وقبل أن تتم المعاهدة دبر المماليك البحرية وشجرة الدر لقتل تورانشاه لسوء سيرته وظلمه فقتلوه في مايو ١٢٥٠م واستولت شجرة الدر على الحكم ثم تزوجت عز الدين أيك وصار هو السلطان على مصر ، وأخذ يحكم مصر والشام منذ ذلك الحين نظام حكم جديد يتولاه المماليك .
ونفذوا المعاهدة مع لويس التاسع بعد أن أضافوا مايرون ، وتسلموا دمياط في ٦ مايو سنة ١٢٥٠م وغادروا لويس التاسع في ٨ مايو ١٢٥٠م فوصل عكا في الثالث عشر من نفس الشهر .

ودولة المماليك هي التي قضت على الوجود الصليبي في العالم الإسلامي القضاء الأخير .

وقد حاول لويس التاسع أن يصنع شيئا للصليبيين في الشام فلم يوفق ، إذ حاول أن يتفق مع الأيوبيين في الشام ضد المماليك في مصر ، وحاول التحالف مع المغول ضد المسلمين ، ولكنه فشل في كل ذلك ، فعاد خزيان إلى بلاده في ٢٥ من إبريل سنة ١٢٥٤م .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية السابعة دون أن تحقق شيئا مما كانت تطمع فيه ، وظهر في الأفق الإسلامي دولة قوية هي دولة المماليك .

وكان المغول قد استشرى شرهم واستولوا على بلاد الشام بعد أن استولوا على بغداد ولم يعد أمامهم إلا مصر واليمن .

وكتب هولاكو يهدد السلطان قطز سلطان مصر من المماليك ، واستعد قطز لمعركة مع المغول وجيش جيشا بقيادة الأمير بيبرس البندقداري سيره إلى غزة ، بعد أن كان قتل رسل هولاكو إليه وعلق رؤوسهم بباب زويلة .

واحتلت جيوش المماليك غزة من المغول ، ثم اتجهت جيوشهم إلى استرجاع دمشق من المغول ، وعند عين جالوت دارت معركة بين المماليك والمغول انتصر فيها المماليك وكان هذا الانتصار الساحق على المغول في عين جالوت نقطة تحول في تاريخ العالم الإسلامي كله ، فقد كان المغول حربا على الحضارة والإنسانية جمعاء •

وبهذا الانتصار استطاع المماليك بسهولة القضاء على الأيوبيين في الشام وسريعا ماوحد المماليك بين مصر والشام تلك الوحدة التي كانت نكالا على الصليبيين أيام صلاح الدين •

وعند عودة قطز إلى مصر قتله قائده بيبرس وتولى الحكم مكانه ، وسريعا ما أثبت بيبرس أنه كان أقدر الحكام وأكفأهم •

وكان من أبرز أعمال الظاهر بيبرس القضاء على الصليبيين في الشام فأعد لهم حملة ضخمة تحركت من غزة سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٥م أخذت تستولى على حصون الصليبيين حصنا حصنا حتى وصل إلى أرسوف ، ثم جاء دور عكا فاستعصت عليه ولكنه فتح صفد وهونين وتبنين والرملة •

وفي سنة ٦٦٥ هـ - ١٢٦٦م اتجه بيبرس إلى أرمينية الصغرى وإمارة أنطاكية وطرابلس لعقابهم على تحالفهم مع المغول ضد المسلمين ، وكانت جيوشه تلك تحت قيادة الأمير قلاوون •

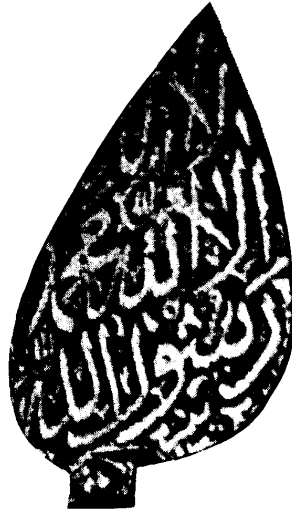
فاستطاعت جيوش بيبرس أن تستولى على القلاع وحلباء وعرقه ، وهي أهم مراكز تحمي طرابلس •

كذلك استولت هذه الجيوش على المصيصة وأذنة وطرشوس وميناء إياس وهي كذلك أهم مراكز تحمي أرمينية ، وقتلت أحد أبناء هيثوم ملك أرمينية وأسرا ابنه الثاني ، أما الملك المنصور الأيوبي فقد اتجه إلى سبيس عاصمة أرمينية واستولى عليها وأشعل فيها النار ، وعادت الجيوش إلى الشام وفي صحبتها أربعون ألف أسير وغنائم لا تحصى •

وحاول هيثوم أن يفتدى ابنه ولكن بيبرس أصر على أن يكون فداؤه قلعة دربساك

التي تتحكم في طريق المواصلات بين أرمينية وأنطاكية ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد ، وكلها كانت في إقليم مرعش وتتحكم في الطريق بين الجزيرة حيث المغول حلفاء هيثوم وأرمينية الصغرى •

ثم اتجهت جيوش بيبرس إلى يافا فاستولت عليها وفي نفس العام ٦٦٦ هـ الذي استولت فيها على يافا - استطاعت أن تستولى على أنطاكية بعد حرب خطط لها بيبرس وأدارها بمهارة تلفت الأنظار وبذلك سقطت ثانی إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الإسلامي في أيدي المسلمين ، وكان نصرا عظيما مؤزرا ، أبرز مافيه من مكاسب للمسلمين أنه قطع الصلة بين الصليبيين في طرابلس وعكا بأرمينية من جانب ، وقضى على فكرة التحالف بين أرمينية وأنطاكية والمغول من جانب آخر • وهكذا استطاع المماليك وقد جمعوا في أيديهم من جديد بين مصر والشام أن يجعلوا الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي يعيش أيامه الأخيرة •



د - الممالك الصليبية في الشرق الإسلامي

استطاع الصليبيون بعد أن انتصروا على المسلمين في الحملة الصليبية الأولى أن ينظروا إلى وجودهم في هذه البلاد التي تفيض لبنا وعسلا ، على أنه أمل تحقق ، يجب بذل كل مجهود ، وعمل كل احتياط من أجل المحافظة عليه .
وطوال بقاء الصليبيين في الشرق الإسلامي - قرابة قرنين من الزمان - لم يتفقوا فيما بينهم إلا على أمرين :

الأول :

عداء شديد للإسلام والمسلمين - على الرغم من اضطرار بعضهم إلى مهادنة المسلمين أو الدخول معهم في أحلاف .

الثاني :

الإصرار على المحافظة على وجودهم في الشرق الإسلامي عموما وفي بيت المقدس والإمارات الحامية له المؤمنة لوجودهم فيه خصوصا .
أما ما وراء هذين الأمرين فلم يكن لهم فيه إجماع ولا كلمة سواء ، بل إن الخلافات الحادة بينهم لم تنقطع إلا لتتجدد ، ولم تضيقها جهود بعضهم إلا لتتسع من جديد .
ويكفي أن نذكر أن صليبي أوروبا كانوا على خلاف مع صليبي الشرق - البيزنطيين - خلاف ديني وسياسي ، والكنيسة أو البابا على خلاف مع كثير من ملوك أوروبا وأمرائها ممن يخضعون لسلطان الكنيسة الأوروبية - الكاثوليكية - وملوك الصليبيين الأوربيين اختلف بعضهم مع بعض إلى حد القتال والحرب .

ولقد كان من مظاهر اتفاق الصليبيين في الشرق الإسلامي أن عملوا على تأسيس ممالك فيه أو إمارات تحميهم وتؤمن وجودهم ، وقدمهم عند الحاجة بالرجال والعتاد والمثونة .
ولقد استطاع الصليبيون الغربيون أن يزرعوا في بلاد المسلمين على الرغم منهم مملكة

قوية هي مملكة بيت المقدس ، وأن يقيموا عددا من الإمارات لدعم وجودهم الصليبي في الشرق الإسلامي ، فأقاموا إمارة الرها ثم إمارة أنطاكية ، ثم إمارة طرابلس •
وقد استطاعوا أن يؤسسوا مملكة بيت المقدس وتلك الإمارات الثلاث فيما يقرب من عشر سنين ، بينما لم يستغرق إنشاء مملكة بيت المقدس وإمارتي الرها وأنطاكية سوى قريب من سنتين •
ونود في هذه الصفحات أن نتعرف على مملكة بيت المقدس وعلى تلك الإمارات ، وعلى أشهر حكامها وأبعادها الجغرافية والسياسية •

أولا : مملكة بيت المقدس

سقطت بيت المقدس في أيدي الصليبيين في الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٤٩٢ هـ - ٢٢ من يوليو ١٠٩٩ م ، والنزاع قائم بينهم حول من يحكمها ؟ أو حول نوع حكومتها منهم ؟ أ تكون حكومة دينية تابعة للكنيسة ، أم تكون حكومة ملكية وراثية ؟
غير أن الملوك والأمراء تغلبوا على رغبة البابا وكنيسته وجعلوا بيت المقدس مملكة ، فما ان تولى جودفري يوايون حكم بيت المقدس حتى أعطى بذلك لفرسانه حجة في أن يصروا على أن يظل حكمها ملكيا ، كراهية في البطرق الذي كان يتولى بيت المقدس ووقفا في وجه أطباعه •

ولما توفي جودفري سعى عدد من الأمراء إلى تولية أخيه بلدوين أمير الرها الذي كان قد عين أميرا للرها سنة ١٠٩٨ م ، فما إن جاءت الرسالة للحضور إلى بيت المقدس سبتمبر ١١٠٠ م حتى حضر إليها في نوفمبر ١١٠٠ م • وتوج ملكا على بيت المقدس في ديسمبر ١١٠٠ م •

وقد كان بلدوين من أقوى ملوك الصليبيين الذين حكموا بيت المقدس ، وقد استطاع أن يستولى على الشواطئ الفلسطينية التي تواجه مملكته ، فنجح في الاستيلاء على

أرسوف وقيسارية سنة ١١٠١ م ، ثم حيفا ويافا ، واتجه نظره إلى أهم الثغور والموانئ على البحر المتوسط وهى : عسقلان وصور وعكا وصيدا وبيروت . . .
وقد استولى على عكا فى سنة ١١٠٤ م - ٤٩٧ هـ وسريعا ما استولى على سائر هذه الثغور بسهولة ما عدا عسقلان التى أضنته هى وصور .
وتعاقبت على مملكة بيت المقدس فى الفترة التى خضع فيها للصليبيين أكثر من عشرة ملوك . غير أن أشهرهم وأكثرهم عملا وتثبيتا للصليبيين فى بيت المقدس كان بلاشك بلدوين الأول شقيق جودفرى ثم بلدوين الثانى .
وقد اتسعت مملكة بيت المقدس جغرافيا لتشمل إقليم ما وراء الأردن شرقا ، وبيروت وصيدا وصور وسكاندليون وعكا وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان - من الشمال إلى الجنوب - غربا ، وهونين وتبنين شمالا وحبرون وغزة والداروم جنوبا .
بل امتدت فى بعض الأحيان لتشمل دمشق وبصرى وعمان من جهة الشرق .
وشيدت قلاع على الطرف الجنوبى لهذه المملكة .
أما من الناحية السياسية فكان ملك بيت المقدس أبرز الملوك الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، بل كان فى أغلب الأحيان ، هو السيد لكل الأمراء الصليبيين .

ثانيا : إمارة الرها

كانت الرها - وهى من مدن ما بين النهرين - فى أيدي المسلمين منذ فتحوها فى سنة ١٨ هجرية - ٦٣٩ م وظلت فى أيديهم حتى سنة ٤٩١ هـ أى ما يقرب من خمسة قرون ، ثم استطاع الصليبيون أن يحتلوها فى الحملة الصليبية الأولى .
بل كانت أول إمارة أسسها الصليبيون فى الشرق الإسلامى ، وكانت درعا وقى الصليبيين هجمات السلاجقة من فارس والعراق ، وأول أمير لها هو بلدوين الأول الذى اختير ملكا لبيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفرى ، ثم خلفه عليها ابن عمه بلدوين دى بورج بعد أن توج بلدوين الأول ملكا لبيت المقدس .

وقد استطاع بلدوين دى برج أن يعزز وجوده وحكمه للرّها بأن استعان بابن عمته جوسلين إذ منحه حكم جميع أراضى إمارة الرّها غربى الفرات بما فيها تل باشر - مركز جوسلين - ودلوك عند مفرق الطرق بين حلب ومرعش والرّها ، وعين تاب إلى الجنوب الشرقى من دلوك .

فأصبح جوسلين الرجل الثانى فى إمارة الرّها .

ورأى بلدوين الثانى فى سبيل تعزيز إمارته أن يتوسع على حساب الأتراك فى الموصل وديار بكر ، فاستولى على سروج من حاكمها الأرتقى بك بن بهرام وكانت سروج ثانى مدينة فى الرّها .

وتولى إمارة الرّها زمن أسر بلدوين الثانى تنكرد لمدة أربع سنوات ، ثم دار النزاع بينهما على إمارة الرّها ، وكان سكان الرّها خليطاً من الأرمن والمسيحيين والفرنجة والمسلمين ، فأخذ كل منها يستعين بطائفة على بقية الطوائف ، وكان أن استعان بلدوين بالصليبيين وعادى الأرمن فكان لهؤلاء تأمر عليه فطردهم من الرّها .

وقد هاجم المسلمون الصليبيين فى الرّها مرتين سنتى ٥٠٤ و ٥٠٥ هـ بقيادة مودود أتابك الموصل ولكنه لم يوفق فى إستعادتها .

ثم انتقلت إمارة الرّها إلى جوسلين بعد أن أصبح بلدوين دى بوج ملكاً على بيت المقدس باسم بلدوين الثانى ، ثم خلفه ابنه جوسلين الثانى ثم استولى عليها المسلمون سنة ٥٣٩ هـ بقيادة عماد الدين زنكى .

واشتملت إمارة الرّها وهى فى حكم الصليبيين - جغرافياً - على جميع الأراضى الواقعة غربى الفرات ، وفى شرقى الفرات كانت أهم المدن التابعة للرّها سروج - وأغلب سكانها من المسلمين - وسميساط على الضفة المقابلة للفرات ، وقلعة بيرة على نهر الفرات .

ومن الناحية السياسية كانت الرّها وقاية للصليبيين من أى هجوم يقع عليهم من السلاجقة فى العراق أو فى بلاد فارس .

ثالثا : إمارة أنطاكية

تقع أنطاكية على نهر العاصى عند سفح جبل سيلبيوس ، وقد فتحها المسلمون سنة ١٦ هجرية - ٦٣٧ م ، وهى من أهم المراكز التجارية لوقوعها عند ملتقى الطرق الممتدة من الفرات إلى البحر المتوسط ، ومن البقاع إلى آسيا الصغرى .

وقد خضعت للإمبراطورية البيزنطية بعد أن ظلت فى أيدى المسلمين ثلاثمائة واثنين وثلاثين عاما ، إذ سقطت فى أيديهم سنة ٣٥٩ هـ - ٩٦٩ م .
ثم عادت للمسلمين سنة ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م وظلت مع المسلمين حتى استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ - ١٠٩٨ م .

وظلت فى أيدى الصليبيين حتى سنة ٦٦٧ هـ - ١٢٦٨ م ، حيث استعادها المسلمون فى ذلك التاريخ وهم يقيمون أظفار الصليبيين ويستردون منهم البلاد التى استولوا عليها ، ولا تزال مدينة إسلامية حتى اليوم .

وبعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية وأصبح بوهمند أميرا لها ثم تنكرد ، ظلت أنطاكية حصنا يقف فى وجه السلاجقة حينما وفى وجه البيزنطيين حينما آخر .
وكانت اللاذقية فى حكم البيزنطيين بعد أن سقطت من حكم المسلمين سنة ٤٩١ هـ إلى أحد القراصنة المدعو - وفار البولونى - ثم سقطت منه إلى الصليبيين البيزنطيين سنة ٤٩٢ هـ .

وكان لابد للصليبيين الأوربيين من الاستيلاء على اللاذقية لما لها من أهمية فى الإشراف على وادى نهر العاصى ، ومنه أنطاكية نفسها . لذلك حاصروا اللاذقية سنة ٤٩٣ هـ - ١٠٩٩ م ولكنهم تراجعوا عنها عائدين إلى أنطاكية بعد إنذار ريموند الصنجلى .

وكان للصليبيين الأوربيين عدة قلاع مثل زردنا وسرمين ، واستطاعوا أن يضيفوا إليها برج الحاضر قرب قنسرين ، وكفرطاب ، وشيزر ، ولما تولى تنكرد إمارة أنطاكية حرص على

أن يوسع حدودها على حساب البيزنطيين من جانب وعلى حساب المسلمين من جانب آخر .

فقد اهتم تنكرد بالاستيلاء على اللاذقية وقليقية من البيزنطيين ، والجزء الأوسط من وادي نهر العاصي من المسلمين .

وقد استطاع تنكرد أن يستولى على المصيصة وأذنه وطرطوس وهي المدن الرئيسية الثلاث لهذا الإقليم .

ثم استولى على اللاذقية في سنة ٤٩٧ هـ - ١١٠٣ م وبذلك أصبح لإمارة أنطاكية واجهة عريضة على البحر فضلا عن ميناء بحري يربطها بالغرب .

ثم عاد بوهيمند إلى إمارة أنطاكية بعد أن أطلق المسلمون سراحه ، ثم أخذ يعمل على توسيع إمارته على حساب المسلمين الذين أطلقوا سراحه بالأمس فعاون بلدوين دى بورج على حصار حران ، وإن كان المسلمون قد تغلبوا على الصليبيين في تلك المعركة فأسروا بلدوين وجوسلين ، بينما فر بوهيمند لكنه لم يسكت وإنما حارب المسلمين من جديد وإن لقي على أيديهم هزائم عديدة .

ولما تولى أنطاكية تنكرد بعد رحيل بوهيمند إثر نزاعه مع البيزنطيين استطاع أن يستولى من المسلمين على أرتاح ثم استولى على فامية من الباطنية وكفرطاب .

ثم استولى على بانياس - بين أنطرطوس واللاذقية - كما استولى على جبلة وعلى حصن بكسراثل ثم على حصن الأثارب .

ثم هلك تنكرد وتعاقب على حكم أنطاكية عدد من الأمراء منهم روجر الأنطاكي الذي توسع كثيرا على حساب المسلمين حتى إنه احتل مدينة حلب فترة من الزمن ، ثم استولوا على حصن المرقب في الجنوب الشرقي من بانياس .

وهكذا أصبحت إمارة أنطاكية في أيدي الصليبيين خطرا حقيقيا يهدد المسلمين ، كما استطاعت أن تكون حصنا منيعا يرد عن الصليبيين كل عدو يهددهم من المسلمين أولا ومن البيزنطيين ثانيا .

أما من الناحية الجغرافية فإن إمارة أنطاكية شملت وادي نهر العاصى فكانت درعا للصليبيين من الشرق ، وامتدت في هذا الشرق عندما دخلت فيها حلب وقنسرين ، وامتدت في الشمال الغربى حتى قيليقية ، وانضم إليها في زمن الصليبيين ثغر السويدية ، ثم أهم ثغرها وهو اللاذقية ، ومن الثغور التي تبعتها بانياس وطرطوس وهى بذلك كانت كلها حصنا للصليبيين ، استطاع أن يرد عنهم هجمات المسلمين من الشرق ، ومن الشمال الشرقى ، كما رد عنهم هجمات البيزنطيين من الشمال الشرقى ومن الشمال .

أما من الناحية السياسية ، فإن إمارة أنطاكية كانت مستقلة بنفسها عن بيت المقدس حينما من الزمان ، ثم ضمت إلى مملكة بيت المقدس حينما ، وتبع طرابلس أو تبعتها طرابلس في بعض الفترات .

وكانت على وجه الإجمال من أهم الإمارات الصليبية في الشرق الإسلامى من ناحية ، ومن أقدمها من ناحية أخرى .

رابعاً : إمارة طرابلس

طرابلس في أصلها القديم ميناء على البحر المتوسط شاملاً لبنان تبعد عن بيروت حوالى تسعين كيلومتراً .

وقد فتحها المسلمون سنة ١٧ هجرية - ٦٣٨ م . وظلت ميناء إسلامياً ومدينة إسلامية حتى اغتصبها الصليبيون سنة ٥٠٣ هـ - يوليو ١١٠٩ م وبقيت في أيدي الصليبيين حوالى مائة وثمانين عاماً ، حيث استطاع الجيش الإسلامى أن يستعيدها سنة ٦٨٨ هـ - ١٢٨٩ م .

وكانت طرابلس قبيل الغزو الصليبي في ملك بنى عمار ، وكان الصليبيون يطمعون فيها ويبدلون كل جهد من أجل استقرارهم في هذا الثغر الهام من ثغور المسلمين . وقد حاول وليم جوردان - في سبيل الوصول إلى طرابلس - أن يستولى على عرقة ، فهاجمها ولم تستطع الحامية الإسلامية التي فيها أن تدافع عنها .

وعلى الرغم من استنجد حامية طرابلس بطفتكين في دمشق واستجابته لذلك ، فإن الصليبيين استطاعوا أن يستولوا على عرقة بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع في سنة ٥٠١ هـ - إبريل ١١٠٨ م .

واستمرت جهود وليم جوردان في الاستيلاء على طرابلس ، ونافسه في ذلك برتراند الابن الأكبر لريموند الصنجلي والذي كان يطالب تنكرد بنصيب أبيه في أنطاكية . وما هو إلا زمن يسير حتى تحالف تنكرد مع وليم جوردان ، بينما طلب برتراند حماية بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، وكان جميعهم في ذلك الوقت على أبواب طرابلس منهم من جاء يحارب كبرتراند وملك بيت المقدس ووليم جوردان ، ومنهم من جاء يفاوض ويرجع جانباً على جانب كتكرد ، وبلدوين دى بوج أمير الرها .

وتم الصلح بحكمة من ملك بيت المقدس بين تنكرد وبلدوين دى بوج من ناحية وبين برتراند ووليم جوردان من ناحية أخرى .

وكانت نتيجة هذا الصلح أن يستولى وليم جوردان على عرقة وانطرطوس وأن يستولى برتراند على قلعة صنجيل وجبيل وطرابلس عند فتحها ، وهكذا قسم من لا يملك على من لا يستحق .

وتوحدت جهود الصليبيين للاستيلاء على طرابلس ، ولم يكن في إمكان المسلمين في طرابلس أن يواجهوا تلك التجمعات الصليبية التي تهاجمهم ، فقد تجمعت ضدهم قوى بيت المقدس وبروفانس وأنطاكية والرها بالإضافة الى أسطول بحرى جنوى ، فلم يسه طرابلس إلا أن تستسلم لتلك الجموع وسقطت المدينة في أيدي الصليبيين في أواخر ذى الحجة من عام ٥٠٢ هـ - ١٢ يوليو ١١٠٩ م .

وأصبح برتراند « برترام » أمير طرابلس ، ولكنه - لكى يحمى نفسه من الصليبيين الطامعين في طرابلس - أعلن تبعيته لملك بيت المقدس .

غير أن ماهو جدير بالذكر أن إمارة طرابلس في حكم الصليبيين ولدت ضعيفة، فلم يكن في مكانة أنطاكية ولا الرها، وذلك أن استيلاء برتراند عليها في الوقت الذي استولى فيه

وليم جوردان على عرقة وأنطربوس ، كان بمثابة تمزيق لإقليم واحد هو إقليم طرابلس ، وبما زاد هذا الإقليم تمزقا أن وليم جوردان أعلن ولاءه لإمارة أنطاكية بينما وليم جوردان كان تابعا لبيت المقدس ، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، فمجرد مقتل وليم جوردان ، استطاع برتراند ضم جميع الممتلكات البروفنسالية في الشام لسيادته ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت إمارة طرابلس في مكانة أنطاكية والرها من إمارات الصليبيين في الشرق الإسلامي .

وباستيلاء الصليبيين على طرابلس أمنوا لهم طريقا إلى دمشق لا تقوم فيه العوائق أو الجيوش الإسلامية .

ولا يستطيع الناظر في أحوال الصليبيين في الشرق الإسلامي أن ينكر أن استيلاء الصليبيين على طرابلس ، جعلهم يملكون في بلاد المسلمين أربع إمارات واسعة الرقعة موحدة الاتجاه إلى حد كبير ، هي مملكة بيت المقدس والرها وأنطاكية وطرابلس . وبعد برتراند تولى ابنه بونز - الذي تزوج سيسيل أرملة تنكرد مما زاد التقارب بين أنطاكية وطرابلس .

وكانت خطة بونز التوسع شرقا على حساب المسلمين بمهاجمة ممتلكات حمص ودمشق ، واستطاع بونز أن يشيد حصنا صليبيا منيعا في بعين كما استطاع أن يستولى على رمنية . وأصبحت بعين فيما بعد ذلك بقليل من القلاع المنيعات التابعة لإمارة طرابلس . وظلت طرابلس إمارة صليبية حتى استطاعت الجيوش الإسلامية أن تستعيدها من غاصبها سنة ٦٨٨ هـ - ١٢٨٩ م حيث عادت إلى أصحابها الشرعيين ، وزال عنها الاحتلال الصليبي إلى غير رجعة حتى الآن .

وقد اتسعت إمارة طرابلس - جغرافيا - فاشتملت على مناطق عديدة فامتدت شمالا حتى حصن المرقب ، وامتدت من الجنوب إلى نهر الكلب . وامتدت على شاطئ البحر المتوسط غربا إلى بعين ورفنية ، وامتدت شرقا إلى حصن الأكراد وعكا .

أما من الناحية السياسية فإن هذه الإمارة بتبعيتها حيناً لمملكة بيت المقدس ،
وموالاتها لأنطاكية ، فإنها كانت بمثابة الرباط الجيد الذي ربط بين الصليبيين في الشرق
الإسلامي .
فضلا عن كونها من أهم الثغور التي أمدت الصليبيين بالأمداد والأعوان على البحر
المتوسط .



هـ - إخراج الصليبيين من الشرق الإسلامى أو: بداية النهاية

باتحاد مصر والشام وقيادة المماليك الشجعان ، وتسكهم بدينهم ، أصبح الوجود الصليبي في الشرق الإسلامى مهددا بالضياح ، وأن للمسلمين أن يستردوا كرامتهم قبل أن يستردوا أرضهم وديارهم •

ولقد علم الغزو الصليبي للعالم الإسلامى ، المستنيرين من المسلمين حكاما ومحكومين أن لا قبل لهم بمواجهة أعدائهم إلا متحدين في ظل دينهم ، مجاهدين في سبيل الله وهم يخوضون حروبهم ، فما من معركة انتصر فيها المسلمون على الصليبيين إلا كان شعار المسلمين فيها الجهاد في سبيل الله والاستعانة بالله على عدوه •

بدا هذا واضحا في انتصارات عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، والملك الصالح نجم الدين ، والمظفر قطز ، والسلطان بيبرس •
وذاك درس للمسلمين من ذلك الماضى ينفعهم في حاضرهم وفي مستقبلهم وهم يواجهون أى صراع مع أى عدو من أعدائهم •

وبعد : فكيف انتهى الوجود الصليبي من الشرق الإسلامى ؟
ذلك ما نحب أن نختم به حديثنا عن الحملات الصليبية ، فنقول وبالله التوفيق :
بعد هذه الانتصارات التى حققها المسلمون على الصليبيين بقيادة بيبرس وقائديه :
فلاوون الذى جاء معه من مصر والملك المنصور الأيوبي حليفه ، أخذ الصليبيون يبحثون عن مخرج من هذه الأزمات ، وحمل عبء هذا البحث ، الملك هيو الثالث ملك قبرص -
الأملى الأخير للصليبيين - فحاول أن يعقد هدنة مع بيبرس - كما فعل بوهمند السادس صاحب طرابلس - ثم اتجه هيو الثالث للحصول على حملة أوربية صليبية لحرب المسلمين ، واتجه كذلك إلى التحالف مع المغول ضد المسلمين لغزو مصر والشام •

غير أن بيبس كان حصيفا يدرك أن أى معاهدة من الصليبيين ماهى إلا فترة عجز عندهم ، ويوم يقدررون يكون نقضهم لهذه المعاهدات عملا جليلا - من وجهة نظرهم - فكان حذرا ، لا يهادنهم إلا إن كان فى هذه الهدنة مصلحة له ولجيوش المسلمين ، ولهذا كان بيبس خيرا من بعض الحكام المسلمين الذين يثقون فى معاهدات الصليبيين ومواريقهم .

وفعلا وصلت إلى عكا حملة صليبية من قبل ملك أرغوة بقيادة ولديه غير الشرعيين ، ثم جاءت من فرنسا الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع مرة ثانية متجهة أولا إلى تونس ثم تواصل سيرها إلى الشام أو مصر . غير أنها فشلت وتوفى لويس التاسع سجين المنصورة دون أن يحظى بسجن آخر فى مصر أو فى الشام .

غير أن حملة ملك أرغوة لم تستطع أن تعطل شيئا هيو الثالث ولا للصليبيين ليقظة بيبس وسرعة حركته ، فقد سارع بيبس فى مهاجمة إمارة طرابلس فاستولى على صافينا من الداوية ، ثم على حصن الأكراد من الاسبتارية وكان ذلك فى سنة ٦٦٩ هـ - ١٢٧١م . وفى نفس العام استولى بيبس على حصن عكا وحصن القرين .

واتجه بيبس لغزو قبرص تأديبا لها على العدوان على بعض السفن الإسلامية وإن كانت العواصف على شاطئ قبرص حالت بين جيوش بيبس وبين اقتحام الجزيرة .

وكان من بعد نظر بيبس - وهو يقلم أظافر الصليبيين - أن حاول القضاء على الباطنية الذين كانوا حلفاء للصليبيين ، يدفعون لهم إتاوات كل عام ، ففى إحدى معاهدات بيبس مع الاسبتارية أجبرهم على الامتناع من أخذ هذه الإتاوات من الباطنية « الحشيشية » وأصحاب حماة وشيزر وفاميه وآلت أموال الباطنية إلى بيت مال المسلمين فى مصر ، ثم عزل قائدهم نجم الدين الشعرانى ثم قضى على حصونهم ومعاقلمهم وأقطعهم بديلا عنها فى مصر .

وفى مايو ١٢٧١م وصلت إلى عكا حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد وحاول إدوارد أن يحالف المغول ضد المسلمين ونجح فى مسعاه ، واتسعت آمال إدوارد إلى الاستيلاء على مصر ، والاستيلاء على القسطنطينية .

غير أنه أدرك ألا قبل له ببيبرس فعقد معه هدنة دخل فيها هيو الثالث ، ثم عثر إدوارد على نهايته بخنجر من أحد الباطنية أصابه بمرض أجبره على الرحيل فغادر عكا سنة ٦٧٢ هـ سبتمبر ١٢٧٢م عائدا إلى بلاده .

وكذلك أصيب هيو الثالث بالفشل فقرر العودة النهائية إلى قبرص سنة ٥٧٦ هـ - ١٢٧٦م .

ومع هذا الإحساس الصليبي بالفشل في مواجهة الممالك ، ثم تحالف أوربي صليبي مغولي لمواجهة المسلمين ، ومن أجل ذلك عقد مجمع ليون سنة ٦٧٣ هـ - يوليو ١٢٧٤م . وحضره من قبل أبغا بن هولاكومبعوثان تم تعميدهما على المذهب الكاثوليكي ، وكان هدف هذا المجمع تكوين حملة صليبية أوربية ، غير أن هذا الهدف لم يتحقق .

وأصر بيبرس على معاقبة المغول ، فأغار على بلاد السلاجقة في الأناضول - وكانوا في حماية المغول - واستطاع أن يبدد الجيش المغولي عند أبلسين سنة ٦٧٧ هـ - إبريل ١٢٧٨م واحتل قيصرية في نفس الشهر وخطب له على منابرها وأصبح وريث سلاطين السلاجقة في حكم الأناضول .

ولما توفى الظاهر بيبرس ١٢٧٧م وتولى بعده ابنه السعيد بركة ثم العادل سلامش على التوالي ، ولكن قلاوون استطاع أن يستولى على السلطنة لنفسه في سنة ٦٧٨ هـ - ديسمبر ١٢٧٩م .

ولم يسكت المغول على الممالك فأعد أبغا جيشا كثيفا خرج به من الجزيرة في سنة ٦٨٠ هـ - سبتمبر ١٢٨١م وشاركه أخوه منكوتيمور وانضم إليهما ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى .

وزحف هذا الجيش حتى وصل أمام حمص حيث يربط جيش المسلمين بقيادة قلاوون ودارت معركة انتصر فيها المسلمون على هذا التجمع الصليبي المغولي انتصارا ساحقا . وفي سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥م استولى قلاوون على حصن المرقب فقوض بذلك أركان

الصلبيين بالشام . وقد قال أبو الفداء عن الاستيلاء على هذا كان « يوما مشهودا أخذ فيه الثأر من بيت الاسبتار ، ومحييت آية الليل بآية النهار »^(١)

ولم يضيع السلطان قلاوون الوقت في ملاحظة العدو أو تسويفه وإنما اتجه بكل قواه للإجهاز على الصليبيين في الشرق الإسلامي ، فأرسل حملة بقيادة حسام الدين طرنتاي استولت على اللاذقية آخر ما تبقى في أيدي الصليبيين من إمارة أنطاكية سنة ٦٨٦ هـ - إبريل ١٢٨٧ م .

وفي سنة ٦٨٨ هـ - فبراير ١٢٨٩ م جهز جيشا للاستيلاء على طرابلس فاستولى عليها في إبريل سنة ١٢٨٩ م .

وفي سنة ٦٨٩ هـ - أغسطس ١٢٩٠ م انجبت حملة إيطالية إلى عكا لتعزيز الصليبيين ، ولم تكد هذه المجموع تصل إلى عكا حتى عبرت عن حماسها الديني بمهاجمة المسلمين ممن يعملون بالفلاحة في عكا ثم ذبحوا التجار المسلمين ، وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون فطلب تسليم المذنبين ، وفي الوقت نفسه استعد للقضاء على عكا ومن فيها من الصليبيين .

فعمد لقائده سنقر الأعسر بالاستعداد للحرب في الشام ، وما إن انتهى قلاوون من الاستعداد لغزو عكا حتى وافاه أجله سنة ٦٨٩ هـ - نوفمبر ١٢٩٠ م ففرح الصليبيون في موته ووطنوا أن الخطر قد زال عنهم ، ولكن ابنه خليل بن قلاوون استطاع أن يقضى على مؤامرة ضده قام بها حسام الدين طرنتاي ، وتفرغ للعمل ضد الصليبيين وأصر على الاستيلاء على عكا .

وكان من استعداده أن جمع قوى المسلمين وطلب منهم موافاته عند عكا ، وفرض السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حصارا حادا على عكا في سنة ٦٩٠ هـ - إبريل سنة ١٢٩١ م .

وتجمع الصليبيون من مختلف أنحاء اتهم للدفاع عن عكا ، وأنضم إليهم هنري الثاني

١ - د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية : نقلا عن : المختصر لأبي الفداء : حوادث سنة ٦٨٤ هـ .

ملك قبرص الذى حاول التفاهم والتعاهد مع السلطان خليل ولكن جهوده باءت بالفشل ، وكذلك حاول معظم أمراء الصليبيين التفاوض مع السلطان خليل ولكنه كان يأبى لإدراكه طبيعة الصليبيين وحبهم للغدر .

وشدد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الحصار على عكا ، فاستسلمت عكا آخر معاقل الصليبيين فى الشرق الإسلامى فى سنة ٦٩١ هـ - مايو ١٢٩١ م .

وواصل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون القضاء على مابقى لدى الصليبيين من حصون ، فاحتل صور فى نفس الشهر الذى استسلمت فيه عكا ثم استولى على صيدا وحيفا وانطرطوس وعثليت آخر ما فى أيدي الصليبيين من بلاد المسلمين فى نفس العام الذى إستولى فيه على عكا .

وبجهود السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وتوحيده جهود المسلمين أصبح الشام كله من قيليقية شمالا حتى غزة جنوبا ، وأصبح جو العالم الإسلامى وأرضه لأبنائه فقط دون دخلاء أو غاصبين .

وهذا انتهى الوجود الصليبي الذى استمر مايقرب من قرنين من الزمان ذاق فيها العالم الإسلامى مرارة الهزيمة مرات ومرات .



٤ - الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب

أسرنا في مستهل حديثنا عن الدوافع التي حركت الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي ، إلى الدافع الديني وأوضحنا العمل الذي قامت به الكنيسة وبابواتها على مدى قرنين من الزمان ، تكيد للإسلام والمسلمين ، وتعلن غفرانها ذنوب المشاركين في هذا الغزو لبلاد المسلمين .

كما أسرنا إلى الدافع السياسي ، وفصلنا القول فيه ووصلناه وربطنا هناك بين الغزو الصليبي للأندلس المسلمة والغزو البيزنطي للعالم الإسلامي ثم توسعنا في الغزو الأوربي الغربي للعالم الإسلامي ، وعدنا - ونحن نتحدث عن هذا الدافع إلى الحديث عن الكنيسة وأثرها في هذه الحروب ، ثم حددنا الدول الأوربية التي شاركت في هذا الغزو ، وتحدثنا عن المشهور من هذه الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي ، وكيف بأت هذه الغزوات بالفشل إزاء تنبيه المسلمين إلى أمرين هامين كانا سبب الانتصار بعد إرادة الله عز وجل ، هذان الأمران بدأ بهما عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ، ثم أكدهما صلاح الدين الأيوبي وجرى على منواله فيها خلفاؤه ، وزاد المهالك هذين الأمرين تأكيدا واهتماما . . . هذان الأمران اللذان حركا المعركة إلى صالح المسلمين ومكناهم من طرد الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي إلى غير رجعة - ولا يزال هذان الأمران قادرين على أن يمكننا المسلمين من الانتصار على عدوهم - هما :

جعل المعركة جهادا في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، لأن هذا الهدف حين يكون أمام أعين المجاهدين في سبيل الله تهون أمامه الأنفس والأموال ، ويسرع بالمسلمين إلى إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة في سبيل الله سبحانه ، والفرق واضح بين هذا الهدف الذي يخوض المسلمون من أجله معركة ، وبين أى هدف آخر من حرص على أرض أو مال أو . . . كان هذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثاني فخوض المسلمين المعركة وهم وحدة وجماعة وأمة إسلامية واحدة ،
فليس يسع العدو كائنًا ما تكون قوته أن يواجه جيوشًا موحدة القيادة موحدة الهدف موحدة
الصفوف •

وهذا الذى حدث للمسلمين وهم يقاتلون الغزاة من الصليبيين يوم اتحدوا مجاهدين في
سبيل الله خرج مذموما مدحورا •

أشرنا إلى ذلك كله في الدوافع السياسية لهذا الغزو الصليبي ، ونود أن نتحدث في هذه
الصفحات من الكتاب عن الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب ، فنقول :
إن الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب لا تقل أهمية عن الدوافع الدينية أو
الدوافع السياسية ، فالمجتمع الأوربي في ذلك الوقت كان يعيش ظروفًا اجتماعية شجعت
بطريقة أو بأخرى على أن يستجيب للمشاركة في هذه الحروب ، كما كانت الظروف
الاقتصادية التي تمر بأوروبا آنذاك تجعل المشاركة في هذه الحروب مخرجًا من ضوائق
اقتصادية تخنق المجتمع الأوربي ، فإذا أضيف إلى الاضطراب الاجتماعي والمعاناة
الاقتصادية تشجيع الكنيسة ودفع الظروف السياسية للناس ليخوضوا هذه الحروب عرفنا
كيف تشابكت هذه الدوافع وتعاونت تسوق أمامها دول غرب أوروبا لخوض هذا الغزو
الوحشي للعالم الإسلامي •

فما هي الدوافع الاجتماعية التي شجعت أوروبا على خوض هذه الحروب ؟
لعل الإجابة على هذا السؤال توجب علينا أن نتعرف على تركيب المجتمع الأوربي
من الناحية الاجتماعية • حيث نجد المجتمع الأوربي - فيما أطلق عليه العصور الوسطى -
يتكون من فئات اجتماعية ثلاثة :

- أ - فئة رجال الدين : كنسيين وديرين ، وهم قلة من حيث العدد •
- ب - فئة المحاربين : نبلاء وأمراء وفرسان وهم قلة كذلك •
- ج - فئة الفلاحين : رقيق الأرض والأجراء ، وهم الأكثرية الساحقة في المجتمع
الأوربي آنذاك •

ولقد تباينت هذه الطبقات في الحقوق والواجبات إلى حد يلفت النظر فبينما تحظى الطبقتان الأوليان بالاحصر له من المزايا الاجتماعية والسياسية تحرم الطبقة الثالثة من أى حقوق ولا تعرف في الحياة الاجتماعية سوى الواجبات •

بل إن التباين بلغ حد الاختلاف في الشكل والملبس •
ولنلق ضوءاً على هذه الطبقات :

أما رجال الدين من الكنسيين فهم القساوسة والأساقفة الذين عاشوا حياة أقرب في نظامها الاجتماعي إلى حياة الناس فتزوجوا وأنجبوا وأطلق عليهم : رجال الدين العلمانيون •

وأما رجال الدين من الديريين فهم الذين عاشوا عيشة مختلفة عن حياة الناس فتجاهلوا طبائعهم فلم يتزوجوا وأثروا العزوبة ، وأطلق عليهم : رجال الدين النظاميون •
وفي القرن الثالث عشر الميلادي اشترط على الكنسيين أن يحيا حياة الديريين •
ورجال الدين من الداخل طبقات كذلك : أعلاها رتبة البابا وله السيطرة على رجال الكنيسة جميعا •

وبعد البابا في المنزلة طبقة الكرادلة وهم مجموعة تختار من كبار الأساقفة وهم مستشارو البابا ووزرائه •

وتنقسم الكنيسة من الداخل إلى أسقفيات واسعة يشرف على كل منها أسقف يتولى شئون الكنيسة فيها •

وتنقسم كل أسقفية إلى أبرشيات ، يشرف على كل أبرشية منها قس ، وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها - العصور الوسطى - كان القس يحيا حياة أحسن بكثير من حياة الفلاحين ولكنها بالضرورة دون حياة النبلاء الإقطاعيين •

وكان القس يرأس كنيسة ، بينما الأسقف يرأس كاتدرائية في المركز الرئيس لأسقفيته •

وللأسقف من الحقوق والمميزات ما ليس للقس ، كما يتميز البابا على الجميع •

وأما رجال الحرب من النبلاء والفرسان فهم طبقة خاصة متميزة لا يمكن أن يرقى إليها
أى فرد من طبقة الفلاحين مهما اتسع تراثه أو تعددت مواهبه أو كان حرا لاعبدا . فهى
طبقة مغلقة على نفسها .

وهؤلاء النبلاء كان يفصلهم عن سائر المجتمع شرف المولد أولا وسعة الثراء وملكية
الأرض ثانيا ، وجودة النشأة والتدريب على الفروسية ثالثا .

وكان للنبيل أو الفارس أتباع يأترون بأمره بل يموتون فى سبيله أحيانا كما كان أفراد
طبقة رجال الحرب يتميزون بنبيلهم هذا وسعة ثرائهم وملابسهم التى لا يجوز لغيرهم أن
يرتدى مثلها .

وكان لكل نبيل تابع « فصل » وعدد من الخدم ، هم فى الغالب من إقطاعه العاملين
فى أرضه ومزارعه ومصانعه ، وهو بهذا يكون جيشا يتبعه ، صغيرا كان ذلك الجيش أو
كبيرا - حسب إمكانات هذا النبيل الإقطاعى .

وكانت الحياة الحافلة هى حياة الحرب والمناوشة والاستيلاء على أموال من هو أضعف
ناصرا وأقل جندا ، فإذا وضعت هذه الحروب أوزارها فالحياة كاسدة راكدة .

أما طبقة الفلاحين فكانت تتكون من نوعين من الناس : فلاحين أحرار يعملون لدى
النبلاء أو أصحاب الإقطاع ويتبعونهم تبعية أدبية .

وفلاحين عبيد أرقاء مقيدى بالأرض علاقتهم بأصحاب الأرض علاقة العبد بسيده ،
وكان هذا الصنف من الفلاحين هم الأكثرية الساحقة .

وأما معيشة هؤلاء الفلاحين فكانت فى أكواخ قذرة يبتنونها من جذوع الأشجار
ويغطون سقفها بالطين والقش ولا نوافذ لها ، ولاتضاء لأن الشموع كان استعمالها
مقصورا على النبلاء والسادة .

على أن طبقة من الفلاحين المرتبطين بضيعة السيد أو إقطاعه أطلق عليهم أفتان لا
هم بالأحرار ولا هم بالعبيد وإنما هم بين بين ، لا يملكون مغادرة الضيعة ولكنهم لا يبيعون

كالعبيد ، ولا يستطيعون تملك شئ كالأحرار ولكنهم يتمتعون بقليل من الحقوق التى يسمح له بها سيده فيختلف فى ذلك عن العبيد •
ولقد كان الفلاحون أحرارا وعبيدا وأقناناً مسخرين لخدمة السيد الإقطاعى كيفما شاء على أنماط ثلاثة من التسخير :

الخدمات : فى فلاحة الأرض أو شق الطرق أو غيرها وكانت هذه سخرة الأقنان ، والمقررات : وهى ضرائب ومكوس تفرض على الرءوس سنويا للسيد صاحب الضيعة ، وكانت رمزا للعبودية ، فضلا عن ضرائب على إنتاج الأرض والماشية ، والاحتكارات : وذلك أن السيد هو مالك المصنع أو الطاحونة أو المعصرة أو المخبز أو البئر والفلاح ملزم بأن يتعامل مع هذه المصانع لهذا السيد دون سواها ، ولا يملك واحد من الفلاحين أن تكون له طاحونة ولو يدوية لأن ذلك جرم يعاقب عليه •

تلك هى الطبقات التى يتكون منها المجتمع الأوروبى فى فترة الحروب الصليبية وتلك هى العلاقات التى تربط بين هذه الطبقات •

ولكى تتكامل صورة النظام الاجتماعى نود أن نشير إلى مكانة المرأة فى هذا المجتمع ، فقد كان وضعها يجعلها دائما تحت وصاية رجل : أبيها أو زوجها أما الأرامل فتكون تحت وصاية سيدة أو أكبر أبنائها •

أما الكنيسة فكانت تنظر للمرأة على أنها شريكة آدم التى حرضته على المعصية والخطيئة فهى فى نظر الكنيسة مهينة محتقرة من هذه الزاوية ، بينما من زاوية أخرى تنظر الكنيسة إلى المرأة على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح فهى محترمة فى نظرها من هذه الزاوية ، وذلك التناقض الذى وقعت فيه الكنيسة فى النظر إلى المرأة أدى إلى اضطراب فى معاملة المرأة •

وبصورة مجملة فإن المجتمع الأوروبى كانت غالبية العظمى تعيش ذلا وهوانا وضياعا للقاعدة العريضة من الناس ، لذلك عندما دعت الكنيسة لهذه الحروب ، كانت تلك الجموع أسرع إلى الاستجابة لتلك الدعوة ، هروبا من تلك المعاناة والحياة الشاقة ، لأن

الحروب وما تجره من متاعب كانت في نظرهم أقل خطرا مما يحتملون في ظل هذا التفارق الطبقي البغيض ، بل لقد كانوا يحسون أن الموت في هذه الحروب ربما كان أفضل من تلك الحياة التي يحبون .

وهكذا فإن الظروف الاجتماعية في المجتمع الأوربي كانت من الدوافع الهامة للحروب الصليبية .

تلك هي الدوافع الاجتماعية ، فها هي الدوافع الاقتصادية التي دفعت المجتمع الأوربي إلى هذا الغزو الصليبي الذي شنته أوروبا على العالم الإسلامي ؟

تتمثل الدوافع الاقتصادية للحروب الصليبية ، في سوء الأحوال الاقتصادية في أوروبا في ذلك الوقت ، سوءا بلغ الغاية من الاضطراب والاختلال .

فقد ذكر عدد من مؤرخي هذه الفترة - العصور الوسطى - أن الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا - وبخاصة فرنسا - قد ساءت إلى حد المجاعة قبيل الحروب الصليبية .

يؤكد ذلك المؤرخ المعاصر: جيوبرت نوجنت Guibert Nogent حيث يقول : إن فرنسا بالذات كانت تعاني مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فندر وجود الغلال وارتفعت أنماؤها ارتفاعا فاحشا ، مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز .

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين في الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أى بلد آخر من بلدان غرب أوروبا .^(١)

ومما ساعد على ازدياد الحالة الاقتصادية سوءا كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، فلم تكن لحياتهم فائدة إلا بالحروب ، وقد بلغت هذه الحروب من الضراوة والاتساع حدا أعجز الكنيسة عن أن توقفها ، كما أعجز ملوك أوروبا عن إيقافها .

وهذه الحروب أضرت بالتجارة مادتها وطرقها ، وبالزراعة عماها وحقوقها فأصبح الناس في تلك المجاعة التي يصفها بعضهم فيقول : إن الناس في تلك الآونة أكلوا الأعشاب والحشائش .

١ - د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٣٤/١ .

ولم يكن أمام الناس والحالة هذه إلا التعلق بالهجرة إلى مكان آخر يتخلصون فيه من هذا العناء ، فلما انطلق النداء بالحروب الصليبية لى الناس مسرعين ، وكان معظم الذين ضمتهم الحملة الأولى من الفقراء والفلاحين وقطاع الطرق وطريدى القوانين ، ولعل ما قامت به هذه الجموع وهى فى طريقها إلى الشرق الإسلامى من عدوان ونهب وسلب يوضح لنا إلى أى حد كانت هذه الجموع تعاني من الفقر والحاجة والضياع .

فإذا أضفنا إلى هذا العامل الاقتصادى الذى دفع الناس إلى الحروب الصليبية : عاملا آخر هو ماكان من تنافس تجارى بين مدن ثلاثة اشتهرت فى أوروبا بأنها تعيش على التجارة وهى : البندقية وجنوا وبيزا ، وأن أهل هذه المدن سارعوا للمشاركة فى هذه الحروب بحثا لهم عن أسواق جديدة بعد أن كسدت سوق أوروبا إلى حد كبير ، وما قامت به فى هذا المجال من مساعدة للجيش الصليبية فى نقلها بأساطيلها عن طريق البحر ، ومن إمداد لهذه الجيوش بعد أن تصل إلى الشرق الإسلامى بالسلاح والطعام ، بل إن بعض المؤرخين يقولون إن هذه المدن لم تقدم تلك الخدمات حبا فى الدين ولا استجابة لنداء الكنيسة ، وإنما قدمته طمعا فى تحقيق المكاسب على حساب الكنيسة والصليبيين جميعا .^(١)

إذا أضفنا هذا العامل التجارى إلى ماسبق تبين لنا أن الدوافع الاقتصادية لهذه الحروب لم تكن أقل تأثيرا من غيرها من الدوافع الدينية والسياسية والاجتماعية . بل كيف نبرى كل المشتركين فى هذه الحروب وعلى رأسهم الكنيسة من المطامع الاقتصادية فى الشرق الإسلامى ، وتلك كلمة البابا أيربان الثانى فى خطبته المشهورة المحرصة على الحروب وهو يعد الناس ببلاد الشرق الإسلامى التى تفيض لبنا وعسلا كما تقول التوراة ؟

وبعد :

فهذه هى دوافع الحروب الصليبية كما بدت لى من خلال قراءة لظروف هذه الحروب أرجو أن أكون قد وفقت فيها إلى الصواب .

الْبَابُ الثَّانِي

العالم الإسلامي في مواجهة الصليبيين

..

..

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

الباب الثانى

العالم الإسلامى فى مواجهة الصليبيين

ويتناول :

- ١ - ظروف العالم الإسلامى جملة .
- ٢ - الدول الإسلامية التى واجهت الصليبيين وهى :
 - أ - مسلمو الأندلس .
 - ب - العباسيون .
 - ج - الفاطميون .
 - د - السلاجقة .
 - هـ - الأيوبيون .
 - و - المماليك .
- ٣ - فلول الصليبيين وقضاء العشائين عليهم .

١ - ظروف العالم الإسلامي جملة

كان العالم الإسلامي في تلك الآونة - فترة الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا على الشرق الإسلامي - يعيش ظروفًا ، أبسط ما توصف به أنها ظروف اضطراب أدى إليه الانقسام ، والفرقة التي كانت واضحة لكل ذي عين .

وإذا كان الأصل في العالم الإسلامي أن يكون أمة واحدة ، وقيادة واحدة فإنه كان في تلك الآونة بالذات أكثر ما يكون انقسامًا في القيادة وفرقة في الاتجاه .

فالخلافة العباسية في بغداد تقلص نفوذها ، وطمع فيها قوادها وأمرؤها ، بل استبدوا بها حتى أصبح الخليفة صورة لا حقيقة ، وأصبحت الخلافة شكلًا لا جوهرًا .

ولقد استمرت الخلافة العباسية مظهرًا لوحدة المسلمين وقوتهم أكثر من قرنين من الزمان ، بلغ فيها المسلمون في السياسة شأوا بعيدا ، ثم بدأ الضعف يدب في الخلافة فتقسمت دولتها دولا صغيرة .

ولقد كان العالم الإسلامي آنئذ يعاني من مظاهر عديدة للفرقة والانقسام وتوزع البلاد بين المغامرين من القواد والأمراء ، فضلا عن الخلاف في الرأي الذي أدى إلى كثير من السلبات في وحدة الفكر بين المسلمين .

ونستطيع أن نحدد ظواهر ثلاثة من تلك الظواهر نجعل الحديث فيها موضحا لأبعاد هذه الظواهر الزمانية والمكانية في اختصار لا يجرنا إلى ما شتمت عليه هذه الظواهر من محتويات سياسية أو دينية أو ثقافية .

وأول هذه الظواهر :

ظاهرة الدول المسلمة التي لم تكن تابعة لدولة الخلافة العباسية .

ففى زمن باكر نسبيا من تاريخ الخلافة العباسية ، يوم لم يكن قد مضى على قيام الدولة إلا مائة وثلاثين عاما تقريبا ، وبالتحديد فى عام ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م • استطاع السامانيون أبناء نصر بن سامان أن يستقلوا عن الدولة العباسية ببلاد ماوراء النهر وخراسان ، وكان ذلك خروجا عن سلطة الخلافة العباسية أسهم دون شك فى إذهاب هيبتها •

وفى أخريات القرن الرابع الهجرى وبالتحديد فى سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م استطاع الغزنويون أبناء سبكتكين ملوك غزنة أن يقيموا دولة فى أفغانستان وبنجاب ، واستطاع السلطان محمود بن سبكتكين أن يفتح الهند ، ثم استطاع الغزنويون أن يرثوا أملاك السامانيين ، وأن يمدوا سلطانهم على تركستان وطبرستان وسجستان ، وأقاموا دولة قوية ، ولكن لاتربطها بالدولة العباسية رابطة سياسية ، مما أسهم كذلك فى تقليل شأن الخلافة العباسية •

وفى آخر القرن الثالث الهجرى سنة ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م أخذت الدعوة للفاطميين تؤتى ثمارها فى اليمن والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب العربى ثم استطاع عبيد الله المهدي - بعد معاناة - أن يصل الى رقادة فى المغرب وأن يقضى على نفوذ الأغالبة هناك وأن يتخذها مقرا لإمارته وأن يبطل اسم الخليفة العباسى من الخطبة •

وظل نفوذ الفاطميين يتسع حتى جاء عليهم وقت كانت دولتهم تمتد من أقصى المغرب العربى إلى جزء كبير من المشرق العربى ، بحيث كان فى حوزتها المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر والحجاز كله واليمن وشمال الحجاز إلى فلسطين وحوارن وحمص وحلب إلى جبال طوروس •

وتولى هذه الخلافة الفاطمية أربعة عشر خليفة كان أولهم المهدي أبو محمد عبيد الله وآخرهم العاضد أبو محمد عبد الله الذى أسقط حكمه الأيوبيون فى مصر •

وفى عام ٤٣٩ هـ استطاع الصليحيون فى اليمن بقيادة رائدهم على بن محمد الصليحي أن يستعيد النفوذ للفاطميين فى اليمن بعد أن كان أهل السنة قد قضاوا على

النفوذ الفاطمي في اليمن . وكاتب الخليفة الفاطمي المستنصر في ذلك . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد عمّت كل أرجاء اليمن . واتخذ علي بن محمد الصليحي صنعاء عاصمة له وشيد في اليمن القصور والدور وظل هذا النفوذ حتى قضى عليه صلاح الدين الأيوبي .

وكان هذا إضعافا لشأن الدولة العباسية دولة الخلافة وإظهارا لها ولخلفائها بمظهر من غلب أمره .

وفي المغرب ظهرت الدعوة الموحدية على يد عبد المؤمن بن علي سنة ٥٢٦ هـ وكان هدف هذه الدعوة أمرين :

القضاء على دولة المرابطين . وإخضاع القبائل المغربية للدعوة الموحدية واستطاع عبد المؤمن أن يقضى على دولة المرابطين سنة ٥٤١ هـ فاستولى على المغرب كله . ثم اتجه إلى بلاد الأندلس وأخضع جانبا كبيرا منها لسلطانه . وكان لأسرة عبد المؤمن هذه صراع مع الصليبيين في الأندلس . فغزوا طليطلة وغنموا منها وأسروا من النصارى عددا كبيرا . كما استولت جيوش الموحدين على شنترين ولشبونة .

وفي عصر يوسف بن عبد المؤمن كان أبو بكر بن طفيل . وابن رشد . والوزير أبو بكر بن زهر .

ووقفت دولة الموحدين سداً منيعاً ضد أطماع الصليبيين في الأندلس حتى ضعف شأنهم واضطربت أحوالهم وكثرت في بلاد الموحدين الفتن . حتى انتهت هذه الدولة على أيدي أهل الفتنة في سنة ٦٦٧ هـ

ولقد بلغ من قوة هذه الدولة أن استنجد بها صلاح في حرب الصليبيين في المشرق وإن كان خليفة الموحدين آنذاك يعقوب المنصور لم يستطع أن يلبي طلب صلاح الدين بسبب اضطراب أحوال بلاده وتربص الصليبيين به .

تلك أول الظواهر التي أردنا أن نتحدث عنها في هذا المجال . مما نؤكد به ضعف الخلافة العباسية وقيام دول عديدة لم تكن تابعة لها في العالم الإسلامي .

أما الظاهرة الثانية فهي :

سيطرة بعض القواد والأمراء على الخلافة العباسية •

بدأ ضعف الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المتوكل ، أى بعد مائة عام فقط من قيام الدولة ، وكان لذلك أسباب كثيرة من أبرزها ابتعاد بعض خلفاء بنى العباس عن آداب الإسلام وخلقياته ، ومنهجه في قيادة الناس ، الأمر الذى أدى بشكل مباشر إلى كثير من السلبيات التى أسرعت بالفساد إلى الأمة وجعلتها في فرقة وانقسام ، فضلاً عما أدت إليه من ظهور كثير من البدع والآراء المتطرفة البعيدة عن الإسلام ، حيث كثر الملاحدة والزنادقة كالراوندية والحرمية وأصحاب المقالات •

كما كثرت طوائف المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم ، كل ذلك أضعف هبة الخلافة وأطمع المغامرين من القواد ممن قريهم الخلفاء واعتمدوا عليهم في السيطرة على الخلافة والخلفاء •
وقد اعتمدت الدولة العباسية في عهد المتوكل وما قبله - وبخاصة عهد المعتصم - على الأتراك ، بعد إقصاء الفرس ، حتى إن المعتصم لما رأى شر الأتراك قد تفاقم والشكوى من أفعالهم قد عمت ، بنى لهم مدينة سرّ من رأى « سامراء » وجعل منها عاصمة بديلة لبغداد •

أما عندما تولى المتوكل فقد كان نفوذ الأتراك قد زاد وخطرهم قد استفحل فحاول المتوكل أن يقلل من هذا النفوذ ، حتى إنه فكر في نقل مقر الخلافة إلى الشام والاعتماد على العرب بدلاً من الترك •

غير أن الترك عاجلوه وقتلوه غيلة وولوا ابنه المنتصر الذى يقال إنه تأمر معهم على أبيه بسبب ولاية العهد ، ولم تهنأ الخلافة للمنتصر ، فقتل بمؤامرة تركية كذلك حيث سمه طيبه ابن طيغور باتفاق مع الترك • ثم ولوا المستعين ثم قتلوه وولوا المعتز ، ثم قتلوا المعتز وولوا المهتدى أخيه ثم مالبثوا أن قرروا حبسه وتعذيبه حتى الموت ، ثم بايعوا المعتمد على الله ، ثم قهروه وحجروا عليه وأعطوا السلطة لأخيه الموفق •

وهكذا ظلت أمور الدولة في أيدي قواد الترك يولون ويعزلون ويقتلون ويغدرون ، ولم يصبح للخلافة ولا للخليفة شئ من المهابة أو النفوذ .

وقد أدى ضعف الخلافة إلى أن ينشق عنها عدد من الدول الصغيرة في بلاد فارس كالدولة الطاهرية والصفارية والسامانية ، ودولة الديلمة ، ثم قامت دولة بنى بويه .

وأخذ نفوذ بنى بويه يتسع ، وأخذت سيطرتهم على الخلفاء تزيد ، وبدءوا يمارسون خلع الخلفاء وتولييتهم ، فألت إليهم مقاليد الحقيقة للدولة ودانت لهم فارس والعراق وبرزخ منهم نجوم كعضد الدولة وصمصام وبهاء الدولة وسلطان الدولة وغيرهم . فلما كان جلال الدولة دان معظم العالم الإسلامى لبنى بويه على الرغم من اختلاف بعضهم مع بعض ، واختلافهم مع الجنود ، وأصبح الخليفة العباسى غير مرعى الجانب فى أى أمر من أمور الحكم والخلافة .

وظل بنو بويه يسيطرون على الخلافة العباسية منذ عام ٣٣٤ هـ إلى أن استطاع أن يحل محلهم السلاجقة فى السيطرة على الخلافة العباسية فى سنة ٤٤٧ هـ

وعلى الرغم من محاولات عدد من الخلفاء العباسيين على وقف هذا النفوذ البويهى فى الدولة بأن يقوم بالإصلاحات التى من شأنها أن تعطى للدولة هيبتها فإن هذه المحاولات باءت فى كثير من الأحوال بالفشل ، وأدت فى أحيان أخرى إلى أن تذهب حياة الخليفة ثمنا لهذه المحاولات .

ذاك شأن الأتراك ونفوذهم على دولة الخلافة العباسية . وهذا شأن البويهيين فى قضائهم على شخصيات الخلفاء .

أما السلاجقة ، فقد كان ظهورهم على مسرح الأحداث منذ سنة ٤٢٩ هـ عندما استولى طغرلىك بن ميكائيل بن سلجون على مرو حاضرة خراسان ، وذكر اسمه فى خطبة الجمعة بلقب ضخم - يدل على غفلة وبعد عن التدبير ، بل يدل على ملق ونفاق - إذ لقب : بملك الملوك .

وقد استطاع طغرليک هذا أن يهزم الغزنويين في سرخس ، ثم استولى على نيسابور ، ثم استولى في سنة ٤٣٣ هـ على جرجان وطبرستان ثم على خوارزم ثم همذان ، ثم على بلاد الديلم وكرمان ، وبعد سنوات استولى على أصفهان •

وقد استعان الخليفة العباسي القائم بطغرليک وقلده وخلع عليه وتوجه وخاطبه بملك المشرق والمغرب •

ومنذ ذلك الحين ظهر أمر السلاجقة وأصبحوا أصحاب السطوة والنفوذ في الخلافة العباسية والمتصرفين في كل مايتبع هذه الخلافة من بلاد وعباد •

ولقد حدث صراع بين البساسيري أحد قواد بني بويه والخليفة العباسي فحبس البساسيري الخليفة وقهره •

ثم دار الصراع بين البساسيري - البويهى - وطغرليک ، كانت نهايته لصالح طغرليک واستطاع أن يخرج الخليفة من محبسه ، وأن يعيده إلى قصره ، وقتل البساسيري وحمل رأسه إلى بغداد •

وظل طغرليک يحكم الخلافة العباسية أكثر من سبع سنين ، ثم تعاقب سلاطين السلاجقة في حكم الدولة العباسية ، ولابد أن نشير هنا إلى أن السلاجقة كانوا يدينون بمذهب أهل السنة وهو مذهب الخلفاء العباسيين بينما كان البويهيون على مذهب الشيعة ، ولعل ذلك يفسر الرضا من الخلفاء العباسيين عن السلاجقة ، والثقة فيهم •

ولما تولى ملكشاه بعد وفاة أبيه ألب أرسلان اتسع ملكه إلى حدود الصين شرقا إلى بلاد الشام غربا ومن الشمال إلى أغلب البلاد الإسلامية ومن الجنوب إلى اليمن ، وأدى له أباطرة الروم الجزية ويسمى هذا العصر : العصر السلجوقي الأول •

وكان عصر ملكشاه العصر الذهبي للسلاجقة ، وتولى السلاجقة السلطنة بعد ذلك ، ولكن لم يكن لهم من المنعة والقوة ماكان لهم في عصر ملكشاه ، إذ دب بينهم الخلاف وترصدتهم المشكلات ، فجاء من بعد ملكشاه ولده سنجر ثم أخوه محمود ثم أخوه بركياروق

ثم أخوه محمد ثم ابنه محمود ، ويسمى المؤرخون هذا العصر السلجوقي بعصر السلاجقة العظام .

وبانتهاء هذا العصر انتهى عصر السلاجقة الحقيقي وبدأت تنقسم أملاكهم بيوت أخرى كالأتابكة الذين كانوا في الأصل مربين لأبناء سلاطين السلاجقة ، فقد استغل هؤلاء الأتابكة الخلافات الناشئة بين سلاطين السلاجقة وتحكموا في الولايات والإمارات وهؤلاء الأتابكة هم أصحاب أتابكية كينا وماردين ، وأتابكية دمشق ، وأتابكية دانشمند ، وأتابكية الجزيرة والموصل وسورية وأذربيجان .

كما شارك في قسمة أملاك السلاجقة الشاهات الذين ولاهم السلاجقة بعض الولايات مثل شاهات خوارزم ، وشاهات أرمينية .

وقد ظل هؤلاء الذين ورثوا سلطنة السلاجقة يسيطرون على الخلافة العباسية سيطرة شبه كاملة ، حتى إنهم استقلوا بأطراف عديدة من دولة الخلافة العباسية .

أما الظاهرة الثالثة ، فهي ظاهرة الحركات الدينية والسياسية التي مزقت العالم الإسلامي في تلك الفترة التي نتحدث عنها .

وأول هذه الحركات الحركة الفاطمية التي قامت على أساس المذهب الشيعي المخالف لمذهب أهل السنة - مذهب الخلافة العباسية - وكانت الحركة الفاطمية أمًا لكل الحركات السياسية والدينية المناهضة للدولة العباسية ونحب أن نشير هنا إلى بعض هذه الحركات . وأهم هذه الحركات حركة القرامطة :

وقد سبقت حركة القرامطة في الوجود حركة الراوندية الذين عبدوا أبا جعفر المنصور ، ولكن أبا جعفر قضى عليهم - وهم أصلاً من الفرس - فاعتبرهم أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني ، ولكن سرعان ماظهروا من جديد على يد المقتنّع الخراساني الذي ادعى الألوهية ، وزعم أن الله خلق آدم فتحوّل في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة إبراهيم . ثم في صورة محمد صلى الله عليه وسلم ثم في صورة أبي مسلم الخراساني ثم في صورته (المقتنّع)

وامتدت هذه الانحرافات لتظهر في صورة الحركة الحزمية التي اشتد أمرها في عهدي
المأمون والمعتصم .

كل ذلك سبق الحركة القرمطية ، ثم بدا في الأفق ظهور حركات غلاة الشيعة في الفترة
التي نتحدث عنها وهي ثلاث حركات :
القرامطة والدروز والنصيرية .

أما القرامطة فقد ظهرت حركتهم عام ٢٨٩ هـ - ٩٠١ م بزعامة رأسهم الداعية
الإسماعيلي حمدان الملقب « قريظي » أي أحمر العينين . وانتشرت هذه الحركة في اليمن
سنة ٢٩٢ هـ - ٩٠٤ م على يد علي بن الفضل الحميري ومنصور بن حسن الكوفي ، وقد
نجح علي بن الفضل في الاستيلاء على ذمار وصنعاء سنة ٢٩٤ هـ - ٩٠٦ م وتغلب على
جيوش الخليفة الهادي العباسي ، ويقال إنه ادعى النبوة بعد هذا النجاح ، ثم مات مسموماً
ولكن دعوته بقيت في اليمن وتنقلت إلى غيره من أجزاء العالم الإسلامي .

وكان لهم في بلاد الشام وفي البحرين وفي شرقي الجزيرة العربية وفي الحجاز وجود
ملحوظ ، وقد حاربهم الفاطميون في أكثر من موقعة ، واستطاعوا هزيمتهم هزيمة منكرة في نهر
الطواحين بالقرب من الرملة وكان يقودهم الحسن الأعصم .

وبعد هذه الهزيمة انتقلوا إلى أوال حيث انتقم منهم أبناء أبي طاهر ، وبعد ذلك رجعوا
إلى دعوة العلويين ومحاربة بني العباس^(١) ، وظلوا موالين للفاطميين إلى أن زالت دولتهم
من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ ثم من البحرين سنة ٤٧٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر
الفاطمي . وكان الذي أجهز عليهم هم أهل السنة بقيادة السلاجقة حيث اتبعوهم إلى
الأحساء وقضوا عليهم القضاء الأخير .

وهكذا ظلت حركة القرامطة قرابة قرنين من الزمان مصدر قلق واضطراب للعالم
الإسلامي كله - عباسيين وفاطميين ، بما يشيرون من إلحاد وكفر .

١ - ابن خلدون : تاريخه : ٩١/٤ .

أما الدرّوز - وهم من غلاة الشيعة كالقرامطة - وقد كان بدء ظهورهم في أوائل القرن الخامس الهجرى ، وينسبون إلى درزى محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٤١٠ هـ - ١٠١٩ م . وإن كان المؤسس هو حمزة بن على الزوزنى الذى اتخذ من الدرزى تلميذا وداعية له .

وهى حركة تقوم على نظرية الحق الملكى المقدس - تأليه الحاكم - ولما رحل حمزة إلى مصر واتخذ التلاميذ والدعاة دعا إلى تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٤٠٨ هـ بحجة أن روح الله قد انتقلت إلى الحاكم بأمر الله عبر الأنبياء عليهم السلام ثم على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وكان لهم في مصر نشاط وأتباع . ومن عجب أنهم لقوا عطفا من الحاكم بأمر الله !!! وقد سلك الدرزى في تأييد ألوهية الحاكم مسالك عديدة وصلت إلى حد تأليف الكتب في هذا الموضوع وشرع في قراءتها على طلاب العلم في الأزهر ولكنه ووجه بسخط الخاصة والعامة . الأمر الذى جعل الحاكم بأمر الله يتراجع عن تأييده له ولدعوته .

ولا يزال للدرزية وجود حتى الآن في لبنان وسورية . وقد كانوا مصدر قلق للعالم الإسلامى لما انطوت عليه حركتهم من زيف وكفر وفساد .

أما النصيرية - وهم من غلاة الشيعة أيضا - ومواطنهم جبل النصيرية وهو جزء من جبل لبنان وتنتد شرقا إلى حمص وحماة وحلب وشمالا إلى ماوراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول . ولا يزال لهم وجود حتى الآن وإن كانوا قد سمو « العلويين » حديثا .

ورأسهم هو الفقيه الشيعى محمد بن نصير المتوفى سنة ٢٦٠ هـ وهو من أتباع الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر عند طائفة الإمامية الاثنى عشرية .

والنصيرية ملحدون خارجون على الإسلام في اعتقادهم بالتجسد واعتقادهم بخلود ثلاثة من البشر هم : على رضى الله عنه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وسلمان الفارسى رضى الله عنه . ويرمزون لهم بالحروف ع . م . س .

وهم كفرة باعتقادهم أن عليا الإله ، وأنه الكائن الأسمى والنور المشع الذى ينبعث
عن فيضه محمد صلى الله عليه وسلم •
وهم حركة ضالة أزعجت العالم الإسلامى فى تلك الفترة التى نتحدث عنها ولا تزال
مصدر قلق واضطراب فى سوريا ولبنان حتى الآن •

وهناك حركة النزارية - وهم جماعة من الباطنية أو الإسماعيلية - كان رأسهم الحسن
الصباح الذى سافر إلى الخليفة المستنصر الفاطمى فى مصر فأكرمه فأخذ يدعو إلى نزار
الابن الأكبر للخليفة ، وخرج من مصر مارا بالشام والجزيرة وديار بكر ثم استقر فى
خراسان ، واستطاع أن يستولى على قلعة « الموت » ثم على عدد من القلاع الحصينة •
ونادوا بإمامة نزار بن المستنصر فسموا النزارية نسبة إلى نزار أو الحشاشين أو الحشيشية
نسبة إلى ماكانوا يتعاطونه من مخدر فى مرحلة من مراحل تطويعهم لهذه الدعوة •

وكان هدفهم محاربة أهل السنة ، والتعليم عندهم عن الإمام المعصوم أو نائبه ، وتأويل
القرآن بما يتفق مع ميوهم السياسية ، وكان لهم مراتب ونظم وعهد وخطوات يمر بها المدعو
حتى يصل إلى خطوة الخلع بخلعه من مذهب أهل السنة عنه وإسقاط الفرائض الشرعية
عنه •

وظلت هذه الحركة مصدر خطر فى العالم الإسلامى مدة بزعامة الحسن الصباح لها
ومدة زعامه خليفته « ألكيابزر وابنه محمد ، والحسن الثانى ومحمد الثانى وجلال الدين
حسن وعلاء الدين محمد أى من سنة ٤٨٨ هـ - إلى سنة ٦٥٣ هـ حيث قتل آخرهم ركن
الدين خورشاه •

ويسمون الطور الأول من دعوتهم طور الستر الأول من ٤٨٨ هـ إلى ٥٥٩ هـ

وبابعدده يسمونه طور الأئمة من ٥٥٩ هـ إلى ٦٥٣ هـ • ولم ينته أمرهم عند هذا وإنما
يرون أن طور الستر الثانى بدأ سنة ٦٥٥ هـ إلى سنة ١٢٣٣ هـ بظهور الإمام النزارى
محمد بن حسين الملقب بأغان خان ، وقد ساعده الانجليز فى الاستيلاء على أفغانستان ،

وبعد وفاته سنة ١٣٠٣ هـ ١٨٨٥م تولى بعده أغاخان محمد شاه ، جد صدر الدين بن على أغاخان المعروف في عصرنا هذا .

ومن هذه الحركات المنحرفة التي أقلقَت العالم الإسلامي آنذاك :
الدعوة الطَّيِّبِيَّة في اليمن : حيث نادى أنصار الدعوة الفاطمية في اليمن بأبى القاسم بن الخليفة المستعلى ونقلوه إلى بلادهم ولقبوه الإمام الطيب ، وبذلك أسسوا الدعوة الطيبية في اليمن . ثم امتد نفوذهم إلى مصر التي خرجت منها الفكرة ، ونقشت الدنانير باسمه في الاسكندرية سنة ٥٢٥ هـ وكان نقشه :

« أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين الإمام محمد »
وقد دعوا إلى إمام مستور ، وظلت تعمل في الخفاء في بلاد اليمن ، وأيدهم الصليحيون حيناً ، وأتباعها ظلوا يمارسون دعوتهم إلى نهاية القرن السادس الهجري ، وقد سُمي أتباعها فيما بعد بالبهرة الذين ينتظرون الإمام من أبناء الطيب ، وهم يشبهون الخوجات أتباع أغاخان في الانتظار للإمام وإن كان البهرة ينتظرونه من أبناء الطيب بينما ينتظره الخوجات من أحفاد نزار بن المستنصر .

ومما أَلَمَ بالعالم الإسلامي من حركات منحرفة عن الجادة ، الدعوة المرابطة فهذه الدعوة وإن بدأت دعوة دينية تقوم على إحياء روح الجهاد في المسلمين وإن كان أمراؤهم مجاهدين في سبيل الله سبحانه ، وقد أقاموا عملهم على أساس المرابطة في الثغور والأماكن التي يخشون فيها من أعداء المسلمين أقول على الرغم من نبل الغاية وسلامة الوسيلة أولاً ، إن هذه الحركة قد أخذت تتجه اتجاها مغايراً ، إذا أصبح الرباط في شمال إفريقيا يمارس فيه فقهاء المالكية الدفاع عن مذهب الإمام مالك مع دعوة الناس إلى التعبد والزهد .

ثم اتجه بعض دعاة الحركة إلى اعتزال الحياة بحجة أنها فسدت وأصبحت فوضى ، واتجهوا نحو هذه الرباطات ينقطعون فيها للعبادة أى ينقطعون عن الحياة .
ثم تحولت هذه الرباطات إلى مراكز عسكرية همها كفاح المذاهب الأخرى .

نعم كان الفضل لهم في نشر الإسلام في كثير من بقاع أفريقية السنغال والسودان وغيرهما ، وبرز منهم يحيى بن إبراهيم الجدالي وعبد الله بن ياسين والأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني وكانوا مخلصين في العمل للإسلام .

ومن أهم ملوكهم يوسف بن تاشفين الذي استنجد به ملوك الطوائف بالأندلس بعد استيلاء ألفونس السادس على طليطلة ، فأنجدهم وأوقع بالصليبيين هزيمة منكرة في معركة شهيرة هي معركة الزلاقة .

ولقد عاشت حركة المرابطين من سنة ٤٤٥ هـ إلى سنة ٥٤٢ هـ ، ولكنها كانت انشقاقا عن وحدة المسلمين وتفريقا لصفوفهم ما في ذلك شك .

وكذلك قامت حركة الموحدين بالمغرب ، قادها محمد بن تومرت وقد بدأها في مكة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وكانت مكة آنذاك خاضعة للحكم الفاطمي ، فندد ابن تومرت بسوء حال المسلمين في حكم الفاطميين ، ثم اتجه إلى الشام ثم إلى مصر مقر الفاطميين ، فطارده الفاطميون فركب البحر واتجه إلى المغرب .

وهناك أقام دعوته على أساسين : تأويل متشابه القرآن والحديث مع تشديد الفكر على علماء المغرب من المالكية لعدم أخذهم بالتأويل ، مما جعله يقوم بتدريس علم التوحيد لتوضيح مذهبه ، أما الأساس الثاني لدعوته فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهناك التقى ابن تومرت بعبد المؤمن ورضيه خليفة له في زعامة الموحدين واعتقد ابن تومرت أنه وأتباعه الموحدون حقا ، وعرض بدولة المرابطين ورماتهم بالكفر والتجسيم وأحل قتالهم .

وقد بدأ ابن تومرت - بعد أن استقر بهرغة - يجهر بآرائه في التوحيد وتجمع حوله من الطلاب عدد كبير فطلب منهم مبايعته على التوحيد ، ثم مهد للخطوة التالية وهي المهدوية فأخذ يذكر لتلاميذه الأحاديث الشيعية عن المهدي المنتظر ، ثم أخذ البيعة لنفسه على أنه المهدي المعصوم المنتظر مدعيا أنه من نسل النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخذ ابن تومرت يوسع نطاق دعوته بإخضاع القبائل المجاورة . ثم خلفه عبد المؤمن الذى تغلب على المرابطين وملك قرطبة وغرناطة والأندلس . وقد بلغت الدولة أوجها فى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ هـ) الذى انتصر على الصليبيين فى معركة الأراك سنة ٥٩١ هـ

وقد ظل نفوذ هذه الدولة من سنة ٥٢٥ هـ حيث أقاموا دولتهم إلى سنة ٦٦٨ هـ حيث استولى المرينيون على مراكش .

وهكذا كانت دولة الموحدين مظهرا من مظاهر انقسام المسلمين وتفتت وحدتهم الفكرية من جانب ، والسياسية من جانب آخر .

وبعد : فلعلنا قد أوضحنا - فى إيجاز - ظروف العالم الإسلامى فى الفترة التى شنت فيها أوربا غزوها الصليبي على العالم الإسلامى . بما ذكرنا من تلك الظواهر الثلاث التى دلت على فرقة المسلمين فى الفكر وفى السياسة . الأمر الذى ساعد الغزاة على أن يحققوا انتصارات على المسلمين مكنتهم من الاستيلاء على كثير من بلدان المسلمين فى الشرق الإسلامى .

غير أن هذه الانتصارات كانت تتحول إلى هزائم بمجرد أن يتحد المسلمون تحت قيادة مخلص لدينه من قوادهم . كما رأينا فى تاريخ نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وعدد من قواد المماليك .

وإلى حديثنا عن الدول الإسلامية التى واجهت الصليبيين .

٢ - الدول الإسلامية التى وأجهت الصليبيين

على الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت بالعالم الإسلامى - نتيجة مباشرة للبعد عن الأخذ الكامل بمنهج الإسلام فى الحياة - فإن الدول الإسلامية - بما بقى فيها من اعتزاز بمنهج دينها - لم تستسلم لهذا الغزو الصليبي طالما فيها بقية من القدرة على المقاومة •

ولعل الميدان الوحيد الذى كسب فيه الصليبيون الجولة الأخيرة فى صراعهم مع المسلمين هو ميدان الأندلس المسلمة ، وربما كان لذلك من الأسباب ما جعل المسلمين يخسرون هذه المعركة خسارة مطلقة •

وسنحاول فى هذه الصفحات أن نتعرف بإيجاز على مواجهة المسلمين فى الأندلس للغزو الصليبي ، ثم نتعرف بإيجاز كذلك على صراع الدولة العباسية مع الدولة البيزنطية - قبل الحروب الصليبية المعروفة - ثم يتسع بنا القول فى الحديث عن مواجهة المسلمين للغزو الصليبي الأوربي للعالم الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، جريا على ما رسمناه لأنفسنا من خطة فى علاج موضوع الغزو الصليبي للعالم الإسلامى •^(١)

على أن الحديث عن مواجهة المسلمين للصليبيين - فى فترة الحروب الصليبية المعروفة ، سيتناول دولا إسلامية متعددة ، مثل الفاطميين فى مصر والشام ، والسلاجقة فى الشام والعراق وفارس ومن ورائهم خلفاء بنى العباس ، ثم الأيوبيين فى مصر والشام ، ثم المماليك فى مصر والشام كذلك ، حيث ينتهى الوجود الصليبي العسكرى فى العالم الإسلامى انتهاء مطلقا على أيدي المماليك فى نهاية القرن السابع الهجرى •

١ - انظر مقدمة هذا الكتاب : ص ٧ •

أ - مسلمو الأندلس

كان الوجود الإسلامى فى الأندلس امتدادا لفكرة نشر الإسلام فى العالم كله ، غداة استطاع المسلمون أن يؤدوا واجب الدعوة إلى الله ، بنقل البشرية كلها من ظلمات الشرك والكفر إلى نور التوحيد والإيمان •

وليس صحيحا - بحال - ما يذيعه بعض المؤرخين من أن المسلمين انطلقوا بهذا الدين من الجزيرة العربية فارين أو مهاجرين من الفقر والقمط ، مغامرين طامحين إلى الترف والغنى^(١) ، فلقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم الهدف من التوسع الإسلامى وهو دعوة الناس إلى هذا الدين ، فمن قبل منهم الدخول فيه فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن استبد به ضلاله ووقف فى وجه الحق والهدى يصد عن سبيل الله آذنه المسلمون بالحرب التى تستهدف إخضاع عباد الله لدين الله ومنهجه •

نلمس ذلك فى زمن باكر من حياة الإسلام فى كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء داخل الجزيرة العربية وخارجها يدعوهم إلى الإسلام ، ونلمسه بعد ذلك فى سياسة خلفائه الراشدين الهادين المهديين من بعده ، منذ أن وجه أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيشين إسلاميين للروم والفرس فى عام واحد هو عام ١٢ هجرى - ٦٣٣ م • ونلمسه كذلك فى سياسة عمر بن الخطاب رضى الله حينا وجه جيوش المسلمين إلى الشام والعراق ومصر •

ونلمسه كذلك فى سياسة عثمان بن عفان رضى الله عنه حيث اتجهت الجيوش الإسلامية لفتح برقة وطرابلس - المغرب - وإفريقية ، حيث حققت جيوش المسلمين أكبر نصر بحرى عرفه تاريخ البحر المتوسط فى وقعة ذات السوارى على الروم بقيادة ملكهم قسطنطين •

١ - ردد هذا أكثر من مؤرخ أجنبى ، ونقل عنهم هذا الباطل أكثر من مؤرخ مسلم •

فكل تلك الفتوح كان يحركها في نفوس المسلمين هدف واحد هو نشر هذا الدين بين الناس لنقلهم من الضلال إلى الهدى ، وسياسة المسلمين في تلك البلاد التي فتحوها أقوى شاهد على ذلك •

ولما كانت خلافة بنى أمية أصبح شال إفريقيا كله بلادا إسلامية خرجت من حضارة اللاتين إلى حضارة الإسلام ومن دين النصارى إلى دين الإسلام •

ثم اتجه الفتح الإسلامى صوب إسبانيا سنة ٩١ هجرية - ٧١٠م فما مضى عليهم إلا قليل حتى فتحوا إسبانيا ، ودانت شبه جزيرة الأندلس للحكم الإسلامى - على ما دب بين الحكام المسلمين فيها من خلاف - ثمانية قرون تقريبا • ومن سنة ٩١ هـ إلى سنة ٩٠٨ هـ - ٧١١م إلى سنة ١٥٠٢م •

وقد كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامى يسيطر عليها المذهب الكاثوليكي الكنسى ، وكان يسيطر القوط من الناحية السياسية •

وكان نفوذ الكنيسة كبيرا في تلك البلاد فقد عقد في طلبيلة المجمع السادس وأصدر قرارا بأن يقسم كل الملوك على أن لا يسمحوا بانتشار أى مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكي ، ثم صدر قانون يحرم على كل شخص أن يتطرق إلى ذهنه أى شك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة وفي النظم الإنجيلية وتفسير الآباء الروحانيين والمراسيم الكنسية والقرايين المقدسة - إذا ما صودرت أملاكه أو حكم عليه بالسجن المؤبد • وأصبح للأساقفة الحق في المصادقة على انتخاب الملك ، أو عزله إذا لم يرضخ لقرارات الكنيسة •

وعلى الرغم من كل هذا النفوذ الكنسى في إسبانيا ، فإنه ما مضى زمن وجيز على دخول المسلمين في إسبانيا حتى دخل الناس هناك في دين الله أفواجا ، نظرا لما في الدين الإسلامى من قدرة على جذب الناس إليه ، ولما في عقيدته من وضوح وبساطة ، ولما في منهجه من تسامح وإنسانية ، فمن كل طوائف الناس في الأندلس دخل عدد كبير في الإسلام ، من الفقراء والأغنياء من الأرقاء والسادة ، من النصارى واليهود •

دخلوا في الإسلام دون إكراه - كما كان ملوك إسبانيا يكرهون الناس على الدخول في المسيحية - بل انخرطوا في سلك العقيدة الإسلامية راضين بما تلزمهم به من واجبات وما تحتمه عليهم من بعد عن حياة الترف التي كانوا يعيشونها من قبل .

وأصبح في إسبانيا مسلمون من الإسبان أنفسهم حتى إنهم سموا أنفسهم بالحزب الوطني للإسبان المسلمين . « وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيي إسبانيا مبلغا عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدينة الباهرة ، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته ، وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم ، كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحا لإظهار بأسهم ، وما تكشف عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم »^(١)

هذا رأى أرنولد توماس ، وإن كان قد غفل عن الأسباب الجوهرية التي حبيت الإسبان في الإسلام ، كالعدل والمساواة وحسن المعاشرة وتنظيم الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكوم ، وبين الناس جميعاً

وما من شك في أن دخول الإسلام في إسبانيا قد أثار حفيظة الكنيسة إلى غير حد . كما أثار بعض الأمراء والنبلاء الأوربيين ممن كانوا يرقبون في إسبانيا الأحداث ويشهدون فيها هذا التحول العظيم .

كذلك أثار هذا التحول عددا من أمراء أوروبا المغامرين الذين هالهم أن تصبح إسبانيا - بما فيها من أماكن مقدسة للمسيحيين - على هذا النحو من تغلغل الإسلام فيها وفي أهلها ، فظل هؤلاء يتحينون الفرص لاسترداد الأندلس من المسلمين بالمؤامرات حيناً وبالحرث حيناً .

فلقد قامت في الأندلس أربع دويلات مسيحية هي : مملكة ليون ومملكة نافارى ، وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة ، ومن هذه الدويلات أخذ الخطر يحرق بالمسلمين في الأندلس .

فعمد القرن الأول الذي دخل فيه المسلمون الأندلس وبالتحديد سنة ١٦٢ هـ - ٧٧٨م جهز شارلمان امبراطور الغرب آنئذ جيشا لغزو المسلمين في الأندلس وقاد هو شخصيا

١ - أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام : ١٦٤ .

جانباً من هذا الجيش واستطاع أن يستولى على : هويسكا ، وبارشلونة ، وجيرون ، ثم قابله جيش المسلمين عند سرقسطة فأنزل به المسلمون فيها خسارة فادحة ، فراجع إلى بامبلون ثم وجد أن لا سبيل إلى البقاء في نافار فدمر حصون المدينة وعندما اخترق منعطف رونسوفو هاجمه جيش مسلم بقيادة مطروح وعيشون فمزقوا مؤخرة جيشه ، وقتل قائد جيشه كونت بالاتن ، كما قتل حاكم ثغر بروتانيا رولان ، صاحب الملحمة الشعرية المسماة أغنية رولان والتي جعلت منه بطلا أسطوريا .

وقد استمرت غزوات الفرنجة للأندلس المسلمة تتوالى مستغلة سوء الظروف السياسية لبعض الحكام المسلمين في الأندلس ، غير أن الحرب استمرت سجالاتاً بين المسلمين والفرنجة - الصليبيين - وإن كان عبد الرحمن الثالث استطاع أن يستولى على برشلونة وريبول ، ثم توصلت الجيوش الإسلامية إلى قلب كاتالونيا ، وأحرزت تقدماً على البحر ففتحت سردينيا وأنتيب وبيزا وأربونة إلا أن الخلافة في الأندلس أخذت تنقسم على نفسها ، فانتهاز الصليبيون هذه الفرص ، وفي أخريات القرن الرابع الهجري والقرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي تحالف بعض أمراء أوروبا على شن حملة صليبية على المسلمين في الأندلس قادها - في التحريض عليها والدعوة لها - البابا الكسندر الثاني ، فاجتمع جيش كبير من إيطاليا وآخر من فرنسا وانضمت إليهما جيوش من النورمانديين والاكيتانيين ، فتجمعت بذلك حملة كبيرة قادها دون الأكتيانين غي جوفرما تحت إمرة البابا .

وقد حققت هذه الحملة نجاحاً في البداية سنة ٤٥٦ هـ - ربيع سنة ١٠٦٤م غير أن المسلمين استطاعوا أن يهزموها وأن تعود مخففة .

ولم يسكت الصليبيون وإنما استطاعوا بقيادة ألفونس السادس أن يستولوا على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥م بمساعدة الفرنسيين ، غير أن المسلمين وقد استجاب لهم المرابطون استطاعوا أن ينزلوا بالصليبيين هزيمة منكرة في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦م .

ثم استطاع البابا إربان الثاني - مؤثر الحروب الصليبية ضد الشرق الاسلامى - أن يثير حربا صليبية ضد المسلمين في الأندلس . وكان هدف هذه الحرب الاستيلاء على وشقة في سرقسطة فاستولوا عليها وعلى غيرها ، وكان للفرنسيين في هذه الحروب نصيب موفور .

ولقد واكب الغزو الصليبي لإسبانيا المسلمة ذاك الغزو الصليبي للشرق الإسلامى في حملاته التى تحدثنا عنها في الباب الأول من هذا الكتاب مما يؤكد أن هذه الحروب المضادة للإسلام والمسلمين كانت تخطط لها الكنيسة ويديرها الأوربيون أمراء وملوك ومغامرون . وبعد انتصار المسلمين في الزلاقة شنت فرنسا حملة صليبية على المسلمين في إسبانيا فاستولوا على حدود نافار ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء على تطيلة وهكذا استمر الغزو الصليبي على المسلمين في الأندلس يوالى هجماته في حين أخذ أمر المسلمين في الأندلس يضطرب ، وكلمتهم تتفرق .

ونستطيع هنا أن نشير إلى الممالك النصرانية التى استطاع الإسبان أن يقيموها في الأندلس ، والتى ظلت تتعاضد مع مرور الأيام وضعف أمر المسلمين - ببعدهم عن منهج دينهم - حتى أدت في النهاية - على يد فرديناند وإيزابيلا - إلى إزالة الوجود الإسلامى من الأندلس ، على النحو التالى :

أولا :

إستطاع الفونسو المحارب - على مدى حكمه الذى بلغ ثلاثين عاما من ١١٠٥م أن يجعل من أراجون أعظم ممالك إسبانيا النصرانية وأقواها فقد انتزع من المسلمين قواعد مملكة سرقسطة من بنى هود ثم سرقسطة نفسها من المرابطين ثم استولى على طليطلة ، وبذلك هدد الوجود الاسلامى من الشمال الشرقى ومن الوسط .

ثانيا :

استطاع الفونسو السابع ديموندس أن يستولى من المسلمين على قلعة قورية سنة ٥٣٦ هـ - ١١٤٢م ثم عاون الثوار من المسلمين الذين ثاروا على المرابطين ، ثم عاون المرابطين

أنفسهم عندما علم بقدوم الموحدين إلى الأندلس ، ومن ذلك يتضح أنه يعاون على تمزيق صفوف المسلمين وإذهاب هيبتهم ووحدهم . ثم اشترك الفونسو السابع هذا مع ممالك إسبانيا النصرانية قشتالة وناقارا وأراجون ومعها جنوه وبيزة ، في الاستيلاء على ألمرية وذلك سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م .

ثالثا :

استطاعت حملة صليبية من جنود قطلونية وأراجون وبيزة وجنوة بقيادة الكونت ريمون برنجير الرابع أمير برشلونة أن تستولى على ثغر طرطوشة سنة ٥٤٣ هـ ١١٤٨ وفي العام التالى استولت على إفراغة .
وفي سنة ٥٥٢ هـ - ١١٥٧ م استطاع الموحدون أن يستردوا ألمرية من الصليبيين .

رابعا :

عند تدهور الدولة الموحدية بالخلاف بين أمرائها ، استعان المأمون أبو العلاء إدريس بفرناندو ملك قشتالة على ابن أخيه يحيى الناصر ، وبهذا أعطى الصليبيون فرصة لم يكونوا يحملون بها ، فقامت ثورات الثائرين على الأمراء المسلمين وأضحى أمر المسلمين في الأندلس في شتات ، حتى استطاع ابن هود أن يستولى على أشبيلة من الموحدين سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م . كما استطاع الصليبيون أن يستولوا على ماردة وبطليوس سنة ٦٢٧ هـ - ١٢٣٠ م من ابن هود كما تحين فرناندو ملك قشتالة الفرصة واستولى من ابن هود على أبده سنة ٦٣١ هـ - ١٢٣٤ م ثم كانت الكارثة باستيلاء الصليبيين على قرطبة نفسها سنة ٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م وأول ما فعل الصليبيون أن حولوا مسجدتها إلى كنيسة .

خامسا :

استطاع الأرجونيون أن يستولوا على بلنسية سنة ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م وعلى شاطبة ودانية ولقنت وأوريولة وقرطاجنة في الأعوام من سنة ٦٤١ هـ - ٦٤٤ هـ .

وفي سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م حاصر الصليبيون إشبيلية وظل حصارها عاما ونصف عام ثم استسلمت لهم في سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م بعد أن حكمها المسلمون خمسة قرون وحول فرناندو مسجدها إلى كنيسة ، وهكذا استطاع الصليبيون بسهولة بعد سقوط إشبيلية أن يستولوا على شريش وشذونه وقادمس وشلوقة وغليانة وروضة وأركش وشر شنتمرية وسنم لهم ابن محفوظ حصن اللقوة ووادي أنه وسنتل والحصين وشلطيش ، وهكذا استطاع القشتاليون أن يستولوا على سائر الاراضي الاسلامية الواقعة غربي ولاية الأندلس . ولم يبق للمسلمين في الأندلس سوى غرناطة سنة ٦٥٥ هـ التي لم يسكت عنها الصليبيون على الرغم من المعاهدات والمواثيق المكتوبة بينهم وبين مملكة غرناطة المسلمة ، واستطاع الصليبيون أن يتبعوا الوجود الإسلامي في الأندلس كلها ، وكلما استولوا على مدينة أو ثغر نكلوا بأهله من المسلمين ومن نجا منهم فر إلى مملكة غرناطة .

وظل الصليبيون يتحينون الفرص للقضاء على مملكة غرناطة آخر مابقى في أيدي المسلمين من الأندلس ، وما إن نشبت حرب داخلية بين المسلمين في غرناطة حتى وجدها ملك قشتالة فرصة سانحة ، فأعد جيشا استولى به أولا على الحامة في شهر المحرم من سنة ٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م ثم زحفت جيوش الصليبيين على اوشة ولكنهم عجزوا عن انتزاعها من المسلمين .

وفي عام ٨٨٨ هـ - ١٤٨٣ م استطاع جيش الصليبيين أن يخوض معركة ضد المسلمين بقيادة أبي عبد الله محمد بن علي آخر ملوك غرناطة وحققوا على المسلمين انتصارا في ظاهر قلعة اللسانة ، وأسروا عددا من المسلمين منهم ملك غرناطة نفسه ، ولكن ملك قشتالة رأى أن يفرج عن أسيره وأن يعاهده ، وفي الوقت نفسه كانت جيوشه تجوب مملكة غرناطة وتستولي منها على كل ما تتمكن من الاستيلاء عليه من حصون وقلاع ، فاستولوا على حصن قرطبة وحصن ذكوين ، ثم استولوا على رندة في جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ - ابريل ١٤٨٥ م .

وعندما قامت فتنة داخلية أخرى في غرناطة انتهزها الصليبيون فرصة لمهاجمة لوشة وعجز المسلمون عن الدفاع عنها ووقع الأمير عبد الله في أيديهم مرة ثانية ووقع معهم صلحا يساعده بمقتضاه فرناندو على أعدائه الثائرين عليه وفي غمار هذه الفتنة الداخلية استولى الصليبيون على بلش مالقة • في حين عاد أبو عبد الله ملكا على غرناطة بعد أن كان الزغل قد ملكها •

وفي ربيع سنة ١٤٨٨م - ٨٩٣ هـ زحف فرناندو على أطراف مملكة غرناطة الشرقية فاستولى على بيرة والبلشين وأشكر وغيرها من القواعد الشمالية الشرقية ، وفي المحرم من سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩م استولى فرناندو صلحا على ثغر المنكب ولم يبق للمسلمين سوى ثغر المرية •

بعد ذلك وضع فرناندو خطته للقضاء النهائي على الوجود الاسلامي في الأندلس - على الرغم من العهود والمواثيق التي قطعها على نفسه - بالاستيلاء على غرناطة فأعد وزوجه إيزابيلا العدة لذلك ، فاتجه إلى غرناطة جيش صليبي كثيف في جمادى الثانية سنة ٨٩٦ هـ - ١٤٩١م وحاصرها شهورا عديدة وأبدى المسلمون بقيادة فارس عريق هو موسى بن أبي الغسان ضروبا من البسالة لا نظير لها ، بل هاجموا العدو المحاصر أكثر من مرة • غير أن فرناندو قطع عن المدينة أى إمداد يأتيها من البر أو من البحر ، ولم يجد ملك غرناطة بدا من المفاوضة مع فرناندو ، واستمرت المفاوضات عدة أسابيع ، ثم عقدت معاهدة لتسليم المدينة في ٢١ من المحرم سنة ٨٩٧ هـ ووضع المسلمون شروطا زادت على الخمسين شرطا وقبلها جميعها فرناندو وإيزابيلا ملكى قشتالة وأرجوان - الزوجين - وكانت كلها شروطا لصالح المسلمين •

غير أن الملكين الكاثوليكين ما إن تسلموا المدينة حتى خاسا - على عادة الصليبيين بهذه العهود والمواثيق - وتلا هذا مرحلة عنيفة من مراحل اضطهاد الصليبيين للمسلمين - أفرادا - في الأندلس أجبروهم على الدخول في النصرانية وفي سنة ١٥٠٢م أصدر فرناندو مرسوما يقضى بإلغاء كل الشعائر الاسلامية من الأندلس •

وليس المقام هنا ملأنا للحديث عن الشنائع والبشائع التي ارتكبتها الصليبيون ضد
العزل من المسلمين ، فإن ذلك متوقع منهم ومنتظر .

غير ما ينبغي أن نسجله هنا هو أن الغزو الصليبي للأندلس حركته الكنيسة وقاده
الطامعون المغامرون من ملوك الصليبيين وأمرائهم ، وساعدهم على هزيمة المسلمين في
الأندلس هو أن المسلمين أنفسهم بما دب بينهم من خلاف وما اتصفوا به من تضييع لدينهم
وبعد عن الأخذ بمنهجهم .

ولقد استمر المسلمون في الأندلس يواجهون الصليبيين قرابة سبعة قرون وحققوا
عليهم انتصارات مشهودة ، ويوم كان ينتصر المسلمون كان سر انتصارهم أمرين - هما سر
انتصار المسلمين في أى معركة - الاتحاد في مواجهة العدو ورفع شعار الجهاد في سبيل الله
وما انهزموا في أى معركة إلا بتفريطهم في أحد الأمرين أو فيهما معا .



ب - العباسيون

واجهت الدولة العباسية الصليبيين الشرقيين - البيزنطيين - منذ زمن باكر ، وقد ورثت دولة بنى العباس صراعا مع البيزنطيين من دولة بنى أمية وورث بنو أمية هذا الصراع من أيام خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ولقد كانت حركة الفتح الإسلامى بقصد دعوة الناس إلى الإسلام ونقلهم من الضلال إلى الهدى تتجه نحو الروم وأملاكهم منذ خلافة أبى بكر الصديق والفاروق عمر رضى الله عنهما .

وفى خلافة عثمان وصلت جيوش الدعوة الإسلامية إلى القسطنطينية ، وكذلك وصلت إليها فى عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وفى عهد سليمان بن عبد الملك بقيادة مسلمة .

وفى أخريات عهد بنى أمية - وكانت الأمور فى اضطراب - شن الصليبيون الغارات على البلدان الإسلامية المجاورة لبلادهم ورد المسلمون هذه الغارات ولم ينجح الصليبيون من ورائها شيئا يذكر .

فلما كانت دولة بنى العباس وفى عهد أبى جعفر المنصور أخذ البيزنطيون يشنون الغارات على الشام ، فهاجم قسطنطين ملطية وخرابها واستولى عليها سنة ١٣٧ هـ ولكن المسلمين استردوها فى العام القابل .

وفى سنة ١٣٩ هـ أمر المنصور بغزو الروم ، واستفدى أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم وبنى قاليقلا وعمرها .

وفى سنة ١٥٥ هـ طلب قسطنطين الرابع الصلح والهدنة على ان يدفع جزية للمسلمين كل سنة ، وفى السنوات ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ هـ توالى غزوات المسلمين للروم وكانت غزوة الروم تسمى صائفة لأنها تتم فى الصيف .

واستمرت الصوائف في عهد المهدي سنة ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ هـ حتى بلغت أنقرة ، ولكن قائد غزوة سنة ١٦١ هـ ثامة بن الواليد استهان بعده فحقق عليه انتصارا أول الأمر ولكنه هزم أمامهم أخيرا .

وقد أطمع هذا الانتصار الصليبيين فأغاروا على الحدث سنة ١٦٢ هـ وقتلوا منها وأسروا ، وفي سنة ١٦٣ هـ استولى الصليبيون على مرعش وأحرقوها ، فلم يجد الخليفة المهدي بدا من أن يخرج للصليبيين بنفسه واتخذ حلب قاعدة له ثم سير إليهم ابنه هارون الرشيد ومعه جيش قوى ، فوصل إلى حصن سبالو وخربه واستولى عليه وتعهد الروم بدفع غرامة وفدوا أسراهم وعقدوا صلحا .

ولكن الصليبيين - على الرغم من العهود والصلح - كانوا لا يكفون عن مهاجمة بلاد المسلمين ، فرأى المهدي أن يسير إليهم جيشا بقيادة ابنه هارون سنة ١٦٥ هـ فوصل إلى سواحل البوسفور وأرغم ملكتهم إيريني على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار سنويا وأن تقيم لهم الأدلاء والأسواق في طريق عودتهم ، وأن تسلم ما في يدها من أسرى المسلمين .

ولما تولى ملك الصليبيين نففور نقض الهدنة وتخيل أنه يستطيع أن يغير على الدولة العباسية - المشغولة حينئذ ببعض الفتن الداخلية - فأرسل إلى هارون الرشيد كتابا يهدد ويتوعد يقول فيه : « من نففور ملك الروم إلى هارون ملك العرب . أما بعد : فإن الملكة التي كانت قبلى أقامتكم مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقا بحمل أمثالها إليها : ولكن ذلك ضعف النساء وحقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قبلك من أموالها ، واقتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك »

وقد رد عليه هارون الرشيد بقوله : « ٠٠٠ قد قرأت كتابك والجواب ماتراه دون ماتسمعه والسلام »

وسار إليه بجيوش جرارة واستولى على هرقله . وأجبر الامبراطور المغرور على دفع الجزية من جديد . (١)

وفي عهد المأمون لجأ الصليبيون إلى الحيلة لكسر شوكة المسلمين فشجعوا بابك الخرمي وجعلوا بلادهم موثلاً لدعوته فاعتصم بابك بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية في منطقة حران واستقل عن الدولة العباسية وشغب عليها على مدى اثنين وعشرين عاما من سنة ٢٠١ هـ - ٢٢٣ هـ والروم يشجعونه ويعينونه .

ففى سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم . ولكن أجله وافاه ودفن في طرسوس . وفي زمن المعتصم قضى على فتنة الخرمي أولا . ثم اتجه إلى الروم . وقد كان إمبراطور الروم قد أغار على زبطرة وأحرقها وأسر من فيها من المسلمين وسبى المسلمات ومثل بأسراه وسبائاه فسلم الأعين وقطع الأنوف والآذان .

وسمع المعتصم بهذه الفظائع . فسار إلى أنقرة وهزم الامبراطور واستولى عليها . ثم هاجم عمورية مسقط رأس الامبراطور توفليس وأحرقها ودمرها وكان ذلك في سنة ٢٢٣ هـ ووقف الشعراء يشيدون بهذا الانتصار وكان لأبى تمام رائعة من روائعه هي التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب . . . في حده الحد بين الجد واللعب

ثم انشغلت الدولة العباسية بخلافاتها الداخلية والانقسامات التي وقعت فيها فجعلت منها دولا بعد أن كانت دولة فاستقل بأجزاء منها : السامانيون (٣٦١ هـ - ٣٩٠ هـ) والزباريون (٣١٦ هـ - ٤٣٩ هـ) والغزنويون (٣٥١ هـ - ٥٨٢ هـ) والحمدانيون (٣١٧ هـ - ٣٩٤ هـ) والبويهيون (٣٢٠ هـ - ٤٤٧ هـ) هذا كله في المشرق الاسلامي . أما في الشام ومصر فقد كان الأمر كذلك في الفرقة والانقسام .

١ - الطبرى - تاريخ الأمم والملوك : ٩٢/١٠ - ٩٣ .

فاستقل عن الدولة الإخشيدون - بمصر والجزء الأكبر من الشام (٣٢٤ هـ - ٣٥٩ هـ)
والحمدانيون بشمال الشام والموصل ، وبنو طي بفلسطين ، وبنو كلب بوسط الشام وبنو كلاب
وبنو عقيل وبنو نمير استقلوا بشمال الشام والجزيرة •

ونتيجة لهذا التفرق ضعفت الخلافة العباسية وضاعت هيبة الخلفاء ولم يعد بهم طاقة
على مواجهة الغزو الصليبي البيزنطي - كما كانوا يفعلون من قبل •

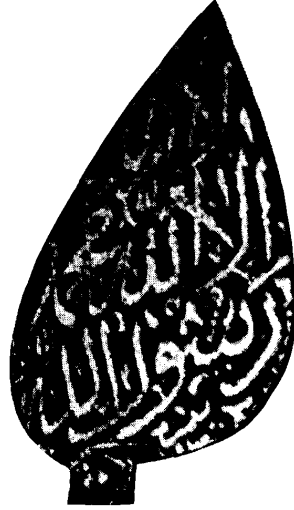
وفي نفس الوقت كانت الدولة البيزنطية قد حدثت لها صحوة في هذه الأثناء - القرن
العاشر الميلادي - الرابع الهجري تقريبا - فأخذ الصليبيون يتوسعون على حساب
المسلمين في أطراف آسيا الصغرى من جانب وفي الشام من جانب آخر •
وقد أشرنا إلى توسعاتهم تلك ونحن نتكلم عن الدوافع السياسية للحروب الصليبية
بعمامة في الباب الأول من هذا الكتاب ^(١)

فاستولى الصليبيون على أرض روم وملطية وميافارقين ومرعش وطرسوس وديار بكر
وسميساط ، كل ذلك في مدى أقل من عشرين سنة ، ثم استولوا على كريت وغزوا
قليقية ، وعين زربة وسيس وعين تاب ومنبج ، ثم حاولوا الاستيلاء على حلب سنة
(٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) فأحرقوا مساجدها بعد أن امتنعت عليهم • ثم استولوا على جزيرة
قبرص سنة ٣٥٤ هـ • ثم على المصيصة وطرسوس سنة ٣٥٤ هـ
وأغاروا على معظم المدن والقرى الإسلامية في الشام فلم يجدوا من يقف في
وجههم •

هكذا وقفت الدولة العباسية بعد عهد المعتصم موقف العاجز عن صد هجمات
الصليبيين على أطرافها ، وخسر المسلمون معظم هذه المعارك لأنهم لم يقاتلوا الصليبيين
متحدين ، ولا رفعوا راية الجهاد في سبيل الله لينضوى تحتها المقاتلون •

١ - انظر ص ٣٥ وما بعدها من هذا الكتاب •

وقد ظل الأمر كذلك في الفترة التي حكم فيها البيزنطيون أربعة أباطرة كان لهم شهرة في الانقضااض على أطراف العالم الإسلامي - وهم : باسل الأول ونقفور فوقاس وحناشمشيق وباسل الثاني - حتى قيض الله لهذه الدولة - الصليبية المعتدية على بلاد المسلمين - السلاجقة الذين انتصروا عليها انتصارا لا قبله ولا بعده انتصار ، حيث حصد ألب أرسلان زهرة البيزنطيين في وقعة مانزكرت شمالى بحيرة وان بأرمينية سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م وأسروا الإمبراطور رمانوس ديوجينيس وباتت آسيا الصغرى هامة خامدة لآحرك بها تحت أقدام عدو لا يرجم^(١)



١ - هـ ١٠١٠ ل ٠ نشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى : ٣٧٢/١ - ٣٧٣ ترجمة مصطفى زيادة والسيد
لعرنى ط دار المعارف بمصر ١٩٩٠ م ٠

ج - الفاطميون

واجه الفاطميون الصليبيين - البيزنطيين - أول الأمر ، وكانت لهم معهم معارك كثيرة .

فبعد أن استقر الفاطميون في مصر ثم أخضعوا دمشق عقب فتحهم لمصر في سنة ٣٥٨ هـ ، لم تهدأ لهم الأمور وإنما دخلوا في صراع مع القرامطة يساندتهم البويهيون من جهة ، ومع الأتراك بقيادة أفتكين من جهة أخرى .

وهنا انتهز البيزنطيون الفرصة - وكانوا من قبل قد استولوا على كثير من أطراف الدولة العباسية حتى وصلوا حدود سوريا ، واستولوا على قاليقلا ، وقد أصبحت هذه البلاد الإسلامية تابعة للبيزنطيين - انتهزوا فرصة الاضطراب الذي شغل الفاطميين في داخل دولتهم المترامية الأطراف ، فأخذوا يشنون الغارات ، ويملكون بلاد المسلمين ، فأحرقوا حصص وطرابلس وعديدا من بلدان الساحل دون أن يردهم أحد .

وفي شهر المحرم من سنة ٣٥٩ هـ استولى الروم على أنطاكية ^(١) كما ملكوا ملازكرد من أعمال أرمينية وأخذوا يعيشون فسادا دون رادع .

وقد واجه الخليفة الفاطمي العزيز أطماع البيزنطيين فسير إليهم حملة بحرية سنة ٣٧٧ هـ لغزو بلادهم ، فلم تحقق هذه الحملة غرضها ، ومع ذلك فقد قدم رسل إمبراطور الروم إلى مصر يحملون الهدايا إلى العزيز ويعقدون معه صلحا ، فاشتراط عليهم : إطلاق سراح أسرى المسلمين في بلادهم ، والدعاء له في جامع القسطنطينية وحمل ما يطلبه الخليفة من امتعة الروم وأن يهادنهم سبع سنين .

١ - ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٣٥٩ هـ .

فلما كان عهد الحاكم بأمر الله عمل على منع البيزنطيين من التقدم إلى جنوب الشام وأعد لذلك حملة هزمت البيزنطيين قرب طبرية ، وحملة برية هزمتهم قرب فاميه ، مما اضطر معه إمبراطور الروم إلى أن يطلب عقد صلح مع المسلمين توقف فيه الحرب عشر سنين .

ولما كانت خلافة الظاهر عُقدت هدنة بين الفاطميين والبيزنطيين ، كان من شروطها أن تقام الخطبة للخليفة الفاطمي في مساجد بلاد الروم ، وأن يعاد بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة التي كان الحاكم بأمر الله قد هدمها . واستمرت العلاقة عهودا وموائق في خلافة المستنصر الفاطمي طوال حكم الإمبراطور ميخائيل الرابع وقسطنطين التاسع ، فلما كان حكم الإمبراطورة تيودورا ساءت العلاقة فحارباها المستنصر وانتصر عليها برا ، بينما انتصرت عليه بحرا ، ثم عقد بينهما صلح ،^(١) ولكن البيزنطيين بعد ذلك آثروا أن يكونوا إلى جانب السلاجقة ضد الفاطميين .

ولابد لنا أن نشير هنا إلى أن الفاطميين وهم شيعة وقفوا من الخلافة العباسية - وهم من مذهب أهل السنة - موقف عداء صريح لم يرعوا فيه جانبا هاما هو أنهم جميعا مسلمون ، ولابد أن نذكر أن هذا الخلاف قد أضر بالعالم الإسلامي ضررا بليغا ، وأنه كان أحد الأسباب التي أدت إلى أن يستطيع الصليبيون الغربيون الانتصار على المسلمين وانتزاع بيت المقدس منهم بل وتأسيس ممالك صليبية في الشرق الإسلامي .

فعندما بدأت الحملات الصليبية الغربية على العالم الإسلامي بالتعاون مع الصليبيين الشرقيين - البيزنطيين - كان الخليفة الفاطمي في مصر هو المستعلي ، وكان وزيره الأفضل ابن بدر الجبالي هو المتصرف في شئون البلاد ، بل استمر الأفضل مسيطرا على الخلافة الفاطمية حتى نهاية حكم الخليفة الأمرأى من سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م إلى سنة ٥١٥ هـ ١١٢١ م .

ولقد أخطأ الأفضل في أنه لم يعرف على وجه الدقة أبعاد هذه الحملات الصليبية .

١ - أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر : ٦٢/٢ باختصار .

فقابلها باستهانة في أول الأمر ، مما جعل الحركة الصليبية تتفاقم ويشدد خطرها ، إذ لو واجهها الأفضل بإمكانات الدولة الفاطمية الكبيرة - حيث امتدت الخلافة الفاطمية في ذلك الوقت لتشمل مصر والشام وفلسطين والحجاز وشمال إفريقيا وصقلية ، بل اليمن والموصل - لكان الأمر غير الأمر ، ولما بلغ خطر الصليبيين الحد الذي بلغه .

لكن الأفضل حاول أن يقيم تحالفا مع الصليبيين ضد أعدائه من العباسيين والسلاجقة - وتلك أفدح غلطاته وأسوأ سقطاته - حيث رأى أن تكون أنطاكية للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين ، وانخدع في هذا الأمر عن الحق في ذاته وعن الصليبيين الغربيين ونواياهم .

وفعلا سارع بإرسال جيش استولى على بيت المقدس - وكان في يد السلاجقة - وملكه وتسلم محراب داود من سكمان ، وكان ذلك سنة ٤٩٢ هـ - ١٠٩٨ م . ثم أخذت السفارات بين الفاطميين والصليبيين الغربيين تؤدي عملها - كما ذكرت المراجع الصليبية ^(١) ، على أننا لانجد في المراجع العربية شيئا عن تلك السفارات التي يحاول المؤرخون الصليبيون أن يظهروا فيها الأفضل متحالفا معهم نكاية في أهل السنة ، وتلك خطة من الصليبيين يبعون من ورائها تعميق الخلاف بين المسلمين في الماضي والحاضر .

ومانعرفه عن الأفضل أنه سيرَ إلى حرب الصليبيين حملة في عشرين ألف جندي كان هو على رأسهم وحاربهم حربا خسر فيها جانبا كبيرا من رجاله فاتجه إلى عسقلان ، وكان ذلك سنة ٤٩٢ هـ

ثم سيرَ إليهم حربا ثانية في سنة ٤٩٤ هـ تحت قيادة سعد الدولة النواصي الذي قاتل الصليبيين قتالا مريرا عند عسقلان ومات شهيدا فيه .

نقول ذلك ونضيف إليه أن الأفضل كانت ميوله نحو أهل السنة ، وكان هو المتصرف في شئون الدولة الفاطمية في تلك الآونة ، فكيف يتحالف مع الصليبيين وتلك ظروفه .

١ - ستيفن رنسان : تاريخ الحروب الصليبية ٣٢٦/١ .

على أن مقتل الأفضل كان بتدبير الخليفة الفاطمي وأنصاره لبواعث سياسية وحزبية ، ذكر ذلك ابن القلانسي (١) وابن ميسر (٢) .

ولست هنا بصدد الدفاع عن ابن الأفضل إذ يكفي خطأ وتقصيرا وقصورا أنه لم يهتم بالصليبيين الأوربيين ، ولم يقاتلهم بالجدية التي كانت في إمكانه وهو المتصرف في شئون دولة مترامية الأطراف ، ولكنه الرغبة في إحقاق الحق ، فقد كان بودنا لو عرفنا بأمر هذه السفارات في مرجع عربي موثوق فيه ممن أرخوا لهذه الفترة في حينها كابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ أو ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ أو ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ أو ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ أو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ ، أو أبو الفرج بن العبري المتوفى سنة ٦٨٥ هـ أو ابن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ وهؤلاء جميعا كتبوا عن تاريخ هذه الفترة وكثير منهم كتب عن تاريخ مصر ، ولم يرد في كتاب من هذه الكتب شيئا عن سفارة الأفضل مع الصليبيين .

فضلا عن المؤرخين الذين أرخوا لهذه الفترة بعدها وهم كثير كالإدقوي وابن إياس وابن بسام وابن بطوطة ورشيد الدين الهمداني والسخاوي وابن طباطبا وأبو الفداء وإسماعيل عماد الدين ، وابن كثير القرشي والمقرئزي ، وهؤلاء أعلام التاريخ في الحديث عن تلك الظروف .

وعندما تولى بلدوين حكم بيت المقدس أمعن في قتال المسلمين والاستيلاء على بلادهم ضمن خطته الرامية إلى الاستيلاء على شواطئ فلسطين المواجهة لمملكته وأعانه على ذلك أسطول جنوه ، فاستولى على أرسوف وقيسارية - وكانتا تابعتين للدولة الفاطمية - وقد أتى الصليبيون بأعمال وحشية في جامع قيسارية حيث حولوه إلى بركة دماء .

١ - ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ٢٠٣ .

٢ - ابن ميسر : تاريخ مصر : ٧٥ .

وهنا وجه الأفضل حملة ضد الصليبيين بقيادة سعد الدولة النواسى - كما ذكرنا - في سنة ٣٩٤ هـ التقت مع الصليبيين قرب الرملة وقاتلوا الصليبيين قتال الأبطال ثم اضطروا إلى الالتجاء إلى عسقلان بعد أن قدموا من الشهداء عددا كبيرا .

ولم يسكت الفاطميون على هذه الهزيمة وإنما جهزوا حربا ثالثة ضد الصليبيين بقيادة شرف المعالى بن الوزير الأفضل . والتقوا مع الصليبيين في الرملة أيضا وهزمهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ^(١) وفر بلدوين نفسه متنكرا إلى يافا واستطاع الفاطميون أن يستولوا على الرملة ، فقتلوا من كان فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا بصحبة بلدوين ، واتجهت جيوش الفاطميين لمحاصرة يافا ففر منها بلدوين إلى أرسوف ، ثم خرج إلى يافا عن طريق البحر ، وواتته معونة صليبية من البحر قوامها مائتا سفينة . واستطاع أن ينظم صفوفه وأن يهاجم الفاطميين المحاصرين ليافا واضطروهم إلى فك حصار المدينة والاتجاه إلى عسقلان .

ولم يسكت الأفضل على ذلك وإنما أرسل حملة برية بقيادة تاج العجم ، وأخرى بحرية بقيادة القاضى ابن قادوس ، واستعان بلدوين بتنكرد أمير أنطاكية ولكن الفاطميين لم يخوضوا معركة فاصلة مع الصليبيين في تلك الحملة ، ويبدو أن الطرفين أثرا عدم الدخول في معركة فاصلة .

واستعد الصليبيون للاستيلاء على عكا ، ودافع عنها قائدها الفاطمى زهر الدولة الجيوشى دفاعا مجيدا ولكنه استسلم أمام التجمعات الصليبية ، ففقد الفاطميون أهم ثغر بالشام ، وعلى الرغم من التفوق العددي والآلى للصليبيين فإن بعض المؤرخين من المسلمين لم يغفروا للفاطميين هزيمتهم أمام الصليبيين ، ويصب بعضهم غضبه على الخليفة الفاطمى نفسه .

هذا أبو المحاسن بن تغرى بردى يقول في الخليفة الفاطمى الأمر : « يتناهى في

١ - ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

العظمة ويتقاعد عن الجهاد ٥٠ وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه ٥٠٠ ولم ينهض لقتال الفرنج البتة ، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكريا فهو كلا شيء^(١)»

ثم سير الفاطميون حملة إلى الرملة للمرة الثالثة بقيادة سناء الملك بن الأفضل وكان قوام الجيش من المصريين والسودان والفرسان العرب ، وقد اعده الأفضل بنفسه وصمم به على طرد الصليبيين من الشام ، وطلب الأفضل المساعدة والموازة من سلاجقة دمشق لقتال العدو المشترك فاستجاب له طفتكين ، وشهدت الحرب تحالفا إسلاميا ضد الصليبيين لأول مرة منذ حملتهم الأولى على الشرق الإسلامي ، واستجمع بلدوين قوته وحشد معاونيه من أمراء الصليبيين ودارت معركة رهيبة بين الجانبين كانت القتل فيهما من الجانبين مئات ومئات ولم تكن معركة فاصلة لأحد الجانبين على الآخر .

ولم يسكت الفاطميون عن الصليبيين - على الرغم من أنهم لم يحققوا عليهم نصرا حاسما في معركة يشار إليها - وإنما ظلوا يتعرضون لهم بالغارة حينما وبالحرط المحدودة حينما ، واستمرت هذه الغارات والحروب حتى استطاع الفاطميون أن يصلوا إلى أسوار بيت المقدس سنة ٥٠٤ هـ - ١١١٠م

وفي بداية سنة ٥٠٦ هـ أغار الفاطميون على طريق يافا - بيت المقدس ، فاتجهوا إلى سهل العوجة - بين أرسوف ويافا - وقتلوا قرابة خمسمائة من الصليبيين كان مجتمعين هناك ، وبعد ذلك أوغل الفاطميون حتى وصلوا إلى الرملة وقتلوا قوة استطلاعية من الفرسان الذين أرسلهم حاكم يافا الصليبي^(٢)

وفي سنة ٥٠٢ هـ أغسطس ١١٠٨م استطاعت عمارة بحرية فاطمية أن تنزل هزيمة منكرة بالسفن الإيطالية الوافدة من بيزا وجنوا والبندقية والتي ساعدت بلدوين في حصار

١ - أبو المعاسن جمال الدين بن تيمزى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ١٧٨/٥ .

٢ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٣٠٧/١ ، نقلا عن : Grousset: Hist. des Croisades I, P. p 247, 248.

صيدا برا وبحرا ، ولم يجد بلدوين مفرا إلا أن ينسحب إلى عكا راضيا من الغنيمة
بالانسحاب دون السلامة •

وفي سنة ٥١٨ هـ مايو ١٢٢٣م حشد الفاطميون حملة كبيرة في عسقلان اتجهت إلى
حصار يافا ، وفي نفس الوقت استعد أسطول فاطمي لماجتها من ناحية البحر ، وأوشك
الفاطيون أن يستولوا على يافا لولا نجدة صليبية ضخمة جاءت لإنقاذها ، مما اضطر معه
الفاطيون إلى الانسحاب •

كل ذلك كان في حياة الوزير الأفضل وبتدبيره ، حيث قتل الأفضل في شوارع
القاهرة قبل ذلك بقليل •

والخلاصة أن الدولة الفاطمية واجهت الصليبيين وحقت عليهم بعض الانتصارات ،
وإن كانت هي من الداخل لم تكن على الحال التي تسمح لها بأن تحقق على الصليبيين
النصر الحاسم ، كما فعل السلاجقة حينما وكما فعل الأيوبيون ، فكان على أيديهم النزاع
الأخير للصليبيين في الشرق الإسلامي كله وجاء المماليك ليقتضوا على وجودهم القضاء
الأخير •



د - السلاجقة

يعود نسب السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق (تقاق) أحد رؤساء الترك ، وكانوا يسكنون بلاد ماوراء النهر ، وهم من الأتراك الغز ، هم يشتركون مع سلاطين آل عشان في الجدل الأكبر .

وقد كانت الفترة التي برز فيها نفوذ السلاجقة من سنة ٤٢٩ هـ - ١٣٠٨م إلى سنة ٥٥٢ هـ - ١١٥٧م وهي الفترة المسماة بعصر السلاجقة العظام .

غير أننا نعد الأتابكة والأراتقة امتدادا للسلاجقة ، فإنهم كانوا أمراء لهم - أصلهم مماليك - وكان لهم عمل في مقاومة الصليبيين .

لذلك سنتكلم عن السلاجقة ثم الأتابكة ثم الأراتقة ، ونعتبر أولئك جميعا ، ضمن حديثنا عن السلاجقة .

وقد كان للسلاجقة مع الصليبيين الشرقيين - البيزنطيين - مواجهة وحرب وكانت أرمينية هي مكان الصراع ، فقد كانت أرمينية خاضعة للحكم العربي الإسلامي منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان إلى أن استطاع البيزنطيون أن يوقفوا القومية الأرمينية وأن يطيحوا بالحكم الإسلامي فيها سنة ٤٣٤ هـ - ١٠٤٢م ومنذ ذلك الوقت حدث الصراع بين السلاجقة والصليبيين البيزنطيين ، فبدأ ذلك في عهد ألب أرسلان حيث وجه حملاته العسكرية إلى أرمينية من الرى فأخضع أران والكرج شرقى أرمينية ، وسار الامبراطور رومانوس الرابع على رأس جيش كثيف لمواجهة التقدم السلجوقي ، واستطاع البيزنطيون الاستيلاء على حصن « ملازكرد » ولكن السلاجقة ردوهم على أعقابهم وأوقعوا الامبراطور البيزنطى في الأسر ، وبذلك انتهى حكم البيزنطيين الصليبيين في أرمينية حتى قامت الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا على العالم الإسلامي متعاونة في ذلك مع صليبي الشرق - البيزنطيين - .

ففى شهر سبتمبر ١٠٩٦م أوغل جزء من الحملة الصليبية الأولى حتى بلغوا أبواب مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقى قلعج أرسلان ، فنهبوا القرى بالضواحي واستاقوا ماصادفوه من الماشية والأغنام ، وقتلوا السكان المسيحيين فى وحشية بشعة ٠٠٠ وخرجت من المدينة سرية من الجيش التركى لقتالهم ٠٠ ثم عاد الصليبيون إلى كيفتوت (١)٠٠

وفى أواخر سبتمبر خرج رينالد مع جيش من الألمان فعاثوا فى أرض المسلمين فسادا ثم احتلوا قلعة « اكسيريجوردون » واتخذوها مركزا لهم يغيرون منها على المسلمين ، وأرسل السلطان السلجوقى جيشا لاسترداد القلعة ، فأنزل هزيمة منكرة بكمين أعده رينالد ثم حاصر القلعة حتى اضطر الصليبيون إلى امتصاص الماء من رطوبة الأرض وشرب دماء خيولهم وحمرهم وأبوال بعضهم - حيث قطع عليهم الجيش الإسلامى الماء ، ثم استسلم الألمان بل أعلنوا دخولهم فى الإسلام حتى ينجوا من الموت ، وسبق رينالد وعدد من جيشه إلى حلب وأنطاكية .

وكان الصليبيون قد أقاموا معسكرا لتجميع القوات فى « كيفيتوت » فلما علموا أنباء ما حاق برينالد والجيش الألمانى عقدوا مجلسا للحرب جمع كبار القادة الألمان مثل : هيو توبنجن والتريتك ، وكبار القادة الفرنسيين مثل : والتر المفلس ورينالد برايس والتير بريثيل وفولك أورليان ، وتغلب رأى جفرى بوريل بضرورة الزحف للقاء الجيوش السلجوقية فتحركت جيوش الصليبيين من « كيفيتوت » فى فجر يوم ٢١ من أكتوبر ١٠٩٦م - ٤٨٩ هـ فى عدد يزيد على عشرين ألف رجل .

فوقع الصليبيون فى كمين أعده السلاجقة فى الطريق إلى نيقية فاضطرب أمر جيشهم وقتل منهم عدد وهرب معظم الجيش إلى كيفيتوت ، فتعقبهم الجيش السلجوقى وأوقع بهم شر هزيمة وقتل وأسر ولم ينتصف النهار حتى استسلم معسكر كيفيتوت ، وهلك فى هذه المعركة والتر المفلس ورينالد برايس وفولك أورليان وهيو توبنجن والتريتك وكتراد والبرت

١ - رنسان : تاريخ الحروب الصليبية : ١٨٩/١ - ١٩٠ باختصار .

تسمرن ، ولم ينج من القادة الصليبيين إلا جفرى بورييل وعدد من القادة وإن كانوا قد أصيبوا إصابات خطيرة ، ولما علم الامبراطور البيزنطى نبأ هذه الكارثة سير حملة بحرية الى كيفيتوت ، واستطاعت هذه الحملة أن تعود وسفنها محملة بمن نجا من الصليبيين إلى القسطنطينية^(١)

وتسمى هذه الحملة الصليبية بحملة الشعوب وكان أول اصطدام لها بالسلاجقة وعلى أيديهم كان القضاء عليها .

أما حملة الملوك والأمراء يساندهم الامبراطور البيزنطى ، فقد كانت تضم جيشا فرنسيا بقيادة هيو الصغير بن هنرى الأول ملك فرنسا وجود - فرى دون اللورين الأسفل ، وبولدون وبوستيس وروبرت دون نورمنديا - وابن وليم الفاتح - وروبرت كونت فلاندر وستيفن كونت شارتر وريمون كونت تولوز ، وبوهميند دون تورنتم وابن أخيه تانكرد . وكانت هذه الحملة حريصة على الوصول الى بيت المقدس فكان لابد لها من استخلاص طرق آسيا الصغرى ، وكان هدف الصليبيين البيزنطيين هو طرد السلاجقة من آسيا الصغرى .

فوضعت الخطة على أساس الاستيلاء على نيقية ، فأقاموا معسكرا في بليكا نوم ، وانتهزوا فرصة غياب السلطان قلعج أرسلان عن نيقية ثم هاجموا في إبريل ١٠٩٧م - ٤٩٠ هـ بجيوش كثيفة وعدد ومعدات ثم حاصروها من الشمال والشرق والجنوب .

ثم قدم السلطان السلجوقى وأخذ يهاجم المحاصرين من الجنوب وقاتل الصليبيين وأوقع بهم خسائر فادحة وإن كان لم يستطع أن ينفذ إلى المدينة من خلاهم فاتجه الى الجبال ، وعندئذ شدد الصليبيون الحصار على المدينة ، ولم تجد حامية المدينة بدا من الاستسلام فوقعت المدينة في قبضة الصليبيين ، وتسلمها الامبراطور البيزنطى فى ٢٦ من شهر يونيو ١٠٩٧م - ٤٩٠ هـ

١ - السابق : ١٩٢/١ - ١٩٣ .

ثم استمر الصليبيون الاستيلاء على بلاد المسلمين في سرعة فاتجهوا إلى قونية وكان لابد أن يستولوا على ضوليم ، فاستولوا عليها في أول شهر يوليو سنة ١٠٩٧م ، وبذلك وضعوا حدا لقوة السلاجقة التي أعجزت الامبراطورية البيزنطية ردحا طويلا من الزمان . ثم اتجهوا إلى قونية فاستولوا عليها بعد أن كان السلطان السلجوقي قلع أرسلان قد أخلاها .

واتجه الصليبيون إلى هرقة . وحاول السلاجقة جاهدين أن يردوهم عنها لكنهم لم يستطيعوا ، وأخذت جيوش الصليبيين تستولى على المدن والقلاع في طريقها إلى بيت المقدس فاستولوا على قيليقية وقيصريه وبلاكتيا ثم اتجهوا إلى مرعش فاستولوا عليها ومنها اتجهوا إلى الشام فوصلوا إلى جسر الحديد على نهر العاصى شرقى أنطاكية في ٢٠ من أكتوبر ١٠٩٧م وان كان بعض الأمراء السلاجقة قد قاتلوا في هذه المعارك حتى انهزموا .

والخلاصة أن الحملة الصليبية الأولى استطاعت أن تهزم سلاجقة الروم وأن تستولى على أملاكهم وأن تؤسس امارات وممالك مثل إمارتى أرمينية والرها . واستطاعت أن تستولى على أنطاكية من سلاجقة فارس وأن تؤسس فيها إمارة صليبية كما استولت على اللاذقية وإن كان ذلك لم يكن سهلا وإنما كان على أشلاء القتل من الجانبين ، بل إن السلاجقة في مرحلة من مراحل هذه الحروب استطاعوا حصار الصليبيين في أنطاكية حتى أضنوههم فأكلوا أوراق الأشجار ولحوم الميتة ، ولكن الصليبيين في النهاية استطاعوا أن يحققوا انتصارات على سلاجقة الروم وسلاجقة فارس وسلاجقة الشام .

وإن كان السلاجقة أو أتباعهم من الأتابكة والأراتقة لم يسكتوا على الصليبيين وإنما كانت لهم مع الصليبيين جولات هزموهم في بعضها كما سنذكر الآن .

أما الأتابكة فهم في الأصل قواد للجيش السلجوقي معروفون بقوة أبدانهم وجمال صورهم ، وكانوا مماليك يشترى بالمال ويعتقون الاسلام وينشئون نشأة إسلامية في بلاط السلطان السلجوقي وتستند إليهم كبريات المهام ومنهم من كان يقود الجيش ومنهم من كان يتولى حكم بعض الولايات .

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة الملك وأورثوها أبناءهم فأطلق على هذه الولايات أو الدول الصغيرة أتابكيات وعلى الحكام أتابكة .

ومن دول الأتابكة : أتابكة كيفا وatabكة ماردين ، وatabكة دمشق ، وatabكة دانشمند ، وatabكة الموصل والجزيرة وسورية وأذربيجان وفارس .

ومن ولاية السلاجقة من كانوا يلقبون بلقب شاه ، مثل شاهات خوارزم وشاهات أرمينية .

ويعنينا هنا أن نتحدث عن بعض الأتابكة الذى واجهوا الصليبيين ومن أبرز هؤلاء عماد الدين زنكى :

عين أتابك الموصل سنة ٥٢١ هـ - ١١٢٧ م وقد استطاع أن يضم إلى الموصل نصيبين - وكانت في أيدي الأراتقة - ثم نظر إلى حران - وكانت تحت تهديد الصليبيين وهجماتهم المتكررة من الرها وسروج والبيرة فاستولى على حران وأمنها من الصليبيين ثم بدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين ، فرأى أولاً أن يضم إليه حلب - وكانت مطمعا لجوسلين أمير الرها ولبوهمند أمير أنطاكية - فاستولى على حلب سنة ٥٢٢ هـ - ١١٢٨ م ، يقول ابن الأثير : « ولولا أن من الله تعالى على المسلمين بولاية الشهيد « عماد الدين زنكى » لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه »^(١)

وقد ولاه السلطان محمود السلجوقى الجزيرة والشام وما اتصل بهما ، وقد رأى زنكى أن حرب الصليبيين تتطلب منه أمرين : الأول توحيد قوى المسلمين فى مواجهتهم والثانى إعلانها جهادا فى سبيل الله سبحانه ، وما توانى ولا قصر ولكنه سرى ما استولى على حماة من بورى بن طفتكين وعمل على الاستيلاء على حمص من ميرخان بعد جهود ضخمة ولكنه لم يستطع ، وأصبح زنكى مهيمنا على الشام وأطراف آسيا الصغرى .

١ - ابن الأثير عز الدين الجزرى : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل : ٣٧ ط القاهرة ١٩٦٣ م .

وفي سنة ٥٢٩ هـ ربيع ١١٣٥م نجح عماد الدين زنكى فى زعزعة مراكز الصليبيين شرقى نهر العاصى فاستولى على الأثارب وزردتا وتل أهدى ومعة النعمان وكفرطاب^(٢) ثم أغار على شيزر وحمص وفنسرين .

واستطاع نائب زنكى على حلب - سيف الدين سوار - أن يغزو إمارة أنطاكية وأن يصل الى اللاذقية وأن يغنم ويأسر ماشاء الله له .

وفي سنة ٥٣١ هـ يوليو ١١٣٧م اتجه إلى حرب الصليبيين عند قلعة بعرين وكانت جيوش الصليبيين بقيادة فولك ملك بيت المقدس وريموند أمير طرابلس وقد أذاقهم زنكى شر هزيمة فقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا ، ومن بين الأسرى ريموند الثانى نفسه ، بينما فر فولك .

وفي العام التالى أعد حنا كومنين امبراطور بيزنطة حربا ضد المسلمين فى حلب - وعلى الرغم من أن الصليبيين قبضوا على المسلمين فى أنطاكية وماجاورها حتى لا تتسرب أنباء الاستعداد الصليبي - فإن زنكى أرسل قوة بقيادة نائبه سوار لحماية حلب وقد استطاعت قوات حنا كومنين أن تستولى على بعض البلدان التى كان زنكى قد استعادها من الصليبيين ، إلى أن وصلوا إلى شيزر التى تسيطر على أواسط حوض نهر العاصى ، فاستنجد صاحبها أبو العساكر بزنى فأسرع إليه وعسكر على ضفة نهر العاصى بين شيزر وحماة وأخذ يهدد الأعداء - وفى الوقت نفسه يرسل فى طلب العون من بغداد ، حتى إن جماهير بغداد لما علمت باستنجد زنكى صاحوا فى المساجد « وا إسلاماه ٠٠ وا محمداه » إلى أن وصلت إليه النجدة . كان يعمل على تفريق صفوف الصليبيين - وقد نجح - إذ وقف أمير الرها وأمير أنطاكية موقف المتفرج من حصار الامبراطور لشيزر ، مما جعل الإمبراطور يهاجم أنطاكية ويهدد أميرها ، ووقع الصليبيون بعضهم فى بعض ، وعندئذ أحس زنكى بأنه لم يعد بحاجة إلى المدد الذى كان يطلب ، فأرسل يلغى طلبه ، فى الوقت الذى كان

١ - ابن العديم : زبدة الحلب : ٦٧١ .

الصلبيون ينسحبون فيه من شيزر ، ثم وجه جيوشه للاستيلاء على كفر طاب وحصن بزاعة مما كان قد استولى عليه الصليبيون .

وفي سنة ٥٣٨ هـ - نوفمبر ١١٤٤م أعد زنكى جيشا حاصر به الرها وانقض عليها في سرعة أذهلت أميرها جوسلين الذى كان فى تل باشر آنثذ ليقطع الاتصال بين زنكى وحلب ، واستغاثت الرها بأنطاكية ، وبيت المقدس ولكن سرعة زنكى أسقطت الرها في يديه قبل وصول أى نجدة بعد شهر من تحركه إليها وعامل أهلها باللطف واللين ، وهكذا عادت الرها لنفوذ المسلمين بعد أن ظلت فى أيدي الصليبيين قرابة نصف قرن من الزمان . ثم واصل زنكى استيلاءه على المعقل والحصون فاستولى على سروج وهاجم البيرة ، وحصر جوسلين فى أضيق نطاق ، بحيث لم يبق له من إمارة الرها إلا تل باشر وسميساط ومرعش ودلوك وعين تاب وعزاز والراوندان .

ولما غدر أحد الخدم بعماد الدين زنكى ، وتولى بعده ابنه نور الدين محمود حاول جوسلين أن يستعيد الرها فاتصل بالأرمن فى الرها وتعاون مع بلديون حاكم مرعش واستولى على الرها دون قلعتها ، وبدأ يطلب مددا من أمراء انطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، ولكن نور الدين كان أسرع فى حركته إذ خف على رأس جيش كبير وحاصر الرها من الخارج ، وعانى جوسلين فى موقفه ذاك من القوى الإسلامية داخل القلعة والقوى الإسلامية خارج الرها فكان أكبر أملة أن يفر ، ففر إلى سميساط بعد أن جرح فى رقبته .

وحلت الهزيمة بالصلبيين والأرمن ، ووالى نور الدين محمود استيلاءه على القلاع والحصون فاستولى على : بسرفوت وأرتاح والأثارب وكفر لاثا .^(١) وقد أدت انتصارات نور الدين محمود على الصليبيين إلى إثارة أوروبا وتخوفها على مكانة الصليبيين فى الشرق الاسلامى ، فأعدوا العدة للحملة الصليبية الثانية .

١ - ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٤٢ هـ .

نور الدين محمود :

على أثر استيلاء المسلمين على الرها ثارت ثائرة أوروبا واتجهت إلى إعداد حملة ضد المسلمين تولى قيادتها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا ، ووصل الجيشان إلى القسطنطينية ، وعبر كونراد البوسفور واخترق طريقه بين البلاد الإسلامية تاركا طريق الساحل الآمن نسبيا ، وعند قونية قابلهم المسلمون وهزمهم شر هزيمة ففر كونراد وغنم السلاجقة مالا حصر له ، وفي نيقية التقى بلويس السابع وهو في غاية الذلة والخزيان .

وتعلم لويس السابع مما أصاب كونراد فعبر الطريق الساحلى ، ومعه كونراد الفار ولكن كونراد أحس بهوان مكانته فعاد إلى القسطنطينية ومنها ركب البحر إلى بيت المقدس . وعلى الرغم من أن لويس السابع قد اختار الطريق الآمن فإنه لم ينج من غزو السلاجقة وإغارتهم عليه ، مما اضطره إلى أخذ طريق البحر من أنطاكية إلى السويدية ثم أنطاكية فبيت المقدس متناسيا الهدف من الحملة وهو استعادة الرها وتأديب الزنكيين .

وفى بيت المقدس عرف لويس السابع أن أمراء أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس يطمعون جميعا في أن يسخروا حملة لويس السابع لتأمين إماراتهم ، فآثر مساعدة إمارة بيت المقدس ، فكان عليه أن يهاجم دمشق ، ولكن النجيدات الإسلامية تدفقت على دمشق ، فلم يسع الصليبيون إلا الانسحاب مما رفع الروح المعنوية للمسلمين في الشرق الإسلامى كله .

ففى سنة ٥٤٤ هـ ، اتجه نور الدين محمود إلى أنطاكية فأغار على حارم وحاصر إنب وخرج إليه ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية فأحاط به نور الدين وقتله وأباد جيشه عن آخره . وأوغل في إمارة أنطاكية حتى وصل إلى مينائها السويدية ثم اتجه إلى فامية ، واستطاع نور الدين أن يستولى على كل أملاك أنطاكية شرقى نهر العاصى .

وبفضل قوة الزنكيين ووقوفهم للصليبيين في الشام وشمال العراق جعل الصليبيين

يصابون باليأس من التصدي للزنكيين فاتجهوا في حريهم للمسلمين إلى الجنوب الغربي للتوسع على حساب الفاطميين - وقد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن الفاطميين -

ولا بد أن نشير هنا إلى أن نور الدين محمود كان له الفضل في تكوين جبهة إسلامية تواجه الصليبيين ، وأن هذه الجبهة هي التي قضت على نفوذ الصليبيين في الشام • فقد اشتبك نور الدين مع الصليبيين خائني العهود والمواثيق حول بانياس حيث اعتدوا على بعض الرعاة من المسلمين ونهبوا أموالهم فخرج اليهم نور الدين سنة ٥٥٢ هـ - ١١٥٧م وأعمل فيهم السيف وفر بلدوين الثالث قائد الصليبيين ••

وأصيب نور الدين بمرض فصال الصليبيون وجالوا فلما شفاه الله أغار على صيدا في سنة ٥٥٣ هـ - مايو ١١٥٨م ثم هاجم إقليم الجليل جنوبى بانياس •

وفي سبتمبر ١١٦٣م - ٥٥٨ هـ اتجه عمورى الأول ملك بيت المقدس لمهاجمة مصر - بعد أن يش الصليبيون من تحقيق النصر في ميدان الشام بسبب نور الدين وعندئذ أراد نور الدين أن يوجه ضربة للصليبيين في أنطاكية تبدهم من ناحية وتشغلهم عن مصر من ناحية أخرى فهاجم أنطاكية في أغسطس سنة ١١٦٤م - ٥٥٩ هـ ودارت بينه وبين الصليبيين معركة حامية في أرتاح كانت انكسارا للصليبيين فقتل منهم عددا ذكر بعض المؤرخين أنه بضعة آلاف وأسر منهم مالا يحصى ، ومن الأسرى كل الأمراء الصليبيين الذين اشتركوا في المعركة وعلى رأسهم بوهيمند أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وجوسلين الثالث ثم استولى نور الدين على حارم في نفس الشهر وعلى بانياس في شهر أكتوبر من نفس العام •

وكانت جولة لنور الدين مع الصليبيين في مصر عندما هاجمها - ثانية عمورى الأول - واحتل بلبيس وعسكر في بركة الجيش جنوبى القسطنطينية ، عندئذ خاف نور الدين على مصر فجهز جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين لمواجهة الصليبيين هناك •

ولما علم عمورى بذلك وضع خطة لمنع وصول الجيش إلى مصر ولكن خطته باءت بالفشل ووصل الجيش إلى القاهرة ورحب به أهلها ، عندئذ لم يسع عمورى إلا الانسحاب .

كذلك كان للأراتقة صدام مع الصليبيين استطاع فيه بعض أمراء الأراتقة أن يحققوا على الصليبيين انتصارات وأن يستعيدوا منهم حصونا ومواقع كما فعل قرا أرسلان عندما استعاد منهم حصن كركر وحصن منصور ، كما وقع جوسلين الثانى أسيرا فى مايو ١١٥٠م وحبس به نور الدين فى حلب تسع سنين .

وبعد . فهذه السلاجقة ضد الصليبيين وجهود أتباعهم من الاتابكة والأراتقة ، تنطق كلها بمعنى واحد هو ضرورة طرد الصليبيين من الشرق الإسلامى وقد وضع السلاجقة أغلب المسامير فى نعش الصليبيين ، وأما توديع النعش الى مقره الأخير فقد كان على يد صلاح الدين الأيوبى ، ومن بعده المماليك .



هـ - الأيوبيون

رأس الدولة الأيوبية صلاح الدين ، بل يعد رأسا للحكام المسلمين جميعا في عصره ، فقد استطاع هذا الرجل أن يوحد صفوف المسلمين وأقطارهم ، وأن يتجه بهم إلى الاتجاه الصحيح في الوقوف أمام عدوهم التقليدي « الصليبيين » .

ولقد حقق صلاح الدين في الانتصار على الصليبيين ما لم يحققه حاكم مسلم قبل صلاح الدين ، حتى أولئك الأعلام من آل زنكى عماد الدين ونور الدين ، ولعل سر ذلك أن صلاح الدين اهتدى إلى عوامل النصر على الصليبيين التي أهمها أمران : توحيد صفوف المسلمين ، ورفع راية الجهاد في سبيل الله .

ومن نافلة القول أن تؤكد أن طرد الصليبيين من الشرق الإسلامي كان عمل صلاح الدين أولا وأخيرا ، حتى ذلك الانتصار الذي حققه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فأخرج فلول الصليبيين من عكا ، كان الفضل فيه لصلاح الدين ولأعماله الجليلة التي قضت على الوجود الصليبي في العالم الإسلامي .

فما إن تولى صلاح الدين الوزارة في مصر ، حتى أخذ يعمل لمواجهة العدو الغاصب « الصليبيين » فأمن مصر من الداخل ، ووحّد العالم العربي فدانت له مصر والشام والجزيرة والموصل والسودان واليمن ، ثم أخذ يستعد لمواجهة الصليبيين وكان قد بلاهم في حرب سابقة يوم تعرض لهم وهم يغفرون على مصر إذ كان حينئذ مع عمه أسد الدين شيركوه .

فكان قرار صلاح الدين هو : طرد الصليبيين من العالم الإسلامي .

ففي سنة ٥٦٥ هـ أوائل ديسمبر ١١٧٠م خرج صلاح الدين - وقد استقرت له الأمور في مصر - لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطئ فلسطين ، فحاصر قلعة الداروم

جنوبى غزة محاولا الاستيلاء على غزة نفسها ، غير أنه لم يتمكن من ذلك فعاد إلى مصر
يستجمع استعدادة لتوجيه ضربة أعنف للصليبيين ، غير أنه استطاع أن يستولى على أيلة
- على خليج العقبة - وأن يقتاد أفراد حاميتها أسرى إلى القاهرة » ^(١)

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى عدو لدود لصلاح الدين هو عمورى الأول ملك بيت
المقدس ، فقد كان هزم أمام صلاح الدين في دمياط أيام أسد الدين شيركوه وكان قد رأى
مأقاه به صلاح الدين من توحيد صفوف المسلمين وأقطارهم ، فكان هم عمورى الأول هو
ضرب الوحدة الإسلامية بين مصر والشام ، وقد هلك عمورى الأول دون أن يحقق هدفه
المهام .

ولندع جانباً كيف استقل صلاح الدين بمصر وكيف وحد بين أطراف العالم
الإسلامى فدانت له القلوب قبل السيوف - فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستقل - ولنتحدث
عن جهوده فى طرد الصليبيين من بلاد المسلمين ولندع جانباً كذلك قصة بلدوين الرابع
ابن عمورى الأول والوصيين عليه ميلون دى بلانس ثم أسير نور الدين ريموند الثالث
أمير طرابلس ومأقاه به من إيقاع بين ورثة نور الدين فى الحكم وصلاح الدين لندع ذلك ثم
نركز على معارك صلاح الدين مع الصليبيين .

صلاح الدين يغزو مملكة بيت المقدس الصليبية :

انقض صلاح الدين على المراكز الصليبية على شواطئ فلسطين الجنوبية مثل الداروم
وغزة ، ثم اتجه إلى عسقلان ، فخرج إليه بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ومعه رجال
الدين يحملون صليب الصلبوت ، ودخل الصليبيون عسقلان وحصرهم صلاح الدين
داخل أسوار المدينة ، فعزل مملكة بيت المقدس عن أى جنود ، ثم أخذ يهاجمها ، فأحرق
الرملة وهاجم اللد ووصل بجيوشه بين ارسوف ونابلس ، غير أن المسلمين انشغلوا بالغنائم
واطمانوا إلى انكسار العدو ، فى حين استطاع بلدوين أن يشق طريقه خارج عسقلان ،

١ - ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : ١٩٩/١ ط غير كاملة - القاهرة .

وتجمع حوله الصليبيون وباغتوا قوات المسلمين فهزمهم عند تل الصافية ، وعاد صلاح الدين إلى مصر في حال نفسية سيئة * « وحلف لاتضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج »^(١) وعاد الصليبيون منتشين بالنصر ، وشرع بلدوين يحصن بيت المقدس ضد أى هجوم يأتى عن طريق دمشق ، فأقام أكبر حصن فى ذلك العهد وهو حصن جسر بنات يعقوب على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ، ودمشق من ناحية أخرى ، وعهد بلدوين الرابع إلى فرسان الداوية بالدفاع عن الحصن ، كما جعلوا منه مركزا لقطع الطريق على قوافل المسلمين ، وقد سمي هذا الحصن كذلك : « حصن بيت الأحزان »

وكان خوف الصليبيين من صلاح الدين قد حملهم على بناء حصن آخر فى الشمال الغربى من بحيرة الحولة على جبل هونين يتحكم فى منابع الأردن وسهوله العليا ، وبذلك أحكم الصليبيون تحصين بيت المقدس ضد أى هجوم يأتى من جهة دمشق *

ثم حدث أن اعتدى الصليبيون على بعض الرعاة المسلمين من أهل دمشق ، قرب بانياس ، فتصدى لهم عز الدين فرخ شاه ابن أخى صلاح الدين وخرج صلاح الدين لمعاونة ابن أخيه ، وكان الجيش الصليبي بقيادة بلدوين الرابع وهمفري دى تورن صاحب حصن بانياس ، وقد انتصر عليهم صلاح الدين انتصارا مبينا حتى إن الملك الصليبي بولدوين وهمفري أصيبا إصابات بالغة أدت إلى وفاة همفري فى حصن هونين *

وبعد هذا النصر حاصر صلاح الدين حصن بيت الأحزان فى أواخر سنة ٥٧٤ هـ أواخر مايو ١١٧٩ م ، واتخذ صلاح الدين معسكرا فى تل القاضى غربى بانياس ، ونبه ابن أخيه عمر بمراقبة الصليبيين عند حماة توجسا لما قد يقوم به بوهيمند أمير أنطاكية كما عهد إلى ابن عمه ناصر الدين بالدفاع عن حمص تحسبا لما قد يقوم به ريموند الثالث أمير طرابلس ، وأرسل إلى أخيه العادل فى مصر ليزوده بالمدد ، واتخذ من الغارة على أملاك الصليبيين غملا يمارسه كل يوم تقريبا *

١ - أبوسامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : ٥٧٣/١ ط القاهرة ١٢٨٧ هـ *

وانزعج الصليبيون من هذه الغارات فخرج بلدوين الرابع لملاقاة صلاح الدين في ١٠ من شهر يونيو ١١٧٩م - في الثالث من شهر المحرم سنة ٥٧٥ هـ - ودارت بين الجيشين معركة عند تل القاضى حيث عسكر صلاح الدين ، فانتصر صلاح الدين انتصارا حاسما وأسر من الصليبيين مأسر ولم ينج بلدوين إلا بصعوبة ، ونجح صلاح الدين في مهاجمة حصن الأحزان وفتحه في ربيع الأول سنة ٥٧٥ هـ - أواخر أغسطس ١١٧٩ م وسوى الحصن بالأرض وغنم وأسر ، وواصل صلاح الدين الإغارة على صور وصيدا وبيروت ، ثم جاء مدد بحرى من مصر فهاجم عكا ووجه إليها أعتى الضربات مما اضطر معه بلدوين الرابع أن يعقد هدنة مع صلاح الدين ، فوافق صلاح الدين ، وأمن بذلك جانب مملكة بيت المقدس وذهب إلى مهاجمة شمال الشام وبخاصة طرابلس ، مما اضطر معه ريموند الثالث أن يعقد معاهدة مع صلاح الدين تضمنت هدنة بين الطرفين .

وفي هذه الهدنة أخذ صلاح الدين في توحيد القوى الإسلامية في شمال الشام وفي العراق ، مع الاستعداد للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين ، ثم وافته الفرصة بحاقة ارتكبتها ريجنالد « أرناط » زوج إتينت دى ميلى وريثة صاحب الأردن - حيث تناسى أرناط الهدنة وخرج على رأس جيش وأوغل في صحراء العرب حتى وصل إلى تياء - بين الاردن والمدينة المنورة - عازما على مهاجمة المدينة المنورة نفسها ، فعاجله فرخ شاه بالهجوم على الأردن فاضطر للعودة للدفاع عنها ، ولكنه نهب قافلة من المسلمين كانت متجهة من دمشق إلى مكة .

وكانت حماة أرناط هذه سببا في ثورة الراى العام الإسلامى وأغضبت صلاح الدين فكتب إلى ملك بيت المقدس يطلب منه أن يرد أرناط ماسلب ومانهب ، فما استطاع بلدوين الرابع أن يحصل من أرناط على شئ حتى الاحترام .

فغادر صلاح الدين مصر إلى الشام في أول سنة ٥٧٨ هـ مايو ١١٨٢م ، واتجه صلاح الدين من أيلة إلى إقليم الشوبك فدمر مزارع الصليبيين ، في حين استولى ابن أخيه فرخ شاه على الشقيف أرنون ، ثم انتقل إلى شرقى الأردن فأغار على السواد واستولى على

حصن حبيس جلدك ، واتجه صلاح الدين صوب دمشق ومنها تحرك حيث نصب معسكره في سهل الأقحوانة - عند خروج نهر الأردن من بحيرة طبرية - وطلب من ابن أخيه أن يغير على إقليم الغور ، فدخل بيسان ، بينما أغارت قبائل الأعراب على جنين واللجون وسهول يافا قريبا من مرج عكا .

وفي سرعة خاطفة انضم صلاح الدين إلى جيش ابن أخيه ، وشرعا معا في مهاجمة حصن الكوكب ، واشتبك الصليبيون مع صلاح الدين وكان النصر للمسلمين ، ولكن صلاح الدين أدرك أن تلك المعارك المحدودة لا تحقق له هدفه ، فأثر الذهاب إلى دمشق انتظارا للمعركة الفاصلة .

وفي هذه الأثناء استولى صلاح الدين على حلب وحارم مما « جعل الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد تحت زعامته من جبال طورس شمالا إلى النوبة جنوبا »^(١) ومن ذلك التاريخ أصبح صلاح الدين في الموقع الذي يمكنه من توجيه ضربة طاحنة للصليبيين .

فتوجه إلى مهاجمة الجليل والغور في سنة ٥٧٩ هـ - خريف ١١٨٣م بعد أن كان استولى على بيسان ، ثم اتجه إلى عين جالوت حيث عسكر هناك ، ومن هناك كان يرسل الدوريات لمهاجمة المناطق الصليبية والاستيلاء على ما تستطيع الاستيلاء عليه ، ولما ضاق الصليبيون بذلك تحركوا بقيادة لوزجان الوصي على مملكة بيت المقدس وعسكروا عند صفورية شمال الناصرة ثم تحركوا لمنازلة المسلمين فعسكروا عند الغولة قرب عين جالوت ، لكنهم لم يجسروا على مهاجمة قوات المسلمين ، وكان صلاح الدين يشن عليهم الغارات ويستفزهم حتى يشتبكوا معه ولكنهم لم يفعلوا ، وعاد كل جيش إلى مكانه صلاح الدين إلى دمشق والصليبيون إلى صفورية .

وفي هذه الأثناء عاد أرناط إلى حماقة فوضع مشروعا للسيطرة على البحر الأحمر وغزو الحرمين في الحجاز ، فاستولى على أيلة ، ولكن العادل أخا صلاح الدين أسرع إليه

١ - د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٧٨٠/٢ نقل عن : Stevenson, Op. Cit. p. 230.

واستطاع جيش إسلامى بقيادة حسام الدين أن يستعيد أيلة وأن يأسر جميع الصليبيين التابعين لأرناط للذين يهددون طريق الحج ، وقد غضب صلاح الدين من أرناط حتى نذر دمه ، وهنا تنبه صلاح الدين إلى أن الكرك يهدده ويهدد المسلمين وبخاصة الذين يقصدون الحج ، فهاجمه مرتين ولكنه كان يصرف عنه ويعقد هدنة مع أرناط . غير أن أرناط فى موقعه ذاك من الكرك الذى يهدد الطريق بين مصر والشام وبين الشام والحجاز خرق هذه الهدنة فانقض على قافلة متجهة من القاهرة إلى دمشق فى أوائل سنة ١١٨٧م وسلب القافلة وأسر رجالها فى حصن الكرك ، وكتب صلاح الدين إلى أرناط يطالبه بفك الأسرى ورد السلب ، ولكن أرناط رد عليه قائلا فى قحة وسوء أدب : « قولوا لمحمد يخلصكم » ^(١) وكظم صلاح الدين غيظه وكاتب ملك بيت المقدس آنذ لوزجانا ليأمر أرناط برد السلب وفك الأسرى ولكن أرناط تعالى واستكبر ولم يسمع لرجاء ملك بيت المقدس .

وكانت العناية الإلهية تمد لأرناط فى الحبل وتمهله ليكون فى عمله وقحته حَيَنَه ، فاستعد صلاح الدين للمعركة النهائية مع الصليبيين ، فخرج من دمشق حيث أمن قافلة من حجاج المسلمين ثم اتجه إلى أرناط فى حصن الكرك وحاصر الحصن وأرناط فى شهر مايو من سنة ١١٨٧م ٥٨٤ هـ . وأرسل صلاح الدين قوة استطلاعية لتخترق إقليم الجليل فتصدى لها الصليبيون عند صفورية فكان النصر الحاسم لحليف المسلمين فقتلوا الداوية وقائدهم ، وقد سمي أبو شامة هذا النصر : مقدمة البركات وميامين الحركات .

وتوافد الصليبيون يتآزرون حتى الذين بينهم وبين صلاح الدين معاهدات كأمر طرابلس واتخذوا صفورية معسكرا لهم ، عندئذ زحف صلاح الدين على طبرية وأحرق المدينة ولم يتقدم نحو الصليبيين وإنما انتظر حتى يحضروا هم إليه مجهدين متعبين ، ونجح صلاح الدين فى تديره وتقديره ، فزحف الصليبيون فى أوائل يوليو نحو طبرية متحملين

١ - ابن واصل : مفرج الكروب : ١٩٤/٢ .

حرارة الجو وقلة الماء بينا صلاح الدين على الماء وفي الراحة والعافية هو وجنده ، وكل الذى صنع أن تحرك نحو خمسة أميال غربى طبرية عند قرية حطين ، ولما وصل الصليبيون كانوا في غاية الانهاك ، وباتوا ليلتهم فوق هضبة طبرية ، واشعل المسلمون النار في الأعشاب والأشواك التى تكسو الهضبة. وكانت الريح على الفرنج فحملت إليهم حر النار والدخان ، فاجتمع عليهم العطش وحر النار والدخان وحر القتال ، على حد تعبير ابن الأثير في الكامل .

وفي الصباح كان صلاح الدين قد أحاط بهم من كل جانب ، وبدأ الهجوم عليهم فأخذتهم سهام المسلمين وكثر فيهم القتل والجرحى ، وقد أوى الصليبيون إلى جبل حطين بعد أن فر ريموند أمير طرابلس ، وأخذ المسلمون يطاردونهم إلى أعلى الجبل ، وقد سقط أسقف عكا قتيلا ووقع من يده صليب الصلبوت فاستولى عليه المسلمون ، وظل المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون حتى لم يبق سوى ملك بيت المقدس وقلة من جنده فأسروهم ، كما أسر أرناط ومقدم الداوية ، وقد قتل صلاح الدين أرناط بسيفه تحلة لقسمه ونذره وجزاء له على جرمه وخيائنه وغدره وقتله المسلمين العزل في قوافلهم .

وقد كثر الأسرى من الصليبيين حتى إن الأسرة المؤلفة من الصليبي وزوجه وابنائهم الثلاثة وبنته بيعت بثمانين ديناراً^(١)

وبسقوط الصليبيين في حطين وضعت خطوط النهاية في حياتهم في الشرق الإسلامى فأخذ صلاح يفتح البلاد والقلاع دون مقاومة وكان يعامل الناس بالحسنى والتسامح ، فقد استولى على عكا بعد أن استسلم الصليبيون فيها بقيادة جوسلين ، وعاملهم صلاح الدين معاملة حسنة ، كما استولى على تبين وبيروت وجبيل ومعظم القلاع والمراكز الساحلية في جنوبى بلاد الشام . كما استولى على الرملة وبيننا والداروم وغزة والنطرون وبيت جبرين ثم استولى على عسقلان في أوائل سبتمبر ١١٨٧م .

١ - أبوشامة : كتاب الروضتين : ٨٢/٢ .

وبعد ذلك لم يبق أمام صلاح الدين سوى بيت المقدس نفسها ، فعرض على أهلها التسليم مع الأمان مرتين ولكنهم رفضوا ، فهاجمها صلاح الدين في اليوم العشرين من سبتمبر ١١٨٧م - في شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ واشتد في هجومه ، فلما رأى الصليبيون استحالة المقاومة عرضوا التسليم والأمان بالشروط التي وضعها صلاح الدين سابقا ، ولكن صلاح الدين رفض وقبل التسليم دون شرط وقال لهم : لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهل بيت المقدس حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وأجزى السيئة بمنزلها ^(١)

وقد تسلم صلاح الدين المدينة في يوم الجمعة ٢٧ من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ وهي ذكرى ليلة الإسراء والمعراج على حد قول أبي شامة .

وعامل صلاح الدين المسيحيين معاملة حسنة وعادت بيت المقدس إلى أصحابها .

ثم أخذ صلاح الدين يتتبع سائر المراكز الصليبية في شمالي الشام ، فاستولى على صفد وحصن الكوكب ، وأخذت معاقل الصليبيين تنهاوى أمامه ، ولم يبق للصليبيين غير صور التي أخطأ صلاح الدين بعدم الاستيلاء عليها عقب استيلائه على عكا ، غير أن الصورة المجلبة للوجود الصليبي في الشرق الإسلامي بعد أن قبض الله للمسلمين صلاح الدين تلخصت في المراكز الصغيرة التالية :

من مملكة بيت المقدس بقيت لهم « صور » وحدها .

ومن إمارة طرابلس بقيت لهم عاصمتها طرابلس وقلعة أنطرسوس وحصن الأكراد .

ومن إمارة أنطاكية بقيت لهم عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب .

ومهما تحدثنا عن أثر انتصارات صلاح الدين على الصليبيين في نفوس المسلمين أو في نفوس الأوروبيين فلن تتسع لنا صفحات هذا الكتاب لتسجل هذه الآثار في الجانبين الإسلامي والصليبي .

١ - ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٩٨٣ هـ

وبحسبى أن أؤكد أن العالم الإسلامى كله عاش أفراحه الحقيقية بهذا الانتصار وأن صلاح الدين ملأ قلوب المؤمنين ثقة وأملا ، وأن العالم الصليبي روعته المفاجأة وخسر جهد مائة عام أنفقها في تأسيس ممالكه وإماراته بغصب أرض المسلمين والعدوان على ديارهم •

وهنا حاولت الكنيسة أن تتخذ موقفا لمواجهة صلاح الدين فأرسل البابا جريجورى الثامن كتبا إلى ملكى انجلترا وفرنسا وإمبراطور ألمانيا يستحثهم على العمل ضد صلاح الدين وما إن مات جريجورى حتى خلفه كليمنت الثالث فأسرع بالاتصال بملوك أوروبا وأمرائها وبخاصة امبراطور ألمانيا •

وكان امبراطور ألمانيا أسرع استجابة فتحرك في شهر مايو سنة ١١٨٩م - ٥٨٥ هـ على رأس جيش كبير قوامه مائة ألف محارب - كما قدره بعض المؤرخين - وقد اجتاز الجيش القسطنطينية وعبر إلى ديار سلاجقة الروم ووصلوا قونية فهاجموا وأحرقوا أسوارها ثم واصلوا سيرهم إلى أرمينيا الصغرى - وكانت صليبية - واستعد صلاح لمقابلة هذا الجيش الكثيف ، فهدم بعض الأسوار كسور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية حتى لا يستغلها الصليبيون إذا وقعت في أيديهم ، وتأهب المسلمون واستعدوا ولكن الله سلم إذ غرق فردريك ببروسا امبراطور ألمانيا وهو يعبر نهرا صغيرا في قيليقية فوفى الله المسلمين شر هذا القتال بموت هذا القائد وتشيتت جنده من بعده فأمن المسلمون الهجوم الموجه إليهم من جهة الشمال •

وبقى الهجوم الفرنسى الانجليزى الآتى من جهة عكا ، وعلى الفور احتشد من الصليبيين أمام عكا أكثر من عشرين ألفا ثم انضم إليهم عدد آخر بقيادة كونرامونتفراى وخيل إلى تلك الجموع أنهم سينتقمون من صلاح الدين ويشأرون لما حدث لهم في حطين •

ولكن صلاح الدين بدأ هجومه عليهم أمام عكا منتصف سنة ٥٨٥ هـ - سبتمبر ١١٨٩م وأنزل بهم خسائر فادحة وساء موقفهم وأوشكوا على الاندحار ، ولكن وباء انتشار

بسبب جيف القتلى فمرض صلاح الدين وأشير عليه بالابتعاد وكان ذلك لصالح الصليبيين فزادوا من تحصيناتهم ووقف الجيشان دون نصر لأى منها شهورا عديدة ، وظلت محاولات صلاح الدين مستمرة للقضاء على الصليبيين في عكا ولكنها لم تنجح ، واستطاعت الكتلة الصليبية أن تخدع الحامية الإسلامية في عكا ، وأن توقع مع قائدها معاهدة وأن تستولى على عكا من جديد .

ثم كانت حروب مع صلاح الدين وملك انجلترا ريتشارد ، استطاع فيها الصليبيون أن يستولوا على أرسوف ، واطمعهم ذلك في مهاجمة بيت المقدس ولكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا من وراء ذلك إلى شيء ، وبعد مناوشات وقع صلح الرملة - على نحو ما ذكرنا آنفا - (١)

ومالبت صلاح الدين أن لى نداء ربه في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٩ هـ أوائل مارس ١١٩٣م وانقسم بعده البيت الأيوبي بين أبنائه وإخوته ، ولم يلق الصليبيون من الأيوبيين هزائم كالتى أوقعها بهم صلاح الدين - على الرغم من الانتصارات التى حققها عليهم كل من الملك الكامل والصالح أيوب وتوران شاه .

ثم تسلم المماليك - قواد بنى أيوب - الراية ليجاهدوا في سبيل الله ويعملوا على طرد الصليبيين نهائيا من الشرق الإسلامى .

١ - في الباب الأول من الكتاب ص ١٠٣ .

و- المماليك

المماليك فى الأصل أرقاء يشترون ويدربون على خدمة السلطان ومنهم من يسرع ويظهر إخلاصاً فيتولى مناصب رفيعة ، فلقد وصل بعضهم إلى مناصب قيادية ، وكثير منهم كان ينال الحرية من السلطان أو من مخدومه .

وكان أول من استعان بالمماليك الخليفة المأمون العباسى ثم توسع فى الاستعانة بهم المعتصم العباسى ، ثم أخذ بهذا المبدأ عدد كبير من السلاطين كالتولونيين والإخشيديين والفاطميين .

فلما كانت الدولة الأيوبية أكثر سلاطينها من شراء المماليك الترك وبنا لهم ثكنات - للمعيشة والتدريب على أساليب الحرب - بجزيرة الروضة بالقاهرة وأطلق عليهم المماليك البحرية .

وقد استطاع المماليك أن يرثوا الدولة الأيوبية بمصر والشام ، واستطاع أن يبرز منهم فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الصليبيين أكثر من واحد كعز الدين أيبك التركمانى والمظفر قطز والظاهر بيبرس وأسرة قلاوون معظمها .

ولقد أدى المماليك خدمة جليلة للعالم الإسلامى بالقضاء النهائى على الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، كما أدوا للعالم كله خدمة جليلة بتصديهم للزحف المغولى المدمر الذى اجتاح الشرق واتجه نحو الغرب - إبان حكم المماليك وقبله بقليل أكد ذلك عدد من المؤرخين المسلمين وعدد من مؤرخى الأجانب .

والحق أن فشل الحملة الصليبية السابعة على مصر ووقوع لويس التاسع فى الأسر كان بفضل الشريعة الإسلامية السمحة التى يحملها المجاهدون المسلمون ، ثم بفضل شجاعة المماليك إذ كانوا عندئذ من أكفأ المحاربين فى جيوش الأيوبيين .

ولم يفتر حماس الممالك في حرب الصليبيين والإصرار على طردهم من العالم الإسلامي بعد أن انتهت الدولة الأيوبية وآل الأمر إليهم ، ولم يقلل هذا الحماس التجاء لويس التاسع بعد فك أسره إلى الشام وتحصين مواقع الصليبيين هناك ولافت عضدهم تحالف لويس التاسع مع المغول ضد الممالك •

ومامن شك في أن المعارك التي خاضها الممالك ضد المغول قد عوقت قضاءهم على الصليبيين في العالم الإسلامي زمنًا غير قصير •

وستظل انتصارات الممالك على المغول في عين جالوت مفخرة لهم أمام الإنسانية كلها ، فضلا عن العالم الإسلامي كله •

وأولى المعارك الحاسمة بين الصليبيين والممالك كانت في عهد بيبرس ، فقد استعد بيبرس للقضاء على الصليبيين في أنطاكية وطرابلس ومابقى من مملكة بيت المقدس ، لذلك سارع كثير من الصليبيين إلى توقيع صلح معه ، ولكن بيبرس حاصر قيسارية سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٢م واستولى عليها • ثم سار إلى قلعة أرسوف واستاق أهلها أسارى إلى القاهرة •

ثم حاصر صفد سنة ٦٦٥ هـ واستولى عليها وأسر أهلها ، وهدم قلعتها وأعاد بناءها ونقش على جدرانها أن الذي جردها هو : « عماد الدين - يعنى نفسه - الذى حول الكنائس إلى مساجد ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين وقراءة الإنجيل إلى ترتيل القرآن »

ثم استولى على شقيف وعلى يافا ، وضرب طرابلس وكل ما يحيط بها من البلاد وقتل كل من وقع في يده من الأسرى •

ثم اتجه إلى أنطاكية - حيث كانت المعركة الحاسمة - فقد كانت أنطاكية تأتيها الإمدادات من البحر من النورماندين وكانت متحالفة مع التتار أعداء الممالك ، وكل ذلك كان من شأنه أن يصرف بيبرس عنها ولكنه لم يفعل فهاجمها وأسر حاكمها ثم استولى

عليها وأشعل فيها النار وقتل وأسر من أهلها قرابة مائة ألف كما تذكر بعض كتب التاريخ .

ولقد كان هذا الانتصار الحاسم سببا في أن طلب ملك أرمينية الصلح مع بيبرس وحذا حذوه أمير طرابلس وملك بيت المقدس ، وقد صالحهم بيبرس ولكنه لم يسكت عن طردهم من العالم الإسلامي في أول فرصة تتاح له .

والحق أنه قبل بهذا الصلح حتى يتفرغ لعدوين خطرين المغول من ناحية والإسمايلية من ناحية أخرى .

ولم يعيش بيبرس ليطرد الصليبيين بنفسه إذ وافاه أجله سنة ٦٧٦ هـ - ١٢٧٧ م .

وثاني هذه المعارك الهامة بين الصليبيين والمالكيين في عهد السلطان قلاوون ، حيث أمن ظروف الدولة أولا ، ثم اتجه إلى حصار اللاذقية فحاصرها واستولى عليها ، ثم هاجم طرابلس سنة ٦٨٨ هـ فحاصرها شهرا ثم استولى عليها ، ودمر المدينة وأسر معظم سكانها .

ولم يبق للصليبيين بعد ذلك سوى صور وعكا وبيروت . وكانت عكا أمتع حصون الصليبيين ، فقرر الاستيلاء عليها وأعد لذلك العدة ولكن منية عاجلته قبل أن ينفذ قراره .

وتولى من بعده السلطان الأشرف خليل ، فحقق لأبيه رغبته فهاجم عكا من جديد سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩١ م ، وعلى الرغم من أن عكا كانت تحصل على إمدادات كثيرة من جزيرة قبرص إلا أن الأشرف خليل حاصرها شهرا ونصف شهر ثم استولى عليها وقتل من أهلها وأسر خلقا كثيرا ، وعادت عكا للمسلمين بعد أن ظلت في أيدي الصليبيين قريبا من مائة عام .

ثم اتجه الأشرف خليل إلى صور وحيفا فأصلاهما من النار والدمار أهوالا شديدة ،
وأما صيدا فقد فر أهلها ، ولم يبق للصليبيين سوى موضعين هما : انطرسوس وعنتيت وكانا
تابعين للداوية ، فاستسلمت الأولى في الثالث من أغسطس سنة ١٢٩١م والثانية في الرابع
عشر من نفس الشهر وبذلك : تكاملت الفتوحات الإسلامية لجميع البلاد الساحلية
وعادت إلى أصحابها المسلمين .

وبأعمال الممالك دالت دولة الصليبيين نهائيا ، وخرج الغزاة إلى غير رجعة ،
وأصبحت بلاد الشام من أقصى شاليها عند قيليقية إلى أقصى جنوبها عند غرة لايعيش
فيها دخيل غاصب ولا صليبي حاقد يضر الشر للإسلام والمسلمين .

وإتماما للصورة ومحاولة لجمع كافة أبعادها نتحدث عن فلول الصليبيين فنقول : إن
الصليبيين بعد هذه الهزائم وبعد زوال وجودهم من الشرق الإسلامي ، استطاعوا أن
يؤسسوا مملكتين صليبيتين في الشرق الأدنى هما : مملكة أرمينية ومملكة قبرص .

أما مملكة أرمينية فقد أسسوها بين جبال طورس والبحر وامتدت إلى حدود إمارة
أنطاكية ، وكان سكانها مسيحيين ، وقد ولدت هذه المملكة بتتويج هنري الرابع ملكا عليها
سنة ١١٩٨م .

وكان الممالك يستطيعون اعتبارها خارجة عن حدود الشرق الإسلامي ، ولكنهم لم
يفعلوا وإنما حرصوا على القضاء عليها ، فقد هاجمها السلطان بيبرس سنة ١٢٦٦م ثم في
سنة ١٢٧٣م .

ثم هاجمها الأشرف خليل سنة ١٢٩٣م ، وهاجمها السلطان الناصر محمد بن قلاوون
سنة ١٣٠١م وفي سنة ١٣٠٤م وظل الممالك يهدونها حتى عام ١٣٢٣م حيث اضطرت إلى
طلب الصلح وأن تحمل للسلطان محمد بن قلاوون مائة ألف درهم كل سنة .^(١)

١ - المفريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك : ٢٤٦/٢ .

وفي عهد السلطان شعبان استولى المماليك بقيادة اشقتمر المارديني على أرمينية سنة ١٣٧٤م وسبق حاكمها ليو السادس أسيرا إلى القاهرة وظل في الأسر حتى افتداه البابا كلمنت السادس .

وهكذا أنهى المماليك هذه المملكة الصليبية وقضوا عليها .

أما قبرص فمن يوم أن سقطت عكا ١٢٩١م أصبحت معقلا هاما للصليبيين في الشرق وفتحت أبوابها لكل منهزم من الصليبيين ، ولما تولى عرش قبرص الملك بطرس الأول لوزجنان جعل من نفسه البطل المناوئ للإسلام والمسلمين ، فكان يعتدى على السفن الإسلامية ويستولى عليها ، ثم لم يكفه هذا فقرر أن يهاجم الإسكندرية في يوم جمعة والمسلمون في المساجد فوصل إلى شواطئ الإسكندرية في التاسع عشر من أكتوبر ١٣٦٥م - ٧٦٧ هـ وكانت ظروف دولة المماليك في مصر سيئة ، فاستطاع لوزجنان أن يعيث في الاسكندرية فسادا ولكنه فر عندما تحرك المماليك إليه ولكنه أخذ معه قرابة خمسة آلاف أسير ، وقد فرحت أوروبا بذلك ، وهنا ملوكها بعضهم بعضا ، كما هناهم البابا ، ولعل ذلك شجع بطرس لوزجنان فأغار على طرابلس سنة ١٣٦٧م وأصبحت قبرص وكرا للمعتدين والمغيرين ، فقرر المماليك التخلص من قبرص كلها .

وفي عهد السلطان برسباي سنة ١٤٢٢م صمم على القضاء على قبرص فأخذ يرسل إليها الحملة تلو الحملة ليتعرف على مايجب عليه عمله ، فكانت الحملة الأولى للاستكشاف وقد أغرقت عددا من سفنهم وعادت بعدد من الأسرى . أما الحملة الثانية فقد استطاعت أن تستولى على فاما جوستا وأن ترفع عليها علم السلطان وأن تغير وتقتل ثم دارت معركة بين المسلمين والقبارصة خسر فيها الصليبيون كثيرا من القتلى ، ورفع المسلمون راية السلطان على لياسول ثم عادت الحملة إلى القاهرة محملة بالأسرى والغنائم .

أما الحملة الثالثة فكانت سنة ١٤٢٦م القاضية إذ استطاعت الجيوش الإسلامية أن

نهزم الصليبيين في لياسول وفي خير وكيثا حيث المعركة الفاصلة ثم اتجهوا إلى نيقوسيا فصلوا الجمعة في كنيستها وتقدم كبار القبارصة طالين الأمان والتسليم فأمنهم المماليك ثم نادوا بأن قبرص : « صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباي »^(١)

وأصبحت قبرص من ذلك التاريخ تابعة لسلطان المماليك وأصبح جانوس نائباً للسلطان في حكمها .

هكذا واجه المماليك الصليبيين وقضوا عليهم وعلى وجودهم في العالم الإسلامي، غير أن دولة المماليك انتهت وللصليبيين فلول وبقايا تكفلت بها الدولة العثمانية ، مما سنتكلم عنه بإيجاز في الكلمات التالية .



١ - العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - مخطوطة بدار الكتب المصرية .

٣ - فلول الصليبيين ، وقضاء العثمانيين عليهم

في كلمات سريعة - وحتى لانخرج عن سمت الكتاب ووعائه الزمني وهو قرنا الحروب الصليبية التي شنت فيها أوروبا الحرب على الشرق الإسلامي - نتحدث في إيجاز عن الوجود الصليبي في رودس •

فكما استطاع الصليبيون أن يقيموا مملكة في أرمينية وأخرى في قبرص وكان للممالك فضل القضاء على هاتين المملكتين ، فإن دولة الفرسان الاستبارية في رودس كانت مثل مملكة أرمينية ومملكة قبرص •

وكانت دولة الاستبارية في رودس نتيجة كذلك لسقوط عكا في يد السلطان الأشرف خليل ، فقد اختار الاستبارية عقب طردهم من الشام أن يقيموا في قبرص ، منتظرين الفرصة للبحث عن مكان يناوشون منه المسلمين •

وحدث أن اتصل بهم قرصان جنوى فيجتولو الذي استولى من البيزنطيين على جزيرتي كوس وليروس وعرض على مقدم الاستبارية التعاون في غزو جميع جزر الدود بكانيز على أن يكون للاستبارية الثلثان وله الثلث •

وقبل الاستباريون وذهب مقدمهم إلى أوروبا ليحصل على موافقة البابا بينما اتجه الجنود بالسفن الجنوية التابعة للقرصان وهاجوا جزيرة رودس وسريعاً ما استولوا على مدينة رودس نفسها سنة ١٣٨٠م ففقدوها البيزنطيون وأصبحت قاعدة للاستبارية واعتبر الغرب الصليبي ذلك نصراً مبيئاً •

وظلت رودس معقلاً ومركزاً ومنطلقاً للإغارة على الأراضي الإسلامية بل وعلى مصر والشام •

وبعد سقوط أرمينية وقبرص - على النحو الذى بينا - أصبحت رودس ملجأ لكل صليبي هارب أو خائف أو طامع ، وحدث من رودس عدوان على رشيد سنة ١٤٣٩م وخربت ودمرت وهربت .

ورد السلطان المملوكى جقمق على ذلك بحملات ثلاث اتجهت لحرب رودس فى السنوات ١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م .

ولم يكن من نصيب الحملتين الأوليين إلا النجاح المحدود ، أما الحملة الثالثة فقد حققت انتصارا هاما على الاستبارية فى رودس مما اضطرهم إلى الاستعانة بأحد التجار الفرنسيين ليتوسط بينهم وبين المماليك .

وظلت العلاقات بين المماليك والاستبارية فى رودس يشوبها الحذر والتوجس حيث كان الاستباريون ينتهزون الفرص للإغارة على السفن الإسلامية مرة بعد مرة .

ولم يكن فى إمكان دولة المماليك - وهى تعيش خريف عمرها - أن توجه لهم ضربة قاضية ، وكل ما استطاعه السلطان الغورى آخر سلاطين المماليك أن ألقى القبض على جميع رجال الدين المسيحي فى القدس ، وعلى الفرنجة فى الإسكندرية ودمياط ، وأغلق كنيسة القيامة سنة ١٥١١م .

ثم شاء الله أن يجعل نهاية الاستبارية فى رودس على يد الدولة العثمانية التى حكمت العالم الإسلامى كله بعد دولة المماليك .

وبعد : فتلك هى نهاية الوجود الصليبي فى العالم الإسلامى ، وهذه هى أم الدول التى واجهت الصليبيين .

ونعود فنؤكد أن ذلك لم يكن نهاية للحروب الصليبية وإنما كان نهاية لمرحلة من مراحلها ، حيث انتقلت بعد ذلك إلى شمال أفريقيا ، ثم عادت من جديد فى شكل دول أوروبا المتحالفة ضد الدولة العثمانية وهى فى خريفها ، ولا تزال مستمرة حتى يومنا وإن غيرت فى شكلها وأساليبها .



الباب الثالث



نتائج الحروب الصليبية

الباب الثالث

نتائج الحروب الصليبية

ويتناول :

أولا : نتائجها في العالم الاسلامى

ويشمل :

أ - فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة

ب - فى إذكاء العواطف الدينية

ج - فى التأثير ببعض العادات

ثانيا : نتائجها فى دول أوروبا

ويشمل :

أ - فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة

ب - فى النهضة العلمية والأدبية والحضارية

ج - فى إثارة المطامع فى العالم الإسلامى

نتائج الحروب الصليبية

كان لابد أن تترك الحروب الصليبية - وقد استمرت قرابة قرنين من الزمان - أثرا واضحا في العالم الإسلامي ، أثرا يتجاوز النواحي السياسية إلى ما هو أعمق من ذلك ، إلى الاجتماع والاقتصاد ، بل إلى الفكر نفسه ، وبغض النظر عن سلبات هذا الأثر أو إيجابياته ، فإن كل تلك السلبات أو الإيجابيات بدت واضحة في العالم الإسلامي في أثناء هذه الحروب ، وبعد انتهائها •

وسنحاول هنا أن نرصد ذلك الأثر في الاجتماع والسياسة والاقتصاد بينما نفرد بابا من أبواب هذا الكتاب لترصد فيه الأثر الفكري أو الأدبي لهذه الحروب ، حيث لم يقف فكر العالم الإسلامي بمعزل عن هذه الحروب ولم يتخل أدها عن أن يرصد ويسجل ، ويشور على سلبات هذه الحروب في المجتمع ، ويدعو إلى الثورة على هذا العدو الغاصب •

وكما كان للحروب الصليبية هذا الأثر في العالم الإسلامي ، فقد تركت كذلك أثرا في العالم الأوروبي شرقيه وغربيه ، بل ربما كان أثر هذه الحروب في أوروبا أعمق من أثرها في العالم الإسلامي ؛ ذلك أن أوروبا الغربية حين شنت بقيادة الكنيسة هذه الحروب على العالم الإسلامي ، كانت تعيش أسوأ ظروفها الاجتماعية وأحط مستويات فكرها وأدها ، فضلا عما كانت تعانيه من قلق سياسي واضطراب اقتصادي •

وما من شك في أن العالم الإسلامي - في ذلك الوقت - على الرغم مما كان يعيشه من انقسام سياسي وفرقة إقليمية ، ومطامع شخصية من بعض الأمراء والقواد ، أذهبت ريع الأمة ومزقت جسم الدولة ، ومكنت العدو المهاجم من أن يقيم على الأرض ممالك استمر بعضها أكثر من قرن وعاش بعضها قرنين كاملين ، على الرغم من ذلك كله ، فإن العالم الإسلامي قد كان على جانب من التحضر في الفكر والعلم والعمران ، لم تكن أوروبا في ظروفها تلك تتمتع بقليل منه •

ومن هنا فإن أثر الحروب الصليبية في أوروبا ، لابد أن يكون أعمق وأشمل .
وهذا ما سوف نتحدث عنه بشيء من التفصيل ، بعد أن نرصد أثر هذه الحروب في
العالم الإسلامي . .

ولا بد أن نشير هنا إلى أن هذه الحروب الصليبية قد جعلت كلام العالم الإسلامي
والعالم الأوروبي يتعرف على الجانب الآخر عن قرب ، تعرفا كشف عن السلبيات التي
يعيشها العالمآن ، وأبرز لدى كل منهما ما عليه الطرف الآخر من إيجابيات ، وذلك معناه
أن يحدث نوع من الروابط والصلات بين الشرق الاسلامي والغرب الأوربي .

ولا نود أن يفهم من كلامنا هذا أن هذه الصلات أو تلك الروابط لم تكن موجودة قبل
الحروب الصليبية ، وإنما الذي نؤكد أنه حجمها قد زاد ، وأن مداها قد اتسع ، وأن نوعها
قد اختلف .

فقد كانت هناك صلات بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي الغربي قبل الحروب
الصليبية ، لكنها كانت في نطاق تبادل الرسائل أو الهدايا ، وفي نطاق تنقل الأفراد
أوالحجاج الأوربيين ، وعلى أقل مستوى من العلاقات التجارية بين أوروبا الغربية وبعض
بلدان العالم الإسلامي كمصر والشام .

كذلك لانتجahl الوجود الإسلامي في الأندلس ، فإنه كان نوعا من الصلات
والروابط التي عرفت العالم الأوربي على الحضارة الإسلامية وأعطته فرصة ليأخذ من هذه
الحضارة شيئا ليس بالقليل ، غير أن الحروب الصليبية قد عمقت هذه الصلات والروابط
بشكل أوسع وأعمق مما فعل الوجود الإسلامي في الأندلس .

وسنحاول في الصفحات التالية من البحث أن نرصد هذه الآثار في العالم الإسلامي
أولا ، ثم في أوروبا الغربية ثانيا ، ونشير إلى أثر هذه الحروب في أوروبا الشرقية - بيزنطة -
في إجمال .

أولا : نتائج الحروب الصليبية في العالم الإسلامي

اتسعت الرقعة الإسلامية أمام الهجوم الصليبي ، فشملت آسيا الصغرى والشام والعراق ومصر ، بل وصلت بعض هجراتها إلى الحجاز عبر الأردن لتهديد الحرمين الشريفين ، واندفعت نحو الغرب الإسلامي لتهاجم تونس والمغرب والأندلس الإسلامية آنذاك .

كما استولت الهجمات الصليبية على عدد من جزر البحر الأبيض ، مما جعل اتصال الصليبيين - بعد استقرارهم في الشرق الإسلامي - ببلادهم عبر البحر أمرا كثير الحدوث . وقد أدى ذلك إلى أن تترك هذه الحروب في العالم الإسلامي آثارا ملحوظة في الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، فضلا عن الفكر والأدب ، مما سنوضحه فيما يلي : -

أ - في الاجتماع والاقتصاد والسياسة :

أما تأثير الشرق الإسلامي بالحروب الصليبية في النواحي الاجتماعية ، فإنه كان تأثيرا سلبيا ، بمعنى أن المسلمين تأثروا بالصليبيين على الصورة التي يأخذها عليهم دينهم ، بل إن أكثر ما تأثر به المسلمون بالصليبيين لم يكن نافعا للمسلمين في مجتمعاتهم ، وإن نفعهم في ظروفهم السياسية حيننا وفي ظروفهم الاقتصادية في بعض الأحيان .

وأبرز هذه الآثار فيما نتصور ، جاءت نتيجة الانتصارات الأولى التي حققها الصليبيون على المسلمين فاغتصبوا أراضيهم وأقاموا عليها ممالك غازية ، ذكرت المسلمين

دائما بأنهم قد انهزموا أمام هذا العدو الظالم ، وألقت في نفوس بعضهم إحساسا بالعجز والفشل ، وفي نفوس بعضهم اقتناعا بأن الانتصار على الصليبيين غير ممكن .

وقد أدى هذا الإحساس عند بعضهم إلى اعتبار جهاد الصليبيين بالقلم واللسان ، قد يغنى عن جهادهم ، بالقوة والسيف والسنان ، بل غالى بعضهم فادعى أن جهادهم بالقلم واللسان لا يقل عن جهادهم بالسيف والسنان .

وقد كان هذا الاعتقاد أول سلبية من سلبات الحروب الصليبية وأثرها في المجتمع المسلم ، ذلك أن المسلم به بين الفاهمين للدين الإسلامى ، أن جهاد العدو الذى اغتصب شبر أرض من بلاد المسلمين فرض عين على القادر من المسلمين ، لا يغنى عنه جهاد بالقلم ولا جهاد بالخطب ولا جهاد بالمؤلفات .

أما أن يكون هذا الجهاد مع ذاك ، فيواكب الجهاد بالقلم الجهاد بالسيف ، فذلك أجدى وأنفع دون شك أو تردد .

والذى نود أن نوضحه هنا أن بعض المسلمين قد اتخذوا من أقلامهم ومؤلفاتهم ميدانا ينازلون فيه الصليبيين تاركين الجهاد بالسيف مع استطاعتهم ، على أننا لا نقصد من إيراد أسماء بعضهم تشهيرا بهم أو انتقاصا من أقدارهم ، وإنما نقصد أن نرصد هذا الأثر الذى تركته الحروب الصليبية فيهم .

فمن هؤلاء الذين قعدوا عن الجهاد بالسيف - وهم عليه قادرون - وآثروا الجهاد بالقلم والمؤلفات : الإمام ناصر الدين أحمد بن منير الإسكندرى قاضى الإسكندرية المتوفى سنة ٦٨٣ هـ - أى بعد بدء الحروب الصليبية بقرابة مائة عام .

فقد صرف الرجل جهده إلى تنبيه المسلمين على ما تضمنه تفسير الزمخشري للقرآن الكريم ، واعتبر ذلك سببا يصرفه عن جهاد الأعداء بالسيف ، ونحن معه فى أن العمل الذى قام به عمل ضرورى ولكنه يمكن أن يؤجل ، أما العمل الضرورى الذى لا يقبل التأجيل فهو طرد العدو الفاصب لأرض المسلمين المعتدى على حرمانهم .

يقول ابن منير معترفاً بذلك مستسيغاً لموقفه ذلك : « ٠٠٠ ولا أجد في تأخرى عن حضور الغزاة غدرا إلا صرف الهمة للتحذير من هذا المصنف - يعنى تفسير الكشاف للزمخشري - فاني تفقّهت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيدا بآيات الكتاب العزيز مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكاييد أهل البدع والأهواء » (١) .

أما الإمام ابن القيم فيرى أن مقاومة الأعداء بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، فيقول في مقدمة كتابه : هداية الحيارى من اليهود والنصارى : « ٠٠٠ ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ، ومجاهدتهم بالحجة والبيان والسيف والسنان والقلب والجنان ، وليس وراء ذلك حجة خردل من الايمان » (٢) .

ولابن القيم قصيدة طويلة تقع في أكثر من ثلاثة آلاف بيت سهاها : « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » كانت نتيجة لشيوع آراء هذه الفرق في تلك الفترة من الزمان ، ولعل ابن القيم - وقد بذل في تأليف القصيدة جهدا كبيرا - قد رأى في تأليفها لونا من الجهاد للكفار والمارقين ، بل عد هذا الجهاد باللسان والقلم مقدما على الجهاد بالسيف ، فقال وهو يقدم هذه القصيدة : « ٠٠٠٠ والجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان ، ولهذا أمر به تعالى في السور المكية حيث لا جهاد باليد إنذارا وتعذيرا فقال تعالى : « ولا تطع الكافرين وجاهدكم به جهادا كبيرا » وأمر تعالى بجهاد المنافقين والغلاة عليهم مع كونهم بين أظهر المسلمين في المقام والمسير ، فقال تعالى : « يأيا النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبيائه ورسوله وخاصته من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والاتفاق » (٣) .

١ - جارا الله الزمخشري : تفسير الكشاف : ٥٧٢/١ سورة التوبة .

٢ - ابن قيم الجوزية : هداية الحيارى من اليهود والنصارى . مقدمة الكتاب .

٣ - ابن قيم الجوزية : القصيدة الكافية الشافية - مقدمة القصيدة . ط الخيرية - القاهرة .

تلك ظاهرة اجتماعية أسهمت في إيجادها الحروب الصليبية ، وليست هي الظاهرة الوحيدة في هذا المجال ، وإنما نبتت بجانبها ظاهرة أخرى ربما كانت في خطرها أو أخطر منها :

تلك هي ظاهرة ترك الجهاد كلية استغناء عنه بالإفراط في العبادة من صلاة وصيام واعتكاف وذكر وتسبيح ، ظانين أن ذلك يغنيهم عن مجاهدة أعدائهم والعمل على طردهم من بلاد المسلمين •

ولقد اتخذ الناس إلى ترك الجهاد سبلا عديدة ، منهم من كان يهاجر إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة ليجاور أحد الحرمين منقطعا عن جهاد أعداء الله بمجاورة بيت الله في مكة أو المدينة ، وذلك خطأ وقعود عما أوجب عليهم من جهاد أعدائه ، فضلا عما فيه من التشبه بالديرين من النصارى الذين ينقطعون في أديرتهم عن كل شيء وعن كل أمر من أمور الحياة ، كما هو رهبانية ليست في الإسلام •

ولقد كان من هؤلاء القاعدين عن الجهاد عدد ممن نالوا شهرة في بعض البلدان الإسلامية - عند العامة - كأحمد البدوي وعمر بن الفارض ، فقد كان أحمد البدوي قاعدا عن الجهاد يجمع حوله الأتباع ويحدثهم عن الإسلام أحاديث لاتستقيم مع أدب الشريعة الإسلامية التي أخذت به المسلمون مثل قوله : « إن ركعة واحدة في الليل تعدل ألف ركعة في النهار »^(١) وكقوله : « إن الفقراء كالزيتون ، وفيهم الصغير والكبير ومن لم يكن له زيت فأنا زيت » ، وكرفضه الزواج لأنه كتب له أن يتزوج من الحور العين ، وكلزومه السطوح ، وتقليد أتباعه له حتى سمو « بالسطوحية » •

وأما عمر بن الفارض فقد كان من القاعدين عن الجهاد الغارقين في تأليف القصائد الطوال في مدح الحمرة الإلهية ، وما سيعده الله له من خمر وحر •

ولقد حمل الإمام المجاهد ابن تيمية على من تركوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحادوا عن نهجه في جهاد أعداء الله ، حيث يقول : « ... والعاجز عن الجهاد بنفسه

١ - أحمد البدوي : الوصايا

يجب عليه الجهاد بماله في أصح قول العلماء ، وهو احدى الروايتين عن أحمد ، فإن الله أمر بالجهاد بالمال والنفس في غير موضع من القرآن ، وقد قال الله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم » أخرجاه في الصحيحين ، فمن عجز عن الجهاد بالمال ، لم يسقط عنه الجهاد بالبدن » (١) .

ولقد علق الحافظ الذهبي على عمر بن الفارض فقال : « عمر بن علي المعروف بابن الفارض ، حدث عن القاسم بن عساكر ، ينشق بالاتحاد الصريح في شعره ، وهذه بلية عظيمة ، فتدبر نظمه ولا تستعجل ، ولكنك حسن الظن بالصوفية وما ثم إلا زى الصوفية وإشارات مجملة وتحت الزى فلسفة وأفاع ، فقد نصحتك والله الموعد .. » (٢) .

ومن السبل التي اتخذها بعض الناس لترك الجهاد تلك الدعوة إلى الزهد في الدنيا واحتقار ما فيها ، والعيش منها على الكفاف ، فأخذوا يمدحون الجوع والعري والفقر ، مما أقعد الناس عن السعي في طلب الرزق فأصيبوا بالكسل والتراخي وضعفت عزائمهم فكان ذلك من أسباب تفوق عدوهم عليهم ، ومن دعوا إلى هذا الزهد الزائد المضيع الغزالي صاحب « إحياء علوم الدين » فقد قال : « اعتبروا بعيسى المسيح عليه السلام ، فقد قيل عنه إنه لا يملك إلا ثوبا واحدا لبسه عشرين سنة ، ولم يأخذ معه في كل سياحته إلا كوزا وسبحة ومشطا ، وذات يوم رأى رجلا يشرب من نهر بحفنتيه فطوح الكوز ولم يستعمله ثانية ، ثم رأى رجلا يمشط لحيته بأصابعه فطرح المشط ولم يستعمله ثانية » . وكان يقول : حصاني قدامى ، وبيوتى مغائر الأرض وطعامى خضرتها وشرابى من ماء أنهارها ومقرى بين بنى آدم » (٣) .

١ - الإمام أحمد بن حنبل : الحسبة : ٣٢ .

٢ - الحافظ الذهبي : ميزان الاعتدال : ٣٦٦/٢ ط السعادة القاهرة .

٣ - الإمام الغزالي : الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة .

وتلك دعوة تبنّاها من بعد الغزالي أحمد البدوي وعشرات أمثاله - وهي التي أصابت المسلمين بكثير من الأضرار ، وأين قول الغزالي : اعتبروا بعيسى المسيح عليه السلام ، مما يجب على كل مسلم من اتخاذ محمد صلى الله عليه وسلم قدوته وأسوته ؟ وأين هي تفصيلات حياة المسيح عليه السلام إذا قورنت بالصورة الدقيقة المفصلة لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ومن المسلمين من اتخذ سبيله إلى ترك الجهاد بتأليف الكتب والرسائل والمقالات في يوم القيامة ، والدجال وظهور عيسى ، والجنة ونعيمها وأبوابها وجدرانها وأرضها وقصورها وحورها ، حتى إن الحديث عن نساء الجنة شغل بعض أفاضل العلماء ، فقالوا في ذلك شعرا كثيراً ، وناقشوا قضايا جزئية فرعية لا أهمية لها بالنسبة لما كان يعانيه المسلمون من متاعب ومشكلات وانهازمات أمام الصليبيين •

كما أن عددا من العلماء والشعراء لجئوا إلى القصائد النبوية يمدحون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستشفعون به ، ومنهم من كان يطلب منه النصر على الأعداء ! ومن المعروف أن ذلك غير جائز شرعاً ، وبخاصة بعد وفاته ﷺ •

لقد شاعت المدائح النبوية في هذا العصر ، واتجه فيها الشعراء إلى الإفاضة في الحديث عن انتصارات النبي على أعدائه ، وما مده الله به من ملائكة ، على أن بعض الشعراء بالغ في هذه المدائح فخرج بها عن السمت المطلوب فأخذ بعضهم يتحدث عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم في جسمه وشكله ، وأخذ بعضهم يقص رؤى وأحلاما رآها وكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه الرسول وأوصاه ، وامتلأ الأدب بهذه الأمور •

ومن أشهر الشعراء الذين كان لهم في هذا الميدان قدم وساق : البوصيري صاحب البردة ، الذي يروى في إنشائه لهذه القصيدة قوله : أصابني فالج فأبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة ، فعلتها واستشفعت به - يعنى النبي - إلى الله تعالى أن يعافيني ، وكررت إنشادها وبكيت ودعوت وتوسلت ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ،

فمسح على وجهي بيده المباركة وألقى على بردة فانتبهت ووجدتني في نهضة فقممت
وخرجت من بيتي ، ولم أكن أعلمت بذلك أحدا ، فلقيني بعض الفقراء^(١) فقال لي :
أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أيها ؟
فقال : التي أنشأتها في مرضك وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين
يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأيل !
وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة ، فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام^(٢) .

ولقد حظيت بردة البوصيري تلك بما لم تحظ به قصيدة في الأدب العربي إذ شطرت
ومخست وشرحت وعورضت ، بما لا نظير له في عصر من العصور ولا لقصيدة من
القصائد .

ومن الظواهر الاجتماعية التي تسببت فيها الحروب الصليبية استحداث مدن في العالم
الإسلامي لم يكن لها وجود ملحوظ من قبل . مثل مدينة قوص وثر عيذاب على البحر
الأحمر .

ذلك أن الصليبيين وقد استولوا على فلسطين معظمها وعلى ثغورها أغلبها زاد خطرهم
وعظم شرهم ، فأصبح الطريق المألوف للحجاج بيت الله الحرام من أهل الأندلس وأهل
شمال إفريقيا غير مأمون .

فاتجه هؤلاء الحجاج إلى أن ينزلوا مصر ثم يأخذوا طريق النيل إلى جنوبي القاهرة
حيث مدينة قوص . ومنها إلى ثغر عيذاب على البحر الأحمر حيث يركبون البحر الأحمر إلى
البلاد المقدسة .

وترتب على ذلك أن عظم شأن قوص وكثرت بها المدارس والمعاهد والمساجد وقصدها
العلماء ، ونزلوا فيها ، وبرز منها علماء في الحديث وفي الفقه وفي النحو ، وكثرت فيها الأدباء

١ - كانت كلمة فقير في ذلك الوقت تعني في الغالب : « صوفيا » .

٢ - مقدمة قصيدة البردة ط - القاهرة دون تاريخ . وذكرها ابن شاعر الكتيبي في تاريخه باختصار .

والشعراء ، لأنها أصبحت محط رحال الحجاج ، فاستفادت من هذه الحروب ما أذاع ذكرها وأشاع اسمها بين المدن الإسلامية ، وكذلك شاع أمر عذاب وذاع صيتها •
وبعد فتلك هي أبرز الظواهر الاجتماعية التي تسببت الحروب الصليبية في إيجادها أو تطوير وجودها •

أما تأثير الحروب الصليبية في الحالة الاقتصادية للعالم الإسلامي • فيمكن أن نلمسه في جانبه الإيجابي والسلبي على النحو التالي :

في الجانب الإيجابي الذي أدى إلى ترويج التجارة ، ونقل حاصلات الشرق ومنتجاته إلى أوروبا ، وذلك أن المدن الأوروبية التجارية الكبيرة في ذلك الوقت : جنوا والبندقية وبيزا ، قدمت للغزاة الصليبيين - على مدى قرنين من الزمان - أكبر المساعدة البحرية مما مكن للصليبيين من ثغور الشام معظمها ، في مقابل أن تحصل على امتيازات تجارية في ممالك الصليبيين بالشام وفي الثغور التي كانت تحت أيديهم •

وسريعا ما قام التجار الأوروبيون من إيطاليا ومرسيليا وإسبانيا بنشاط تجارى ضخم بين الشرق والغرب ، حيث أسسوا في بلدان الشرق الإسلامي مراكز تجارية هامة تمثلت في أحياء تجارية في عكا وصور وصيدا والسويدية واللاذقية وغيرها •

ومن هذه المراكز التجارية حملت حاصلات الشرق ومنتجاته إلى الغرب الأوربي ، ولقد كانت حاصلات الشرق كالمنسوجات القطنية والحريية والأواني الزجاجية المصنوعة في صور - والآلء والأحجار الكريمة - التي كان يرد بعضها إلى الشرق الإسلامي من سيلان والهند ، والعاج والأخشاب والعقاقير والتوابل التي كانت ترد إلى الشرق الإسلامي من الشرق الأقصى •

كل هذه المنتجات والمصنوعات المتوافرة في الشرق تدفقت على أوروبا من الشرق الإسلامي ، متخذة طريق القوافل من الشرق الأقصى وغيره إلى الشرق الإسلامي

العربي عابرة العراق حيناً والشام أحياناً لتستقر في الثغور التي احتلها الصليبيون في الشام ، ومنها تعبر البحر إلى أوروبا .

كما استفادت التجارة رواجاً نسبياً عن طريق بعض الثغور المصرية كالإسكندرية ودمياط التي تنقل منها المصنوعات والمنتجات إلى الغرب الأوربي .

وإذا كانت موانئ الشام ومدنه التجارية قد حققت كثيراً من النشاط التجاري على مدى فترة الغزو الصليبي ، فإن السنين الأخيرة وبخاصة بعد ظهور المغول وسيطرتهم على أجزاء كبيرة من الشرق الإسلامي ، حوّلت هذا النشاط عن الثغور والمدن الشامية إلى طريق آخر شجعه المغول فانتقلت عبره منتجات الشرق إلى أوروبا وهو الطريق من الصين إلى تركستان إلى موانئ البحر الأسود حيناً أو إلى ميناء إيباس على البحر المتوسط في أحيان قليلة .

ولما وقعت العراق في أيدي المغول أقفلوا الطريق التجاري الذي كان يمر بالخليج الفارسي فالعراق فدمشق ومنها إلى ثغور الشام .

كل ذلك لم يقلل النشاط التجاري بصورة ضارة وإنما غير طرقة وقلل من شأن هذه الثغور الشامية .

غير أن مصر - وقد بقيت بمعزل عن الخطر المغولي - نشطت ثغورها في العمل التجاري وزادت عن ذي قبل ، فأصبح طريق البحر الأحمر ثم ثغور مصر في الإسكندرية ودمياط هو الطريق الأنشط في التجارة ، وأصبحت الإسكندرية ودمياط مركزين لنشاط تجاري كبير ، فقصدتها السفن الأوربية تحمل منها حاصلات الشرق - العابرة إليها - وكان لسفن البندقية وجنوا وبيزا ، عمل دائم في هذه الثغور .

كما كان لتجار مرسيليا وإسبانيا حركة ونشاط - وبخاصة - في ابتياع التوابل والبخور والمنسوجات من حاصلات الشرق ، وعلى الرغم من العداء بين المسلمين والصليبيين في صورته القتالية الضارية ، فإن بعض سلاطين المماليك رحبوا بعدد من الجاليات التجارية

- الصليبية - وسمحوا لهم بأن يقيموا في الإسكندرية ودمياط ، بل يكون لهم قنصل يشرف على شئونهم ومصالحهم ، وإذا حدث من أحدهم ما يشين الإسلام طلب من القنصل مؤاخذته وربما أبعد عن البلاد .

وقد كان هذا النشاط التجارى الواسع الذى عاد - دون شك - بفوائد اقتصادية على بلدان الشرق الإسلامى ، كان نتيجة للحروب الصليبية ، وهذا ما أردنا أن نرصده فى هذه الصفحات من البحث فى الجانب الإيجابى من أثر الحروب الصليبية فى الحياة الاقتصادية للشرق الإسلامى .

ونود أن نوضح أن هذا النشاط التجارى لم يؤد فائدته لبلاد المسلمين إلا بعد أن استقر الصليبيون نسبيا وأنشئوا ممالكهم فى الثغور الشامية ، لكنها كانت فائدة محوطة فى الغالب بالقلق والمخاطر ، ولم تكن موضع رضا المخلصين من الحكام المسلمين ، الذين عملوا على ضرب الوجود الصليبي فى الشرق الإسلامى وطرد هذا النفوذ إلى خارج البلاد ، ولتكن التجارة بعد ذلك بين بلاد لا تحتل واحدة منها أرض الأخرى .

ولنتحدث الآن عن الجانب السلبي للحروب الصليبية فى حياتنا الاقتصادية أثناء هذه الحروب الصليبية .

من الواضح أن الحروب أدت إلى خسائر فى الأرواح وفى الأموال والممتلكات بل ربما أدت إلى دمار كامل لبعض المدن وبعض الثغور ، وهذا بالضرورة يحدث كسادا تجاريا من جانب وخللا اقتصاديا من جانب آخر .

وإن نظرة إلى ما تركته الحروب الصليبية فى الشرق الإسلامى من أهوال لتدلنا على مدى ما عانت به البلاد من تخريب لبعض المدن ، وتعطيل لكثير من الصناعات وتضييع لكثير من المحاصيل الزراعية ، واختلال للأمن ، وإشاعة للسلب والنهب - إذ الدولة وسلطانها

١ - خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك : ٤٦ باختصار وتصرف .

مشغولة بالحرب أكثر من انشغالها بتأمين الناس على حياتهم - فضلا عن أن بعض الحكام كان يصادر ممتلكات الناس من أجل هذه الحروب .

كل هذا أدى - في مصر والشام - إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا أعجز كثيرا من الناس عن الحصول على ضرورياتهم .

ففى عهد السلطان الناصر صلاح الدين طلب الصليبيون عقد هدنة معه ، ولكنه آثر الاستمرار فى الحرب ضدهم ، ولكن مستشاريه عارضوا رأيه ونصحوا بقبول الهدنة لسوء الأحوال الاقتصادية فى البلاد .

وقد وصف العماد الأصفهاني هذا الحوار بين صلاح الدين ومستشاريه فى هذا الموقف فقال : « ... فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعثت ، والرعايا فإنها تعكست وتعلت^(١) ، والأجناد فإنها نصبت ووصبت ، والجياذ فإنها عطلت وعطبت ، وقد أعوزت العلوفات وعزت الأقوات وبعدت عنا العمارات ، وغلت الغلات ، ولا جَلَب إلا من الديار المصرية مع ركوب الأخطار المهلكة فى البرية ، وهذا الاجتماع مظنة التفريق ، ولا يدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق ، فإن المواد منقطعة ، والمواد^(٢) ممتنعة ، والمترب قد ترب ، والمعدم قد عطب ، والتبن أعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالى السعر ... »^(٣) .

هذا وصفه لأحوال الشام ، وما كانت مصر بأحسن حالا من الشام ، وكلتاها كانت فى حكم صلاح الدين ولم تكن سائر أجزاء الشرق الإسلامى بأحسن من ذلك وقد وصف عبد اللطيف البغدادى وعدد من المؤرخين سوء الأحوال الاقتصادية فى العالم الإسلامى فأفاضوا ، مما لا نحى أن نورده اكتفاء بما نقلناه عن الأصفهاني .

١ - اختلطت واضطربت .

٢ - جمع جاذة وهى الطريق أو مُعْظَمُهُ .

٣ - العماد الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى .

أما تأثير الحروب الصليبية في الحالة السياسية :

فلعل ما قدمناه من حديث عن تأثير الحروب الصليبية في العالم الإسلامى من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية كان واضحاً إلى درجة محدودة ، لم تتجاوز القشرة الاجتماعية للمسلمين ، ولم تتعد أولئك البسطاء من الناس الذين لا يحسنون التمسك بدينهم ولا المحافظة المجادة على سننه وآدابه ، ذلك أن المسلمين - وقد كرهوا الصليبيين وعرفوا عيوبهم عن قرب - لم يحاولوا تقليدهم في عاداتهم الاجتماعية ولم يحاكمهم في نظمهم الإدارية ، وإنما ظل للمسلمين مجتمعهم المطبوع بطابع دينهم ، كما ظلت لهم نظمهم الإدارية التى توارثوها جيلاً عن جيل .

كان هذا في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، أما في الناحية السياسية فإن الأمر قد اختلف إلى حد كبير ، حيث أسهمت الحروب الصليبية في إحداث تغيرات سياسية كبيرة في العالم الإسلامى .

وسنحاول أن نرصد الآثار السياسية للحروب الصليبية في العالم الإسلامى في

مجالين :

الأول : اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم تحت قيادات مخلصه .

والثانى : إضعاف الدولة الرومانية الشرقية - بيزنطة - مما أدى إلى الاستيلاء عليها

نهائياً ، بعد انتهاء الحروب الصليبية بزمان غير بعيد .

أما وحدة المسلمين في مواجهة الصليبيين ، فكانت نتيجة ضرورية لتلك الهجمات

العنيفة التى وجهها الصليبيون للعالم الإسلامى .

فقد كان العالم الإسلامى - أثناء الحروب الصليبية - مفكك الأوصال يعيش فترة ،

تعد من أسوأ فترات حياته من الناحية السياسية .

فقد كانت بلاد الشام مفككة مضطربة يتنازعها عدد من الأمراء لا تربط بينهم رابطة

سياسية .

وكذلك كانت بلاد فارس ، وكانت الخلافة العباسية في بغداد تفقد في كل يوم جزءا من أرضها وقدرها من هيبتها ، ولم يكن أمر مصر - والخلافة الفاطمية فيها - تلفظ أنفاسها الأخيرة بأحسن حالا من الشام والعراق وما وراء النهر ، كذلك الحال في سائر الشرق الإسلامي .

هاجم الصليبيون العالم الإسلامي واستطاعوا في حملتهم الأولى أن يستولوا على بيت المقدس لا بسبب قوتهم وحسن إدارتهم أو بسالة مقاتليهم ، وإنما أكبر الأسباب في ذلك هو ضعف العالم الإسلامي وتفرق كلمته وذهاب ريحه .

وإذا كانت الخلافة العباسية التي كانت رمز اتحاد المسلمين وعنوان جمع كلمتهم قد ضاع منها بلاد فارس التي استبد بها السلاجقة ، وضاعت منها الشام التي استبد بها الأتابكة البوريون ومن بعدهم الزنكيون ، وضاعت منها الموصل حيث استبد بها الزنكيون ، كما ضاعت حلب وضاعت سنجار وضاعت الجزيرة وإربل وديار بكر ، كل ذلك حكمه الأتابكة مستقلين به عن الدولة .

كما انتقص الأراقة أطراف الدولة الكبرى ، فانفصلوا بكيفا وماردين ، ثم استبد الشاهات بأرمينية ، بل تقسم الحكام أرمينية فيما بينهم فقامت فيها دولة أخلاط التي أسسها سقمان القطبي سنة ٤٩٣ هـ والحروب الصليبية على وشك القدوم إلى العالم الإسلامي .

كما استبد بعض الأتابكة بأذربيجان ، ومن قبلها انفصلت كرمان ، حتى العراق نفسها مهد الخلافة العباسية استبد بالأمر فيها سلاجقة العراق وكردستان ، كما استبد بآسيا الصغرى سلاجقة الروم .

هكذا بدت الدولة العباسية في شكل ولايات متعادية يطمع رئيس كل ولاية في أن يوسع ولايته على حساب ولاية جيرانه ، كان ذلك كله في الوقت الذي تستعد فيه أوروبا لشن أعنف حرب وحشية على العالم الإسلامي .

أما الدولة الفاطمية - الدولة الثانية من حيث القوة حيننا والأولى حيننا آخر - والتي كانت رمزا لقوة المسلمين على مدى طويل من الزمان ، أما هذه الدولة فقد جاءتها الحروب الصليبية وهي في أضعف أوقاتها وظروفها ، فقد كانت تعيش اضطرابات داخلية عنيفة أدت إلى سقوط هيبة الخلفاء واستبداد بعض الوزراء بالحكم والسياسة ، فعمد أن توفي الخليفة المستعلي في شهر صفر من سنة ٤٩٥ هـ وتولى من بعده ابنه الأمر ، ووزيره الأفضل ، منذ ذلك الوقت الذي استبد فيه الأفضل بالحكم وحال الخلافة الفاطمية تسرع نحو النهاية السيئة ، بل نحو الفناء ، فالاضطرابات الداخلية والقلق السياسي وتنازع الوزراء كل ذلك عاصر فترة العدوان الصليبي على الشرق الإسلامي ، وكل ذلك أدى إلى عجز المسلمين في بداية الأمر عن مواجهة الصليبيين .

هكذا كان العالم الإسلامي في فترة الحروب الصليبية يعاني فرقة وانقسامًا وقلقًا واضطرابًا ، وهو أمر وإن سهّل على الصليبيين الاستيلاء على أجزاء من الشرق الإسلامي حتى أسسوا فيه ممالك ، إلا أنه من جانب آخر ، قد دعا المخلصين من قواد المسلمين إلى العمل السريع على توحيد الشرق الإسلامي والقضاء على منازعاته وخلافاته لمواجهة الصليبيين صفا كالبنيان المرصوص .

ومن الحق المسلم به أن الحروب الصليبية أدت اتحاد المسلمين وتناسي ما بين عدد من الحكام والأمراء من حزازات شخصية لخوض المعركة الفاصلة مع الصليبيين .

ومن الشخصيات التي لمعت في جمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم ضد الصليبيين :-
عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وإصلاح الدين الأيوبي عليهم رحمة الله ورضوانه فقد كان هؤلاء الثلاثة أبطالاً في مواجهة الصليبيين وفي تحقيق الانتصارات عليهم ، فما إن

فضى عماد الدين زنكى نحيه حتى تلقف راية الجهاد من بعده نور الدين محمود ، فهزم الصليبيين واستعاد منهم كثيرا من بلاد المسلمين ، وما أن وافاه أجله ، حتى برز صلاح الدين للوجود ، وحقق على الصليبيين انتصارا ساحقا تاريخيا في حطين ، ثم استعاد منهم بيت المقدس ، ووضع لمن جاء بعده من أسرة بنى أيوب أو للمماليك الذين ورثوا حكم بنى أيوب وضع لهم الأسلوب الصحيح الذى يحققون به الانتصارات على الصليبيين وهو أسلوب رفع راية الجهاد فى سبيل الله من جانب وتوحيد صفوف المسلمين من جانب آخر .

فقد استطاع صلاح الدين أن يوحد العالم الإسلامى فى جبهة قوية واجهت الصليبيين وقضت على آمالهم فى الشرق الإسلامى .

فلقد كان صلاح الدين بطلا من أبطال المسلمين استطاع منذ تولى شئون مصر ٥٦٤ هـ بعد إسقاط الخلافة الفاطمية إلى أن توفاه الله سنة ٥٨٩ هـ أن يجعل من مصر والشام وحدة قوية واجه بها الصليبيين وانتصر عليهم ورسم معالم الطريق لكل من يريد أن يحقق النصر على عدوه ، وهى : الجهاد فى سبيل الله وتوحيد كلمة المسلمين .

وإن أعمال صلاح الدين الجليلة فى توحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم لتعد أثرا هاما من آثار الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى .

فلقد استقر الأمر لصلاح الدين فى مصر وكان يستطيع أن يكتفى بهذا وفيه من الخير له مالا يطمع حاكم فى أكثر منه ، ولكنه مدّ بصره إلى الشام إلى الشرق الإسلامى الذى يجثم على أرضه عدو غاصب ، فوضع نصب عينيه أن يفضى على هذا العدو وأيقن أن النصر حليف الاتحاد فأخذ فى العمل من أجل وحدة المسلمين وجمع كلمتهم فدانت له الشام كلها وحلب ومصر واليمن وغيرها ، وكان يمكن أن يكتفى بهذا وفيه مقنع لأى طموح، ولكنه استعد للمعركة الفاصلة مع الصليبيين فهزمهم أسوأ الهزائم فى حطين ثم استولى على حصن طبرية ثم على عكا ونابلس والرملة وقياسارية وأرسوف ويافا وبيروت وصور وطرابلس وعسقلان ثم على بيت المقدس ، الذى كان لاستيلائه عليه رنة فرح فى

العالم الإسلامي كله ، تحدث بها الأدباء والشعراء ، بل ألّفت فيها الكتب وألّقت الخطب ونُفِقت المقالات •

ولقد نهض بعبه توحيد كلمة المسلمين من بعد حكم بنى أيوب سلاطينُ المماليك فاستطاع غير واحد منهم أن ينتصر على الصليبيين انتصارا ساحقا ، فكانت انتصارات الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون على الصليبيين موضع إعجاب العالم الإسلامي كله من جانب ، وكانت المعالم البارزة التي مكنت السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن يجهز على الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي كله ، يوم استعاد منهم أمنع الحصون وأعتاها « عكا » وطردهم إلى غير رجعة •

هذا عن المجال الأول الذي تركت فيه الحروب الصليبية أثرا في حياة المسلمين السياسية ، فأدت إلى توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم ، وانتصارهم على عدوهم •

أما المجال الثانى الذى أثرت فيه الحروب الصليبية في حياة المسلمين السياسية ، فهو إضعاف الدولة الرومانية الشرقية - بيزنطة - وإعدادها لتلقى مصيرها المحتوم على أيدي المسلمين من آل عثمان فيما بعد ذلك بزمن غير بعيد •

فقد كانت الدولة البيزنطية قبل الحروب الصليبية سدا منيعا في وجه الفتوح الإسلامية حالت بين المسلمين - قرونا من الزمان - وبين الامتداد إلى أوروبا فترة طويلة من الزمان •

ولقد استغاثت الدولة البيزنطية بأوروبا من سلاجقة الروم ، وقد قامت الحملات الصليبية الأوروبية بتقوية الدولة البيزنطية وتأمينها من خطر السلاجقة أول الأمر ، ولكن ما مضى على الوجود الصليبي الأوربي في الشرق الإسلامي سوى زمن قليل ، حتى تحركت أطماع الأوربيين « الكاثوليك » في أملاك الدولة البيزنطية « الأرثوذكسية » ، وسريعا ما أحسّت الدولة البيزنطية أن الصليبيين الأوروبيين أشد خطرا عليهم من السلاجقة ، ذلك أن الصليبيين الأوروبيين حرصوا على الاستيلاء على البلدان والمدن التي تقع في أيديهم

من المسلمين - وإن كانت في الأصل للدولة البيزنطية ، بل حرصوا على إقامة ممالك مناوئة للدولة البيزنطية مثل مملكة أنطاكية . واستمر الصراع بين قادة الصليبيين في الشرق الإسلامي ، وأباطرة الدولة البيزنطية ، فضلا عما قامت به الجموع الصليبية المتبريرة من عدوان على كثير من أملاك الدولة البيزنطية في البلقان وآسيا الصغرى ، ثم تناسى صليبيو أوروبا أن الدولة البيزنطية صليبية مثلهم فظلت الأمور تسوء بينهم إلى أن وصلت إلى حد الحرب السافرة التي قضى فيها الصليبيون الأوروبيون على الدولة البيزنطية قضاء كاملا ، وأقاموا مكانها دولة - أو امبراطورية - لاتينية إقطاعية ، استمرت تحكم الدولة الرومانية الشرقية أكثر من نصف قرن من سنة ١٢٠٤ م إلى سنة ١٢٦١ م ، حيث استولت الحملة الصليبية الأوربية الرابعة على القسطنطينية - بيزنطة - عاصمة الدولة وقضت عليها ، وكان ذلك من أهم ما أضعف أمر الصليبيين في الشرق الإسلامي .

نعم استطاعت الدولة الرومانية الشرقية أن تسترد نفوذها بطرد الوجود الأوربي من أرضها ، ولكنها ضعفت وتضعضت ، وكان ذلك من فضل الله على المسلمين ، حيث استطاع العثمانيون فيما بعد القضاء النهائي على الدولة الرومانية الشرقية والاستيلاء على القسطنطينية وجعلها من أكبر عواصم العالم الإسلامي في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادية ، من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الهجري وبعض القرن الرابع عشر الهجري .

بهذا ظهر أثر الحروب الصليبية في الحياة السياسية للعالم الإسلامي في المجالين اللذين أشرنا إليهما ، ثم بسطنا فيها القول على النحو الذي يكشف أبعاد هذا التأثير . وإن كان لا يتتبع كل أثر .

ولعل بذلك أكون قد أوضحت أثر الحروب الصليبية ونتائجها في الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، لأتحدث بعد ذلك عن نتائجها في تأريث العداء بين المسلمين والصليبيين ، مما كان له آثار متعددة نرجو أن نوضحها فيما يلي من البحث بإذن الله تعالى .

ب - فى إذكاء العواطف الدينية :

لا يشك منصف فى أن الحروب الصليبية وما صحبها من ضراوة الصليبيين التى واجهوا بها المسلمين ووحشيتهم وقسوتهم فى قتل النساء والأطفال والشيوخ فى كل بلد إسلامى وقع فى أيديهم ، لا يشك منصف فى أن ذلك أذكى عند كثير من المسلمين عواطف اتدين وأعاد من كان ند منهم عن هدى دينه إلى التمسك بأهداب الدين •

وإن تلك المذابح المتبربرة التى قام بها الصليبيون فى بيت المقدس غداة استيلائهم عليه ، وفى كثير من بلدان المسلمين التى وقعت فى حوزتهم ، لكفيلة بأن تجعل كثيرا من المسلمين الذين غفلوا عن أمر دينهم وما يضمه لأهله من عزة ، يشوبون إلى رشدهم ويعودون الى مصدر عزتهم وانتصارهم ، فيقبلون على القرآن الكريم وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى سيرته ، وسيرة السلف الصالحين •

استيقظت فى نفوس المسلمين - آنذا - حمى الإسلام وبرزت أمام عقولهم وعيونهم أمجاد الأسلاف فى الجهاد والانتصار على أعداء الله ، ووجدوا آيات الكتاب الكريم أحاديث المعصوم صلى الله عليه وسلم تناديهم بالجهاد فى سبيل الله والتضحية بالمال والنفس من أجل دين الله ، فاستجابوا - وكأنهم لم يقرأوا تلك الآيات من قبل •

وعاشت فى قلوبهم آيات الجهاد وأحاديثه ، فرفعوا ألوية الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن دين الله ، وأفاقوا على أن الصليبيين يقاتلونهم جميعا ، بينما المسلمون يقاتلون الصليبيين مفرقين ، فقيض الله لهم المخلصين من القادة الذين رفعوا راية الجهاد فى سبيل الله بدلا من راية الدفاع عن الأرض ، ووجدوا صفوف المسلمين فقاتلوا أعداءهم صفا كأنهم بنيان مرصوص •

وبرزت مع هذا الوعى شخصيات من قادة المسلمين الواعين ، فملأ اسم عماد الدين

زكى سمع العالم الإسلامى : وَقَفَّاهُ من بعده ولده نور الدين محمود الذى حقق على الصليبيين بعض الانتصارات وهم فى أوج منعتهم .

وكان صلاح الدين الأيوبي معلمة هادية فى مجال توحيد العالم الإسلامى وجمع شمله ورفع راية الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، حتى إنه بعد أن هزم الصليبيين هزيمتهم التاريخية فى حطين واستعاد بيت المقدس بعد إذلال الصليبيين ، وخيل لمن يرقبون الأحداث من الناس أن صلاح الدين قد أدى ما عليه وليس أمامه بعد ذلك إلا الدعة والراحة وجنى ثمار النصر الشهية إذا به يقول لأصحابه : « فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمتُ البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره ، وابتعثتهم فيها حتى لا ألقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » ^(١) .

ووقف الناس خلف هؤلاء الزعماء مجاهدون فى سبيل الله ويقاتلون عدو الله وآيات الجهاد فى القرآن الكريم تملأ قلوبهم وأعمالهم ، وكلهم يحدث نفسه بقول المولى عز وجل : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » ^(٢) . واستطاع المسلمون فى أكثر من موقعة أن يذيقوا الصليبيين وبال عدوانهم على يد هؤلاء الأعلام من قادتهم .

وما هى إلا فترة وجيزة فى عمر الأمم حتى استطاعت الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن تزيل الوجود الصليبي من الشرق الإسلامى إزالة كاملة باجلائهم عن آخر الثغور الإسلامية التى كانت فى أيديهم « عكا » .

ولقد تركت هذه العواطف الدينية - التى أذكتها الحروب الصليبية - فى نفوس المسلمين وفى المجتمع كله آثارا لا يمكن إنكارها ولا التقليل من شأنها ، لأنها أدت إلى نتائج عديدة فى المجتمع وفى العلم والأدب .

١ - ابن شداد : النوادر والسلطانية - ص ١٧ .

٢ - سورة لال عمران : ١٤٢ .

ومن الآثار التي يسهل رصدها نتيجة لهذه الحروب الصليبية أن المسلمين كرهوا النصارى الذين يقيمون معهم في البلدان الإسلامية ، كما كرهوا اليهود الذين وقفوا إلى جوار الصليبيين في أكثر من موقف ضد الإسلام والمسلمين ، فعاملوا هؤلاء وأولئك معاملة - وإن لم تماثل في شيء وحشية معاملة الصليبيين للمسلمين غداة استولوا على بلادهم - إلا أنها قد اشتملت على بعض التضيق عليهم ، وشجبت موالاتهم لأعداء المسلمين ، وأنتجت عدم الثقة فيهم ، فنحى بعضهم عن أعمال كتابية أو حسابية كانوا يقومون بها في كثير من البلدان الإسلامية وفي دواوين الحكومة ، وأخذت الشكوى منهم تتردد أصدائها من هنا وهناك ، فقد اشتكى البوصيري صاحب البردة من كتاب النصارى في مصر ، فقال :

يغالطنى بعض النصارى جهالة إذا أوجب الملقى وألقى الموجبا
وما كان من عدّ الثلاثة واحدا بأعلم منى بالحساب وأكتبا
وما الحق ؟ في أفواه قوم كأنها أوانٍ حوت ماءً خبيثا مطحلبا
مقلحة أسنانها فكأنها أصاب بها السحار أحجار كهريا
كأن ثناياهم من الخبث الذى تحصرم في نياتهم وتزيبا

ولم يقتصر الأمر على الشكوى منهم وإظهار كراهيتهم ، وإنما تجاوز هذا إلى ذكر مثالبهم ونقائصهم ، ولعنهم على كل لسان ، فما كان يذكر اسم الإفرنج حتى يقرن باللعن والخذلان وكان في الصليبيين نقائص كثيرة وعيوب متعددة فتتبعها بعض الكتاب وسجلوها ، كما فعل أسامة بن منقذ والعباد الأصفهاني وشيخ الإسلام أبى المظفر صدر الدين الدمشقي الذى ألف في ذلك كتابا هو : تقويم النديم^(١) .

يقول أسامة بن منقذ في الصليبيين : « وليس عندهم - أى الإفرنج - شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته ، يلقيه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها

١ - لا يزال الكتاب مخطوطا ينقل عنه الكتاب وإن كنت لم أطلع عليه .

ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومشى » •

ومن مثالبهم التى تحدث عنها العباد الأصفيهانى قسوتهم وغلظ أكبادهم وبطشهم وكيدهم وإمعانهم فى الإضرار بالمسلمين والفتك بهم وتخريب بلادهم وتدميرها •

قال العباد : « ... والكفار قد خشنت عرائكهم واتسعت ممالكهم واستبصروا فى الضلال ، واستبضعوا للقتال ، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البرناشية الصوت ، وقاتلوا جندا ورعية واستباحوا الأنفس متورعين ، فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعية ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، وأمدهم فى طغيانهم يعمهون ، ورفعوا التكليفات فلا تنزع الحديد لوضوء ولا ح ، واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلى مزور الشفاء على القطوب بلا بشر ولا مرح ... قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها إلى غروبهم ، وعذب بهم لما يريد من تعذيبهم ، واشتغلت نار جهلهم فى فحم ذنوبهم ، تستعذ المروة من مروتهم ، ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم ، فظاظ غلاظ جهنميون • كلامهم شرر ، وأنفاسهم شواظ ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ، ولم أذان لا يسمعون بها • أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ، خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال : وقودها الناس والحجارة ، وإلا فالحجارة لا تستحق الوقود إلا أن يراد بها القلوب التى هى كالجلمود فى الجمود ... » •

وكتب شيخ الاسلام أبو المظفر صدر الدين الدمشقى فى مثالبهم : « ... ولا قبطيا يلبس فى النهار زى الرهبان وفى الليل مصبغات الألوان من البرتيقى والعنابى الغالية الأثمان ، ويبكى على الوسادة بحضور الندمان •

مغالط ليس له حيلة إلا انتظار الوقت والحين

... ويوهمون النصح للمسلمين وهم عبيد عبدة الأوثان ، يخرجون التذاكير بالمحال والبهتان ، ويحملون الحق الواضح بالبرهان ، ويحلبون النار إلى قرصهم ويحرقون قرص السلطان ، لا يخرجون إلا لمن أحضر الصرة أو حل الهميان ... يجعلون العتيق مستجدا والمستجد عتيقا ، والعبد الرقيق حرا ، والحرب عبدا رقيقا ، والغائب حاضرا والحاضر غائبا والمحارب جبانا والجبان محاربا .

أعيزك بالرحمن من شر كاتب له قلم زان وآخر سارق

يقول : انهب ما قدرت عليه ولا تجزع ، وخذ ما شئت ولا تفزع ، ومُد يدك ودع تقطع ، مادام في القوس منزع ، واغتتم لذة المصانعات .

لا أقال المسيح عشرة قبلى إذا لم يمت قتيل النعال ...^(١)

كان هذا في مجال المجتمع وما طرأ عليه من نظرة إلى الصليبيين لم تكن كذلك من

قبل .

أما أثر هذه الحروب في مجال العلم والأدب ، فقد وضع في أن هذه العواطف الدينية - التي أذكتها الحروب الصليبية - قد جعلت بعض العلماء والكتاب يأخذون في الرد على اليهود والنصارى وإظهار ما في دينهم من باطل ونكر ، بما أدخلوه عليه من تحريف وإفساد .

فهذا ابن القيم الجوزي يؤلف كتابا قائما بذاته في الرد على اليهود والنصارى ، سباه : « هداية الحيارى من اليهود والنصارى »^(٢) .

وهدف الكتاب توضيح ما في اليهودية والنصرانية من باطل وزيف وتحريف ، ومن تصفح الكتاب وجد أن ابن القيم قد عرف بدقة وتفصيل تاريخ الديانة المسيحية وتاريخ

١ - أبو المظفر صدر الدين الدمشقي : تقويم النديم . مخطوط .

٢ - طبع الكتاب في مصر .

المجامع الكنسية التي كانوا يعقدونها لفض الخلافات الدينية ، وأدرك أن ابن القيم قد أحاط بما في التوراة والإنجيل ، وأنه واسع المعرفة قوى الحجة صاطع البرهان •
وصلب الكتاب يقوم على إبطال دعواهم أن المسيح هو الله ، فينفى عنه الألوهية ويثبت له العبودية •

وفي مقدمة الكتاب يقارن ابن القيم بين دين التوحيد ودين الإسلام وأديان الشرك ، فيقول : « ... وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على عبادة الرحمن والعمل بما يحبه ويرضاه من الإخلاص في السر والإعلان ، ومعاملة خلقه بما أمر به من العدل والإحسان مع إثارة طاعته على طاعة الشيطان • وبين دين أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار بصاحبه في النار ، أسس على عبادة التيران ، وعقد الشركة بين الرحمن والشيطان ، أو دين أسس بنيانه على عبادة الصليبان ، والصور المدهونة والسقوف والحيطان ، وأن رب العالمين نزل عن كرسى عظمتة فالتحم بيطن أنثى وأقام هناك مدة من الزمان ... » (١) •

ثم يناقش دعواهم ألوهية المسيح ويبطلها بقوله : « يا معاشر المثلة عباد الصليب ما الذي دلکم على ألوهية المسيح ؟

فإن كنت استدلتهم عليها بالقبض من أعدائه عليه وسوقه إلى خشبة الصليب وعلى رأسه تاج من الشوك ، وهم يبصقون في وجهه ويصفعون ثم أركبوه ذلك المركب الشنيع وشدوا يديه ورجليه بالحبال ، وضربوا فيها المسامير وهو يستغيث ويقلق ثم فاضت نفسه وأودع ضريحه ، فما أقبحه من استدلال عند أمثالكم ممن هم أضل من الأنعام وهم عار على جميع الأنام •

وإن قلت إننا استدللنا على كونه إلهاً بأنه لم يولد من البشر ، ولو كان مخلوقاً لكان مولوداً من البشر • فإن كان الاستدلال صحيحاً فآدم إله المسيح وهو أحق أن يكون إلهاً

له ، لأنه لا أم له ولا أب ، والمسيح له أم • وحواء أيضا ، اجعلوها إلهاً خامسا لأنها لا أم لها ، وهي أعجب من خلق المسيح •

والله سبحانه قد نَوَّع خلق آدم وبنيه إظهارا لقدرته وأنه يفعل ما يشاء ، فخلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر لا من أنثى ، وخلق عبده المسيح من أنثى لا من ذكر ، وخلق سائر الأنواع من ذكر وأنثى •

وإن قلتم : استدللنا على كونه إلها بأنه أحيا الموتى ولا يحييهم إلا الله ، فاجعلوا موسى إلها آخر فإنه أتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره ولا ما يقاربه ، وهو جعل الخشب حيوانا عظيما ثعبانا ، فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة الى جسم كانت فيه أولا •

فإن قلتم : هذا غير إحياء الموتى .. فهذا اليسع النبي أتى بإحياء الموتى ، وكذلك هم يقرون بذلك ، وإيليا النبي أيضا أحيا صبيا بإذن الله • وهذا موسى قد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه ، وفي كتبكم من ذلك كثير عن الأنبياء والحواريين ؛ فهل صار أحد منهم إلها بذلك ؟ ^(١) •

وهذا شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم - ابن تيمية - يؤلف كتابا ضخما يزيد في عدد صفحاته على ألف صفحة يسميه : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » يرد به على كتاب جاء من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم ، فيقول في مقدمة الكتاب : « فاقترض أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب ، لينتفع بذلك أولو الألباب وأنا أذكر ما ذكره بالفاظهم بأعيانها فصلا فصلا وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعا وأصلا وعقدا وحلا ... » ^(٢) •

وقد أوضح ابن تيمية ما في التوراة والإنجيل من اضطراب فقال : « ... والتوراة هي

١ - السابق : ص ١٤٠ •

٢ - مقدمة كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ط النيل • القاهرة •

أصح الكتب وأشهرها عند اليهود والنصارى ، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى حتى في نفس الكلمات العشر»^(١) .

ذكر في نسخة السامرة منها من أمر استقبال الطور ما ليس في نسخة اليهود والنصارى ، وهذا مما يبين أن التبديل وقع في كثير من نسخ هذه الكتب ، فإن عند السامرة نسخا متعددة ، وكذلك رأينا في الزبور نسخا متعددة يخالف بعضها بعضا مخالفة كثيرة في كثير من الألفاظ والمعاني ، يقطع من رآها أن كثيرا منها كذب على زبور داود وليست من زبور داود عليه السلام .

وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه في التوراة .

فإن قيل : فإذا كانت الكتب المقدسة منسوخة ، فلماذا دُم أهل الكتاب على ترك الحكم بما أنزل الله منها ؟ قيل : النسخ لم يقع إلا في القليل من الشرائع ، وإلا فالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر وغير ذلك لا نسخ فيه»^(٢) .

ومن أبرز القضايا التي ناقشها المؤلفون المسلمون قضية صلب المسيح ، فقد ردّ عليها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه : الجواب الصحيح ، ورد عليها الإمام ابن القيم في كتابه : هداية الحيارى ، ورد عليها البوصيرى صاحب البردة في ديوانه .

وفي رد البوصيرى على ادعائهم صلب المسيح يقول : « ... ليس عند النصارى ولا اليهود خبر يأتون به ولا رواية صحيحة أن المسيح صلب ، فإن أحدا ما حضره من أصحابه عندما أخذ شبيهه ، ولا كانت اليهود يعرفونه ، وإنما دُهم عليه رجل يقال له يهوذا الإسخريوطى ، وكان فيمن آمن بالمسيح وارتد عنه ، وأعطوه على تعريفهم به ثلاثين درهما ، ثم بدا له ، ورد الدراهم وندم ، وأن اليهود جاءوا إلى المكان الذي فيه المسيح فخرج إليهم رجل فقالوا له أنت يسوع ؟ فقال : نعم ، فأخذوه ومضوا ، وكانوا يستخبرونه ويقولون : أنت هو المسيح ؟ فيقول : أنتم تقولون ، ومضوا به يوم الجمعة .

١ - يقصد . الوصايا العشر .

وقالت النصرارى : إنه صلب في يوم الجمعة في الساعة التاسعة ، وقالت اليهود إنه أقام عندهم محبوسا أربعين يوما ، وهم يستخبرونه ويسألونه إن كان هو ، وأن يظهر لهم آية ، فلم يجيبهم إلى ما سألوه لا في حال أخذه ولا في حال صلبه «^(١) .

وبعد :

فلم تكن العاطفة الدينية التى أذكتها الحروب الصليبية داعية إلى كراهية الصليبيين أو ذكر مثالبهم أو الرد عليهم فى باطلهم فقط ، وإنما دفعت هذه العاطفة بعض العلماء والكتاب إلى أن يشيدوا بالحكام المسلمين الذين حققوا انتصارات على الصليبيين كنور الدين وصلاح الدين والمظفر قطز والسلطان قلاوون وغيرهم ، حتى أولئك العلماء الذين كان لهم من الحروب الصليبية مواقف شجاعة ألّف عنهم المؤلفون وصنف فى شجاعتهم المصنفون .

وبحسبى هنا أن أشير إلى بعض تلك الكتب التى كان تأليفها استجابة للعاطفة الدينية التى أيقظتها الحروب الصليبية .

من ذلك : ما ذكره أبو شامة صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، عن الذين سبقوه فى التأليف عن نور الدين وصلاح الدين ، حيث أحصى منهم :

- ١ - أبا القاسم على بن الحسن الدمشقى وتاريخه .
- ٢ - أبا يعلى حمزة بن أسد التميمى - ابن القلانسى - وذيل تاريخ دمشق .
- ٣ - عز الدين ابن الأثير ومجلدته فى الأيام الأتابكية .
- ٤ - بها الدين بن شداد والنوادر السلطانية .
- ٥ - عماد الدين الأصفهانى والفتح القسبى فى الفتح القدسى .
- ٦ - عماد الدين الأصفهانى والبرق الشامى .
- ٧ - عماد الدين الأصفهانى وخطبة البارق وعصفة الشارق .

١ - البوصيرى : ديوانه .

٨ - عماد الدين الأصفهاني ورسالته العتبي والعقبى .

٩ - عماد الدين الأصفهاني ونصرة الفطرة وعصرة القطرة .

ومن هذا القبيل كتاب : مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب « لابن واصل الحموى » . وكتاب : الدر الثمين في سيرة نور الدين « لابن قاضي شهبة الاسدي الدمشقي » .

هذا فضلا عن الكتب الأدبية التي عنيت بعقد الفصول والأبواب عن الجهاد والحرب وقتال أعداء الدين ، ومن أهمها كتاب : « لباب الآداب » لأسامة بن منقذ حيث عقد فيه فصلا رائعا مستوعبا سماه : باب الشجاعة أورد فيه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو الى الجهاد .

وأما كتب التاريخ التي ألفت في هذه الفترة وكان تأليف كثير منها من وحى الحروب الصليبية فهي كثيرة منها من أمهات الكتب .

١ - الكامل لابن الأثير عز الدين .

٢ - تاريخ دول الإسلام للحافظ الذهبي .

٣ - تاريخ دمشق لابن عساكر .

٤ - البداية والنهاية لابن كثير المفسر .

٥ - المختصر في تاريخ البشر لابن الوردي .

٦ - عيون التواريخ لابن شاكر الحلبي .

٧ - التبر المسبوك في تواريخ الملوك لعماد الدين الأيوبي صاحب حماة وملكها .

وهذه الكتب تعد من عيون كتب التاريخ ، بل من أنضج المؤلفات التاريخية التي لا

تزال تمدنا بمعين لا ينضب عن تلك الفترة من تاريخ الإمة الإسلامية .

وإلى حديثنا عن تأثير المسلمين ببعض العادات التي عرفوها عن الصليبيين .

جـ - فى التأثير ببعض العادات :

لا أدعى أن المسلمين تأثروا بالصليبيين فى عاداتهم وتقاليدهم ، بقدر ما أثرت فيهم الحروب الصليبية فى الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ذلك أن المسلمين لم يكونوا راضين عن الصليبيين ولا عن وجودهم فى العالم الإسلامى ، ولم تكن العلاقة بين الجانبين بالتى تسمح للمسلمين بأن يأتروا بعادات قوم يختلفون عنهم فى الدين ، قوم يغتصبون أرضهم ويعيشون فيما يستولون عليه من بلادهم فسادا •

فإذا وضعنا فى الاعتبار أن الإسلام حدد للمسلمين عاداتهم وتقاليدهم وميز بين المجتمع المسلم وأى مجتمع آخر فى آداب الحياة كلها ، وفى أنماط السلوك البشرى فى مختلف ظروفها ، أدركنا أن تأثير المسلمين بالصليبيين لن يجد مجالا إلا فى قلة قليلة من الناس - هم بالضرورة لا يتمسكون بآداب دينهم - يهون عليهم أن يقلدوا سواهم فى العادات والتقاليد •

وسواء أكانت هذه القلة القليلة من عامة الناس ، أم من بعض الحكام أم من بعض الكبراء ، فإن صفة واحدة تجمع هؤلاء جميعا ، هى أنهم لا يعتزون بأدب دينهم فى الحياة ؛ وبغض النظر عن السبب فى أنهم لم يعتزوا بأدب دينهم فى الحياة ، سواء أكان فسقا أو عصيانا ، أم كان سوء فهم وفقه لهذا الدين أخلاقه وآدابه ، أم كان ممالة لعدو غاصب محتل للأرض مستبجح للعرض ، فإن هذا السبب قد أدى - مهما تنوع - إلى نتيجة واحدة هى أن بعض المسلمين قد تأثروا إلى حد ما ببعض العادات التى كانت سائدة فى الصليبيين •

ومن نافلة القول أن أنه هنا إلى أن الأصل كان هو أن يتأثر الصليبيون ببعض العادات الشائعة عند المسلمين ، ذلك أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع المتحضر الراقى آنذاك - إذا قورن بمجتمعات الصليبيين المتبربرة الهابطة ، والشأن أن يتأثر الأقل بالأكثر

والأدنى بالأعلى ، ويكفي أن أوروبا كلها آنذاك كانت تعيش سلبيات العصور الوسطى
عصور الظلام والتأخر ، ما ينكر ذلك عارف بتاريخ تلك الحقبة من الزمان •

ولقد تأثرت أوروبا بالحضارة الإسلامية تأثيراً عميقاً بسبب هذه الحروب وغيرها من
وسائل اتصال أوروبا بالمسلمين - مما سوف نتحدث عنه ونحن نذكر الكلام في تأثير أوروبا
بهذه الحروب الصليبية في هذا الباب من البحث بإذن الله تعالى •

وليس بدعا أن تتأثر الحضارات بعضها ببعض ، ولكن العجب أن يتأثر الأحسن
بالأسوأ ، والمتقدم بالتأخر ! كما كان الشأن في تأثير بعض المسلمين بالصليبيين تأثراً لمسناه
في بعض الانحرافات الخلقية وفي عادات جديدة على المجتمع المسلم في الملبس والتحية لا
يقرها الإسلام ولا يرضاها •

كما نلمس هذا التأثير في تطبيق بعض المسلمين لمبدأ توريث الإقطاع ، وهو نظام
أوربي بغض ظالم ، ونحس به في رباطات الصوفيين وتكايهم التي أشبهت إلى حد كبير
نظام الأديرة عن الصليبيين ، وكما نحس به في انتشار الرقيق واتساع أبوابه وتعدد روافده ،
وبخاصة في الجوارى اللاتي أكثر بعض المسلمين من التسرى بهن بشكل لم يكن شائعاً
على هذا النحو من قبل •

وسنحاول في هذا الجزء من البحث أن نوضح هذا التأثير وأن نرصد أبعاده وأن نرده إلى
أسبابه ، مؤكدين أن هذا التأثير محدود الكم ، لم يشمل سوى أعداد قليلة من المسلمين
علت مكانتهم أو سفلت ، ومحدود العمق كذلك لم يستطع أن يمتد إلى الجذور العريقة في
أخلاق المسلمين فيعيش معها على نفس المستوى ، فضلاً عن أن يحل محلها بعد أن
يقتلها •

ومن تمام الصورة ودقة دلالتها في هذا المجال ، أن أشير إلى أن المجتمع المسلم آنذاك
متمثلاً في مفكره وكتابه وأدبائه ، كان ساخطاً على تأثير هذه القلة بعادات وافدة على
المجتمع الإسلامي ، بدا ذلك في كتابات عدد من الكتاب على النحو الذي سنوضح في
الصفحات التالية من الكتاب •

مبدأ توريث الإقطاع

كان نظام الإقطاع معروفا بصورة مّا في الشرق الإسلامي ، ولكن يغلب على الظن أن نظام الإقطاع بصورته التي عرفها العالم الإسلامي ، أيام السلاجقة وبالتحديد زمن السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك - كان متسربا إلى المسلمين من أوروبا ، ذلك أن القرنين السادس والسابع الهجريين كانت تسودها نظم دخيلة على العالم الإسلامي ، يقوم معظمها على النظام الإقطاعي .

ولكى نوضح صورة الإقطاع في ذلك الوقت نقول : إن السلطان كان يقطع كل أمير وقائد جند في جيشه إقطاعا - قطعة كبيرة من الأرض - بحيث يتكفل الأمير بإدارة هذا الإقطاع والإشراف عليه ماليا وإداريا بل وعسكريا ، ويؤدي من دخل هذا الإقطاع ما عليه من مال للسلطان .

على أن يكون الإقطاع وما عليه من مال ورجال تحت أمر السلطان حين تدعو إلى ذلك ضرورة ، أو حين تتطلب إرادة السلطان ذلك .

وعلى كل أمير وقائد جند أن يختار من الأعوان والأجناد من يحمون هذا الإقطاع من جانب ، ويؤدون واجب الحرب ضد أعداء الدولة من جانب آخر ، وقد أدى ذلك إلى أن تتكون في الإقطاعات تنظيمات عسكرية يترى فيها الأفراد على أعلى مستويات فنون القتال ويتدربون فيها كل التدريبات اللازمة للأبطال المغاوير ، وربما كانت هذه حسنة النظم الإقطاعية الوحيدة ، إذ خرجت للأمة الإسلامية جيوشا منظمة وقادة محنكين استطاعوا أن يثبتوا أمام هجمات الصليبيين على العالم الإسلامي حينما من الزمان ، ثم استطاعوا أن يقتلعوا الصليبيين اقتلاعا من العالم الإسلامي بعد ذلك .

وإن الناظر إلى أولئك القواد المسلمين الكبار الذين استطاعوا أن يحققوا انتصارات على الصليبيين كعماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون ليجد أن أولئك القادة الكبار كانوا يعتمدون في حروبهم ضد الصليبيين على جنود شجعان ممن تربوا في هذه الإقطاعيات وتُشَبِّهوا فيها تنشئة عسكرية ذات مستوى رفيع .

أما سيئات الإقطاع وسلبياته فكثيرة نعد منها ولا نعددها :

فمن أبرز مساوئ الإقطاع أنه أدى إلى تقسيم الناس في المجتمع المسلم إلى طبقتين : طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع ، وربما التحق بها كبار التجار وكبار الأثرياء من المقربين إلى الأمراء ، وطبقة عامة الناس طبقة الشعب وهم في الغالب فقراء أجراء كادحون يعيشون في خدمة الطبقة الأولى وهم عالة عليهم وخدم لهم .

وكما كان الشأن في نظام الإقطاع في أوروبا وهو امتلاك صاحب الإقطاع للأرض ومن عليها وما عليها ، كان الأمر في نظام الإقطاع في الشرق الإسلامي ، كل ما هنالك من فرق أن صاحب الإقطاع في أوروبا كثيرا ما كان يملك الناس ملك رقب ، أو على أنهم أقتان أرض ، بينما كان صاحب الإقطاع في العالم الإسلامي لا يسترق العاملين على أرضه ، وإنما يسترق جهودهم وأعمالهم ، وفي هذا ما فيه من المساوئ والعيوب .

وكان صاحب الإقطاع في العالم الإسلامي يتصرف في إقطاعه وما عليه من نبات وحيوان وآلات تصرف الملاك لا يراجعه فيما يفعل أحد ، إلا السلطان وطبقة العلماء والقضاة ، وكثيرا ما كان العلماء والقضاة يخضعون للسلطان عادلا كان أو جائرا ، وربما حوّر بعضهم أحكام الشريعة الإسلامية وأولها بحيث تتفق مع رغبات السلطان .

نعم كان من العلماء أفذاذ متمسكون بالحق وبه يعدلون لا يهابون سلطانا غاشيا ولا حاكما جائرا ، كالإمام أحمد بن تيمية والعز بن عبد السلام وغيرها ، ولكن أمثال هؤلاء العلماء كانوا مضطهدين لا يغادرون السجون إلا ليعودوا إليها .

ومن مساوىء نظام الإقطاع أنه نقل إلى المسلمين مشاعر سيئة من طبقة الفقراء إلى طبقة الأغنياء ، أدى في النهاية إلى اضطراب في المجتمع واضطراب في الأخلاق وبحث عن وسيلة مشروعة أو غير مشروعة للكسب ولمواجهة أعباء الحياة •
وأدى كذلك إلى أن تحترف طائفة من الفقراء نفاق السلطان والأمراء والأغنياء ليعيشوا من أموالهم ، ولو كانت هذه الأموال مريقة لماء الوجه مذلة لكرامة الإنسان •

كما أدى ذلك إلى أن يحاول بعض الكبراء والأغنياء اصطناع الناس بما يعطونهم من مال وما يبذلون لهم من طعام وكساء تكرما وتفضلا عليهم ، لا اعترافا بحقوقهم بحكم الأخوة الإسلامية التي تربط بينهم ؛ وإذن فقد كان من مساوىء عيوب الإقطاع أنه أفسد الناس فقراءهم وأغنياءهم ، وباعد بينهم وبين نظم الإسلام في تعامل الأغنياء والفقراء من المسلمين •

رباطات الصوفيين وتكايهم

ربما كان الإغراق في التصوف في هذه الفترة من الزمن نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التي خلفتها الحروب الصليبية ، فقد عرفنا في هذه الفترة جماعة من الناس احترفوا الانقطاع للعبادة وسيلة من وسائل الرزق ، وقد بالغ هؤلاء في العبادة حتى خرجوا عن المجادة ، لكنهم كانوا - على الرغم من ذلك - موضع تقدير العامة وإعجابهم •

ونتيجة لإعجاب العامة بهؤلاء المتصوفة ، لجأ بعض السلاطين الراغبين في تملق العامة ، وحشدهم ناعقين لهم بما يريدون ، بدءوا يهتمون بهؤلاء المتصوفة الذين أسروا قلوب العامة بصلاحهم وتقواهم ، فأخذوا يجرون على المتصوفة الأرزاق ويبنون لهم التكايا و يقيمون الرباطات •

وقد زاد عدد المتصوفة المنقطعين عن حياة الجهاد وحرب الأعداء وأثروا أن يعيشوا في الدعة والمخفض بعيدا عن الحرب والجهاد ، ذاهلين عن جوهر الإسلام في موضوع الانقطاع للعبادة وترك طلب الرزق •

وأصبحت التكايا في العصر الأيوبي وما بعده بدعة جديدة باعدت بين الناس وبين واجبهـم نحو دينهم ونحو أوطانهم بل نحو أنفسهم ، وشيئا وراء شيء أخذ هؤلاء المنقطعون للعبادة يدعون ما ليس لهم ويزيدون في الدين ما ليس منه ، ومن هذه التكايا انطلقت أصواتهم بقراءة القرآن طلبا لهزيمة الأعداء ، وقراءة البخارى رغبة في الانتصار على الصليبيين ، كأن النصر يأتي مع القعود ! وكأن الأعداء ينهزمون بمجرد الدعاء عليهم ! وما كان ذلك هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرب أعدائه ، وإنما كان يجاهد في سبيل الله معدا لعدو الله ما استطاع من قوة ، مواجهها لعدوه بعدة وعديد ، وبرجال مؤمنين مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله •

ولقد اجتمع في أربطة المتصوفة وتكايهم عدد عديد من مختلف أقطار العالم الإسلامى وما جمعهم إلا سوء فهم الدين وإيثار العافية والدعة على حرب الصليبيين ، وانتشرت هذه الأربطة وتلك التكايا في مختلف بقاع العالم الإسلامى آنذاك ، وأصبح مألوفاً أن ترى بجوار المسجد الجامع رباطا للصوفيين في كل مدينة •

ولقد أشاع الصوفيون في الناس روح التواكل وملئوا عقولهم بالترهات والأباطيل ، وأصبح لدينا طائفة متبذلة قاعدة عن جهاد العدو الذى أصبح فرض عين ، فأشبهوا بذلك الديرين في أوروبا ، أولئك المنقطعون عن الحياة في الأديرة لا يمارسون الحياة إلا من أخس أبوابها وأبعدها عن فطرة الإنسان التى فطره الله عليها •

ولم يجد بعض الحكام بدا من اجتلاب المقاتلين من بلدان إسلامية مختلفة ، نتيجة لهروب هذه الأعداد الكبيرة من المتصوفة من الجهاد بالتعب والانقطاع ، ومجاورة المساجد الكبرى في العالم الإسلامى ، فلقد امتلأ الحرمان في تلك الفترة بمئات المنقطعين للعبادة القاعدين عن الجهاد •

وإذا كانت ظاهرة التكايا والأربطة الصوفية كانت من أبرز السلبيات التي جلبتها الحروب الصليبية للعالم الإسلامي ، فإن ظاهرة أخرى عايشت تلك الظاهرة إن لم أقل لازمتها ، وتلك هي ظاهرة الزهد في الحياة ، وفقد الرغبة في الكريم النابه من العيش •

وعاش جماعة - ممن أخطئوا في فهم الزهد في الإسلام - على هامش الحياة يلبسون المرقعات ولا يخلع أحدهم عمامته حتى تبلى ، ويحملون نظافة أجسامهم ، ويحاولون أن يظهروا هذا الشذوذ بمظهر الصلاح والتقوى ، وأن يعطوا لهذا القدر صبغة من أخلاق الإسلام وعاداته وزهده في الحياة ، ولقد كذبوا وغرثهم همهم الضعيفة وعزائمهم الخائفة •

ولقد ترتب على ذلك أن أصبح عدد الزاهدين في ازدياد ، لأن مع الزهد أمان ودعة وبالتالي زاد عدد العاجزين السلبيين الذين يهربون من واجب الجهاد في سبيل الله ، ومن يدرى لعل هؤلاء المنحرفين بالزهد قد جرهم إلى ذلك ما كانوا يسمعون عن بعض مترهدة النصارى ممن شاعت عنهم الأخبار في أثناء الحروب الصليبية •

ولقد كانت هذه الربط الصوفية وهذه الأعداد الغفيرة من المتصوفين والزهاد موضع اهتمام كثير من المفكرين والمصلحين في هذا العصر ، وموضع انتقادهم وتعجبهم ، تحدث عنهم الرحالة ابن جبير في رحلته فقال : « وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق ، فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة يطرد فيها الماء على أحسن منظر يبصر •

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الحياة الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرم لعبادته من الفكرة في أسباب المعاش ، وأسكنهم في قصور تذكرهم بقصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة •

وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجيبة ، وصلاتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعواندهم في الاجتماع للسباع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك

الحالات المتبتل المتابر رقة وتشوقا ، وبالجمللة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هينا (١) .

ولسنا مع ابن جبير في ثنائه عليهم وهم قعود عن فريضة فرضها الله عليهم وهي الجهاد في سبيله وقتال أعدائه ، وربما كان ابن جبير يصف طائفة صالحة من المتصوفة دون أن يقصد الحديث عنهم جميعا ، لأن كثيرين منهم كانت تنتشر بينهم المفاصد .

ويعود ابن جبير ليذكر لنا طرفا من سيرة إمام من أئمتهم وهو عبد القادر الجيلاني الذي لازم الخلوة وسكن الصحراء وعاش في الخربات ، ينقل عنه ابن جبير قوله عن نفسه : « طالبتني نفس بالشهوة فكنت أصايرها ، وأدخل في درب وأخرج إلى درب أطلب الصحراء ، فبينما أنا أمشي إذ رأيت ورقة ملقاة فإذا فيها : ماللأقوياء والشهوات ؟ إنما خلقت الشهوات للضعفاء يتقوون بها على طاعتي ، فلما قرأتها خرجت تلك الشهوة من قلبي » (٢) .

ولقد كانت مجالس الصوفيين حافلة بالغناء والرقص والذكر ، وكانت لهم طقوس مايعرفها المسلمون من قبل يمارسون عندما يدعون إلى حفلات الموالد والحفلات ذات المناسبات الخاصة ، وما فعلوا في حفلات مولد النبي سوى شيء مما كان يفعل الصليبيون في عيد ميلاد المسيح .

يروى ابن كثير فيقول : كان صاحب « إربل » يحضر عددا منهم ليلة المولد النبوي ، ويدعو أعيان العلماء وسادة القوم ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر ويرقص بنفسه معهم » (٣) .

١ - محمد بن أحمد بن جبير : ارحلته ط ليدن ١٩٠٧ م ص : ١٣٨

٢ - السابق : ٢٨٤ .

٣ - ابن كثير : البداية والنهاية : ١٣/١٣٧ ط السلفية . مصر .

ونستطيع أن نتعرف على قيم المتصوفة في هذا العصر من خلال قول شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

ولنا في سبيل الحكم على مفاهيمهم أن تذكر قول الله تعالى في مجال طلب الرزق والسعى عليه : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »^(١) وقوله سبحانه : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين »^(٢) .

إنتشار الرقيق والاتجار فيه

لم يكن المسلمون قبل هذه الحروب الصليبية يعرفون مجالا للرقيق سوى المجال الطبيعي نتيجة للحروب ، وما تسرب إلى بعضهم من الاتجار في الرقيق كان في أضيق نطاق ، وسواء كان العبد المسترق نتيجة للحرب أو اشتري بالمال فإن الإسلام قد طالب المسلمين بإحسان معاملة الرقيق وحبب في إعتاقهم ، ووعد من يعتقون عبيدهم بالجنة ، وجعل كثيرا من الكفارات عتق رقبة ، ذلك أن الإسلام حرص على أن يستكمل هؤلاء العبيد إنسانيتهم بالحرية .

فلما كانت الحروب الصليبية ، وعرف المسلمون في مجتمعاتهم تجارا كثيرين للرقيق من جنوة والبندقية وكثر عدد الرقيق ، توسع أثرياء المسلمين في اقتناء العبيد والجواري والغلمان ، وكان كثير منهم لا حاجة به إلى كل هؤلاء ، حاجة خدمة وعمل ، وإنما كان الغلمان والجواري من تمام الزينة وكمال الرويق .

١ - سورة الملك : الآية : ١٥ .

٢ - سورة الحجر : الآية : ١٩ - ٢٠ .

ولقد ساعد على زيادة عدد الرقيق كثرة السبي من الحروب الصليبية فلقد كانت الأسرة الصليبية المكونة من رجل وزوجه وولديه وتباع بثانين ديناراً ، وكانت الجارية أحياناً تباع بخمسة دنانير على حد رواية ابن الأثير .

ولقد فتن بعض المسلمين بنساء الصليبيين فاقتنوا منهن عدداً كبيراً ، ولقد حرص على ذلك كثير من المسلمين واتخذ عدد منهم من هؤلاء النساء سرارى لهم ، كما اقتنى بعضهم الغلمان البيض .

وليس يخاف على من يرصد الأحوال والأحداث ما يجره هذا من فساد للأخلاق وانحراف في السلوك ، تقليداً للأوربيين في مبادئهم وانحلال أخلاقهم .

وقد تسربت بعض عادات الصليبيين إلى المسلمين ، وهى عادات لا يقرها الإسلام ولا يرضاها لأحد من أفرادهم ، فقلدوا الأوربيين في الملابس والتحية والسلام .

وقد وصف ابن جبير ذلك في رحلته وهو يتحدث عن أهل بغداد ودمشق فقال : « ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركنون للسلام على تلك الحال المشبهة بأحوال الفتاة ، مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفاً وأوثقوا تكتيفاً ، وهم يعتقدون تلك الهيئة تميزاً لهم في ذوى الخصوصية وتشريفاً »^(١)

وكل تلك عادات صليبية لا تمت إلى الإسلام بصلة ، ولقد سخر منها ابن جبير فقال : « فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحال في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعائمتهم تهوى بينهم هوىً ، وهذه الحال من الانعطاف الركوعى في السلام كنا عهدناها في قينات النساء ، وعند استعراض رقيق الإماء ... فيا عجباً هؤلاء الرجال كيف تحلوا بسيات ربات الحجال »^(٢) .

١ - ابن جبير : رحلته : ص ٢٩٦ .

٢ - السابق : ص ٢٩٧ .

وقد ترتب على هذا شيوع الفساد وفشو الانحراف ، فنحن نقرأ في تاريخ تلك الحقبة عن أماكن أعدت خصيصا للهو والغناء وشرب الخمر ، مثل ما عرفت بالقاهرة بركة الفيل وبدمشق خان العقيقة ، وفي خان العقيقة بظاهر دمشق يقول ابن خلكان : « قد جمع أسباب الملاذ ، ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يُحَد ولا يوصف » (١) .

وأسهمت الأديرة التي كانت للنصارى في بعض بلاد المسلمين في إشاعة الفساد وإذاعة الخنا ، فقد كانت هذه الأديرة من الأماكن التي يقصدها طلاب المتع والباحثون على أسباب الفسق من خمر ونساء وجواري وغلمان .

وكل ذلك كان تأثرا من المسلمين بالصليبيين ، أو تأثرا من ضعف المسلمين ونسائهم بالصليبيين .

ولا ندعى أن مجتمعات المسلمين قبل هذه الفترة التي نتحدث عنها لم تكن تعرف أسباب اللهو ولا أماكن المتع والملاذ ، فقد كان ذلك موجودا ولكن في ندرة ومعروفا ولكن عند قلة قليلة من الناس .

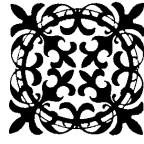
أما في زمن الحروب الصليبية فقد عم البلاء واشتد الفساد ، وشاعت أسباب الفسق والفجور بأكثر مما كانت عليه من قبل .

ولقد وقف بعض الحكام المسلمين من هذه الظواهر موقفا كله جدية وحزم ، فهذا صلاح الدين الأيوبي وجه جهوده إلى محاربة الفجور والفجار ، وحارب الإلحاد والملحدين ، وقرب العلماء والفقهاء والأتقياء ، ولكن لم يكن صلاح بقادر على أن يتتبع كل فاسق فيعاقبه ، ولا يستطيع أن يأخذ على يد كل عابث ، فكان في المجتمع شذاذ ومقلدون للصليبيين في عادات ليست من الإسلام ، على الرغم من محاولات بعض الصالحين من الحكام .

١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٤١٧/٤ .

وبعد : فتلك صورة مجملة لنتائج الحروب الصليبية في العالم الإسلامي في الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وفي إذكاء العواطف الدينية ، وفي التأثير ببعض عادات الصليبيين الوافدة على المجتمع الإسلامي •

وإلى الحديث عن نتائج هذه الحروب في دول أوروبا نفسها •



ثانيا : نتائج الحروب الصليبية في دول أوروبا

كما أوضحنا في الصفحات السابقة أثر هذه الحروب في العالم الإسلامي ، نوضح هنا أثرها في أوروبا ، منبهين مرة ثانية إلى أننا لا نقصد أن هذه الحروب الصليبية كانت الطريق الوحيدة التي عبرت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، وإلى أن هذا الأثر الذي تركته تلك الحروب في أوروبا لم يكن الأثر المباشر كما لم يكن الأثر الوحيد كذلك .

وللمرة الثانية كذلك ننبه إلى أن أوروبا في تلك العصور كانت تعيش حياة مضطربة قلقه ، بل كانت تعيش عصر ظلام وتأخر وقلق سياسي واجتماعي واقتصادي ، وضحالة ثقافية وحضارية .

كما نحب أن ننبه إلى أن الحضارات عموما تتبادل التأثير والتأثر ، ولا يمكن تصور حضارة بمعزل عن سائر الحضارات ، كان ذلك شأن الحضارة الإسلامية وهو شأن كل حضارة ماضية أو آتية .

ويكاد يكون من المسلّمات أن أوروبا ظلت تعيش ظروف العصور الوسطى حتى القرن الحادى عشر الميلادى غارقة في التأخر والتخلف ، في حين كانت الحضارة الإسلامية في الشرق أو في الغرب قد بلغت حدا فائقا هيا لها أن تكون أرقى الحضارات آنذاك .

وما من شك لدى الباحثين وجمهور المؤرخين في أن فترة الحروب الصليبية قد عاصرت رغبة من أوروبا في الانتقال من هذا التأخر إلى التقدم ، كما لا يشك باحث منصف في أن أوروبا وهى تنطلق إلى ما يسمى بعصر النهضة كانت تتخذ من الحضارة الإسلامية مركزا ومنطلقا .

كما لا يشك الباحثون عن أسباب النهضة الأوروبية في أن أهم أسبابها هى الاتصال

بالمسلمين زمن الحروب الصليبية ، وانتقال كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربي .

غير أننا لانبج أن نبالج مع من بالغوا فنقول إن الحضارة الإسلامية هي الأساس الوحيد للنهضة الأوروبية ، وذلك لظروف عديدة ، من أهمها أن الصليبيين لم يكونوا يقصدون الشرق طلباً للمعرفة ولا رغبة في التحضر ، وإنما كانوا غازين طامعين في خيرات الشرق الإسلامي الذي يدرّسنا ولينا كما تتحدث بذلك التوراة ، وكما أغراهم بذلك البابا إيربان الثاني ، ومن شأن الغازي الذي تحركه الأطماع أن يكون همه تلك المكاسب المادية .

ومنها أن الصليبيين - وإن بقيت بعض ممالكهم في الشرق الإسلامي قرابة قرنين من الزمان - إلا أنهم لم يستقروا ولم يشعروا بالأمان والاطمئنان لأنهم غزاة غاصبون ، فقد كانت موجات المد الإسلامي تغرق منهم في كل حين طائفة وتلتهم مملكة وتستعيد حصناً ، وتقلقل وجودهم إلى أكبر حد مستطاع ، فصرفهم ذلك القلق عن التملّي والتأمل في الحضارة الإسلامية فلم يتشربوها ولم تتغلغل في حياتهم بالقدر الذي يدعيه بعض الباحثين .

ومنها أن الصليبيين لم يكونوا قد تعرفوا على الحضارة الإسلامية لأول مرة في تلك الحروب ، وإنما كانت لهم معرفة بها من ذي قبل عن طريق المسلمين في إسبانيا من جانب وعن طريق صقلية من جانب آخر ، فلقد كان كثير من معطيات الحضارة الإسلامية قد ترجم إلى اللغة اللاتينية فانتقلت إلى الغرب الأوربي بعض علوم الإسلام ومعارفه قبل الحروب الصليبية .

وعلى وجه الإجمال فإن الحضارة الإسلامية أثرت في دول أوروبا الصليبية في هذه الفترة التي نتحدث عنها تأثيراً يمكن التماسه في كثير من الكلمات العربية والمصطلحات الفنية والعلمية التي دخلت عدداً من اللغات الأوربية ، ويمكن التعرف عليه في فن الحرب وبناء

الحصون القلاع التي قلد فيها الأوروبيون المسلمين بعدما شاهدوا قلاعهم وحصونهم ، كما نقلوا عنهم نظام المشرييات الذي عرفته العبارة الحربية - وهذه المشرييات دعائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب منه السهام إلى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت جدران الحصن أو يشعلوا النيران فيه ، كما يمكن من هذه المشرييات أن يصب الزيت والماء المغليان على رؤوس المحاصرين ^(١) .

كما عرف الأوروبيون من المسلمين المداخل المتعرجة للحصون ، فلم يعرف الأوروبيون هذا النوع من المداخل الملتوية إلا عن طريق العرب في عصر الحروب الصليبية ، فطبقوه بعد ذلك في قلاعهم بأوروبا ، وظهرت هذه الظاهرة بوضوح في قلعة بومارس Beaumais في إنجلترا وفي قلعة كاركاسون في فرنسا ^(٢) .

كما نستطيع أن نلمس هذا التأثير الأوربي بالحضارة الإسلامية فيما نقلوه عن المسلمين من الحمامات واستعمالها ، وفيما شاع في أوروبا من العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية وغيرها .

وبعد : فربما كان الأنسب للحديث عن تأثير الحضارة الإسلامية في أوروبا الغربية هو عندما نتكلم عن أثرها في النهضة العلمية والأدبية والحضارية بعامه ، بعد أن نتحدث عن أثر الحروب الصليبية في أوروبا في الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

وسوف نهتم ونحن نتحدث عن نتائج الحروب الصليبية في دول أوروبا بنقاط ثلاث :

أولها : نتائجها في الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

وثانيها : نتائجها في النهضة العلمية والأدبية والحضارية .

وثالثها : نتائجها في إثارة مطامع الصليبيين في العالم الإسلامي .

وبهذا انتهى الحديث في الباب الثالث من أبواب الكتاب بعون الله وتوفيقه .

١ - زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٨٦٦ .

٢ - مارتن برجر : تراث الإسلام : ص ١٣٧ .

أ - فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة

تركزت الحروب الصليبية آثارا فى المجتمع الأوربى بعامة ، بحيث حدث فى بناء المجتمع الأوربى تغير ملموس ندرکه فى أمور عديدة ، كان من أبرزها :

١ - إضعاف نظام الإقطاع :

فقد كانت أوربا تعيش على نظام الإقطاع فى العصور الوسطى حيث سعى بعض الباحثين هذه العصور بعصور الإقطاع ، وهو نظام سبق أن أشرنا إليه فقلنا إنه نظام اجتماعى يعتمد على قاعدة عريضة من أقتان الأرض ومن العبيد ، الذين كانوا يقومون بفلاحة الأرض وخدمتها لصالح سادتهم من الأمراء والفرسان والنبلاء .

وكان هؤلاء العبيد أو الأقتان يعاملون معاملة آلات الحرث والسقى التى تلزم الأرض ولا تقوم حياتها إلا بها ، ولا تسأل عن حقوق هؤلاء العبيد أو أقتان الأرض ، فإنك لست بواجد لهم من هذه الحقوق شيئا يمكن أن يسمى حقا ، اللهم إلا الطعام الضرورى واللباس والمأوى على أحط المستويات وأدناها ، ولم يكن أبناء هؤلاء العبيد والأقتان إلا عبيدا أو أقتانا ولم يكن لأحد من كل هؤلاء الحق فى الخروج عن إرادة سيده ولو بأدنى درجات الخروج ، ولقد كان لهذا النظام من المساوىء والمفاسد مالا يتسع كتابنا هذا للحديث عنه ، وبحسبنا هنا أن نقول : إنه نظام غير إنسانى وكفى .

وقد كان النظام الإقطاعى - هذا يفتت المجتمع الأوربى من داخله ويولد من البغضاء والشحناء ما لا مزيد عليه بين العبيد والأقتان نحو السادة والنبلاء ثم كان يولد تنافسا بغضضا بين أصحاب الإقطاع كثيرا ما أدى إلى التنازع والتعادى .

وما إن قامت الحروب الصليبية حتى وجد فيها الأتقان فرصتهم للهروب من عناء الإقطاع وسخرة السادة ، متعللين بأنهم يحاربون من أجل الصليب والكنيسة ، ولم يكن السادة وأصحاب الإقطاع بقادرين على منع الأتقان من المشاركة في تلك الحروب ، لأن الكنيسة باركتها وباركت من يشارك فيها ، فخرج عن طوع الملاك ألوف الأتقان فارين من العبودية المقنعة - عبودية الأرض - إلى حيث المال والثروة في البلاد التي تفيض لبنا وعسلا ، فلقد شارك في الحملة الصليبية الأولى وحدها أكثر من عشرة آلاف من أتقان الأرض على حد قول بعض المؤرخين ، ولقد أدى ذلك إلى أن يبحث أصحاب الإقطاع لإقطاعاتهم عن عمال من الأحرار الذين يأخذون على عملهم أجرا ، ومن يشترطون حقوقا ، ولا يعملون مسخرين مقهورين ، وأدى ذلك إلى تقلص نفوذ السيد صاحب الإقطاع إلى حد ما ، ثم أدى في النهاية إلى تصدع نظام الإقطاع ، وإلى انقراض طبقة الأتقان وإلى تقلص عدد طبقة العبيد على مدى غير كبير من الزمان •

وإذن فقد ضعف نظام الإقطاع وقارب الانهيار ، وكان سبب ذلك اشتراك الأتقان في الحروب الصليبية •

ولا يفوتني هنا أن أنبه إلى أن بعض القواد والفرسان الأوربيين الذين وفدوا على الشرق الإسلامي غازين معتدين ، قد استطاع بعضهم أن يكون لنفسه إقطاعا في بلاد المسلمين - كما كان الشأن في عدد من ملوك الممالك الصليبية في الشرق الإسلامي - وإن كانوا لم يجدوا من العبيد والأتقان من يقومون لهم بالعمل في إقطاعهم •

٢ - تقوية السلطة المركزية للملوك أوروبا :

ولقد كان نظام الإقطاع في أوروبا من أهم أسباب إضعاف السلطة المركزية للملوك أوروبا ، حيث كان يستعصى عليهم إخضاع كبار الإقطاعيين أو السيطرة عليهم ، لأن هؤلاء الإقطاعيين يعتدون بقوتهم وثروتهم وعبيدهم ، وأقنانهم ، ولا يرون للملوك سلطانا

عليهم ، فأدى ذلك إلى أن بعض ممالك أوروبا كانت من الداخل ممالك متعددة بتعدد أصحاب الإقطاع فيها ، وأن بعض الملوك كانوا يرضخون لكبار الإقطاعيين خشية ثورتهم أو تمردهم مع أتباعهم على الملك .

فلما كانت الحروب الصليبية وضعف نظام الإقطاع وتقلص نفوذ الإقطاعيين عادت السلطة المركزية في بعض ممالك أوروبا ، وأصبح بعض ملوكها في مكانة تجعله يفرض سلطانه على كافة أرجاء مملكته ، وكان ذلك على حساب كبار الإقطاعيين .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعض كبار الإقطاعيين كانوا قد شاركوا في الحروب الصليبية ، مستجيبين لدعوة الكنيسة مضحين بأموالهم ومكانتهم مستنفدين من أجل هذه الحروب كثيرا من إقطاعاتهم ، حتى إن عددا منهم كان يستدين لكى يشارك في الحروب الصليبية إذا لم تسعفه أمواله وثروته .

إذا أضفنا ذلك إلى ما سبق ، علمنا أن سلطة الملوك في أوروبا عادت أقوى مما كانت عليه قبل هذه الحروب .

كما أن بعض الأسر الإقطاعية الشهيرة في أوروبا كان زعماءها قد شاركوا في الحروب الصليبية أو قادوا معاركها فكان نصيبهم الموت في تلك المعارك كأسرة تولوز وأسرة بوايون وغيرها .

٣ - إحداء تغيرات اجتماعية وسياسية في أوروبا :

كل ذلك كان له أثره الهام في إضعاف نظام الإقطاع ، وبإضعاف هذا النظام حدثت تغيرات اجتماعية وأخرى سياسية في أوروبا كانت كلها أو جلها بسبب الحروب الصليبية . ولعل أوضح هذه التغيرات تقارب الفوارق بين طبقات المجتمع ، وظهور الطبقة الوسطى من العمال غير الأتقان أو العبيد - الأحرار - كما ساعد ذلك على ظهور القوميات المتعددة في أوروبا ، فقد كان الإقطاع يوحد بين الناس في ظل السيد أو الملك أو الإقطاعى الكبير ، فلما ضعف هذا النظام أوى الناس إلى ظل قومياتهم يعيشون في ظلها .

ولقد كان نظام الإقطاع قبل الحروب الصليبية يُضَلِّى دول أوروبا نار حرب حامية بين السادة أصحاب الإقطاع حتى تدخلت الكنيسة لتحرم الحرب في أوقات معينة أطلقت عليها « هدنة الله » ، أما في هذه الفترة فقد تزعمت الكنيسة إشعال نار الحرب على المسلمين وعَدَّت ذلك قربة إلى الله وعملا يستوجب غفران الذنوب ، فهدأت أوروبا من حروبها الداخلية وارتاحت من تنازع السادة بعضهم مع بعض ، أو تنازع السادة الإقطاعيين والملوك ، وأستطيع أن أقول : إن الحروب الصليبية ، قد جعلت من أوروبا وحدة بعد أن كان الإقطاع قد جعل منها دولا مختلفة متعادلة ، وهذا تغير اجتماعي سياسي له أهميته .

٤ - ظهور جماعات دينية تحترف الحرب :

ولقد استطاعت الحروب الصليبية أن تسهم في ظهور جماعات محاربة تحترف الحرب وتفرغ له ، كفرسان المعبد أو الداوية والاسبتارية وفرسان تيوتون . فالداوية هيئة عسكرية دينية تابعة للكنيسة ، شكلت هذه الهيئة أثناء الحروب الصليبية بحجة حماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة . والاسبتارية هيئة عسكرية دينية تابعة لمستشفى القديس يوحنا المقدسى ويسمون أحيانا بفرسان القديس يوحنا ، وقد شكلت هذه الهيئة في القرن الحادى عشر الميلادى بحجة حماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة كذلك . والتيوتون هيئة عسكرية ألمانية دينية تأسست في أخريات القرن الثانى عشر الميلادى في البلاد المقدسة . وكل هذه الجماعات الدينية المحاربة شاركت في الحروب الصليبية وحاربت المسلمين في أماكن متعددة وعلى مدى زمن غير قصير .

٥ - دعم مركز البابا وتقوية نفوذه :

كما استطاعت الحروب الصليبية أن تدعم مركز البابا وأن تزيد نفوذه وأن تجعل ملوك أوروبا - الذين كانوا كثيرا ما يتمردون على سلطته - خاضعين لنفوذ البابا إذ يقود حربا مقدسة ويمنح المشترك فيها حق غفران الذنوب بينما يصدر قرار الحرمان ضد كل من يتقاعس عن الاشتراك فيها ، كما قويت تبعا لذلك مراكز بعض ملوك أوروبا الذين أسرعوا بالاستجابة إلى دعوة البابا بالمشاركة الإيجابية في الحروب الصليبية .

تلك آثار الحروب الصليبية في الاجتماع والسياسة - بصورة مجملة - في دول أوروبا الغربية نرى أن نكملها بحديث خاطف عن الآثار الاقتصادية التي تركتها الحروب الصليبية في أوروبا على النحو التالي :

١ - انخفاض أثمان الأراضي والعقارات :

كان من أبرز النتائج الاقتصادية للحروب الصليبية أن اشتد الإقبال والطلب على النقود ، التي اشتدت الحاجة إليها من أجل إعداد المقاتلين وإعداد المؤونة والأسلحة طول الطريق ، فضلا عن الإعداد للمعركة ، فرغب كثير من الناس - في سبيل مواجهة هذه النفقات - في بيع ممتلكاتهم ومزارعهم للحصول على المال ، الأمر الذي أدى إلى انخفاض ثمن الأرض والعقارات وغير المنقولات بصفة عامة .

وهنا برز اليهود ليستغلوا هذه الفرصة فقدموا قروضا بربا فاحش وزادوا أصحاب الهموم هموما ، واستطاعوا أن يجعلوا الأوربيين يعيشون قلقا واضطرابا وضيقا ، فوق ماكانوا يشعرون به من جراء هذه الحروب . ولقد استاء الأوربيون من مسلك اليهود - هذا - فحقدوا عليهم وعندما حانت لهم الفرصة اضطهدوا عددا كبيرا من اليهود .

٢ - فرض ضرائب جديدة من أجل الحروب الصليبية :

كما اضطر بعض الملوك إلى فرض ضرائب جديدة من أجل الحروب الصليبية كما فعل

لويس السابع لتجهيز الحملة الصليبية الثانية ، حيث فرض ضريبة قدرها عشرة من كل مائة على جميع المتقولات الخاصة برجال الدين في مملكته ، وكما فعل فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد حيث فرضا ضريبة قدرها عشرة من كل مائة على ممتلكات رجال الدين والعلمانيين لحرب صلاح الدين - الذى كان قد استعاد من الصليبيين بيت المقدس - لذلك سميت هذه الضريبة : ضريبة صلاح الدين أو عشور صلاح الدين مما يؤكد تأثير هذه الحروب في النظم الاقتصادية الأوروبية •

٣ - انتعاش بعض المدن الأوروبية اقتصاديا :

مما لا شك فيه أن الحروب الصليبية قد زادت من الأنشطة التجارية بين الشرق والغرب ، وجعلت من بعض المدن الأوروبية مراكز اقتصادية هامة مثل : جنوا والبندقية وبيزا •

ومثل : مرسيليا وناربون وبرشلونة •

حيث أصبح النشاط التجارى فى أوروبا يحتل مكان النشاط الزراعى فيها ، وأخذت بضائع الشرق تشق طريقها نحو جنوبى أوروبا وغربها ووسطها فزاد النشاط التجارى فى إقليم فلاندرز وحوض الراين وسهول لمبارديا ، وأخذت هذه المدن تؤمن نفسها وتدعم أمنها وتكون وحدة سياسية مستقلة - برضا الملوك والأمراء - فى شئونها الداخلية •

وقد أدى ذلك إلى اتساع نشاط المصارف واتساع نطاق عملها ، كما أدى إلى تحسين طرق التجارة ، وإنشاء بعضها ، وكذلك أدى إلى إنشاء طرق ملاحية ذات خطوط منتظمة بين البلدان الأوروبية من ناحية ، وبينها وبين بلدان الشرق الإسلامى من ناحية ثانية •

ب - فى النهضة العلمفة والأءفةة والحضارفة

نحاول فى هذا الجزء من البءء أن نءرف على أءر الحروب الصلففة ونءائجها فى النهضة الأورفةة فى مءالات العلم والأءب والحضارفة ، رففر ءاضففن لفكرة مسفةة مءها كانت ، سواء أكانء من ءلك الأفكار ءى ءبالء فى ءأفر هذه الحروب على أورفا من ءفء اسءفاءءها من حضارفة الإسلام أم كانت من ءلك الأفكار ءى ءهون من شأن ءأفر هذه الحروب ، وبالفالى ءقلل من شأن ما ءنءه أورفا من ءارفهفة فى العلم والأءب والحضارفة ، معءمة فى ذلك على ما أءلءءها علىه الحروب الصلففة من حضارفة المسلمفن ، وما قربءه إلفها من ءنى هذه الحضارفة الإسلامفة .

سوف لا نءضع فى كلامنا لفكر مسبق ، وإنما سءءع البءء فشق طرفقه معرفا على هذه الآءار ، راصءا لناءء مءها فى ءلك المءالات ءى ءءءناها آففا ، ذلك أننا نؤمن أن الأصلالة ءءر مشءرك بفن الحضارفاء ءمففا ، فكل حضارفة أبءءء ونقءء وكانت لها سمة ءمفزها بفن الحضارفاء العالمفة ، ولم ءوءء ءط حضارفة ءفءءء بإلابءاع أو ءفءءء بالنقل أو ءلء من السمة ءى ءمفزها بفن سماء الحضارفة^(١)

وءعوانا هنا هى: أن الحروب الصلففة ءى عرفء ءول غرب أورفا على الحضارفة الإسلامفة بشكل أعمق وأعرض ءرءء فى حضارفة أورفا فى عصر النهضة سماء وءلائل ، ءشفر إلى ءاأءر بالحضارفة الإسلامفة وإلى النقل عنها فى مءالات عءفءة .

ونوء أن نوضح هنا أن الفكرة الساءءة لءى بعض الباءءفن وءى ءءى أن أورفا فى العصور الوسطى لم ءكن على معرفة بالعلوم والءراساء العلمفة ، فكرة ءاطئة ءقوم على المبالغة ءى لا ءقبل مع البءء وءءفرى .

١ - عباس مءمود العفاء : أءر العرب فى الحضارفة الأورفةة . ص ٢٨ طءار المءارف بمصر ١٩٦٥ م

إذ الحق أن تاريخ العلوم والدراسات العلمية في أوروبا مر بمراحل ثلاثة :

الأولى منها كانت مظلمة حقا وهي تقع في الفترة بين نهاية القرن الثالث ونهاية القرن التاسع الميلاديين وكانت معبرا انتقل عليه القديم إلى مابعدہ .

والثانية منها ، كانت تشهد تدفق العلوم والدراسات العلمية الإسلامية على أوروبا الغربية وهي تقع بين بداية القرن العاشر ونهاية القرن الثاني عشر الميلاديين - وهي مستغرقة أكثر من قرن في زمن الحروب الصليبية .

والثالثة منها : وهي المرحلة التي أدت إلى ازدهار العلوم والدراسات العلمية تمتد من بداية القرن الثالث عشر الميلادي حتى نهاية العصور الوسطى ، وهي التي أفادت تماما من اتصال دول أوروبا الغربية بالعالم الإسلامي عن طريق الحروب الصليبية .

ولقد أفادت أوروبا من علوم المسلمين وطبهم في هذه المراحل الثلاثة جميعا ، وليس بين الباحثين من ينكر أن المسلمين قد فاقوا في الطب والعلوم من عاصروهم من سكان أوروبا منذ ظهر الإسلام وإلى أن كان عصر النهضة العلمية في أوروبا ، ففي الوقت الذي كانت الكنيسة تحرم صناعة الطب لاعتقادها أن المرض عقاب إلهي لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن يستحقه وهو الوقت المسمى عندهم بعصر الإيمان ، في هذا الوقت عند استهلال القرن الثاني عشر الميلادي ، كان المسلمون يمارسون الطب منذ زمن مبكر عن ذلك ، ففي عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) بداية القرن العاشر الميلادي ، دعى إلى الامتحان في بغداد تسعمائة طبيب ، فكم كان عدد الأطباء الفعليين في بغداد وحدها آنذاك ؟ فضلا عن سائر حواضر العالم الإسلامي .

ولم يقتنع الأطباء المسلمون والعرب بما كان سائدا من كتب طبية للإغريق أو الفرس أو الهنود ، وإنما توسعوا في المباحث الطبية ، كتوسعهم في بحوث الهندسة والنجوم وسائر العلوم ، ووضعوا الكتب فيما قرءوه وترجموه فإذا هو موسوعات تشمل « الوصفة » الهندية إلى جانب

الوصفة العربية أو الفارسية أو اليونانية ، وإذا هي مباحث تهذيب واستقصاء وليست متاجر أرباح^(١)

« ومن موسوعات الطب الإسلامية مالم يوضع له نظير في الضخامة والتمحيص على قدر أسباب التمحيص في زمانه ، وقد ترجمت كلها إلى اللاتينية فنقلت هذه الصناعة بين أطباء أوربة من حال إلى حال ، ولم يضارع مؤلفى العربية فيها أحد من علماء الأوربيين إلى مطلع العصور الحديثة ، مع شغف الأوربيين أخيرا بادعاء ملكة العلم للعلم ، واتهام الشرفيين بأنهم لا يطلبون العلم إلا للصناعة وأرباحها^(٢) . »

ولكى نتعرف على أثر الطب العربى في الغرب الأوربى ، كان علينا أن نذكر بعض أمهات الكتب الطبية الجامعة التى أفادت منها دول أوربا ، بل اتخذتها لمدى زمنى طويل أساسا تعتمد عليه ، ومن هذه الكتب :

١ - كتاب « القانون » للشيخ الرئيس ابن سينا ، فقد اعتمدت عليه جامعات أوربا في تدريس الطب حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، وهو كتاب نال تقدير الأوربيين وغيرهم ، ولا تزال موضوعات كثيرة مما تحدث عنها ابن سينا جديرة بالتقدير حتى الآن - على الرغم من التقدم « التكنولوجى » الذى نعيشه في هذا العصر .

٢ - كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » لخلف بن عباس الزهراوى المتوفى ٤٢٧ هـ ، وهو كتاب ترجم الى اللاتينية ، أفاد منه الأوربيون في الطب وفي الجراحة ، فهو يذكر في كتابه آلات جراحية من عمله ويبين بالرسم شكلها ويوضح طريقة استعمالها .

٣ - كتاب « الحاوى » لمحمد بن زكريا أبى بكر الرازى المتوفى سنة ٣١١ هـ وهو كتاب في الطب « الإكلينيكى » والرازى هو الذى ابتدع علم التشخيص المقارن واستقصاء الدلالات والتمييز بين الأمراض المتشابهة ، وهو الذى قدر التدوين في ذلك كله .

١ - السابق : ص ٢٨ .

٢ - السابق : ص ٣٩ .

٤ - كتاب « الأدوية المفردة » لعبد الله بن أحمد البيطار المتوفى سنة ٦٤٦ هـ . وقد أفاد الغربيون منه أكبر فائدة في علم العقاقير والأدوية المركبة والمفردة . وظل كتاب ابن البيطار مرجعا للأوربيين حتى أواسط القرن الثامن عشر الميلادي .

٥ - نظام المستشفيات « البيارستانات » وهو نظام عرفه المسلمون ونقله عنهم الأوربيون ، وقد عنى البابوات وبعض ملوك أوروبا بإقامة المستشفيات على نظام البيارستانات العربية .

« والواقع أن الطب العربي كان ناجحا جدا في القرون الوسطى ، وكانت الأمم اللاتينية تجهل الطب جهلا يكاد يكون تاما ، وكان حتما أن يأخذوه عن العرب ، فأخذوا ينقلون الطب العربي كله علما وعملا إلى بلادهم ، وعرفوا منه القدر الذي سمح به تقدمهم الفكري حينذاك ، وكان حتما أن يسيروا بهذا العلم الجديد سيرا حثيثا حتى يتأصل فيهم وينمو عندهم نموا ذاتيا .

ولكن العلم التجريبي والتفكير الحديث بدأ عندهم بعد ذلك بقليل ، وبذلك كُتب الفصل الأخير في طب القرون الوسطى وعفى عليه الزمن^(١) .

هذا بالنسبة للطب ، أما سائر العلوم التى قامت عليها النهضة الأوربية من رياضيات وفلك وطبيعة - علوم الطبيعة - ومن كيمياء ونبات وحيوان ومعادن وصيدلة - علوم الحياة - فقد كان للمسلمين فيها قبل عصر النهضة أثر ملحوظ وجهود تأسيسى غير منكور .

وكان ذلك قبل عصر النهضة بزمان بعيد ، فما إن استقرت الدولة الإسلامية وامتد سلطانها من مشارف الصين شرقا إلى مشارف فرنسا غربا ، حتى أخذ العلماء المسلمون ينهلون من موارد العلم بمختلف فروع وفنونه ، فأخذوا يترجمون الذخائر العلمية ، وينقلون

١ - د . محمد كامل حسين : أثر العرب والإسلام في النهضة الأدبية : ص ٣٠١ - ٣٠٢ ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٧٠ م .

إلى اللغة العربية علوم الإغريق والرومان والفرس والهنود .. ترجموا عن الإغريقية والفارسية والقبطية والآرامية والهندية ، ونقلت ألوف الكتب من المكتبات القديمة ، وأقيمت دور الكتب والمكتبات ، وفتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء ، وتنافس الخلفاء والحكام في رعاية العلم والعلماء وتسابقوا في الإنفاق في سقاء على العلم والعلماء .

وقبل هارون الرشيد الجزية كتباً ، كما دفع المأمون وزن ماترجم ذهباً .
وقبل إنشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ومنازل العلماء ودور الكتب والمساجد بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض .

وجاء وقت كان كل طالب علم يجد معهداً يتعلم فيه ، ومعلماً يقوم على تعليمه وراتباً يقوم بأدبه .

وكان جامع المنصور في بغداد ، والجامع الأموي في دمشق والجامع الأزهر في القاهرة ، وجامع القيروان بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، وجامع قرطبة بالأندلس ، والجامع الكبير بصنعاء ، إلى جانب بيت الحكمة في بغداد ، ودار العلم في الموصل ، ومكتبة ابن سوار بالبصرة ، ومكتبة ابن الشاطر بالشام ودار الحكمة بالقاهرة .. كانت جميعاً بمثابة معاهد للعلم في أرقى صوره ، وكانت في رعاية الخلفاء والحكام من أمثال : المأمون ونظام الملك ، ونور الدين زنكي والحاكم بأمر الله وصلاح الدين الأيوبي ممن يوضعون على القمة من حيث رعاية العلم والعلماء .

في هذه البيئة العلمية الصالحة ، وفي هذا الجو العلمي الحافل ، نشأ عدد من العلماء يقرنون إلى أعظم العلماء في كل عصر وأوان .

وكانت العربية لغة العلم يكتب بها العلماء ليقراها الناس في أي صقع من أصقاع الوطن الإسلامي الكبير ، وازدهرت حركة الترجمة أيما ازدهار ، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلمية نقلوا علوموا وابتكروا أخرى . وأضافوا كثيراً من الآراء والنظريات التي نسبت إلى غيرهم .

تكلّموا في التطور ، وإن نسب إلى « داروين » في القرن التاسع عشر وقد كتب فيه « ابن مسكويه » وإخوان الصفا وابن خلدون قبل داروين بقرون^(١) .

وتحدّثوا في الجاذبية والربط بين السرعة والثقل والمسافة وإن نسب كل ذلك إلى نيوتن دون سواه ، وقد ثبت أن الخازن وغيره كتبوا في ذلك قبل نيوتن بمئات السنين^(٢) .

وتحدّثوا في أثر البيئة على الأحياء قبل « لامارك » كما نسب ذلك إلى ابن خلدون .

وشرح ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى قبل « هارفي » ببضعة قرون ، وكذلك الحال في طبيعة الضوء وسرعته وانكساره ، والذي كتب فيه ابن الهيثم قبل إبطاله من علماء أوروبا^(٣) .

كذلك قاسوا محيط الأرض وسجلوا مبادرة الاعتدالين ، وقدروا حجوم الكواكب وما بينها من مسافات قبل « جاليليو وكوبرنيك » وأضافوا إلى المعارف الفلكية الشيء الكثير ، أضافها : البتاني والفرغاني والكندي والخوارزمي والصوفي وغيرهم .

وابتدع الخوارزمي استعمال الأرقام في الحساب بدلا من حساب الجمل الذي كان سائدا ، واختار سلسلتين من الأرقام : الأولى ما يعرف بالأرقام الهندية (١ ، ٢ ، ٣) والثانية ما يعرف بالأرقام الغبارية أو العربية (1. 2. 3....) وتستعمل الأولى في أغلب البلاد العربية ، والثانية في بلاد المغرب العربي وفي أوروبا .

وكذلك أنشأ الخوارزمي من معلومات مشتقة في الحساب والجبر ، علم الحساب وعلم الجبر ، وعلمهما للناس أجمعين .

وكذلك ألف العلماء العرب في النبات والحيوان والمعادن والفلك والرياضيات والكيمياء والصيدلة وحساب المثلثات والهندسة والطب والموسيقى وغيرها .

١ - ابن مسكويه : تجارب الأمم .

٢ - قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمي .

٣ - مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم .

ولا يمكن أن يحجب فضل ابن الهيثم والبيروني والكندي والغافقي والبغدادى والقزويني وابن مسكويه والجاحظ والحازن وجابر بن حيان ، وابن النفيس وابن البيطار ، وداود الأنطاكي والمقدسي والبناني والفرغاني والإدريسي وابن ماجد والدينوري والدميري والصوفي وابن حمزة وابن يونس والرازي والجلدكي والخوارزمي وموسى بن شاكر وغيرهم .

وظلت مؤلفات هؤلاء العلماء المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر ، واعترف عدد كبير من مؤرخي العالم بفضلهم على العلم والإنسانية حتى قال قائلهم : إنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون .

وحتى قال آخر : « إن كثيرا من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا فإذا العرب سبقونا إليها » .

وظلت الأمة الإسلامية والعربية حاملة لواء النهضة عدة قرون ، في وقت كانت أوروبا ماتزال غارقة في الظلام .

وأهدى الفكر العلمي في العصر الإسلامي إلى الإنسانية كثيرا من مظاهر الترف والحضارة والرفاهية ، كما أهداها معلماها الثاني والثالث : الفارابي وابن سينا . ولو قدر لهذه النهضة الشاملة أن تستمر في عنفوانها وانتشارها لكانت هذه النهضة التي تتيه بها أوروبا في العصر الحاضر من نصيب أمتنا العربية وكانت تتقدم على تاريخها الحالي عدة قرون ، ولكن وقعت بغداد تحت سناك الغزاة من المغول والتتار ، وسقطت الأندلس في يد الفرنجة في الغرب - واضطرب الشرق الإسلامي وعانى من ويلات الحروب الصليبية وتحالف دول أوروبا الغربية ضد المسلمين قرنين من الزمان - وتداعت دويلات المشرق والمغرب بعد ذلك واحدة بعد الأخرى تحت وطأة الاستعمار الغربي ٠٠٠ وصحت أوروبا^(١)

١ - د عبد الحليم منتصر : أثر العرب والاسلام في النهضة الأدبية ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

وكانت جهود المسلمين في الجغرافية ذات أثر واضح في النهضة الأوربية ، وبخاصة الجغرافية الوصفية والفلكية ، وكانت كتابات العرب والمسلمين أساسا من الأسس التي قامت عليها النهضة الأوربية في العصر الحديث ، وكيف كانت أبحاثهم وآراؤهم نبراسا اهتدى به علماء الغرب ، فنقلوا عنهم وساروا على سننهم ، فلقد ظهر بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية ، ومشاهد الرحلات وتحصيل الروايات والمقارنة بينها لتبين السليم من الزائف غير الصحيح .

لقد كانت الكشوف الجغرافية وارتداد المجهول من أرجاء الأرض أهم ما تمخضت عنه النهضة الاوربية ، وما كانت هذه الكشوف لتتم لولا ماوقف عليه الغرب من كتابات العرب ومصنفاتهم ، ولولا ما وصل إليهم من الأجهزة والأدوات التي سهلت عليهم الانتقال بسفنهم عبر المحيطات .

وقد استمر الرحالة الأوربيون يعتمدون إلى حد كبير على المصادر الإسلامية في ارتداد ماكان مجهولا لديهم من أرجاء الأرض ، ويظهر هذا بشكل واضح عند ماركو بولو الذي تكلم عن المعلومات التي استقهاها من رسوم المسلمين البحرية في سيلان ، والذي استخدم كثيرا من الأعلام الجغرافية في صيغها الإسلامية العربية والفارسية .^(١)

ولا نحب أن نستطرد في الحديث فنتجاوز نتائج الحروب الصليبية في أوربا إلى أثر الحضارة الإسلامية بعمامة فيها .

فما هو واضح لدى المؤرخين حتى الأوربيين منهم ، وبخاصة المنصفون من هؤلاء وأولئك أن جغرافى المسلمين كانوا رواد الجغرافية في العالم كله ، يقول جوستاف لويون : « كان من نتائج ريادات العرب ومعارفهم الفلكية التي ذكرتها أن اتفق لعلم الجغرافية تقدم مهم ، ولا غرو فالعرب الذين اتخذوا في البداءة علماء اليونان ، ولا سيما بطليموس ، أدلاء لهم في علم الجغرافية ، لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم كانت مواضع

١ - أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ص ١٥٠ ط القاهرة ١٩٦٦ م .

المدن الكثيرة التى عينها بطليموس تعيينا جغرافيا غير مطابقة للحقيقة تماما ، وبلغ مقدار غلطه فى تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعائة فرسخ .

ويكفى أن نقابل بين الأمكنة التى عينها الأغارقة والأمكنة التى عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم الذى تم على يد العرب ، فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذى حققه العرب يقرب من الصحة بما لايزيد على بضع دقائق ، وأن خطأ الأغارقة فيه بلغ درجات كثيرة .

وكتب العرب التى انتهت إلينا فى علم الجغرافية مهمة إلى الغاية ، وكان بعضها أساسا لدراسة هذا العلم فى أوربة قرونا كثيرة .

وأشهر جغرافى العرب هو الإدريسي ومن كتب الإدريسي التى ترجمت إلى اللاتينية ، تعلمت أوربة علم الجغرافية فى القرون الوسطى . ألف الإدريسي كتابه الجغرافى العظيم مشتملا على ماقيده المتقدمون فى علم الجغرافية وعلى ما رواه عن السياح من المعارف الكثيرة وعلى عدة خرائط فاقصرت أوربة على نسخه بدناءة مدة ثلاثة قرون .^(١)

والإدريسي ألف كتابه سنة ١١٥٤م أثناء وجود الصليبيين فى الشرق الإسلامى وإن كان هو من مواليد الأندلس ومن عاشوا فى بلاد الملك روجر ملك صقلية التى كان لها فى الإسلام شأن ، وكذلك أفادت أوربا من القزوينى وياقوت الحموى اللذين عاشا فى القرن الثالث عشر للميلاد .

ونعود إلى جوستاف لوبون لننقل عنه قوله فى جغرافى العرب : « فالعرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدت أول أساس للخرائط فصحاء أغاليط اليونان العظيمة فى المواضع ، والعرب من ناحية الريادة هم الذين نشروا رحلات عن بقاع العالم التى كان يشك الأوروبيون فى وجودها فضلا عن عدم وصولهم إليها .

١ - جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٤٦٨ ط الحلبي القاهرة ترجمة عادل زعيتير .

والعرب من ناحية الأدب الجغرافي هم الذين نشروا كتباً قامت مقام الكتب التي ألفت قبلها ، فاقترنت أمم الغرب على استنساخها قروناً كثيرة .^(١)

ومن أبرز آثار الحروب الصليبية في أوروبا أن أخذت بعض مدن أوروبا تنشئ مدارس لتعليم اللغة العربية ، وعلى قدر ما كان ذلك سبباً في شيوع اللغة العربية ، فإنه كان يحمل في طياته أهدافاً معادية للإسلام والمسلمين ، وذلك أن الحروب الصليبية حينما وضعت أوزارها وطرد المسلمون آخر جندي صليبي من بلاد المسلمين ، أخذت أوروبا تفكر من جديد في معاودة الكرة وغزو بلاد المسلمين ، وكانت في هذه المرة تتحرك نحو هذا الغزو بدوافع أكثرها اقتصادي وسياسي بينما كان العامل الديني في الحروب الأولى هو الغالب أو هو الأكثر بروزاً .

ولقد تحالفت في تحقيق هذه الرغبة قوى ثلاث : الكنيسة تحركها أطباعها الدينية وهي القضاء على الإسلام وإدخال أهله في النصرانية ، والملوك يحركهم الطمع في الحصول على امتيازات لتجاريتهم في الموانئ الإسلامية ، ورجال المال والاقتصاد يحركهم طمعهم في الاتجار وتبادل المنافع .

ولقد أدرك هؤلاء جميعاً أن تعلم اللغة العربية أمر ضروري للوصول إلى هذه الأهداف أو هذه الأطماع ، من أجل ذلك أنشئت في بعض مدن أوروبا مدارس لتعليم اللغة العربية في إيطالية وصقلية وفرنسا وغيرها ، ولقد أفاد تعليم اللغة العربية في بعض مدن أوروبا - عن غير قصد - اللغات الأوروبية الشعبية ، فقد كانت لغة التعليم والثقافة في أوروبا هي اللاتينية والإغريقية وكان لها قداسة وهما وقف على رجال الكنيسة أما سائر الناس فكانوا نتيجة لذلك في شبه انعزال عن الثقافة ، فلما أخذت بعض المدن في تعليم اللغة العربية للسبب الذي ذكرنا آنفاً ، أهملت اللاتينية والإغريقية إلى حد كبير ، وكان ذلك خطوة لا بد منها لإحياء اللغات الشعبية وتداول فروع المعرفة عن طريق غير طريق القسوس والرهبان .

١ - السابق : ٤٧١ .

وإلى جانب هذه المدارس التي كانت تعلم العربية ، صنف المعاجم العربية الأوربية لمعاونة المترجمين والمتعلمين ، وفي ذلك الوقت كانت المطبعة قد اخترعت فطبع القرآن الكريم وطبعت ترجمات له باللغات الأوربية ، كما طبع الإنجيل والتوراة بالعربية •

أما في مجال الأدب فقد كان أثر الحروب الصليبية محدودا إذا قيس بأثر الأدب العربي كله في الأدب الأوربي ، وعلى الرغم من أن الأثر الأدبي للحروب الصليبية في أوربا محدود ، فإنه هام وجدير بأن نتعرف عليه في هذه الصفحات من الكتاب •

على أنني أحب أن أنبه إلى أن صلب هذا الكتاب وعموده هو أثر هذه الحروب الصليبية في الفكر والأدب عند المسلمين - وهو عندى أوسع أبواب الكتاب • وهو الباب الرابع والأخير منه •

وقد اعترف بأثر العرب في الآداب الأوربية أكثر من كاتب من الكتاب الأوربيين أنفسهم ، يقول : ماكيل في إحدى محاضراته عن الشعر : « إن أوربة مدينة لبلاد العربية بنزعتها المجازية الحماسية Romamance كما هي مدينة بعقيدتها لبلاد اليهودية » •• « وإننا - يعنى الأوربيين - مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى الحيوية الدافعة - أو بجميع تلك القوى - التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحكمه رومة » (١)

ومن المعروف لدى المؤرخين والمثقفين بصفة عامة أن أوربا كانت تتلقى آثار الثقافة العربية الإسلامية في فترة القرون الوسطى بعامة وفي زمن الحروب الصليبية بخاصة من روافد ثلاثة هي : القوافل التجارية التي كانت دائبة التنقل بين آسيا وأوربة الشرقية وأوربة الشمالية مخترقة طريق بحر الخزر حيناً وطريق القسطنطينية حيناً آخر ، والرافد الثانى هو البلاد أو الممالك التي أقامها الصليبيون في الشرق الإسلامى بعد أن حققوا انتصارات عسكرية على المسلمين فأقاموا مملكة بيت المقدس ومملكة طرابلس ومملكة

١ - هاملتون جب : مجموعة تراث الإسلام ، أثر العرب في الآداب الأوربية

أنطاكية ، فقد عاش الصليبيون في الشرق الإسلامي بين سوريا ومصر وفلسطين وغيرها ما يقرب من قرنين من الزمان ، والرافد الثالث هو الوجود الإسلامي في أوروبا عن طريق الأندلس وصقلية وغيرها من البلاد التي قامت فيها للمسلمين حضارة وانتشرت فيها اللغة العربية •

هذه الروافد الثلاثة - على تباعد أزمانها التاريخية نسبيا ، وإن شملتها القرون الوسطى - لابد أن تكون قد أمدت أوربة وأديها بتأثيرات كبيرة وتركت فيها في أذواقها وأفكارها وموضوعات الأدب عندها ما لا يمكن نكرانه ولا الشك فيه •

وإن المتصفح لموضوعات الأدب العربي الكبرى كرسالة الغفران لأبي العلاء وحى بن يقظان لابن طفيل وألف ليلة وليلة وهي من القصص الفلسفى أو الصوفى ، ومثل مجموعة قصص كليلة ودمنة - وهي ذات أصل هندي موغل في القدم ، وإن كانت لم تُعرف في أوروبا إلا في نصها العربي - ومجموعة قصص السندباد - التي هي هندية الأصل أيضا وإن كانت انتقلت إلى أوروبا كذلك عن طريق نصها العربي - وقد ترجم إلى اللغة القشتالية سنة ١٢٥٣ م تحت عنوان : « كتاب مكابد النساء وحيلهن » وغيرها •

أقول : إن الناظر لموضوعات الأدب العربي الكبرى يجد عددا من كبار الأدباء الأوربيين خلال القرن الرابع عشر الميلادى وما بعده قد ثبتت صلتهم الوثيقة بهذه الموضوعات وبالثقافة العربية الإسلامية بوجه عام ، هؤلاء الأدباء الأوربيون الكبار هم : بوكاشيو ودانتى وبتراارك الإيطاليين ، وسرفانتيز الإسباني وشوسر الإنجليزى وهؤلاء هم الذين كان لهم أثر بارز في تجديد الآداب القديمة ببلادهم •

بل لقد استمرت الصلة الوثيقة بين أعلام مشاهير من أدباء أوروبا وبين الثقافة الإسلامية والعربية من القرن السابع عشر الميلادى إلى الآن ، ومن هؤلاء المشاهير : شكسبير وأديسون ويرون وسوزى وكولروج وشلى من أدباء الإنجليز • ومنهم جيتى وهرور ولسنغ وهينى من أدباء الألمان • ومنهم فولتير ومونتسكيو وهيجو من أدباء

الفرنسيين ، فهؤلاء جميعا قل أن تجد أدب واحد منهم يخلو من أثر إسلامي أو نادرة إسلامية ، وقد صرح بعضهم بذلك .

يقول الأستاذ العقاد : « وقد بلغت المفردات العربية التي أضافها الإسبان وأهل البرتغال إلى لغتهم ما يملأ معجبا غير صغير .

ولكن العبرة مع ذلك بدخول تلك المفردات في الحياة الاجتماعية والمقاصد النفسية . لا بمجرد دخولها في صفحات المعجمات ، فإنها لم تتمثل على الألسنة إلا بعد أن تمثلت في أحوال المعيشة ونوازع الإحساس والتفكير ، ومن هنا يُعزى إليها من فعل الإيجاء والتوجيه أضعاف ما يُعزى إليها من فعل النقل والتلقين » ^(١)

أما تأثير الشعر العربي في الأدب الأوربي فقد كان أصل فنون الأدب تأثيرا في آداب أوروبا ، أصل من القصة وأصل من غيرها .

ذلك أن الشعر العربي عربى خالص لم يتأثر فيه العرب بما نقلوا عن الحضارات الأخرى كما تأثروا في الفلسفة والطب وغيرها ، إذ كانت ترجمتهم متجهة إلى الحكمة والفكر والعلم لا الفن أو العاطفة .

ومن الواضح أن الشعر العربي لم ينتقل إلى أوروبا عن طريق الترجمة كغيره من مظاهر الحضارة الإسلامية ، بل كان لابد من انصهار سكان جنوب غربى فرنسا وإسبانيا وصقلية في بوتقة الحضارة العربية أولا ليستسيغوا النماذج الشعرية العربية ، كما أنه كان لابد لشكل هذا الفن ومضمونه من أن يتطور بفضل هذا الشعب الخليط الجديد لتوجد النماذج المؤثرة في شكل متجدد متطور ليس من السهل رصد حلقاته .

ولقد أخذ الدارسون المدققون يستخرجون نصوص هذه النماذج حديثا ليدلوا بالبرهان العملى على عملية التأثير والعطاء العربيين لشعر النهضة الأوربية .

١ - عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوربية : ص ٧٢ - ٧٣ .

وإذا كانت الأندلس أهم ميدان اتصلت فيه الحضارة الإسلامية العربية بأوروبا ، قد فاقت غيرها من الميادين في تمثل الأدب العربي والشعر العربي والحضارة العربية التي لاتزال سماتها وقسماتها واضحة في الشعين الإسبانى والبرتغالى حتى اليوم ، فإن الميدان الثانى لهذا الاتصال وهو صقلية والشر الجنوبى من إيطاليا ، وإن كان لم يستمر فيه الوجود الإسلامى سوى فترة من الزمان لم تبلغ القرون الثلاثة ، إلا أنها امتصت الثقافة الإسلامية والأدب العربى وثقلته وإن كان ذلك فى صورة أقل .

أما الميدان الثالث لهذا الالتقاء وهو الممالك الصليبية فى العالم الإسلامى كأرمينية والرها وطرابلس وأنطاكية والقدس ، فقد كانت استفادة الصليبيين فيه من تمثل الأدب العربى والشعر محدودة إذا قورنت بما أفاده الصليبيون من مظاهر الحضارة الإسلامية فى فنون الحرب والصناعة والزراعة والعمارة والتجارة ونظم الحياة الاجتماعية ، وذلك لأن الصليبيين كانوا غزاة طامعين ومحاربين متوحشين - على وصف بعض كتاب أوروبا لهم - أكثر من كونهم طلاب ثقافة وأدب وشعر وفن ، فهم لم يتذوقوا الشعر العربى ولم يتمثلوه ، وإنما استمعوا إليه وربما أعجبوا به لكنهم بالضرورة لم يستطيعوا تمثله على نحو ما فعل الإسبان والبرتغاليون أو أهل صقلية وجنوبى إيطاليا .

ومن نافلة القول أن نؤكد أن تأثر الصليبيين بمظاهر الحضارة الإسلامية فى مجالات العمارة والفنون والقلاع والحصون ، والملابس وأدوات الزينة ، وأساليب الحياة اليومية فى الطعام والشراب وبعض العادات كان أكبر من تأثرهم بالأدب والشعر .

فلقد فتن بعضهم بأسلوب الحياة اليومية وماكانت تتصف به قصور بعض المسلمين من نظام ونظافة وتنسيق فقلدوهم وهم فى الشرق الإسلامى وبخاصة الأمراء الصليبيون وكبار التجار ، فضلا عن انتقال تلك النظم إليهم بعد أن عادوا إلى بلادهم .

حتى إن بعض الصليبيين قلدوا المسلمين في طرق طهي الأطعمة وتجنب أكل لحم الخنزير ، كما روى ذلك أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار .^(١)

ولقد أجمل جوستاف لوبون أثر الشرق الإسلامي في تمدن الغرب فقال : « ٠٠٠ ظهر مما تقدم أن تأثير الشرق في تمدن الغرب كان عظيماً جداً بفعل الحروب الصليبية . وأن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب ، وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيمة باضطراد بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ من تحاك الصليبيين والشرقيين من النمو في الفنون والصناعة ، تجلّى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش ، وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوربة تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم »^(٢)



١ - ص ١٤٠ ط برنستون ١٩٣٠ م نشرة وحنه . فيليب حى .

٢ - جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٣٩ .

ج - في إثارة المطامع في العالم الإسلامي

في مستهل هذه النقطة من البحث ، أحب أن أشير في إيجاز إلى نتائج الحروب الصليبية من وجهة نظر مؤرخ أوربي من شيوخ المؤرخين هو جوستاف لوبون ، لأجل من ذلك مدخلا إلى الحديث عن نتيجة لم يتحدث عنها لوبون ، تعد عندي من أبرز نتائج الحروب الصليبية ، وهي : إثارة مطامع الأوربيين في العالم الإسلامي بعد تلك الحروب •

يقول جوستاف لوبون : « آراء المؤرخين في نتائج الحروب الصليبية متناقضة إلى الغاية ، وقد أسهب أكثرهم في مدحها ، وعدّها بعضهم ذات نتائج سيئة •

وإذا نظرنا إلى هدف الحروب الصليبية القريب الذي هو فتح فلسطين وأينها لم تسفر عن أية نتيجة مع ما خسرت أوربة في قرنين من المال والرجال ، فقد بقى المسلمون سادة لتلك الأماكن التي أراد النصارى أن يستولوا عليها بأى ثمن كان •

ولكننا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التي أسفرت عنها الحروب الصليبية تجلت لنا أهمية تلك النتائج التي كان بعضها نافعا وبعضها ضارا - وإن شال الميزان ورجحت كفة النافع منها - فقد كان اتصال الغرب بالشرق مدة قرنين من أقوى العوامل على نمو الحضارة في أوربة •• وإذا أراد المرء تصور تأثير الشرق في الغرب وجب عليه أن يتمثل حال الحضارة التي كانت عليها شعوبها المتقابلة ، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ^(١) ، وأما الغرب فكان غارقا في بحر من الممجية •

١ - لودق لوبون لتال : بفضل الإسلام ، فمن هم العرب وما هي حضارتهم قبل الإسلام ؟ غير أن كثيرا من المستشرقين يصعب عليهم أن يضيقوا أى فضل للإسلام ، فيرون إضافته للغرب أو للترك أو للمغول أو غيرهم ••••• وإن كان لوبون من أكثرهم ! إنصافا للحق •

وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا في سلوكهم وحوشا ضارية ، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على السواء ، وأنهم خربوا في القسطنطينية مالا يقدر بثمن من الكنوز القديمة عن اليونان والرومان .

ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشئ في الحقيقة ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون وأن صبغته بما لم تعرفه ديانة ، خلا اليهودية ، بصبغة القسوة والجور ، أجل كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشئ الكثير من عدم التسامح ، ولكنه ندر أن كان عدم التسامح هذا يصل إلى حد الجلف والطغيان .

وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغا من الحميا الشديدة في الحروب الصليبية ما لا يزال العالم يقاسى أثره إلى زماننا تقريبا . (١)

أقول : لقد ألقى لوبون الضوء على أسوأ نتائج الحروب الصليبية وأشأمها وهي : أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون ، وأنه وصل إلى عصرنا هذا . ولقد صدق الرجل ، فلقد أدت الحروب الصليبية بهذه الروح التي أشاعتها بين الشرق والغرب إلى عديد من المشكلات وإلى مزيد من الكوارث امتدت إلى وقتنا هذا ، كما سنوضح في هذه النقطة من الكتاب .

فبعد أن انتهت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية - أو الغزو الصليبي الغربي للعالم الإسلامي - بطرد آخر جنود الصليبيين من عكا في تلك الحرب التي قادها السلطان خليل بن قلاوون ، وماترتب على ذلك من ضعف شأن البابوية ، وانفصام عرى الوحدة الأوربية دينيا وسياسيا إلى حد كبير . بعد هذه المرحلة لم تهدأ رغبة أوروبا في العودة ثانية إلى الشرق الإسلامي ، وإنما أخذ بعض أصحاب المصلحة في التخطيط لغزو العالم الإسلامي من جديد .

١ - جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٣٣ - ٣٣٥ باختصار واختيار .

وكان أن أخذوا في دراسة أسباب هزيمتهم أمام المسلمين ، حتى تتلافى في الغزو القادم ، واعتبر القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين قرنى المشروعات الصليبية الجديدة لغزو العالم الإسلامى .

غير أن الهدف في الحروب الأولى كان دينيا في الغالب ، أما في هذه المرة فقد سيطر على أوروبا طمع مادى في بلدان العالم الإسلامى ، ونستطيع أن نلمس مظاهر هذه المطامع ونحس روحها عندما نتعرف على حوافز هذه الحروب ودوافعها ، وعلى أولئك الذين يشجعون على خوضها .

فقد غدا واضحا لكل دارس لظروف أوروبا في هذين القرنين بالنسبة للرغبة في العودة إلى احتلال بلدان العالم الإسلامى في الشرق ، أن هذه الحوافز وإن كان بعضها دينيا وتبشيريا ، إلا أن الأغلب عليها هو الأطماع السياسية والاقتصادية .

ولا ندعى هنا أننا نستطيع إحصاء كل هذه الحوافز - فإن ذلك يخرج بنا عن سمت البحث وموضوع الكتاب - وإنما نكتفى بالقول بأن هذه الحوافز قد تعددت وتكاثرت ، وأنها جميعا مع اختلافها وتعددتها تستهدف أمرا واحدا هو العودة إلى الشرق الإسلامى الذى يدر عسلا ولبنا من جديد .

ولقد شجع على تلك العودة إلى احتلال الشرق الإسلامى جهات متعددة :

أولها : الكنيسة التى كانت تحلم بأن تكون من أجل ذلك جيشا أوروبا ضخما يعيد للكنيسة هيبتها ، ويعطيها السلطة التى كانت لها على ملوك أوروبا أثناء الحملات الصليبية السابقة ، كان ذلك هدف الكنيسة الأعظم ، وإن كانت قد ألحقت به هدفا آخر لا يقل خطرا عن الجيوش الغازية ، وهو العمل على دعوة المسلمين في الشرق إلى الدخول في النصرانية أى مايسمونه « بالتبشير » ونسميه نحن - تجاوزا مع الدلالة اللغوية للكلمة - تنصيرا ، لاتبشيرا .

ثانيها : رجال المال والاقتصاد الذين بهرهم الشرق بمصنوعاته وخاماته ، والذين بدءوا يستغلون النهضة الأوروبية - آنئذ - للحركة الاستكشافية الجغرافية التي تمكنهم من التعرف على عوالم جديدة وبلاد غير معروفة لهم يحصلون منها على ما فيها ويبيعون لها ما عندهم أو مما في الشرق الإسلامي ، هؤلاء كانوا من المشجعين على العودة إلى الشرق الإسلامي ، بل كانوا من أكثر الجهات رغبة في ذلك .

وثالثها : ملوك أوروبا الراغبون في أن يحصلوا لتجارة بمالكهم وتجارتها على أسواق رائجة وموانئ إسلامية حافلة - كما كان الشأن أيام كانوا يتعاملون مع موانئ الشام ومصر - غير أنهم في هذه المرة زادت رغبتهم في الاستيلاء على هذه الموانئ والسيطرة على تلك الأسواق لتكون لهم فيها امتيازات السادة الغزاة ، لاحقوق المتحالفين المتعاهدين .

كل هذه الجهات تعاونت على أن تجعل العودة إلى الشرق الإسلامي من جديد أملا يراود عيون أوروبا الغربية كنيسة وملوكا وتجارا وشعبا .

من أجل هذا أخذوا يخططون للوصول إلى هدفهم ذاك ، فكان مما خططوا أن قاموا بأعمال عديدة ، نتحدث هنا عن أبرزها ، وأهمها من وجهة نظرنا - وقد قرأنا تاريخ هذه الحقبة - فنقول وبالله التوفيق .

من أبرز ما قامت به أوروبا من أعمال تستهدف العودة إلى السيطرة على العالم الإسلامي ؛ الاهتمام بتعلم اللغة العربية لسان المسلمين في الشرق الإسلامي ، ليسهل أمامهم التفاهم ، ويسهل عليهم التعرف الدقيق على هذا العالم الإسلامي تاريخه وعاداته وتراثه .

وقد التقت عند ضرورة تعلم اللغة العربية رغبات جميع الجهات ، فالكنيسة رغبت في ذلك ليسهل على رجالها نشر النصرانية في المسلمين ، والتجار رغبوا في ذلك ليسهل التعامل ، وكذلك الملوك ليقوم بينهم وبين بلدان العالم الإسلامي سفراء يعرفون العربية .

ولكى تتم صورة التعرف الدقيق على الإسلام والمسلمين كان لابد أن تصنف معاجم عربية أوربية تعين المترجمين وتعين المتعلمين للعربية بصفة عامة ، فصنف المعجم العربى القشتالى سنة ١٥٠٥ م ألفه المستعرب الإسبانى الفرناطى بدرو الكالا Pedro Alcala كما ظهر كتاب وصف إفريقية للحسن بن الوزان المشهور بليون الإفريقى ، وفى كتابه معلومات جيدة عن إفريقيا وعن المسلمين عاداتهم وأخلاقهم^(١)

وفى سنة ١٥٣٩ م نشر المستعرب الفرنسى جيوم بوستل G. Postel كتابا عن : « جمهورية الترك » لما اهتم هذا المستعرب بجمع مخطوطات عربية كثيرة باعها لمكتبة هيدلبرج بألمانيا ، فكانت نواة صالحة اعتمدت عليها أغلب الدراسات العربية فى ألمانيا ، واتخذها كثير من المستشرقين مصادر أساسية لما قاموا به من دراسات عن الإسلام والعرب .

ومن هذه الأعمال - التى تخدم من يدعون المسلمين إلى النصرانية - عملان : أحدهما : ترجمة القرآن الكريم إلى عدد من اللغات الأوربية المختلفة لتيسير عمل من يقومون بهذه الدعوة أو الدعاية .

ثانيهما : ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية ليستعين به الداعون إلى النصرانية من جانب ، وليكون فى متناول المسلمين لقراءته والاطلاع عليه من جانب آخر ، لعل هذه القراءة تزعجهم عن القرآن .

ومن أبرز هذه الأعمال : الاستشراق وهو دراسة تراث الشرق وتاريخه وعاداته وتقاليده ، وأبرز ما فى الشرق الدين الإسلامى ، لذلك عنى المستشرقون بدراسته ، وإن كان قليل منهم من استطاع أن يتحدث عن الإسلام بروح العلم المنصفة ، أما أكثرهم فكتب عن الإسلام بروح التحامل والجهل بالدين وباللغة العربية .

١ - نشرت جامعة الإمام هذا الكتاب بعد ترجمته للعربية لأول مرة عام ١٣٩٩ هـ بمناسبة المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول الذى عقد فى صفر ١٣٩٩ هـ . ١٩٧٩ م . الذى نظمته كلية العلوم الاجتماعية بالجامعة .

وقد بدأت طلائع المستشرقين تعنى بهذه الدراسات منذ القرن العاشر الميلادى إلى يومنا هذا ، وعلى امتداد هذه الفترة لم يكن للاستشراق سوى هدف أصيل هو التمهيد بهذه الدراسات لغزو أراض المسلمين منذ كان للصليبيين وجود فى العالم الإسلامى وإلى أن أصبح لهم الآن نفوذ فيه .

ونستطيع أن نعد من طلائع المستشرقين :

فى زمن الحروب الصليبية وقبلها :

١ - جريردى أوراليك ٩٣٨ - ١٠٠٣ م الذى رحل إلى دومة وانتخب حبرا أعظم وتسمى سلفستر الثانى ٩٩٩ - ١٠٠٣ م فهو أول بابا فرنسى . وقد أمر بإنشاء مدرستين عربيتين وترجم عن العربية .

٢ - قسطنطين الإفريقى المتوفى ١٠٨٧ م المولود فى فرطاجنة والذى ترجم عن العربية فى الطب والفلك والعلاج .

٣ - أوجودى سانتالا ١١٠٧ - ١١١٩ م ترجم شرح البيرونى على الفرغانى ورسائل فى الكيمياء .

٤ - ديكوبل الذى لمع اسمه عام ١١٢٥ م . راهب أرلندى . زار مصر ووصف أهراماتها .

٥ - أدلرد أوف باشا (١٠٧٠ - ١١٣٥ م) وهو أستاذ الملك الإنجليزى هنرى الثانى ، كان متضلعا فى الثقافة العربية .

٦ - بطرس المكرم ١٠٩٤ - ١١٥٦ م كان رئيسا لدير كلونى أكبر مركز لنشر الثقافة العربية فى فرنسا .

وغيرهم .^(١) ممن عدد منهم صاحب كتاب « المستشرقون » ثمانية وعشرين مستشراقا آخرهم : ليون الإفريقى (الحسن بن الوزان) ١٤٩٤ - ١٥٥٢ م

١ - نجيب عفيفى : المستشرقون : ١١٨/١ - ١٢٢ . ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٤ م

وقد استتبع الاستشراق إنشاء مكتبات شرقية في أوروبا مثل : مكتبة باريس الوطنية (١٦٥٤) وفيها حوالى سبعة آلاف مخطوط عربى ومكتبة جامعة ستراسبورج ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية • ومكتبة الجمعية الآسيوية في باريس •

كما استتبع ذلك إنشاء المطابع الشرقية : كمطبعة إيطاليا ومطبعة فرنسا ، كما استتبع إنشاء المجلات الشرقية التى كان للمستشرقين الفرنسيين فيها جهود معروفة ومن أشهر هذه المجلات :

صحيفة العلماء (١٦٦٥ م) ومجلة الجمعية الملكية الآسيوية والمجلة الإفريقية والمجلة التاريخية ومجلة تاريخ الأديان وغيرها •

وقد استمر إصدار المجلات حتى وقتنا هذا •
وقد أعد المستشرقون دراساتهم باسم العلم والتحقيق وخدمة التراث العربى والإسلامى ، ولكن قل منهم من أنصف أو أجاد •
وأغلب أعمال المستشرقين إنما أفادت بالدرجة الأولى دعاة النصرانية في العالم الإسلامى ، ثم أفادت من أسموا أنفسهم بالمستعمرين وهم محتلون غاصبون لأرض المسلمين ، كما أفادت منها الصهيونية العالمية •

أما ما أفاده المسلمون فقد جاء دون قصد من المستشرقين •
ولقد تولد عن هذه الأعمال التى خططت لها أوروبا وفكرت فيها منذ طردت من بلاد المسلمين ، تولد عنها احتلال ثان لكثير من بلدان المسلمين غداة تحالفت دول أوروبا الغربية والشرقية على دولة الخلافة العثمانية حتى قضت عليها وورثت أملاكها وراثته غير شرعية ، ثم أخذت تذيب الشخصية الإسلامية بما أغرقتها فيه من تيارات ومذاهب ونظريات وملل ونحل • (١)

١ - للتوسع في هذا الموضوع : انظر : التيارات المعادية للإسلام في المجتمع المعاصر • للمؤلف ط دارالبحوث العلمية - الكويت ١٩٧٨ م •

ولقد كانت النتيجة لهذه الجهود التى بذلت لتحقيق مطامع دول أوربا فى العالم الإسلامى ، أن استطاعت القوى الكبرى فى هذا العصر أن تسيطر على معظم العالم الإسلامى سيطرة منظورة فيها قهر وغلبة للمسلمين - كما هو الحال فى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى ، أو سيطرة غير منظورة كمعظم دول العالم الإسلامى .

والخلاص من كل ذلك معروف وطريقة واضحة ، وما يحتاج من المسلمين فى العالم الإسلامى المعاصر سوى الاعتزاز بدينهم بمنهج قرآنهم وسنة نبيهم فى الحياة ، مع الاستقلال فى الشخصية ، وعبور التخلف إلى الحضارة القائمة على أصول الإسلام ، وتجاوز مظاهر الحضارة الراهنة إلى مابعد هذه المظاهر وما هو أرقى منها دون الانمياح فى حضارات تعارض ديننا أو تختلف فى قليل أو كثير مع هدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

الإيمان بالله والإسلام له وحده والجهاد فى سبيله لتكون كلمته هى العليا والعمل بكتابه وسنة نبيه ، وتعلم كل ماينفع فى الدنيا والآخرة ، والاعتزاز بالانتماء لهذا الدين الذى وصفه الله بأنه أكمل الأديان « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . (٢)

٢ - انظر للمؤلف : مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس - نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .



الباب الرابع



الفكر والأدب في الحروب الصليبية

الباب الرابع الفكر والأدب في الحروب الصليبية

ويتناول :

١ - توطئة

الفصل الأول : فن الشعر

ويشمل :

أ - موضوعاته وأغراضه وفنونه .

ب - نماذج من موضوعاته .

ج - من شعراء فترة الحروب الصليبية .

د - بعض المذاهب الشعرية في تلك الفترة .

الفصل الثاني : فن النثر :

ويشمل :

أ - موضوعاته وفنونه .

ب - نماذج من موضوعاته .

ج - من كتّاب فترة الحروب الصليبية .

د - بعض المذاهب النثرية في تلك الفترة .

١ - توطئة

أكثر نتائج الحروب الصليبية أهمية ، وأعمقها أثرا في العالم الإسلامى هى تلك النتائج التى تركتها في الفكر والأدب ، والتى وقف المفكرون والأدباء منها مواقف أملت عليها عليهم مشاعرهم إزاء هذا العدو البغيض الجاثم على الصدور المحتل للأرض المنتهك للعرض .

وأحب أن أوضح - في مستهل هذا الباب من البحث - أنني لا أقصد بالفكر والأدب شيئين متغايرين تمام التغاير ، كما قد يوهم بذلك عطف أحدهما على الآخر ، وإنما أقصد بكل واحد منها شيئا وإن غاير الآخر إلا أنه يشاركه من وجه من الوجوه .

أقصد بالفكر : مجال التأليف والكتابة العلمية التى دعت هذه الحروب إليها ككتب التاريخ وكتب المعارك ، وسائر الكتب التى ألفت استجابة لظروف هذه الحروب ، كالمناظرات وكتب المناقب والمثالب ، وكتب الرد على اليهود والنصارى وكتب القصص وما إليها .

وأقصد بالأدب : مجال النصوص الأدبية من شعر متعدد الفنون والأغراض ، ومن نثر مختلف الأجناس من رسالة إلى وثيقة إلى مناظرة إلى وصف معارك وفتح حصون ، وتدخل الخطابة في هذا النثر ، حتى لا نفصلها بحديث خاص .

ومن الواضح لدى كل متخصص من المشتغلين بالقضايا الأدبية . ولدى الغالبية العظمى من الدارسين للأدب ، أن الأدب لا يخلو من الفكر وإنما يرتكز عليه ويتخذ منه مطلقا ، وإلا لم يكن عملا إنسانيا ، كما أن مجال التأليف والكتابة العلمية لا يتجاهل مطلقا لمسات الجمال التى يضيفها الأدب على الفكر ، وبخاصة إذا كان المجال في كتابة التاريخ أو الفلسفة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو كل ما نسميه دراسات إنسانية .

نعم ، قد يتنحى التعبير الأدبي وتتجاهل الكلمة الموحية ، ويستبعد الأسلوب المجازى عندما تكون الكتابة فى حقائق علمية بحثة كالرياضيات وقضايا الكيمياء والفيزياء ونحوها •

هذا ما أحببت أن أوضحه فى مستهل هذا الباب ، وتلك واحدة مما أرغب فى الحديث عنه فى هذه التوطئة •

أما الثانية فى تلك التوطئة فهى قيد أضعه حول عنوان هذا الباب وهو « الفكر والأدب فى الحروب الصليبية » قيد للفكر والأدب يخص به الفكر والأدب النابعين أو الصادرين من المسلمين ، استجابة لظروف هذه الحروب الصليبية ، وتقيدهما بذلك يخرج من الحديث ما صدر من فكر وأدب استجابة لهذه الحروب من الصليبيين - على سبيل المثال - فقد صدرت عن بعضهم مؤلفات ، وكان لبعضهم نماذج أدبية تأثرت بهذه الحروب ، وبغيرها من الموضوعات التى عرفها الصليبيون عن المسلمين أثناء وجودهم البغيض فى الشرق الإسلامى •

فهذا القيد يصرفنى - وبخاصة وأنا أتحدث عن الأدب العربى - عن الحديث عن فكر الصليبيين وأدبهم اللذين جاء استجابة لهذه الحروب بلغاتهم المتعددة ، وإن كنت أرى أن من تمام الصورة وكماها عن هذه الحروب أن تضاف تلك الدراسة بلغاتهم إلى دراستنا هذه ، غير أنه أمر بعيد التحقيق من جانب ، وخارج عن إطار الكتاب - كما رسمناه ونحن نتحدث فى التمهيد لهذا الكتاب - •

وأما الثالثة مما أحب التعرض له فى هذه التوطئة فهى قيد آخر أسميه تحديدا لهذا الفكر والأدب فى إطار زمانى وآخر مكانى وثالث فنى •

أما الإطار الأول فهو : الفكر والأدب الذى صدر عن المسلمين فى الشرق الإسلامى علمائهم وأدبائهم ممن اصطلوا بنيران تلك الحروب فى هذه الفترة التى حددتها من قبل بقرنين من الزمان فى وعائهما الزمنى •

وأما الإطار الثانى فهو: هذا الفكر والأدب اللذين صدرا فى مصر والشام فى وعائهما

المكانى •

وأما الإطار الفنى فيتناول فئى الشعر والنثر، الشعر بأشهر أغراضه والنثر بأشهر

فنونہ •

ولابد من تحديد هذه الأطر، لتسقيم منهجية البحث ويدخل فى حيز الإمكان، وإلا

فإن استيعاب كل ما قيل فى هذه الفترة من فكر وأدب أمر يفوق طاقتى بل يفوق طاقة

عدد من الباحثين •

وحسبى أن أذكر فى هذا الباب من الكتاب نماذج وأمثلة تدل على ما أريد توضيحه من

قضايا، وتشهد لما أطره من مسائل •

كما يكفينى وأنا أتحدث عن شعراء الفترة وكتابتها أن أذكر نبذا يسيرة عن بعض

شعرائها ومشاهير كتابها، لأن الاستيعاب فى الحديث عن الشعراء والكتاب والعلماء فى

هذين القرنين من الزمان، أكبر بكثير مما نحن بصده، فقد ألهبت هذه الحروب عواطف

المسلمين وحركت مشاعر كل قادر على القول فقال، ومن هنا يكثر المفكرون ويتعدد

الأدباء، وتتعاظم الكتب والدواوين الشعرية، وتفوق كثرتها كل راغب فى الاستيعاب

أو عامد إلى التفصيل، كما تفوتنى فى هذا الكتاب من حيث موضوعه ومن حيث حجمه •

ولابد لى أن أشير إلى أن هذه الفترة قد ذخرت بكبار العلماء والمفكرين، وكان لكثير

منهم من الحروب الصليبية مواقف سجلوها فى نتاج قرائحهم، كما ذخرت تلك الفترة من

تاريخ المسلمين بعدد عديد من الشعراء والكتاب والعلماء، وكان لكل منهم ضرب من

القول ونوع من التأليف استجابة لظروف الحروب الصليبية وملابساتها، ومن يتصفح

قوائم الكتب والدواوين فى هذه الفترة يجد مئات الكتب والدواوين بل ألوفاً مؤلفة •

ويكفى للدلالة على كثرتهم في هذه الفترة « القرنين السادس والسابع الهجريين » أن أشير إلى عدد الشعراء والأدباء والعلماء الذين ورد ذكرهم واختيرت نماذج من إنتاجهم في الكتب الجامعة التي ألفت في هذه الفترة أو بعدها من مثل :

- كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا - للقلقشندي
- وكتاب نهاية الأرب في فنون الأدب - للنويري
- وكتاب خزانة الأدب - لابن حجة الحموي
- وكتاب حسن التوسل في صناعة التوسل - للشهاب محمود الحلبي
- وكتاب خريدة القصر وجريدة العصر - للعباد الأصفهاني
- وكتاب معجم الأدباء - لياقوت الحموي
- وكتاب وفيات الأعيان - لابن خلكان
- وكتاب الوافي بالوفيات - لصلاح الدين الصندي
- وكلها كتب لمؤلفين عاشوا هذه الفترة أو بعدها بقليل
- تلك صورة دالة على كثرة شعراء هذه الفترة وعلمائها وكتابها

أما كثرة الكتب في هذه الفترة فتتحدث عنها المكتبة العربية بعامة والمكتبة الإسلامية على وجه الخصوص ، ويكفى أن عيون كتب التراث في مجالات المعرفة أغلبها ألفت في هذا العصر أو بعده بقليل .

ويكفى للدلالة على ذلك أن أشير إلى أن هذه الفترة من تاريخ الأمة كانت أخصب فتراتنا في مجال العلم والعلماء ، فقد كانت فترة مدارس كثيرة ومدرسين مرموقين في تاريخنا كله ، ولا بأس أن أشير إلى بعض مجالات العلم وبعض مشاهير العلماء في تلك الفترة :

في مجال علم القراءات :

برز : عبد الرحمن بن عتيق بن خلف ، والقاسم بن فيرة الشاطبي الذي كان حجة في عدد من الفنون ، وعلم الدين السخاوي الذي فاق أستاذه الشاطبي .

ومجال علم التفسير :

برز : على بن إبراهيم الغزنوي أحد المبرزين من علماء حلب له : تقشير التفسير ،
والجمال المصرى يونس بن بدران ، قاضى قضاة الشام ، والمرسى السلمى والإمام القرطبي
صاحب التفسير الشهير ، والزمخشري ، وابن منير السكندري وابن النقيب ، والدميرى
الديرنى والعلم العراقى وغيرهم •

وفى مجال الحديث النبوى :

برز : ابن عساكر محدث دمشق ومؤرخها ، وأبو طاهر السلفى ، وعبد الغنى المقدسى ،
وابن عمته الموفق ابن قدامة - وإن غلب على ابن قدامة الفقه - وابن الصلاح ،
والمندرى ، والنووى ، والشرف الدمياطى •

وفى مجال الفقه :

برز : أبو إسحق إبراهيم بن على الشيرازى صاحب « التنبيه » فى فقه الشافعى ،
والغزالى وكتبه الثلاثة الشهيرة فى الفقه : البسيط والوسيط والوجيز ، والقزوينى وكتابه :
المحرر ، والنيسابوى والقفطى والبغدى ، ونجم الدين القزوينى ، وإمام الحرمين الجوينى ،
وابن عسرون ، والعز بن عبد السلام وكتابه الذى قيل عنه « ليس لأحد مثله » وهو :
القواعد الكبرى •

وبرهان الدين المرغينانى صاحب كتاب الهداية فى فقه الأصناف ، ومحمد بن أحمد
القاضى وكتابه المبسوط فى نحو ثلاثين مجلدا ، وعبد الرحمن بن القاسم وكتابه الذائع
الصيت فى فقه المالكية : « المدونة » ، وصفى الدين بن شكر وكتابه : البصائر •
والخرقى ومختصره الشهير فى فقه الحنابلة ، والشيخ الموفق وشرحه لمختصر الخرقي
الذى سماه المغنى ، وابن تيمية فخر الدين الذى ألف فى فقه الحنابلة على طريقة البسيط
والوسيط والوجيز ، وغير أولئك كثير كثير •

وجمال الإسلام على بن المسلم ، وجمال الدين الشهر زورى ، وبهاء الدين بن شداد ،
وسلطان بن إبراهيم المقدس ، وتاج الدين بن بنت الأعز ، وجلال الدين الدشناوى وابن
دقيق العيد ، والقنطى وابن سيد الناس والقراقى وابن العديم .
وفي مجال أصول الفقه وفي مجال الخلاف والمجدل وفي مجال أصول الدين ، وفي مجال
النحو برز : ملك النحاة الحسن بن صافى وتاج الدين الكندى والزواوى ابن عبد المعطى
صاحب الألفية فى النحو ، وابن الحاجب ، وابن مالك وابن النحاس ، وفي العروض
والقافية برز : ابن القطاع الصقلى وسليمان بن بنين وغيرهما .
وفي اللغة برز ابن منظور صاحب لسان العرب وابن ظفر الصقلى وابن برى وفي
البلاغة برز ضياء الدين ابن الأثير وكتابه المثل السائر ، وابن أبى الإصبع وبدر الدين بن
مالك وغيرهم .
وفي التاريخ برز : عز الدين بن الأثير ، وابن الصيرفى وأسامة بن منقذ وعباد الدين
الكاتب وابن أبى طى والوزير القفطى وأبو شامة المقدسى وابن خلكان وابن واصل ، وفي
الجغرافية : ياقوت الحموى ، وفي الفلسفة أعلام ، وفي الرياضيات والكيمياء أفذاذ وفي
الفلك وفى الطب وفى البيطرة وفى السياسة وغيرها مما لا أستطيع إحصاءه .
ولعل فى هذا الكتاب بعمامة وفى هذا الباب بخاصة أكون قد أشرت إلى ذلك ونوهت
به ودلت عليه ، إن ذلك لو وفقت إليه أعد نفسى به قد بلغت كثيرا مما أردت بعون من الله
وتوفيق .

الفصل الأول

فن الشعر

أ - موضوعاته وأغراضه وفنونه :

عاش الشعر والشعراء أحداث الحروب الصليبية وظروفها على مستويين متميزين ،
أولها : تسجيل انتصارات المسلمين على الصليبيين في بعض المعارك والإشادة بأولئك
الأبطال الذين حققوا هذه الانتصارات •

والثاني : تسجيل الغضب والحقد على الصليبيين في كل معركة يكسبونها وفي كل بلد
يحتلونه ، مع الزرابة بأولئك المتوحشين وذكر مثالبهم •

والحق أن الشعر والشعراء على كل مستوى من هذين المستويين ، كانت الروح
الإسلامية هي التي تسيطر عليه وهي التي تمل وتلهم •

ومهما قيل عن أضرار الحروب الصليبية في السياسة والاقتصاد والاجتماع فإن لها فائدة
سياسية للعالم الإسلامي لاشك فيها ، إذ وجدت بين المسلمين الذين كانوا يعيشون فرقة
وانقساماً ، ويكفي للدلالة على تلك الروح الإسلامية التي سرت في المسلمين فأيقظت
مشاعرهم ووحدت إلى حد كبير صفوفهم أن نعلم أن معركة ينتصر فيها المسلمون على
الصليبيين في دمياط - مثلاً - تهز بالفرح والبشر أرجاء العالم الإسلامي كله ، كما نقرأ هذا
في قول البهاء زهير ، مشيداً بانتصار الملك الكامل على الصليبيين واسترداده منهم ثغر
دمياط :

وما فرحت مصر بهذا النصر وحدها	لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم يقم بالله حق قيامه	لما سلمت دار السلام من الذعر
واقسم لولا همة كاملية	لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة	ويشرب ينهيه إلى صاحب القبر

ولقد بدت هذه الوحدة في الفرحة بالانتصار كما رأينا ، كما بدت في الحزن المخيم على العالم الإسلامي كله يوم احتل الصليبيون القدس ، نلمس ذلك في قول شهاب الدين بن المجاور غداة ضاعت القدس من المسلمين :

لَتَبْكُ عَلَى الْقُدْسِ الْبِلَادَ بِأَسْرَهَا وَتَعْلُقُ بِالْأَحْزَانِ وَالتَّرَحَاتِ
لَتَبْكُ عَلَيْهَا مَكَّةَ فَهِيَ أَخْتَهَا وَتَشْكُو الَّذِي لَاقَتْ إِلَى عُرْفَاتِ
لَتَبْكُ عَلَى مَا حَلَّ بِالْقُدْسِ طَيْبَةً وَتُشْرَحُهُ فِي أَكْرَمِ الْحَجَرَاتِ
وعندما وقف الشعر يسجل انتصارات المسلمين على الصليبيين طرق في هذا المجال موضوعات عديدة ، وكان بحق أدبا صادقا أصيلا عبر عن عوطف العالم الإسلامي في غير تزييف أو نفاق ، أما هذه الموضوعات التي طرقها فمن أبرزها :

- ١ - إظهار الفرحة بالنصر على الصليبيين في العالم الإسلامي كله .
 - ٢ - الإشادة بالبطولات والأبطال في هذه المعارك وتصويرها .
 - ٣ - التهنية بهذه الانتصارات ، تهنية العالم الإسلامي كله وبعض الحكام .
 - ٤ - تحريض حكام المسلمين على قتال الصليبيين وتتبع وجودهم والقضاء عليه .
 - ٥ - إغراء المسلمين وقادتهم بخوض المعارك في سبيل الله .
 - ٦ - دعوة المسلمين إلى الاتحاد في مواجهة الأعداء .
- وفي كل موضوع من هذه الموضوعات صال الشعراء وجالوا وكان لهم في ذلك قصائد ودواوين .

وعندما وقف الشعر يسجل غضب المسلمين على الصليبيين وكرهيتهم لوجودهم الظالم الغاشم ، طرق في هذا المجال موضوعات عديدة كذلك ، وكان أدبا صادقا أصيلا استطاع أن يعبر عن غضب المسلمين على الصليبيين من غير تزييف كذلك ولا نفاق ، وكانت هذه الموضوعات سمة بارزة في شعر هذه الفترة ، أما هذه الموضوعات التي طرقها فمن أبرزها :

- ١ - هجاء الصليبيين وإظهار مثالبهم وعيوبهم ووحشيتهم .

- ٢ - البكاء على المدن والحصون التي وقعت في أيدي الصليبيين .
- ٣ - رثاء بعض المقاتلين والقادة الذين يقعون شهداء في معارك الصليبيين أو في أسرهم ويُقتلون صبرا .
- ٤ - الطعن في النصرانية واليهودية وإظهار ما فيها من تحريف وتزييف .
- ٥ - المقارنة بين عدل الإسلام والمسلمين وجور الصليبيين وبطشهم .

وكل هذه الموضوعات جديدة على الشعر جاءت استجابة مباشرة للحروب الصليبية ، سائرة في هذين التيارين تيار تسجيل الانتصارات على الصليبيين وتيار تسجيل غضب المسلمين على الصليبيين الذين احتلوا الأرض واستباحوا العرض وقتلوا الشيوخ والأطفال .

وإلى جانب هذه الموضوعات وجدت موضوعات أخرى جديدة إلى حد كبير ، نرصد منها في هذا المجال :

- ١ - الاتجاه بالمديح النبوى إلى الاستغاثة بالنبي وطلب النصر ببركته . وذلك غير جائز شرعاً ، وخصوصاً بعد وفاته ﷺ

- ٢ - ابتكار موضوع من الشعر يمكن أن نسميه شعر « طلب الفرج » إذ كثرت القصائد التي أطلق عليها : دعاء المنفرة ، أو المنفرة ، ودعاء المنفرة ألفها أبو حامد الغزالي ، وأما المنفرة فللتوزي المعروف بابن النحوى المتوفى عام ٥١٣ هـ ، وقد حظيت المنفرة بعناية الشراح والمشرطين والمخمسين ، كما كان لابن القيم باع طويل في شعر طلب الفرج وللبوصيرى مثله .

- ٣ - الاتجاه إلى محاربة البدع والنحل التي ظهرت في المسلمين نتيجة لهذه الحروب ، وإمام هذا اللون من الشعر ابن القيم .
- وكل هذه الموضوعات كسابقتها صادرة عن روح إسلامية جياشة رأت الغزو الصليبي لبلاد المسلمين فهاها ما رأت ففاضت قرائحها بهذا الشعر الجهم المتعدد الموضوعات .

أما سائر موضوعات الشعر التقليدية من مديح وغزل ووصف وهجاء وفخر ورتاء ، فقد بقيت كما هي في عصورها السابقة وربما دخل بعضها بعض التغيير استجابة للظروف الاجتماعية والسياسية التي يعيشها المسلمون في ظل هذه الحروب .

ويمكن أن نجمل هذه الموضوعات التي أوجت بها الحروب الصليبية إلى الشعراء في عنوان كبير هو : الصراع بين الإسلام والنصرانية أو بين المسلمين والصليبيين ، ونستطيع أن نجد لهذا شعراء وقفوا جانبا كبيرا من شعرهم تحت هذا العنوان كالجلياني صاحب « المشرقات والقدسيات » وهي مجموعة من شعره قصرها على وصف الأحداث التي أدت إلى فتح القدس على أيدي المسلمين أيام صلاح الدين الأيوبي .

وكما صنع ابن القيسراني في مجموعة قصائده التي تسمى « الثغريات » والتي تحدث فيها عن الثغور الإسلامية التي كانت تحت سلطة الصليبيين ووصف حياتها السياسية والاجتماعية كما وصف نساء الفرنجة ونساء الروم .

أما أغراض الشعر التي دخلها في هذا العصر نوع من التطوير فمن أهمها شعر المدح ، وشعر السياسة « الصراع بين الإسلام والنصرانية » ومنه التهاني بالفتوح والبشارات بها ، وشعر وصف حياة الفرنجة .

ونستطيع أن نتحدث عن هذا التطور في إيجاز يناسب موضوع الكتاب فنقول :

المدح في هذه الفترة وإن بقي جانب منه على ما كان عليه من قبل فاتجه إلى مدح الأمراء والكبراء والأغنياء والأصدقاء ، إلا أن التطور الذي حدث له انحصر - تقريبا - في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

فمنذ من الله على البشرية بنبيها ورسولها وهاديا محمد صلى الله عليه وسلم نشأ نوع إسلامي من الشعر تميز بمدح المعصوم صلى الله عليه وسلم والإشادة برسالاته وجهاده وعمله وهديه وانسحب ذلك على مبادئ الدين ونظمه وبرز في هذا الميدان رجال معروفون يقدم في الشعر راسخة كالنابغة الجعدي وطويلته التي مطلعها :

أُتيتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرًا

والأعشى ميمون بن قيس في قصيدته التي مطلعها :
ألم تفتض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم السهدا
والتي منها قوله :

نبى يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغيب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا

وكعب بن زهير في مشهورته التي مطلعها :
بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
ومنها قوله :

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعظ وتفصيل
وحسان بن ثابت رضى الله عنه شاعر النبى والمدافع عنه وعن الدين • أمام الشعراء
والخطباء ، وله في ذلك قصائد عديدة •

وقد كان حسان رضى الله عنه - لقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم - وكثرة ما
قال من مدائح فى الرسول وفى دينه وخلقه ، مثلاً احتذاه غيره من الشعراء الذين مدحوا
النبى صلى الله عليه وسلم على مر العصور إلى أن كانت فترة الحروب الصليبية التى
نتحدث عنها ، فاتخذ مديح النبى شكلاً جديداً مختلفاً عن ذى قبل •

ففى زمن الحروب الصليبية وجد المسلمون أنفسهم أمام عدو يتخذ الصليب شعاراً
والكنيسة وبابواتها قدوة ، وجدوا أنفسهم أمام عدو همه هدم الإسلام وإبادة المسلمين
وتحويل المساجد كنائس ، فكان لابد لهم من الدفاع عن هذه المقدسات وكان لابد لهم من
الإشادة بهذا الدين وبرسوله نبى الرحمة ونبى الملحمة ، فاتخذوا من مدح الرسول صلى الله
عليه وسلم منطلقاً لوصفه وتعظيمه وشرح دين الإسلام وبيان ما فيه وما فى منهجه من
كمال ، ثم اتخذوا من هذا المدح منطلقاً للاستشفاع به والاستعانة ببركته على قتال أعدائهم
أعداء الإسلام وهذا الاستشفاع وما إليه غير جائز شرعاً ، وبخاصة بعد وفاته ﷺ

وظهرت في ذلك قصائد كثيرة لشعراء أفذاذ ، فهذا هو البوصيري يمدح الرسول ﷺ
بهمزيته التي مطلعها :

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
والتي تنيف على أربعمائة بيت ، وبقصيدته ذات الحظ الأوفى في الشعر كله المسماة
البردة والتي مطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاجرى من مقلّة بدم
والتي نيفت على ثمانين بيتا . وقد حظيت « البردة » باهتمام لم تحظ به قصيدة عربية
في مختلف العصور ، فمنذ القرن الثامن الهجري « والبردة » ملء سمع المسلمين ونهبة
أعينهم وموضع إعجاب الشعراء ومحاسنهم ، فقد شطروها وخسوها وسبعوها وعارضوها ،
وكانت سببا لشيوع مدح النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة بما لم يمدح به فترة
مماثلة .

فهذا ابن حجة الحموي وذاك ابن نباتة المصري ، وسيف الدين على بن قزعل ،
وابن الساعاتي ، والشاب الظريف وعشرات من الشعراء سواهم .

بل وجد في هذه الفترة دواوين شعر بأكملها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :
مثل :

« أهني المنائح وأسنى المدائح » ديوان للشهاب محمود الحلبي .
و « بشرى اللبيب يذكر الحبيب » ديوان لابن سيد الناس .

ومن أشهر مدائح النبي صلى الله عليه وسلم تائية تقى الدين السبكي الذي افتتحها
بالتذكير والتحذير فقال :

تقظ لنفس عن هداها تولت وبادر ، ففي التأخير أعظم وحشة
فحتم لا تلوى لرشد عناتها وقد بلغت من غيها كل بُغية

وما أحب أن أنبه عليه في هذا المجال أن الشعراء لم يكونوا على مذهب واحد في مدح
الرسول صلى الله عليه وسلم في نهج قصائدهم ، وإنما كان منهم من يبتدىء قصيدته
بالوعظ والتذكير كما فعل البوصيري في إحدى مدائحه التي استهلها بقوله :
إلى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول
في كل يوم ترجى أن تثوب غدا وعقد عزمك بالتسويق محلول

ثم ينتقل بعد ذلك إلى التعريض بأهل الديانات الأخرى ثم يخلص إلى مدح الأمة
الإسلامية ثم يختم القصيدة بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم .
ومنهم من كان يبدأ مدائحه النبوية بالتشبيب ببلاد الحجاز والتشوق إليها وبكائها
وذكر الرحلة إليها ووصف أماكنها ، ثم ينتهي إلى مدحه صلى الله عليه وسلم كما فعل
البوصيري في برده والشهاب محمود في تائتيه التي مطلعها :
رأى الركائب تحدى فائننى كلفا صب بكى أسفا والبين قد أزفا
مغرى بعب الحمى تهفروا نوحه إن برقه لاح أو قمريه هتفا

ومن الشعراء من كان يبدأ مدائحه النبوية بالرد على النصارى واليهود ثم يخلص من
ذلك إلى مدحه صلوات الله عليه كما فعل البوصيري في لاميته التي مطلعها :
جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقل العالمين عقولا

ومنهم من كان يتجه رأسا إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم كالْبوصيري في همزيه
وغيرها .

وكما فعل ابن دقيق العيد في قصيدة له استهلها بقوله :
شرف المصطفى رفيع عماده ليس يحصى بكثرة تعداده
هكذا تطور فن مدح النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة .

غير أن طائفة من الشعراء اتخذوا مذهباً في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أساءوا فيه إلى أنفسهم أولاً وإلى من يقرأون لهم ثانياً ، وذلك أنهم عمدوا إلى أن يفتتحوا قصائد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بالغزل بل بالغزل الفاحش بل بالغزل بالمذكر ، ثم يخلصون من ذلك إلى مدحه صلى الله عليه وسلم .

ومن هؤلاء العزازي - من شعراء القرن السابع - الذي استهل مدحته النبوية بقوله :
دمى بأطلال ذات الحال مطلول وجيش صبرى مهزوم ومفلول
ومن يلاقى العيون الفاتكات بلا صبر يدافع عنه ، فهو مخذول

ويستمر في هذا الغزل المادى الرخيص ثم ينتهى إلى مدحه صلوات الله عليه .
وقد فعل ذلك ابن نباتة المصرى في قصيدته التى مطلعها :
شجون نحوها العشاق فاءوا وصب ماله فى الصبر راء

وكذلك هبط إلى أدنى من ذلك أبو حيان النحوى صاحب التفسير حيث بدأ قصيدته بقوله :

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمر من خوط قامتها فما اتنى العيب إلا وهو مقتول
جميلة فصل الحسن البديع لها فكم لها جل منه وتفصيل

وبما ضل فيه بعض شعراء المدائح النبوية أنهم أخذوا يتغزلون بذات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويذكرون حسنه وجماله وبهاءه ، كما فعل البوصيرى فى قصيدته التى مطلعها :

نبى كامل الأوصاف تمت محاسنه فقيـل له الحبيب
وصفت شائلا منه حسانا فما أدرى أمدح أم نسيب

وكما فعل الصرصرى فى قصيدته التى مطلعها :

أوجهك أم ضوء الصباح تبلجا أم البدر فى برج السماء محاً الدجى

ولقد استنكر بعض علماء هذه الفترة وأجلائها هذا الأسلوب ، ورموا أصحابه بفساد الذوق واختلال الفكر ، والضلال عن الحق •

وأما شعر السياسة أو شعر الصراع بين الإسلام والنصرانية ، فقد شعر له الشعراء ، وأعطوه من عواطفهم الدينية كفاء ما أملت عليهم تلك الحروب ، من إحساس بأن هؤلاء الصليبيين يستهدفون دينهم قبل دنياهم وأرضهم ، ويعادون الإسلام قبل أن يعادوا المسلمين •

انطلق الشعراء فى هذا الضرب من الشعر يتحينون كل فرصة ليشيدوا بانتصار المسلمين على الصليبيين وبساحة الإسلام وتوحش النصارى وبربريتهم فيمدحون قادة المسلمين الذين واجهوا الصليبيين وحدوا صفوف المسلمين وحققوا النصر على أعداء الإسلام ، كعماد الدين زنكى وولده نور الدين محمود ، وصلاح الدين والعادل والكامل ، وقلاوون وابنه الأشرف خليل •

كما يظهرون فرحهم بمقتل قادة الصليبيين أو وقوعهم فى أسر المسلمين أو فرارهم أمام المسلمين •

نلمس ذلك فى شعر غير واحد من الشعراء ، فهذا ابن القيسرانى تنطلق شاعريته سخية أتية غداة انتصر عماد الدين زنكى على الصليبيين فاستعاد منهم الرها فيقول : .
سمت قبة الإسلام فخرا بطوله ولم يك يسمو الدين لولا عماده

ومنها فى الإشادة بالفتح والسخرية من الصليبيين وتسميتهم « علوجا » :

لقد كان فى فتح الرها دلالة على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصره ولم يغن عند القوم عنه ولاده

ومنها في أسراهم ووجوب استسلامهم وتسليم ما بأيديهم من مدن المسلمين :
إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأي لو أن عزمه رمى سدّ ذي القرنين أحصى سداده

وهذا ابن منير الطرابلسي يشيد بنور الدين محمود ويعتز بأنه استطاع أن يهدم الكنائس
ويحطم الصليب فيقول :

يا لها همة ثغر أضحكت من بنى القلف ثغور الشامتين
كم كنيس كنست قدامها منه بعد الروح في ظل السينين
ومنار يحتل صلبانه بين بيض تتبارى في البرين

ومن شعر السياسة في تقديرى شعر التهاني والبشارات ، فهو نط من الشعر أدخل في
السياسة منه في أى غرض آخر .

وشعر التهاني بالفتوح ، والبشارات بالانتصارات ، قد وجد في أحداث تلك الفترة
وتلاحق معاركها التي يحقق المسلمون فيها نصرا تلونصر ، ويستردون ثغرا وراء ثغر ومدينة
في إثر مدينة ، وجد الشعر في ذلك مجالا يعبر فيه بصدق وحرارة عن روح الأمة الإسلامية
المعتزة بهذه الانتصارات ، التي أدركت أنها ما حققت النصر على الصليبيين في معركة ما ،
إلا برفع راية الجهاد في سبيل الله ، وبقتال الصليبيين صفا كالبنيان المرصوص .

حقا أعادت هذه الانتصارات للمسلمين ثقتهم في أنفسهم وملأت نفوسهم أملا في
القضاء النهائي على هذا العدو الغاصب الرجيم .

فعندما انتصر نور الدين على الصليبيين وكسره في بغراس وقتل البرنس وحملت رأسه
على أسنة الحراب ، سجل ذلك ابن منير الطرابلسي في قوله :

أقوى الضلال وأقفر عرصاته وعلا الهدى وتبلجت قسامته

ومنها قوله :

صدم الصليب على صلابة عوده ففترقت أيدي سبا خشبائه
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلّة بالروح ممقر^(١) ما جنت عذراته

وعندما انتصر صلاح الدين انتصاره التاريخي على الصليبيين في حطين ، ذلك الانتصار الذي أعقبه استرداد بيت المقدس بعد أن بقى مائة عام في أيدي الكفرة الصليبيين ، نظم الحكيم أبو الفضل بن حسان قصائد عديدة في هذه المناسبة التاريخية وسماها « القدسيات » جاء في إحداها قوله مخاطباً صلاح الدين :

يا فاتح المسجد الأقصى على بهم وقائص الجيش لا يحصى بقفرتيه
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة تحكى النبوة في أيام فترته

وقال أبو علي الحسن بن علي الجويني في هذه المناسبة قصيدة منها :

هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا

ولقد كثر الشعر في هذا الفتح إلى حد كبير ، حتى إن معظم شعراء العصر قد شاركوا في التهنية بهذا الفتح العظيم الذي أعقب كسر الصليبيين في حطين .
وهذا العماد الكاتب يدلي بدلوه فيقول قصيدة تُعد من أشهر ما قال جاء فيها :

يا يوم حطين والأبطال عابسة وبالعجاجة وجه الشمس قد عبتا
رأيت فيها عظيم الكفر محتقرا معفرا خده والأنف قد تعسا
يا طهر سيف تَرَى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا

١ - بمعنى شديد .

ومنها قوله :

أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا وبیت كفرهم من خبثهم كنسا

وللعماد في هذا المقام قصائد عديدة كلها تفيض حمية إسلامية وتحمل البشرى إلى المسلمين في العالم كله بهذا الفتح العظيم .

وللنسابة المصرى محمد بن أسعد الجوانى قصيدة جاء فيها :

أترى مناماً ما بعينى أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقامة قُمتُ من الرجس الذى بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم ير قبل ذاك لهم ملك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشأم وطهر القدس الذى هو فى القيامة للأنام المحشر

وللعماد الكاتب قصيدة فى التهنية بانتصار المسلمين فى حوران على الروم يقول فيها

مهنّا نور الدين محمود بهذا النصر : منها :

يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا فى حيرة وأتوا إلى حوران
وجلوت - نور الدين - ظلمة كفرهم لما أتيت بواضح البرهان
أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً والكفر منك مضطجع الأركان

وفى إشارة إلى وحدة المسلمين من كل جنس لمواجهة الصليبيين فى قوله :

للروم والإفرنج منك مصائب بالترك والأكراد والعربان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت لَه أوجه الأملاك بالإذعان
سيرُ لو أن الفتح ينزل أنزلت فى شأنها سور من القرآن

ولابن الساعاتى قصيدة جيدة وقد دخل طبرية بعد أن فتحها الله على صلاح الدين الأيوبي ، فيها :

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرت عيون المؤمنين
رددت أخيدة الإسلام لما غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما يعز على العوالى أن يهونا

وهذا رشيد بن بدر النابلسى يتحدث عن فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، فيذكر أنه كان حلما يداعب كل مسلم ، وأملا يراود كل شاعر من شعراء المسلمين ، فيشيد بصلاح الدين الذى تحققت على يديه الآمال ، فيقول فى قصيدة « قدسية » :

هذا الذى كانت الآمال تنتظر فليؤف الله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ، ما حكيت فى سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا الله طيب العشايا منه والبكر
الآن قرت جنوب فى مضاجعها ونام من لم يزل حلفا له السهر
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الإسلام من بعد طى - وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى ، وقد رفعت بعد الصليب به الآيات والصور
شتان ما بين ناقوس يدان به وبين ذى منطق يصفى له الحجر
الله أكبر ، صوت تقشعر له شم الذرا ، وتكاد الأرض تنفطر

أما الشعر الذى وصف به الشعراء حياة الفرنجة فأود أن أوضح أنه لم يكن قصد الشعراء هو وصف حياة الفرنجة ، بمقدار ما كان شعرا يصور ملاحم بطولية خاضها المسلمون ضد الصليبيين ، ولكن عندما تحدث الشعراء عن تلك الملاحم وصفوا فيها حياة الفرنجة وتحدثوا عن عاداتهم وتقاليدهم ، وأدلووا الحديث عن أخلاقهم أهمية خاصة ، نظرا لما تميزت به أخلاقهم من غدر وخيانة وتجبر عند القدرة وذلة ومهانة عند العجز ، ونكت بالعهود وخلف للوعود .

على أن عددا من الشعراء كابن القيسراني اهتموا بالحديث عن نساء الفرنج وتغزلوا
بهن ، ومنهم من قال فأفحش ، مما نمسك عن ذكره هنا ، إذ لا فائدة ترجى من ورائه ،
وشعر الجدل في هذا المجال يغنى عن سواء •
وبعض الشعراء اهتموا بأن يتحدثوا عن عقائد الصليبيين وعاداتهم الدينية
واحتفالاتهم ، وقارنوا ذلك بما للمسلمين من عقائد تقوم على التوحيد وعادات تقوم على
مكارم الأخلاق •

يقول ابن القيسراني واصفا غدر القمص ونكته وخيائنه وتجبره في غيبة نور الدين :
وأرى صياح القمص كان خديعة فطفى وجار وليس ثم وجار
خان الصنيعة غير محقوق بها والخير يهدم ما بنى المختار
ذنب إذا ما غبت أقدم عابثا إقدام من لم يدن منه قرار
وكان من أشد مقاتلي الصليبيين فنتان الداوية أو فرسان المعبد والاستبارية

وقد ورد ذكر كل طائفة منهما في شعر شعراء المسلمين في معرض الحديث عن جنبهم

وهزيمتهم •

قال في ذلك ابن رواحة الحموي يمدح صلاح الدين ويعرض بجنب الراوية :
أرى داوية الكفار خافت به داء يضعف كل متن
أبوا نسلأ مخافة نسل بنت تفارق دينهم أو قتلة ابن
فقد عقموا به من غير عقم كما جنبوا به من غير جنب

ووصف أبو الفضل الجلياني صاحب القديسيات والمبشرات جنب الداوية يوم وقعة تل

حطين فقال :

ووقعة يوم التل إذ قبضت به جبابرة الإفرنج حيرى وشردا
ترى المنسر الديوى يلقي سلاحه وينساق ما بين السبايا ملهدا

وأما الاستبارية فقد ورد ذكرهم في شعر العماد الكاتب وزير صلاح الدين عندما اقترح على صلاح الدين أن يقتلهم فهم أهل غدر بالمسلمين ، فقال :

فسروا فتح القدس واسفك به دماءً ، متى تجرّها ينظف
وأهد إلى الاستبار البتا سر وهذ السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلا د يخلصك ربك في الموقف

قال ابن واصل : « ورأى صلاح الدين أن المصلحة تقتضى تطهير البلاد من هاتين الطائفتين - بإحضار كل داوى واستبارى يعثر عليه ليمضى فيه حكم السيف ، وجعل لكل ١٠ يأتية بأسير منها خمسين ديناراً » .

وما ضرب عنق أحدهم حتى عرض عليه الإسلام ، فامتنعوا إلا بعض الأفراد الذين أسلموا وحسن إسلامهم » ^(١)

وتحدث الشعراء عن عقائد النصارى وتثليثهم ، وعقائدهم الزائفة في وصف الرب بما لا يجوز وصفه به .

قال العماد الكاتب في حديثه عن تثليثهم : من قصيدة له جاء فيها :

ولا يفتح البيت المقدس غيركم وبيتكم من كل عاب مقدس
لهم كل يوم في جهاد مثلث إذا نصروا التوحيد في خمس

وقال أبو الفضل الجليلاني في مدح صلاح الدين قصيدة جاء فيها وصف لزائغ عقائد الصليبيين :

يامنقذ القدس من أيدي جبابرة قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فأكذبوا كذبهم في وصف ربهم وصدق الوعد مأمونا محوله
هاج الفرنج وقد خاروا لفتكته فاستنفروا كل موهوب تغلفه

١ - ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب - تحقيق د . جمال الدين الشيال ج ٢ ص ١٩٦ ط القاهرة ١٩٥٧ م .

لما سبى القدس قالوا : كيف تركوها والرب في حفرة منها تمثله
فكم ملك لهم شق البحار سرى لينصر القبر والأقدار تخذله
وما أكثر ما تحدث شعراء المسلمين عن الصليب وكيف نكس ، فلما فتح صلاح الدين
بيت المقدس ، وخرب بيت الأحزان أحد حصون الصليبيين ويسمى حصن المخاض ،
قال ابن الساعاتي مخاطباً صلاح الدين :

وقفت على حصن المخاض وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
وما رفعت أعلامك الصفر ساعة إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا من أعاليه صليب وبيعة وساد به دين حنيف ومصحف
صلبية عبّاد الصليب ومنزل الـ نزال ، لقد غادرته وهو صفصف
نصحتكم ، والنصح في الدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف ^(١)

وهكذا وقف الشعر يصف حياة الفرنجة في ثنايا المدح والشعر السياسي الذي تناول
الصراع بين المسلمين والصليبيين والتهاني والبشارات ، فكان الشعر في المعركة يسجل
وينقل ويشير ويشجع .

أما فنون الشعر في هذه الفترة فقد دخلها تطور يجدر بنا أن نلاحظه ونتحدث عنه .
قال صفى الدين الحلبي : « مجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون ، لا
اختلاف بين أهل البلاد ، وإنما الاختلاف بين المغاربة والمشاركة في فنين منها - وسيأتى
ذكرها -

والسبعة المذكورة هي عند أهل المغرب ومصر والشام :

١ - الشعر القريض .

٢ - والموشح .

٣ - والدوبيت .

١ - يقصد ببيت يعقوب : أرض القدس ، ويوسف : صلاح الدين فذاك اسمه .

- ٤ - والزجل .
- ٥ - والمواليا .
- ٦ - والكان كان .
- ٧ - والحماق .

وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها ، ويبدلون بالزجل والحماق :
الحجاذى والقوما ؛ وهما فنان اخترعهما البغاددة للقناء بهما فى سحور شهر رمضان خاصة فى
عصر الخلفاء الراشدين من بنى العباس ^(١)

وهذه الفنون منها ما هو معرب ومنها ما هو ملحون ، يقول الحلى :
« هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا لا يفتقر فيها اللحن وهى :

١ - الشعر القريض .

٢ - والموشح .

٣ - والدو بيت .

ومنها ثلاثة ملحونة أبدا وهى :

١ - الزجل .

٢ - الكان كان .

٣ - القوما .

ومنها واحد هو البرزخ بينهما ، يحتمل الإعراب واللحن ، وإنما اللحن فيه أحسن
وأليق وهو : المواليا ^(٢)

وقد حدث فى هذا تطور على النحو الذى سنبينه ، وهو تطور شمل اللغة والوزن
والقافية .

١ - صفى الدين الحلى : العاقل الحال والمرخص الغالى . ص ٧ منه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية توفى

صفى الدين الحلى سنة ٧٥٠ هـ .

٢ - السابق ص ٨

وهناك تطور آخر شمل هيكل الأوزان الشعرية المعروفة ، تمثل في محاولة أن يجد الشعراء في البحور الشعرية الستة عشر المعروفة مجالا ليستنبطوا منها بحورا جديدة ، فعكسوا دوائر البحور المعروفة ، فكان لهم من هذه المحاولات بحور جديدة عدها بعضهم ستة بحور هي :

١ - المستطيل .

٢ - والممتد .

٣ - والمتند .

٤ - والمنسرد .

٥ - والمتوافر .

٦ - والمطرّد .

ولنتحدث الآن عن التطور الذي حدث في فنون الشعر في هذه الفترة .

أما الشعر القريض :

وهو الشعر العمودي الذي ورثته هذه الفترة عن العصور السابقة فقد استمر على ما كان عليه إلى حد كبير ، وكل ما جد فيه أو دخله من تطور هو أن بعض الشعراء أضافوا إليه بعض المعاني التي ولدوها والتي دعتهم إليها ضرورات حياتهم وعصرهم ، كما جددوا في بعض الأساليب التعبيرية وكان تجديدا يميل إلى تجاهل الفصيح واستعمال العامي من الألفاظ .

وقد أغرم بهذا التجديد عدد كبير من الشعراء ، فدخلت في أشعارهم كلمات عامية وتعبيرات « شعبية » كما نجد ذلك في شعر كبار شعراء هذه الفترة من أمثال العماد الأصفهاني وابن القيسراني وابن عنين وغيرهم ، نعم لم ينزلوا إلى العامية المخالفة لقواعد اللغة ولكن إلى عامية حرصوا هم على أن يعربوها ، غير أن هذا التبسط في نقل كلمات السوق إلى العربية لم يعجب النقاد ولم يرض أذواق الخاصة وإن كان قد سرى في الشعر وبلغ فيه حدا جعل العصور التالية تشكو من ذلك وقد أصبح تيارا يجرف أمامه كثيرا من

الفصيح من الكلمات ، كما رأينا بعد ذلك بقليل في شعر أبي الحسين الجزار والحامى وابن دانيال وغيرهم .

كما أن هناك ظاهرة هامة بدت في شعر القريض وفي غيره من فنون الشعر وهى ظاهرة الإكثار من المحسنات البديعية إلى حد الإسراف ، وقل أن تجد شاعرا من شعراء هذه الفترة إلا أغرم بالبديعيات ، حتى إن بعضهم كان ينشئ القصيدة لا هدف له منها إلا حصر البديعيات ، حتى لقد عرف هذا العصر بعصر البديعيات ، واشتهرت فيه قصائد بعينها دارت حول المديح النبوى وتضمنت ألوانا من البديع حتى طغى البديع في بعضها على الموضوع نفسه .

ومن أشهر هذه البديعيات :

• بديعية صفى الدين الحلى

• وبديعية ابن جابر الأندلسى

• وبديعية ابن حجة الحموى

كما يجب أن نلاحظ في الشعر في هذه الفترة ظاهرة لاتقل أهمية عن شيوع العامية والإسراف في استخدام ألوان البديع تلك هى : شيوع النظم وكثرة محترفيه ، وقد يكون هذا النظم على حساب الشعر الأصيل القادر على نقل الأحاسيس ، ولكنه ظاهرة فشلت في تلك الفترة لابد من تسجيلها ولو حسبت على العصر كله وعدت من سلبياته .

وربما كان شيوع النظم نتيجة لقلّة عدد الشعراء الذين يقفون أنفسهم على قرض الشعر ويعيشون من ورائه - كما كانت الحال في عصور سلفت - وربما كان نتيجة لأسباب أخرى لا أستطيع هنا أن أستقصيها .

وقد شاع النظم بين العلماء والفقهاء والقضاة وبخاصة علماء النحو واللغة والقراءات ، كما شاع بين عدد من أصحاب الحرف الذين نالوا خطأ غير قليل من العلم والمعرفة .

ومن مشاهير النظامين في تلك الفترة : ابن دقيق العيد ، وابن سيد الناس ، وصدر الدين الوكيل ، ومحيى الدين بن عربي وتقى الدين السبكي ، وأبو حيان أثير الدين ، وتاج الدين السبكي ، وابن مالك النحوي وابن معط النحوي وغيرهم .

ولقد كان ضروريا أن يكثر في نظم هؤلاء النظامين مصطلح العلوم التي يمارسون كثرة ربما تخرج به عن حد القبول ، عبر عن ذلك الصلاح الصفدي حين قال :
« وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون مال به إلى ذلك الفن وغلبت عليه قواعده ، واستعملها في مقاصدها الشعرية وتخييلات معانيه ، وظهر على ما يرويه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه ، ألا ترى إلى الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الآداب والحكم كيف يغلب عليها ألفاظ المنجمين »^(١)

ومن غير اللازم أن ننوه إلى أن هذا النظم لم يرق إلى مستوى الشعر ، فذلك أنه معروف لدى معظم دارسي الأدب ، إذ يقف النظم رهن الوزن والقافية لا يتجاوزها إلى تعبير عن عاطفة أو إحساس ، أو إلى صور أدبية رفيعة كما يحاول الشعر أن يخلق في هذه الأجواء .

ومن الظواهر الشعرية الجديدة بالتسجيل في هذه الفترة أن عددا من الشعراء اشتبهوا بين الشعراء بأنهم أصحاب قصيدة واحد مشهورة جيدة ، ولقد كان أصحاب هذه الواحدة أعلاما في تلك الواحدة وبلغوا فيها من الجودة حدا ، جلب إليها اهتمام الشعراء والنقاد والشرح ، فكانت هذه الواحدة كثيرا ما تشرح وكثيرا ما تعارض ، وكثيرا ما تشطر أو تخمس .

ومن أصحاب هذه الواحدة :

الطفرائي في لاميته المسماة : لامية العجم . التي مطلعها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وهي أشهر شعر ديوانه .

١ - صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي : شرح لامية الطفرائي : ١٢٤/١

ومنهم : ابن الفارض الذى قال عنه الذهبى : « كان سيد شعراء عصره وشيخ الاتحادية ، ومأثمٌ إلا زى الصوفية وإشارات مجملة ، وتحت الزى والعبارة فلسفة وأفاج »
وقد اشتهرت لابن الفارض واحدة هى الثانية الصوفية الكبرى التى بلغت سبعة مائة وستين بيتا ، وثانية صغرى ، فضلا عن ديوان كبير الحجم .

ومنهم : الحيمى وبائته التى مطلعها :

يا مطلباً ليس لى فى غيره أرب

ومنهم : البوصيرى فى برده التى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم

هذا عن شعر القريض .

أما الموشح ، فقد كان فنا شعريا معروفا فى الأندلس العربية المسلمة منذ زمن بعيد ، ثم انتقل إلى المشرق ، يقول ابن بسام : « انتشرت الموشحات فى الأندلس بعد أن لقيت الاستحسان والقبول ، وحاول الشعراء فى القرن الرابع الهجرى أن يبلغوا بها مستواها الفنى اللائق ، وكانت محاولاتهم خلال هذا القرن تتعثر ، وتلقى بعض المقاومة حتى جاء : عبادة بن ماء السماء ^(١) فكان شيخ الصناعة وإمام الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه : مرحبا وأهلا ^(٢) »

فلما كان ابن سناء الملك انطلق عليه فن الموشحات إلى قمة النضج .

وقد أرخ صلاح الدين الصفدى للمشاهير من أصحاب الموشحات بمصر والشام ^(٣) .

وأما فى هذه الفترة التى نتحدث عنها فقد طبعت الموشحات بطابع صوفى حيناً وبطابع زهدى حيناً آخر ، وقد اشتهرت موشحات ابن عربى على ما فيها من شطحات صوفية ملغزة غالبا ، مفرقة فى التفلسف والغزل بذات الله ، وهو مما لا يليق ، كما اشتهرت موشحات الشهاب التلعفرى ، والسراج المحار وغيرهم .

١ - هو رأس الشعراء فى الدولة العارمية فى الأندلس ت ٤٢٢ هـ .

٢ - ابن بسام : الذخيرة : ح ٢ ص ١

٣ - صلاح الدين الصفدى : توشيح التوشيح : ص ٣٨ .

على أن موشحات أخرى قد اشتهرت واشتهر أصحابها في هذه الفترة فهناك موشحات
غزلية وموشحات مدحية وموشحات خميرية .
ومن موشحة للشهاب التلعفري في مدح الأديب شهاب الدين العبادي العزازي ،
جوابا عن الموشحة التي كتبها إليه ، قوله :

بحر آداب وفضل قد طما فآخش من تياره الملتطم
العبادي الشهاب التاقب
شكره فرض علينا واجب
فهو إذ تبلوه نعم الصاحب
سهمه في كل فن صائب
جائل في حلبة الفضل كما جال في يوم الوغى شهيم كمي
شاعر أبدع في أشعاره
ومتى أنكرت قولي باره
لو جرى مهيار في مضماره
والخوارزمي في آثاره

قلتُ : عودا وارجعا ، من أتتا ذا امرؤ القيس إليه ينتمي ^(١)
ولقد اتصفت الموشحات عموما بالاهتمام بالبديعيات ، ومنها ما ظهر فيه التكلف
والتصنع .

وأما الدوبيت وذاك اسمه الذائع وإن كان غير عربي التسمية . أما اسمه العربي
فهو « الرباعي » وإنما ساء العرب بذلك لأنه يتكون من مصاريع أربعة ، وقد سموا
الواحدة منه « رباعية »

وكلمة « الدوبيت » فارسية تعني ، بيتان وهو معروف في الفارسية منذ زمن سابق على
معرفة الأدب العربي له .

١ - ابن شاعر الكتبي : قواف الوفيات : ٣٥١/٢ .

وقد اهتم شعراء هذه الفترة بهذا النوع من الشعر وأكثر بعضهم من نظمه بل كان لبعض الشعراء فيه دواوين مستقلة ، كما ذكر ابن خلكان عن الشهاب الشاغوري وقال : نظم ديوانا خاصا جميع ما فيه دوبيت ^(١) وقد رآه ابن خلكان ونقل عنه .

كما ذكر ابن خلكان أن للعماد الكاتب « ديوان صغير ، جميعه دوبيت » ^(٢) وقد نقل أبو شامة في الروضتين من ديوان العماد الكاتب أبياتا في الجهاد قالها العماد على لسان الملك العادل نور الدين منها :

للفزو نشاطى وإليه طربى مالى فى العيش غيره من أرب
بالجد بالجهاد نجح الطلب والراحة مستودعة فى التعب
* * *

لأراحة لى فى العيش سوى أن أغزو وسيفى طربا إلى الطلى يهتز
فى ذل ذوى الكفر يكون العز والقدرة فى غير جهاد عجز
* * *

أقسمت سوى الجهاد مالى أرب والراحة فى سواء عندى تعب
إلا بالجد لا ينال الطلب والعيش بلا جهاد جبر لعب ^(٣)
 وأنواع الرباعى ثلاثة :

- أولها : يكون بأربع قواف مثل « المواليا » الآتى ذكره بعد .
- وثانيهما : يكون بثلاث قواف ويسمى الأعرج .
- وثالثهما : يكون بأربع قواف ويسمى المردوف .

وكل الثلاثة الأنواع على وزن واحد ، قال صفى الدين الحلى فيه : « ويتميز من غيره لتحليله بالإعراب ونسجه على منوال لفظ الأعراب » ^(٤)

١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٤٠٨/١ .

٢ - السابق : ٧٧/١ .

٣ - أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين : ٢٠٧/١ .

٤ - صفى الدين الحلى : العاقل الحال : ٦ .

ومن أمثلة الأعرج منه قول الشاب الطريف :
قاسيت بك الفرام والهجر سنين مابين بكا وأنين وحين
أرضينك ولا تزداد إلا غضبا الله - كما أبلى بك القلب - يعين^(١)
ولعل الإقبال الذى حظى به الرباعى يعود إلى أن بعض الشعراء رغبوا فى أن يتخففوا
من قيود القافية ، وقيود الوزن ، أما القافية فمن الواضح أن الشعر الرباعى أيسر
وأهون . وأما الوزن فإنه لا يتقيد بالأوزان المعروفة وإنما يخضع لأوزان كثيرة أشهرها كما
قال الرجوى :

فعلن متفاعلن فعولن فعْلن^(٢)

كما كان هذا الفن من الشعر أكثر ملاءمة للغناء والتلحين .
وتلك هى الثلاثة المعربة أبدا التى لا يقتصر فيها اللحن من فنون الشعر وهى : الشعر
القريض والموشحات والرباعى .

أما الأربعة الباقية كما عدها الحلّى : فهى :

الزجل :

وهو من فنون الشعر ملحون أبدا يلتزم العامية غير المعربة ، وهو من الفنون الشعرية
التي ولدت فى الأندلس وواكبت الموشح أو ظهرت بعده بقليل فى أواخر القرن الرابع
الهجرى .

وفى القرن الخامس الهجرى استطاع الزجال المشهور أخطل بن نمارة أن يخلص
الزجل من الموشح ، وأن يظل الموشح فصيحاً بينما يبقى الزجل ملحوناً .
وفى القرن السادس الهجرى برز فيه زجال عصره أبو بكر بن قزمان وخليفته
مدغليش أحمد بن الحاج .

١ - ابن شاعر الكنتى : فوات الوفيات : ٢٦٧/٢ .

٢ - الرجوى محمد بن مرزوق : بلوغ الأمل فى بعض أحوال فن الزجل : ١٩ مخطوطة بدار الكتب المصرية
برقم : ١١٨٢

ووفد الزجل على المشرق في الفترة التي نتحدث عنها وهي فترة الحروب الصليبية ، وقد أغرم به المتصوفة على وجه الخصوص ، ول بعضهم فيه إنتاج معروف كابن عيسى والتستري على بن عبد الله المتوفى ٦٦٨ هـ ، ثم اشتهر فيه غيرهم كعلاء الدين بن مقاتل والأمشاطى ، وقد قال ابن حجر عن الأمشاطى : « كان قيم الشام في وقته في الأزجال والبلاليق ونحو ذلك مات في شهر رمضان سنة ٧٢٥ هـ ولم يكمل الستين واشتهر له الزجل الذى عاىا فيه ابن مقاتل وأوله :

لك خد ما أح قد حاز ملح
روضو اصطبح فيه واعتبق
خال من سبح أسبى المهج
زهرو خرج أظهر فرج

من هام به ليس يلام

ولقد أوضح لنا الفرق بين الزجل والموشح ، وبين الزجل والبلليق ، صفى الدين الحلى حيثما أوضح أنهم سموا « كل ما أعرب موشحاً وكل ما خلا من الإعراب زجلاً ، وما اشترك فيه الإعراب واللحن مُزَمَّماً في أى فن قصد الناظم » .

ثم قال : « وقد قسموه على أربعة أقسام يفرق بينهما بمضمونها المفهوم لا بالأوزان واللزم ، فلقبوا ماتضمن الغزل والنسيب والخمرى والزهرى : زجلاً ، وماتضمن الهزل والمخالعة والإحماض : بليقاً ، وما تضمن الهجاء والتلب : فرقياً ، وما تضمن المواعظ والحكمة : مكفراً ، وأطلقوا على كل ما أعرب بعض ألفاظه من هذه الفنون لقب : المزنم » (١)

والزجل بصفة عامة لغة الفئات الشعبية من أصحاب الحرف ، ولا يزال رائجا في العالم العربى وبخاصة في مصر في وقتنا هذا

١ - صفى الدين الحلى : العاقل الحال : ١٠ - ١٢ باختصار .

وأما الكان وكان : فسمى بهذا الاسم لأن شعراءه كانوا ينظمون فيه الحكايات
والخرافات في بداية الأمر عندما ظهر في بغداد .

فلما كان ابن الجوزي وشمس الدين الكوفي نظما فيه المواعظ والحكم^(١)
وفي مصر ظهر نظير لهذا الفن الشعرى سمي الزكالكش ، قال على ابن ظافر :
« وأخبرني بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتا
من الأوزان التي يسميها المصريون « الزكالكش » ويسميها العراقيون « الكان وكان » .
ولاقى هذا النظم رواجاً في العراق والشام ، وكان محدود الانتشار في مصر والشكل
المعتاد له في العراق يمثل قول البغدادي :

لما تزايد وجدى فيكم وقل اصطباري
وعرفتكم عدائي وقلت الحركات

* * *

يا حاضرين بقلبي يا غائبين عن النظر
متى يجينني مبشر من عندكم بقدمكم
ويفرحون أصدقائي وأكمد الشمات

* * *

حتى تدق طبول الهنا وتفتح أبواب الرجا
وأقول للعين قري قد رد ما قد فات

وساعد هذا الوزن ، مع سهولة القافية لتعاقبها كل ثلاث شطرات على نظم الحكايات
والقصص والأحداث ، وقد سجل فيه التاريخ جماعة من الناظمين في وقعة الأمير قوصون
سنة ٧٤٢ هـ^(٢)

١ - تاريخ الموصل : ص ٨٢ .

٢ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ٤٨/١٠ - ط دار الكتب بالقاهرة .

وأما الحماق : فنوع من الشعر ملحون أبدا ، يتضمن الهزل والخلاعة والأحماق أو الهجاء والتلب ، ويسميه صفى الدين الحلبي إذا تضمن الهزل والخلاعة والأحماق يلقيا ، وإذا تضمن الهجاء والتلب : قرقيا .

أما المحبى فى خلاصة الأثر فإنه يسمى ماتضمن الهجاء والتلب « الحماق » وهو هو الذى يسميه الحلبي « قرقيا » .

والحق أن التحديد الدقيق لهذه الفنون الشعرية العامة خاف حتى على العلماء والخاصة ، ولعل سبب ذلك أن الأمور قد اشتبهت عليهم وأن الأسماء قد كثرت وأن الفروق قد لظفت ودقت .

وربما كان الهزل والخلاعة والأحماق والهجاء والتلب موضوعا لشعر الحماق ، فاختلطت البليقيات بالحماق .

وهذه الثلاثة : الزجل والكان وكان والحماق - ملحونة أبدا كما أشرنا إلى ذلك آنفا .

وأما البرزخ بين هذه الثلاثة الملحونة وتلك الثلاثة المعربة فهو « المواليا » وهو نوع من الشعر يرد فيه الإعراب واللحن وإن كان يغلب عليه الفصيح ، وهو يجرى على وزن واحد ، ولكن له أشكالا خاصة فى القافية .

والمؤرخون يرون أن المواليا نشأ فى العراق فى القرن الخامس الهجرى وبعضهم يرى أنه عرف منذ القرن الثانى الهجرى على عهد هارون الرشيد .

وهو فن عراقى النشأة على كل حال ، ثم وفد إلى مصر وفيها تأصل وأصبحت له مكانة .

ويعلل صاحب تاريخ الموصل لتسمية المواليا فيقول : « إن أهل واسط هم الذين أحدثوا المواليا ، فنظموا فيها الغزل ، وتناولوا العبيد والغلمان لسهولة فصاروا يتغنون بها فى بساتين النخل وسقى الأراضى وكانوا يقولون فى آخر كل صوت : « يامواليا ! » إشارة

إلى أسيادهم ، ثم أخذها عنهم البغداديون وأدخلوا عليها بعض الإصلاح حتى عرفت بهم
دون مخترعيها » (١) .

وقال ابن خلكان : « وقد أَلَمَ بعض البغاددة في مواليا على اصطلاحهم فأتهم
مايتقيدون بالإعراب فيه ، بل يأتون به كيفاً اتفق وهو :

ظفرتُ ليلهُ بلبلى ظفرة المجنونُ

وقلت وافي لحظى طالع ميمونُ

تبسمتُ فأضاءَ اللؤلؤُ المكنونُ

صار الدجى كالضحى فاستيقظ الواشونُ

ويدور موضوع المواليا على الغزل أو شكوى الحال ، وهو بذلك يشبه الموشع والزجل ،
وقد دأب شعراء المواليا على أن يكثرُوا في شعرهم ذاك من التورية وأن يتناولوا المحسنات
البديعية بنصيب كبير .

وقد استعمل المواليا في المدح ، واستعمل في المجون ، وفي الرثاء ، كما استخدمه
الصوفية في مواجدهم .

وقال البهاء خضر بن سحلول يمدح يلبغا الناصري صاحب حلب أثناء نزاعه مع
السلطان برقوق :

ياناصري سهم عرك في العدا مرشوقُ

وأنت منصورُ ومن حنّت إليه التوقُ

اصبر فما دامت الشدة على مخلوقُ

غدا يجي الخوُخُ وتذهبُ دولة البرقوقُ

ومن أشهر أصحاب المواليا - كما يقول ابن حجة - أبو بكر بن العجمي .

وأما القوما : « فهي أربعة أقفال : ثلاثة متساوية في الوزن والقافية والرابع أطول منها
وزناً ، وهو مهمل بغير قافية اخترعه البغداديون - كذلك - في الدولة العباسية برسم

١ - عماد الدين بن باطش تاريخ الموصل : ٨٢ .

السحورة في شهر رمضان ، وسمى بهذا الاسم من قولهم : قوما للسحور قوما ، ونظموا فيه
الزهدى والخمرى والعتابى ، وكان أول من اخترعه ابن نقطة للخليفة الناصر وكان يعجبه
ويطرب له حتى جعل لابن نقطة وظيفة عليه في كل سنة «^(١)
وبعد فلعلنى أكون بذلك قد أوضحت التطور الذى حدث فى الشعر فى هذه الفترة
التي أتحدث عنها وهى فترة الحروب الصليبية •
وإلى ذكر نماذج من شعر هذه الفترة •

ب - نماذج من موضوعات الشعر

نحاول في هذا الجانب من البحث أن نستعرض عددا من القصائد الشعرية ذات الموضوعات المتعددة لنوضح بها كيف كان الشعر يواكب كل حركة من حركات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، التي عاشها المسلمون في مواجهة الغزو الصليبي .

ولا ندعى أننا في هذا الجانب من البحث سوف نستوعب جميع الموضوعات التي استجاب لها الشعر في هذه الفترة ، وإنما سنذكر نماذج لأبرز هذه الموضوعات من جانب ، ولأشهر شعراء هذه الفترة من جانب آخر .

والذي أود أن أوضحه هنا هو أن الشعر استجاب لهذه الحروب وظروفها بصورة جيدة وإيجابية ، ووقف مع انتصارات المسلمين على الصليبيين يشيد بهذه البطولات والأجساد ، كما وقف مع الانكسارات التي وقعت للمسلمين يرثى ويبكى ويستحث الهمم .

وقد سبق أن تحدثت في مستهل هذا الباب من البحث عن أبرز الموضوعات التي طرقتها الشعر في هذا العصر ، وعددت منها ما يزيد على عشرة موضوعات وقلت حينئذ إن هذه الموضوعات جميعا يمكن أن ندرجها تحت عنوان كبير هو : « الصراع بين الإسلام والنصرانية أو بين المسلمين والصليبيين » .

وتحت هذا العنوان سوف أختار عددا من القصائد في هذا الجانب من البحث . .

وأسأل الله التوفيق .

وسنحاول ما وسعنا ذلك أن نذكر من هذه القصائد ما نراه أكثر دلالة على ما نريد ، معترفين بأن الذي نذكره ليس أجود ما قيل في هذه الفترة وإنما هو - في تقديرنا - من أجوده ، ذلك أن ادعاء اختيار الأجود ادعاء عريض ، ينبغي أن يسبقه استقراء لشعر هذه الفترة كلها ، وهو أمر لم يتيسر لنا ، ويوم ييسره الله نعيد طبع الكتاب بإذنه تعالى ، ونرتب هذه القصائد بعميار الأجود فالأجود .

١ - تيار الشعر الذى سجل انتصارات المسلمين على الصليبيين :

لابن القيسرانى يمدح عماد الدين زنكى ويهنئه باستعادة الرها من الصليبيين التى كان لها أعظم رنة فرح فى العالم الإسلامى ، لأنها من أهم المعارك الأولى التى حقق فيها المسلمون على الصليبيين انتصارا هاما :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده	وهل طوق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا	سناها وإن فات العيون اعتقاده
سمت قبة الإسلام فخرا بطوله	ولم يك يسمو الدين لولا عياده
وذاذ قسيم الدولة ابن قسيمها	عن الله ما لا يستطيع زياده
ليهنن بنى الإيمان أمن ترفعت	رواسيه عزا وأطمأن مهاده
وفتح حديث فى السباع حديثه	شهى إلى يوم المعاد معاده
أراح قلوبا طرن عن وكناتها	عليها ، فوافى كل صدر فؤاده
لقد كان فى فتح الرهاء دلالة	على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة	ولم يغن عند القوم عنه ولاده
مدينة إفك منذ خمسين حجة	يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها	ترقت إليه خان طرفاً سواده
وجاحمة عز الملوك قيادها	إلى أن ثناها من يعز قياده
فأوسعها حر القراع مؤيد	بصير بتمرير الألد لداده
فأضرمها نارين حربا وخدعة	فما راع إلا سورها وانهداده
فصدت صدود البكر عند افتضاضها	وهيهات كان السيف حتما سنده
فيا ظفرا عم البلاد صلاحه	بمن كان قد عم البلاد فساده
فلا مطلق إلا وشد وثاقه	ولا موثق إلا وحل صفاده
ولا منبر إلا ترنح عوده	ولا مصحف ألا أنار مداده

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها
 رويدكم لا مانع من مظفر
 مصيب سهام الرأى لو أن عزمه
 روى سدّ ذى القرنين أحى سداه
 وقل للملوك الكفر تسلم بعدها
 بمالكها إن البلاد بلاده
 كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى
 فيا طالما غال الظلام امتداده
 ومن كان أملاك السموات جنده
 فأية أرض لم ترضها جباهه ؟
 والله عزم ماء سيحان ورده
 وروضة قسطنطينية مسترده

فالشاعر في هذه القصيدة قد أشاد بهذا النصر العظيم ومدح قائده وجنوده وهنا
 المؤمنين به وأوضح تأثيره في نفوس العالم الإسلامي ، وأشاد بتطهير الرها من الرجس
 الصليبي وقد تدنست به خمسين سنة ، وسخر من معتقدات الصليبيين وهدمهم بمهاد الدين
 الذى تحارب في صفوفه جنود الله من الملائكة •

ولما كان نور الدين محمود وسار على نهج أبيه في حرب الصليبيين وتخليص ديار المسلمين
 من أيديهم ، ودارت المعارك الرهيبة ضدهم •
 استطاع نور الدين محمود أن يستعيد منهم « انطرسوس » ، « ويحمور » فقال ابن
 منير الطرابلسى مدحه ويتهى بهذا الفتح :

غسلَ العواصمَ أمس من أدراهم واليوم ردّ به السواحل بُورا
 أخلى ديار الشرق من أوثانها حتى غدا ثالوثهن نكيرا
 رفع القصور على نضائد هامهم من بعد ما جعل القصور قبورا
 غادرت « انطرسوس » كالطرس انمحي رسباً وجرّ ربوعها « يحمورا »
 ألقِ العصا فيمن أطاع ومن عصا منهم ، ودّمّر أرضهم تدميرا
 لا يلهمهم أن قد مننتَ وشئتُها شعواء تصلى الكافرين سعيرا

باكر يركز قناً تنسف أسها والخيل صور كي تزيرك « صوراً »
وتريك لامعة التريك بساحة ال أقصى مطهرة له تطهيرا
ضحكت لك الأيام واكتأب العدا قلقنا ، فجئت مبشرا ونديرا ^(١)

ففى هذه الآيات مع الإشادة بالنصر والتهنئة به والمدح عليه دعوة لنور الدين بأن
يدمر الصليبيين ولا يبقى لهم أثراً في أرض المسلمين حتى يستولى على كل ما كانوا قد نهبوه
من بلاد المسلمين حتى يصل إلى صور والأقصى فيطهرهما من رجسهم تطهيرا .
وقد كان نور الدين قد وضع نصب عينيه أن هزيمة الصليبيين تتطلب منه توحيد
صفوف المسلمين وبخاصة مصر والشام ، وقد بذل من الجهود في هذا السبيل ما مكنته من
توحيد مصر والشام بمعاونة قائده صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على الخلافة الفاطمية
في مصر وأعاد مصر إلى حظيرة السنة .

لما تم هذا بعث العماد الكاتب إلى نور الدين يهنئه بهذا العمل الجليل ، فقال :

لله درك نور الدين من ملك عدلي لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها بكشف دولتها ، لها على وضم
فالنيل ملتطم جار على خجل جار لبحر نوال منك ملتطم
اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم واحطم جموعهم بالذبل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب على البغاة وثوب الأجل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الإسلام منتظم

وهذه الآيات على قلتها تتم عن وعي المسلمين وإدراكهم لأهمية توحيد الصفوف
وفيها تحريض من الشاعر لنور الدين بأن يغزو الصليبيين الآن مادام قد وحد مصر والشام
في ظل الإسلام .

١ - أبوشامة : الروضتين ٠٠ ٨٧/٨ - ٨٨ .

وعندما هزم نور الدين الصليبيين وكسره في بغراس وهزمهم إلى حصن حارم أشاد ابن منير الطرابلسي بهذا العمل الكبير وهنا يقتل أمير الصليبيين « البرنس » ، ونادى على نور الدين بأن يتابع هذه الانتصارات قال :

أقوى الضلال وأقفر عرصاته	وعلا الهدى وتبلجت قسائمه
وانتاش دين محمد محموده	من بعد ما غلبت دما عبراته
ردت على الإسلام عصر شبابه	وثباته من دونه وثباته
أرسي قواعده ومد عماده	صعدا ، وشيد سورَه سوراته
فتح تعمت السماء بفخره	وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الإسلام بيض حجوله	واختال في أوضاعها جبهاته
لله بلجة ليلة محصت به	واليوم ذبح وشيه ساعاته
حط القوامص فيه بعد قماصها	ضرب يصلصل في الطل صعقاته
صدم الصليب على صلابه عوده	فتفرقت أيدي سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة	بالروح ممقرا جنت غدراته
ترك الكنائس والكناس لناهب	بالبیض نهب ما حواه عفاته
لازال هذا الملك يشمخ شأنه	أبدا ويلفت في الحضيض وشاته
ما أخطأتك يد الزمان فدونه	من شاء فلتسرع إليه هناته
أنت الذى تحلى الحياة حياته	وتهب أرواح القصيد هباته ^(١)

ولما سقطت حطين في أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي ، كان لذلك فرح غامر وسرور عميم في أرجاء العالم الإسلامى كله ، ووقف الشعراء يسجلون هذا الانتصار العظيم ، وتكاثر الشعر وتعددت القصائد للشاعر الواحد في هذه المناسبة ، كما كان شأن العماد الكاتب فقد كان له في حطين عدة قصائد حتى يمكن أن نقول عنها : قصائده

الحطينية •

١ - السابق : ٦٠/١ - ٦١ •

ومنها سينيته المشهورة التي نذكر منها هذه الأبيات:

يا يوم حطين والأبطال عابسةً وبالعجاجة وجه الشمس قد عابسا
رأيت فيها عظيم الكفر محتقرا معفرا خده والأنف قد تعسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
عرى ظباه من الأغهاد مهركة دماً من الشرك رد إهابه وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا وبيت كفرهم من خبثهم كُسيفا^(١)

وقد ذكر ابن واصل في مضمون هذه الأبيات قصة أمير الكرك الصليبي وكان من شأنه فيما سبق مع المسلمين أن اعتدى على قافلة من المسلمين متجهة من مصر إلى الشام وغدر بهم ، وقال للمسلمين متهمكماً ساخراً - وقد وقعوا في أسره - « قولوا لمحمدكم يخلصكم » .

فلما وقع هذا الغادر في أسر صلاح الدين يوم حطين بادره صلاح الدين يرد على تهكمه : « ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم » ثم عرض عليه صلاح الدين الإسلام تكفيراً عن جريمته فأبى ، فضربه السلطان بيده وأجهز عليه الجند ، وذلك وفاء بنذر كان قد قطعه السلطان على نفسه وأشهد الله عليه إن أظفره الله به ^(٢) .

وعندما من الله على المسلمين بالفتح الأكبر فتح بيت المقدس - وقد غبر في أيدي الصليبيين قرابة مائة عام - استيقظت في نفوس المسلمين عموماً والشعراء خصوصاً ذكريات فتح بيت المقدس للمرة الأولى على أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

١ - السابق : ٨٣/٢ .

٢ - ابن واصل : مفرج الكروب : ١٩٤/٢ .

وانطلق الشعراء يدبجون في هذا الفتح قصائد وقصائد حتى لكان لبعضهم - كما أوضحت
آنفا - دواوين خاصة بهذا الفتح أطلقوا عليها القدسيات حيناً والمبشرات حيناً *
ومن قدسيات حكيم الزمان أبي الفضل بن عمر بن حسان ، اخترت هذه القدسية
التي قالها حيناً دخل المسلمون بيت المقدس فاتحين منتصرين ، ومنها قوله :

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى	أخرى الزمان على خبر بخبرته
فلو رآك وقد حزت العلا عمر	في قلة التل ^(١) قضى كنه عبرته
ولو رآك وأهل القدس في وله	أبو عبيدة فدئ ^(٢) من مسرته
غداة حزوا النواصي في قمامته	وأعولوا بالتباكي حول صخرته
دارت بك الملة الحسنى فنحن على	عهد الصحابة في استمرار ملته
وأنت كاسمك صديق وصاحبه الـ	ملك المظفر سام في مبرته
وفي الثلاثة عثمان يؤيده	علا على ^١ على إشار ضربته
وكم لديك ذوو قرى رقا شرفا	وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته
يشبه الفتح ما بين البزاة لقي	ملك الفرنج أخيداً بين عثرته
أما رأيت معالي يوسف نسقت	حتى رمت كل ذى ملك بحسرتة
أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه	وبات يطوى العدا في سد ثغرتة
واستقبح الرجز ممنواً بمشهده	فاستفتح القدس محشوا بزمرته
لكن بأس صلاح الدين أذهلهم	بوقعة التل واستشراء سورته
يغنى الجوارح والفرسان وهو على	بدء النشاط عشيما مثل بكرته
يا فاتح المسجد الأقصى على بهم	وقانص الجيش لا يحصى يقفرتة
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع	على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة	تحكى النبوة في أيام فترته

١ - يقصد تل حطين *

٢ - أى قال لصلاح الدين : فداك نفسى أو فداك أبى وأمى *

ومن روائع قدسيات أبي الفضل قدسيته الكبرى التي بلغت مائة واثنين وخمسين بيتا والتي شرح فيها جهود صلاح الدين في حطين وفي القدس ، وتحدث فيها عن نوايا « البرنس » قتيل يد صلاح الدين ، عندما هم أن يغزو الحجاز فسار إلى تياء ولكن الله رده وأخزاه .

وهذا أبو الحسن الجويني العراقي المولد المصري الدار يشيد بفتح بيت المقدس في نونية ، جابت الآفاق وملأت الأسباع يقول فيها :

جند السماء لهذا الملك أعوان	من شك فيه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما تحكيه في زمن	وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما	لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده	صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم	خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس	فخام عنها وصمت منه آذان
هذا .. وكم ملك من بعده نظر	يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـ	إسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم	بأمر من هو للمعوان معوان
للمناصر ادخرت هذه الفتوح وما	سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
حياه ذو العرش بالنصر العزيز فقا	ل الناس داود هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلما	فطهرت منه أقطار وبلدان
فأين مسلمة عنها وإخوته	بل أين والدهم بل أين مروان ؟
وعدّ عمن سواه ، فالفرنجة لم	ييدهم من ملوك الأرض إنسان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد	تنزلت فيه آيات وقرآن
يا قُبْحُ أوجه عبّاد الصليب وقد	غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما	ملكته وملوك الأرض خزان

فإن الله يبيِّقك للإسلام تحرسه من أن يضام ويلقى وهو حيران
وهذه سنَّة أكرم بها سنَّة فالكفر في سنَّة النصر يقظان
يا جامعاً كلمة الإيمان قايماً من معبوده - دون رب العرش - صلباً
إذا طوى الله ديوان العباد فما يطوى لأجر صلاح الدين ديوان
ولقد استمرت الحروب بعد صلاح الدين بين المسلمين والصليبيين تشب نارها ولا يهدأ
أوارها ، تذكيتها هجمات الصليبيين الفادرة على المسلمين في الشام وفي مصر ، ومحاولتهم
العديدة لاستعادة بيت المقدس ، الذي ضاع عليهم إلى الأبد ، وتأثرها عواطف المسلمين
الذين أضحى لديهم إصرار على طرد الصليبيين من العالم الإسلامي إلى غير رجعة .
وظهر في هذه الفترة - عهد خلفاء صلاح الدين من بنى أيوب - رجال مؤمنون وقادة
مخلصون لدينهم وأوطانهم ، فدارت المعارك الرهيبة بين القواد الأيوبيين الذين خلفوا صلاح
الدين ، ابتداء من الحملة الصليبية الرابعة ثم حملة الأطفال ثم حملة الصليبيين الخامسة
على مصر التي استطاعت أن تستولى على دمياط وأخذت تزحف إلى القاهرة ، ولكن الله
خذلهم .

ولقد ظلت محاولات الصليبيين مستمرة للاستيلاء على مصر والشام واستعادة بيت
المقدس ، وكان للملك الكامل جهوده الموفقة في طرد الصليبيين من دمياط وإعادتها ثغراً
إسلامياً كما كان ، مما ألهج ألسنة الشعراء بهذا النصر العظيم ، فزفوا تلك البشرى للعالم
الإسلامي كله ، وجاءت القصائد تترى تشيد بهذا العمل الجليل والنصر الموزر .
روى المؤرخون أن الملك الكامل دخل دمياط في احتفال مهيب وكان ذلك يوماً مشهوداً
أقبل فيه الشعراء على الملك مهئين مادحين ، ومن القصائد التي صورت فرحة العالم
الإسلامي كله بهذا النصر ، وأشادت ببطولات الأبطال المسلمين ، وصورت خزي
الصليبيين ، قصيدة البهاء زهير التي يقول فيها مخاطباً الملك الكامل :

بك اهترَّ عطفُ الدين في حُللِ النصرِ وردت على أعقابها ملّة الكفرِ
فقد أصبحت والحمد لله نعمة تقصر عنها قدرة الحمد والشكرِ

يقل بها بذل النفوس بشارة
ألا فليقل ما شاء من هو قائل
وحدث محلاً للمقالة قائلاً
لك الله من مولى إذا جاد أوسطاً
تمس به الأيام في حلل الصبا
أيديه بيض في الورى موسوية
ومن أجله أضحى المقطم شامخاً
تدين له الأملاك بالكره والرضا
فيا ملكاً ضاهى^(٢) الملائك رفعة
يهينك^(٣) ما أعطاك ربك إنها
وما فرحت مصر بهذا الفتح وحدها
فلو لم يقم بالله حق قيامه^(٤)
وأقسم لولا همة كاملية
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة
فقل لرسول الله إن سمي
هو الكامل المولى الذى إن ذكرته
به ارتجعت دمياط قهراً من المعدا
ورد على المحراب منها صلاته
وأقسم إن ذقت بنو الأصفر الكرى
عجبت لبحر جاء فيه سفينهم

١- وهذا مما يؤخذ على الشاعر شراً

٢- في رواية : سامى .

٣- في رواية : ليهنك

٤- في رواية : جهاده .

٥- في رواية : الدهر .

ألا إنها من فعلة لكبيرة
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرها
صبرت إلى أن أنزل الله نصره
وليلة غزو للعدو كأنها
سدت سبيل البر والبحر منهم
أساطيل ليست في أساطير من مضى
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة
وكل جواد لم يكن قط مثله
وباتت جنود الله فوق ضوامر
فهازلت حتى أيد الله حزيه
فرويت منهم ظامىء البيض والقنا
وجاءت ملوك الروم نحو خضعا
أتوا ملكا فوق السحاب محله
فمنّ عليهم بالأمان تكريما
كفى الله دمياط المخاوف^(١) إنها
وما طاب ماء النيل إلا لأنه
فلله يوم الفتح يوم دخولها
لقد فاق أيام الزمان بأسرها
ويا سعد قوم أدركوا فيه حظهم
وإنى لمشتاق إلى كل قادم
فيطربنى ذاك الحديث وطيبه

سيطلب منها عفواً أفك العشر
تجاهد فيهم لا يزيد ولا عمرو
لذلك قد أحدث عاقبة الصبر
بكثرة من أرديته ليلة النحر
بسابحة دهم وسانحة غر
بكل غراب راح أفك من صقر
وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
لآل زهير لا ولا لبنى بدر
بأوضحها تقنى السراة عن الفجر
وأشرق وجه الأرض جلدان بالنصر
وأشبع منهم طاولى الذئب والنسر
تجرر أذيال المهانة والصفر
فمن جوده ذاك السحاب الذى يسرى
على الرغم من بيض الصوامر والسمر
لمن قبلة الإسلام فى موضع النحر
يحمل محل الريق من ذلك النفر
وقد طارت الأعلام منها على وكر
وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر
لقد جمعوا بين الغنيمة والأجر
إذا كان من تلك^(٢) الفتوح على ذكر
ويفعل بى ما ليس فى قدرة السحر

١ - فى رواية : المكاره .

٢ - فى رواية : ذاك .

وأصغى إليه مسعدا حديثه كأنسى ذو وقر ولست بذى وقر
يقوم مقام البارد العذب في الظما ويغنى عن الأزواد في البلد القفر
فكم مر لى يوم إذا ما سمعته أقر به سمعى وأذكره فكرى
وها أنذا حتى إلى اليوم ربما أكذب منه بالصحيح من الأمر
لك الله ، من أثنى عليك فإنما من القتل قد أنجيتهُ أو من الأسر
يقصر عنك المدح من كل مَادح ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر

وفي الحملة الصليبية السابعة على مصر التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع فى
خمسین ألف مقاتل فى أيام الملك الصالح أيوب سنة سبع وأربعين وستائة ودخل دمياط ثم
اتجه إلى المنصورة حيث نازلته هناك جيوش الملك الصالح وقتلت منهم ثلاثين ألفا وأسروا
منهم عدد كبيرا منهم لويس نفسه وحبس فى دار الصاحب فخر الدين بن لقمان .

تحدث عن ذلك الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح فقال :

قل للفرنسيس إذا جثته مقال صدق من قنول نصوح
أتيت مصرًا تبتغى ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسین ألفا لا ترى منهم غير قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها لعل عيسى منكم يستريح
أجرك الله على ما جرى أفنيت عباد يسوع المسيح
فقل لهم إن اضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح^(١)

١ - القلقشندي : صبح الاعشى : ٤١٤/٥ . ط وزارة الثقافة المصرية .

وفي عهد السلطان قلاوون استولى المسلمون بقيادته على طرابلس الشام ، وفي معركة ضارية استطاع السلطان قلاوون أن يستولى على حصن المرقب وهو من أمنع الحصون التي كانت في أيدي الصليبيين ، فمدحه الشهاب محمود الحلبي بقصيدة جاء فيها :

الله أكبر هذا النصر والظفر	هذا هو الفتح لا ماتزعم السيّر
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت	إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض وسر واملك الدنيا فقد نحلت	شوقا منابرها وارتاحت السور
وكيف تمنحه الأيام مملكة	كانت لدولتك الفراء تدخر
وكيف يسمو إليها من تأخر عن	إسعاده منجداك القدر والقدر
غرّ العدا منك حلم تحته هم	لأشقر البرق من تحجيلها غر
لها وإن أشبهت لطف النسيم سرى	معنى العواصف لا تبقى ولا تذر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى	ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنه وكان الجو يكتفه	وهم تثله في طيها الفكر
يختال كالغداة العذراء قد نظمت	منه مكان اللآلئ الأنجم الزهر
لها الهلال سوار والسها شنف	والقلب قلب ومُسودّ الدجا طرز
تعلو الرياح إليه كي تحيط به	خبرا ، وتدنو ومافي ضمنها خبر
ويومض البرق يهفو نحوه ليرى	أدنى رباه ويأتى وهو معتذر
وليس يروى بماء السحب مصعدة	إليه من فيه إلا وهو منحدر ^(١)
وأضمرت حوله نار لها لب	من السيوف ومن نبيل الوغى شر
كأنها ومجانيق الفرنج لها	فرائس الأسد في أظفارها الظفر
وكم شكا الحصن مايلقى فما اكرثت	يا قلبها : أحديد أنت أم حجر
وللتقوب ديب في مفاصله	تثير سقما ولا يبدو له أثر
أضحى به مثل صبّ لاتبين به	نار الهوى ، وهى في الأحشاء تستعر
ركبت في جندك الأولى إليه ضحاً	والنصر يتلوك منه جندك الآخر

١ - ليس هذا صحيحاً ولا جائزاً شرعاً .

قد زال تجلى قواه عن قواعده وخر أعلامه نحو الأرض يتدر
 وساخ وانكشفت أقبأؤه وبدا لديك من مضمرات النصر ماستروا
 فبال يسوى إليهم كل ليث وغي له من البيض ناب والقنسا ظُفرُ
 إن لم يوفى الورى بالشكر ما فُتحت يداك فالله والأملاك قد شكروا^(١)
 وكان على يد الأشرف خليل بن قلاوون طرد آخر الصليبيين من عكا أمنع الحصون
 آنذاك على الإطلاق ، والتي بقيت في أيدي الصليبيين قريبا من مائة عام .
 وقد أشاد الشعراء بهذا النصر وقالوا فيه من الشعر ما يفوق الوصف وقد شهد الشاعر
 شهاب الدين محمود الحلبي هذه المعركة وعبر عن ذلك بقصيدة رائعة منها قوله :
 الحمد لله زالت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربى
 ما بعد عكا ، وقد هُذت قواعدها فى البحر للشرك عند البر من أرب
 عقيلة ذهب أيدى الخطوب بها دهرأ وشدت عليها كف مختضب
 لم يبق من بعدها للكفر إذ خرجت فى البر والبحر ما ينجى سوى الهرب^(٢)
 وبعد : فلعلنا بهذه النماذج التى أوردنا نكون قد استشهدنا للموضوعات التى تحدثنا
 عنها فى بداية هذا الباب من البحث ، فذكرنا فى هذه القصائد شعرا يصور فرحة المسلمين
 بالنصر على الصليبيين ويشيد ببطولات الأبطال ويهني ويبشر بهذه الانتصارات ، كما
 نرجو أن نكون قد وفقنا إلى أن نتخير به حيث يوضح تحريض الشعراء للقادة على حرب
 الصليبيين ، ودعوة المسلمين إلى الاتحاد والفرحة بالوحدة حينما تمت بين مصر والشام .
 وكان ذلك - كما سبق أن أوضحنا آنفا - يمثل تيار تسجيل الانتصارات ، ويبقى
 أمامى أن أذكر نماذج من الشعر تمثل التيار الآخر الذى يسجل غضب المسلمين على
 الصليبيين والذى يتمثل فى ذكر مثالبهم والظعن على معتقداتهم ، وذلك ما أنا بصدد
 الآن - وأسأل الله التوفيق .

١ - ابن نغرى بردى : النجوم الذاخرة : ٣١٧/٧ - ٣١٨ .

٢ - ابن نغرى بردى : المنهل الصافي : ٧٥/٢ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١١١٣ تاريخ

٢ - تيار الشعر الذى سجل غضب المسلمين على الصليبيين :

تمثل هذا التيار أوضح ما تمثل فى الرد على النصارى أو الطعن فى معتقداتهم الضالة .
وأود أن أوضح أن هذه الردود وتلك المطاعن تكفل بها العلماء فى مؤلفاتهم
العديدة - على نحو ما سنذكر فى الفصل الثانى من هذا الباب من الكتاب وهو عن
النثر - .

ولكننا سنذكر هنا كيف تكفل الشعر كذلك بالرد على الصليبيين وطعن عليهم وتند
بمفاسد معتقداتهم ومنحرف تفكيرهم .

لابن قيم الجوزية أكثر من قصيدة فى الرد على النصارى ، نذكر منها هذه القصيدة

التي يقول فيها :

أعباد المسيح لنا سؤال	نريد جوابه ممن وعاه
إذا مات الإله بصنع قوم	أمانوه فما هذا الإله ؟
وهل أرضاه مانالوه منه	فبشراهم إذا نالوا رضاه
وإن سخط الذى فعلوه فيه	فقوتهم إذن أوهت قواه
وهل بقى الوجود بلا إله	سميع يستجيب لمن دعاه ؟
وهل خلت الطباق السبع لما	نوى تحت التراب وقد علاه ؟
وهل خلت العوالم من إله	يدبرها وقد سُمرت يده ؟
وكيف تخلت الأملاك عنه	بنصرهم وقد سمعت بكاه ؟
وكيف أطاقت الخشببات حمل الإ	له الحق شد على قفاه ؟
وكيف دنا الحديد إليه حتى	يخالطه ويلحقه أذاه ؟
وكيف تمكنت أيدي عداه	وطالت حيث قد صفعوا قفاه ؟
وهل عاد المسيح إلى حياة	أم المحيى له رب سواه ؟
وياعجبا لقبر ضم ربا	وأعجب منه بطن قد حواه
أقام هناك تسعا من شهور	لدى الظلمات من حيض غذاه

وشق الفرج مولودا صغيرا ضعيفا فاتحا للشدى فاه
 ويأكل ثم يشرب ثم يأتي يلزم ذاك هل هذا إله ؟
 تعالى الله عن إفك النصارى سيسأل كلهم عما افتراه
 أعباد الصليب لأى معنى يعظم إذ يقبح من رماه
 وهل تقضى العقول بغير كسر وإحراق له ولن نعاه
 إذا ركب الإله عليه كرها وقد شدت اتسمير قفاه
 فذاك المركب الملعون حقا فدهسه لاتبسه إذ تراه
 يهان عليه رب الخلق طرا وتعبده فإنك من عداه
 فإن عظمته من أجل أن قد حوى رب العباد وقد علاه
 وقد فقد الصليب فإن رأينا له شكلا تذكرنا ثناه
 فهلا للقبور سجدت طرا لضم القبر ربك فى حشاه
 فيا عبد المسيح أفق فهذى بدايته وهذا منتهاه
 وقد ناقش ابن القيم النصارى فى هذه الأبيات نقاشا محرجا ألزمهم الحجة وأبان فساد
 عقائدهم فى الصليب وفى المسيح وفى سائر ضلالاتهم .

وكان البوصيرى واحدا من أولئك العلماء الذين ردوا على النصارى فى شعرهم وفى غير
 شعرهم ، ففى الشعر له قصيدة مشهورة بلغت أبياتها مائتين وثلاثة وثلاثين بيتا وهى لامية
 تسمى « المخرج والمردود على النصارى واليهود » مطلعها :

جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقل العالمين عقولا
 قوم رأوا بشرا فادعوا من جهلهم لله فيه حلولا
 وقد اختتمها بقوله فى الدعاء والاستغاثة بالله سبحانه والصلاة على رسوله :
 فاجعل لنا اللهم جاه محمد فرطنا تبلغنا به المأمولا (١)
 واصرف به عنا عذاب جهنم كرما وكف ضرامهما المشعولا
 واجعل صلاتك ديمة منهلة لم تلف دون ضريحه تهليلا
 ماهزت القضب النسيم ورجعت ورقاء فى غصن الأراك هديلا

وللبوصيرى قصيدة ناقش فيها النصارى وقارن بينهم وبين المسلمين وأوضح فيها
أغلب مافى دين النصارى من باطل وضلال ، وجمع إليهم اليهود المغضوب عليهم ، وقد
جاء فى هذه القصيدة قوله :

قوم عيسى عاملتم قوم موسى بالذى عاملتكم الحنفاء
صدقوا كتبكم وكذبتهم كتبهم إن ذا لبئس البواء
لو جحدنا جحودكم لاستويننا أو للحق بالضلال استواء
مالكهم إخوة الكتاب أناسا ليس يرعى للحق منكم إخاء
يحسد الأول الأخير ومازا ل كذاك المحدثون والقدماء
ومنها ٠٠ :

خبرونا أهل الكتابين من أ ين أناكم تتليثكم والبداء
ما أتى بالعقيدتين كتاب واعتقاد لانص فيه ادعاء
والدعاوى مالم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدياء
ليت شعرى ذكر الثلاثة والوا حد نقص فى عدكم أم غناء
ألله مركب ما سمعنا باله لذاته أجزاء
أكل منهم نصيب من الملك فهلا تميز الأنصباء
أتراهم لاجحة واضطرا را خلطوها وما بغى الخلطاء
أهو الراكب الحمار فى عجز إله يمسه الإعياء
أم جميع على الحمار لقد جل حمار بجمعهم مشاء
أم سواهم هو الإله فما نسبة عيسى إليه والإتناء
أم أردتم بها الصفات فلم خصت ثلاث بوصفه وتناء
أم هو ابن الله ما شاركته فى معانى النبوة الأنبياء
ومن الواضح أن الذى أثار هذه الموضوعات فى نفوس الشعراء هو الحروب الصليبية
وماجرته على المسلمين من ويلات ونكبات ، وما أدنت منهم من هؤلاء الضالين المنحرفين
عن المسيحية إلى الصليبية العمياء .

وما نستطيع أن ننهي هذه النماذج الشعرية دون أن نذكر طرفا من شعر الرثاء الذي رثى به الشعراء قادة المسلمين وعظماءهم من أمثال عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين ، فإن هذا اللون من الشعر إنما جاء نتيجة لما أبلاه هؤلاء القادة من إبلاء حسن في حرب الصليبيين والتغلب عليهم واستعادة ماكانوا قد اغتصبوه من بلدان المسلمين .

رثى العماد الكاتب عماد الدين زنكى عندما قتل بيد أحد خدمه من الفرنجة غدرا وغيلة ، في قصيدة نذكر منها قوله :

وكم معقل قد رامه بسيفه	وشامخ حصن لم تفته غنائمه
وكانت ولاية الأرض فيها لأمره	وقد أمنتهم كتبته وخواتمه
وأمن من في كل قطر لهيبة	يراع بها أعرابه وأعاجمه

ومنها قوله :

وكم ثغر إسلام حواه بسيفه	من الروم لما أدركته مراحمه
فمن ذا الذئب أرى بهيبة مثله	وينفذ في أقصى البلاد مراسمه
فلو رقيت في كل عصر بذكره	أراقمه ذلت هناك أراقمه

وعندما لقي ربه نور الدين محمود رثاه

الإحساس قال فيها :

الدين في ظلّم لغيبة نوره	والدهر في غُمم بفقد أميره
فليندب الإسلام حامى أهله	والشأم حافظ ملكه وثغوره

ومنها قوله :

مَنْ للمساجد والمدارس بانيا	لله طوعا عن خلوص دياره
مَنْ ينصر الإسلام في غزواته	فلقد أصيب بركنه وظهيره
مَنْ للفرنج ومن لأسر ملوكها	مَنْ للهدى يبغى فكاك أسيره

ومنها قوله :

أنت الذى أحبيت شرح محمد	وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشريعة معلما	هو منذ غبت معرض لدثوره

كم قد أمرت بحفر خندق معقل حتى مكنت اللحد في محفوره
كم قيصر للروم رمت بقصره إرواء بيض الهند من تاموره (١)
أوتيت فتح حصونه وملكت عقر بلادته وسييت أهل قصوره
أزهدت في دار الفناء وأهلها ورغبت في الخلد المقيم وحوره
أوما وعدت القدس أنك منجز ميعاده في فتحه وظهوره ؟
أفما تجير القدس من دنس العدا وتقديس الرحمن في تطهيره

ولما فجع العالم الإسلامي بموت صلاح الدين الأيوبي ، أحدث موته هزة عنيفة في
قلوب المسلمين ، ورجة قوية في عواطف الشعراء ، فرثاه كثير منهم •

ومن أهم تلك المراثي مرثية العباد الكاتب أيضا التي بلغ عدد أبياتها مائتين واثنين
وثلاثين بيتا ، والتي نذكر منها قوله :
شمل الهدى والملك عم شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته
ومنها قوله :

بالله أين الناصر الملك الذي لله خالصة صفت نيانه
أين الذي عنت الفرنج لبأسه ذلأ ، ومنها أدركت ثاراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من في صدور الكفر صدر قناته حتى توارت بالصياح قناته
لذ المتاعب في الجهاد ولم تكن مذ عاش قط لذاته لذاته
في نصره الإسلام يسهر دأنا ليطول في روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد فمات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محاميا أبدا إذا ما أسلمته حماته

١ - كلمة معربة عن السريانية تعني : القلب أو الدم أو الحياة •

وبعد : فهذا ما أردت ذكره من الناذج الشعرية التي تمثل فيها ذاك التياران ، الذي سجل أحدهما انتصارات المسلمين على الصليبيين وسجل الثاني غصبة المسلمين على الصليبيين والتصدى لباطل معتقداتهم وفاسد عاداتهم ، وكل ذلك أملته على الشعراء عواطفهم الإسلامية الجياشة في هذه الفترة من الزمان .



ج - من شعراء فترة الحروب الصليبية

كثر عدد الشعراء في هذين القرنين من الزمان كثرة ملفقة ، وإذا كانت الأحداث والظروف تسهم في صناعة الشعراء ، فإن أحداث هذين القرنين كانت جديرة حقا بأن تهى للشعر دولة مترامية الأطراف يقودها أمراء عديدون .

فلقد كان القرنان السادس والسابع الهجريان مضطربا واسعا لصراع سياسى اجتماعى مع الصليبيين ، وميدانا فسيحا لصراع دينى وقف فيه الإسلام يواجه جحافل الكفر وجيوش الظلام المتبربرة .

ولقد دارت في أرض المسلمين معارك ضارية بينهم وبين صليبية تحيط بهم من شرق ومن شمال وصليبية آتية من غرب ومن شمال ، لقد قاوم المسلمون في هذه الآونة الصليبيين الشرقيين كما قاوموا الصليبيين الغربيين في معارك طاحنة راح ضحيتها من المسلمين عشرات ومئات وألوف ، وذاقوا فيها مرارة الأسر والهزيمة ، كما نعموا بحلاوة النصر في مواقع عديدة .

وكانت تلك الفترة أرضا خصيبة أنبتت للعالم الإسلامى مشاهير الأبطال ، وكبار السياسيين ، وعددا كبيرا من العلماء والحكماء ، وصفوة مختارة من الكتاب والوزراء ، وعشرات بل مئات من متقدمى الشعراء .

وليس كالحرب - وبخاصة حرب العقيدة - مجال ، يبرز فيه الفرسان في الحرب وفي البيان .

ولا أستطيع أن أتحدث في هذا الكتاب عن شعراء الفترة جلهم ، بل ولا مشاهيرهم ، لأن المشاهير منهم عشرات إن لم يكونوا مئات ، وإنما يكفينى أن أتحدث عن شاعرين أحدهما سكن القطر الشامى والثانى سكن القطر المصرى ، وهما قطرا هذه الحروب وميدانها .

وليس عبثاً ما كان يفعله الصليبيون وهم يهاجمون مصر لتأييد حكمهم وتثبيت سلطانهم في بيت المقدس وطرابلس ، كذلك لم يكن عبثاً ولا صدفة أن تتضح في أذهان القادة المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية آنذاك فكرة توحيد القطرين لمواجهة الصليبيين لمواجهة حاسمة .

أما شاعر الشام الذي تخيرت أن أتحدث عنه فهو : شرف الدين أبو المحاسن المعروف بابن عتير والذي يتصل نسبه البعيد بأنصار رسول الله ﷺ .

وأما شاعر مصر فهو : أبو الفضل زهير محمد بن علي بن يحيى الملقب ببهاء الدين والذي يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفرة القائد المعروف ، الذي وصفه عبد الله بن الزبير بأنه سيد أهل العراق .

وليس معنى هذا الاختيار أن هذين أفضل شعراء هذه الفترة ، فإن هذا الحكم لم يخطر ببالى وأنا أختار ، لأنه يجب أن يقوم على دراسة جميع الشعراء والموازنة بينهم والمفاضلة ، وهو أمر لم يتيسر لى ولا أتصور - فيما أعلم - أنه قد تيسر لغيرى من الباحثين ، على الرغم من تعدد الكتب والدراسات في هذه الفترة قديماً وحديثاً .

وإنما قام الاختيار عندى على ما كان لكل منهما من صلة بالحروب الصليبية - موضوع كتابنا هذا - وإن كانا لم يتفردا بذلك بين سائر الشعراء كذلك ، ولقد تكون قراءتى في تاريخ هذه الفترة زمناً ليس بالقصير هي التي جعلت هذين الشاعرين أقرب إلى من سواهما ، وقد تكون خفة ظلها وبساطتها في التعبير هي التي أغرتنى بالحديث عنها دون سواهما .

غاية ما أرجو أن أدقق في الكتابة عنها في هذا المجال ، مجال الغزو الصليبي .. والعالم الإسلامي ، وآية التوفيق عندى أن يهتم بعض الباحثين الجامعيين من أبنائنا طلاب الدراسات العليا بهذين الشاعرين ، عندئذ تتاح فرصة جيدة لبحث جامعى جاد يكشف عنها وعن أبعاد شعرهما في هذا الغزو الصليبي الذي ضرب العالم الإسلامى من شرق ومن غرب . ذلك عندى من آيات التوفيق ، وعلى الله التوكل .

شرف الدين ابن عنين

٥٤٩ - ٦٣٠ هـ

أولاً : نسبه ونشأته :

هو : شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن علي بن محمد بن غالب المعروف بابن عنين .

ولد في دمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة وفي دمشق نشأ ، وعلى كبار المشائخ في الجامع الأموي تعلم .

وابتدأ يقول الشعر وهو ابن ست عشرة سنة ، وكان ذلك في عهد الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي .

وتلقى ابن عنين تعليمه على عدد من شيوخ الجامع الأموي منهم :

الحافظ الكبير أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر .

وأبو الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزري .

وقطب الدين النيسابري رئيس الشافعية .

وكمال الدين الشهرزوري قاضي قضاة دمشق .

كما تلقى - بعد أن ذهب إلى بغداد - على منوچهر بن ترکان شاه راوی مقامات الحریری .

كما تلقى فيما بعد على يد الفخر الرازي .

وكانت أسرة ابن عنين من الأسر الفقيرة ، ولا يذكر في المراجع التي وقفنا عليها شيء

ذو بال عن تلك الأسرة .

ثانيا : أطوار حياته الأدبية :

نعنى بحياته هنا : حياته الأدبية المنتجة ، وقد انقسمت حياته بالنظر إلى أدبه وإنتاجه إلى أطوار ثلاثة :

- أولها : طور صلته بنور الدين وبصلاح الدين .
- وثانيها : طور نفيه عن دمشق وتنقله في كثير من بلدان العالم الإسلامي .
- وثالثها : طور عودته الى دمشق وتولييه الوزارة .

أ - صلته بنور الدين وبصلاح الدين

تفتحت موهبة الشعر في ابن عنين وهو ابن ست عشرة سنة ، وكان ذلك سنة خمس وستين وخمسائة في عهد الملك العادل نور الدين ، وحسب ابن عنين أنه يستطيع بشعره أن يتقرب إلى نور الدين ، ولكنه لم يكن موفقا في حسبانته ولا في آماله التي علقها على هذه الصلة ، فقد كان نور الدين حاكما مسلما نقيًا يقرب العلماء ، ولا يقبل على الشعراء .

وكانت سيرة نور الدين وتقواه وعدم ترحيبه بالشعراء قد أثارت حفيظة أهل الطمع منهم ، لأن زهده جعل أيامه غير حافلة بالعطايا للشعراء ، صور أسامة بن منقذ نور الدين وأيامه فقال :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم خالية من المعاصي وفيها الجوع والعطش^(١)
كما عبر عن قريب من ذلك ابن برهان حيث قال :
أمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر مازال عند الترك متروكا^(٢)

١ - ياقوت الحموي : معجم الأدياء : ٢١٤/٥ ط دار المأمون القاهرة .

٢ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٣٢١/١ .

ولذلك لم يجد ابن عنين عند نور الدين ما يرضى طموحه ، وإنما وجد إهمالا له ولغيره من الشعراء ، ولعل ذلك هو الذى صرف ابن عنين بشعره عن نور الدين فقد تصفحت ديوانه فما وجدت فيه قصيدة واحدة ولا عددا من الأبيات في نور الدين ممدوحا ولا مرثيا ، وربما كان إلى هذا السبب سبب آخر هو قصر المدة التى قال فيها ابن عنين الشعر في حياة نور الدين ، فقد قلنا إنه قال الشعر سنة خمس وستين وخمسمائة بينما توفى نور الدين بعد ذلك بسنوات أربع ، فلعل هذه السنوات الأربع مع حداثة ابن عنين على الشعر كانت أحد الأسباب التى صرفته عن توجيه شعره إلى نور الدين ، بالإضافة إلى ما ذكرنا من أسباب .

وعندما استولى صلاح الدين على دمشق ، وأضحى في نظر المسلمين موحد القطرين مصر والشام ، كان أشبه بنور الدين في زهده وعدم إعطائه للشعراء من بيت مال المسلمين .

غير أن صلاح الدين يختلف عن نور الدين في أنه كان يتذوق الأدب ويحفظ الحماسة لأبى تمام - كما ذكر ذلك عنه غير واحد ممن أرخوا له - فكان ذلك سببا في إقباله على الشعراء أو تقبله لهم .

ولكن ابن عنين صدم في صلاح الدين إذ لم يجد عنده للشعر سوقا رائجة ، وكأن إحساسا بالضياح والخيبة وبوار الشعر قد ملأ نفس ابن عنين ، وحوله - بعد أن كان أخذ يمدح بعض الأمراء دون طائل - إلى الهجاء بل الهجاء المقذع يتناول به الناس بعامة ، وبعض الأمراء والوزراء أحيانا ، ولعله وجد في ذلك مندوحة عن ضياعه وخيبته في أن يحقق بشعره مالا وجاها ، فما هى إلا فترة وجيزة حتى أصبح ابن عنين موضع كلام الناس من راض عليه وغاضب وربما أغرته تلك الشهرة الهجائية فغالى في هجائه وتناول به كبار الناس فهجى السلطان صلاح الدين نفسه وهجا وزيره القاضى الفاضل ونائبه العماد الكاتب وخطيبه الدولعى وواعظه ابن باقا ومحتسبه عبد اللطيف وصاحب أمره وعارض جيشه ..

يقول في ذلك ابن عنين هاجيا صلاح الدين وأعوانه :
قد أصبح الرزق ماله سبب في الناس إلا البغاء والكذب
سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحذب
وصاحب الأمر خلقه شرس وعارض الجيش داؤه عجب
ثم ذكر أبياتا فاحشة في هجوأعوان صلاح الدين ثم ختم هذه النفثة الحاكمة بقوله :
عيوب قوم لو أنها جمعت في فلك ماسرت به شهب
وكانت له في هجاء أهل دمشق جميعا قصيدة شهيرة سماها مقراض الأعراض ، ولم
يخلها من هجاء أعوان صلاح الدين ، بلغت أبياتها ثلاثة وخمسين بيتا ، ختمها بهجاء
القاضي الفاضل ، حيث يقول :

وحين أبصرت دولة الأحذب الفا ضل أربست على علا الشهب
قلت للمفلسين ويحكم تحادبوا فهى دولة الحذب
ولم يكن من المتوقع لابن عنين أن يسلم من كيد من هجاهم من المسئولين في دولة
صلاح الدين ، غير أن عدالة صلاح الدين وتقواه لم تسمح له بأن يعاقب الشاعر المتمرد
على هيئة هذه الدولة الفتية بأكثر من أن ينفيه عن دمشق إلى الهند - كما يذكر بعض
المؤرخين - أو إلى أى بلد شاء كما تذكر بعض الروايات .
ويقال : إن الذى أقنع السلطان بنفيه هو الموفق بن مطران أحد أعوان صلاح الدين
المقربين ، وهو أحد من هجاهم الشاعر وسخر منهم .
ولقد تساءل وهو مرتحل قائلا :

فعلام أبعدتهم أخائقه لم يقتشف إثما ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا
وكذلك لم أجد في ديوانه مدائح لصلاح الدين - على الرغم من أن انتصاراته ملأت
شهرتها العالم كله ، ولا وجدت مرائي له في صلاح الدين على الرغم من أن عددا كبيرا من
الشعراء قد رثاه ، وأن العالم الإسلامى كله قد بكى صلاح الدين أحرى بكاء .

وإذن فإن الطور الأول من أطوار حياة ابن عنين كان طور هجاء وتهجم على الكبار والصغار ، بعد فشل في البحث عن سلطان أو أمير يستظل بظله وينال من عطاياه .
وحصيلة هذا الطور عدد من قصائد من الهجاء والسخرية والتهكم والوقائع والمحاضرات والأحاجي والألغاز ، أما الشعر الذي صور الحروب الصليبية وأبطالها فليس له في هذه المرحلة من حياته وجود ملموس .

ب - طور تنقله في العالم الإسلامي بعد نفيه عن دمشق

عندما رحل الشاعر عن دمشق أخذ يطوف آفاق العالم الإسلامي ، فدخل الجزيرة العراق ، ومن العراق انتقل إلى خراسان وأذربيجان وغزنة ، ومن نيسابور كتب إلى الفخر الرازي مدحة سبقت إليه جاء فيها :

ريح الشمال عساك أن تتحملى	خدمى إلى صدر الإمام الأفضل
وقفى بواديه المقدس وانظرى	نور الهدى متألقا لا يأتلى
من دوحه فخرية عمرية	طابت مفارش مجدها المتأثل
مكية الأنساب زاك أصلها	وفروعها فوق السماك الأعزل
لو أن رسطاليس يسمع لفظه	من لفظه لعرته هزة أفكل
ولمار بطليموس لولاقاه من	برهانه في كل شكل مشكل
فلو أنهم جمعوا لديه تيقنوا	أن الفضيلة لم تكن للأول ^(١)

ولما وصل الشاعر إقليم خوارزم ذهب إلى الرازي في هراة ، وانخرط في سلك تلاميذه ، وأخذ ابن عنين يمدحه والفخر الرازي يعطيه والشاعر راض بالدرس على الشيخ وسعيد بعطاياه .

١ - ديوانه : تحقيق خليل مردم : ص ٥٣ - ٥٤ .

ولقد بدأ ابن عنين رحلته كما قلنا بالجزيرة والعراق ، وفي بغداد أقام مدة وأخذ عن منوهر بن ترکان شاه ، ولكن الشاعر لم تعجبه الإقامة في بغداد فخرج منه هاجيا الخليفة ورجال دولته وقضاته •

ومن بغداد اتجه نحو الشرق ، فزار جميع ممالك الشرق الإسلامية ولكنه لم يجد في كنف أحد منهم ما يصبو إليه ، وعندئذ أحس بالغربة وتشوق إلى دمشق ، وأيقن أن بنى أيوب خير من كل من لقي من الحكام والسلطين سجل ذلك على نفسه وهو في بلاد ماوراء النهر ، فكتب قصيدة يحن فيها إلى دمشق ويذم الأعاجم في ممالك الشرق ويمدح بنى أيوب ، بل يندم على ما قدمت يداه في هجاء رأس بنى أيوب صلاح الدين وهجاء أعوانه • وذلك حيث يقول :

أحن ومن وراء النهر دارى حنين العود أو ثقه العراس
وكيف تبيت تطمع في مديحي رجاء نوالها العجم الخساس
ولو أنى مدحت ملوك قومي تراغت حولي النعم الدخاس
فإن الناس في طرق المعالي لهم تبع وهم للناس راس
ثم اتجه إلى الهند ولكنه لم يجد فيها طلبته ، فخرج منها ساخطا يدعو عليها بالصواعق والدماء ، حيث يقول :

وإذا سقى الله البلاد فلا سقى بلد الهند سوى الصواعق والدماء^(١)
ويسخط على الهند ويضيق بقضاتها فيقول في أحدهم وهو قاضى دينبور :
لله قاضى دينبور فإنه قاض إذا أسدى أطلال وأعرض

ويبدو أن مالفيه في الهند من إحساس بالفشل ، أيقظ في نفسه الرغبة في العودة إلى بلاده وإلى بنى أيوب ، غير أنه لم يكن قادرا على العودة إلى دمشق للأسباب التي ذكرنا ، فاتجه إلى أحد بنى أيوب في اليمن وهو سيف الإسلام أخو صلاح الدين ، وقد قابله سيف الإسلام بترحاب وتقريب وجعله من خواصه وجلسائه ، وأغدى عليه مما يطعم فيه من

١ - ديوانه : ص ٧٤ •

هبّات وعطايا ، فاستقر ابن عنين في كنفه وفي جاهه ومنحه راضيا هانيّ البال ، وعبر عن ذلك الاستقرار والرضى في قوله :

فلما استقرت في ذراه بي النوى وألقت عصاها بين مزدحم الوفد
تنصل دهرى واستراحت من الوجى قلوصى ونامت مقلتى وعلا جدى
ويبدو أن الشاعر أخذ يقول الشعر من موقع الرضا والاطمئنان ، لذلك فلسنا نبالغ حين نقول : إن أجود شعره هو ما قاله في كنف سيف الإسلام وظل ابن عنين في كنف صاحب اليمن مدة ليست بالقصيرة كان في أثنائها يتردد على مصر ويعود إلى اليمن ، متجرا مشمرا لأمواله التي أحدثها في اليمن حتى إنه - من كثرة ما كان يحمل من نفائس تعرض له من نهبه في مكة وهو في الطريق ما بين مصر واليمن ، فقال أبياتا يجرى سيف الإسلام على أشراف مكة وحكامها آنذاك منها :

وإن أردت جهادا روّ سيفك من قوم لمضاعوا فروض الله والسنا
طهر بسيفك بيت الله من دنس وما أحاط به من خسة وخنا
ولا تقل إنهم من آل فاطمة لو أدركوا آل حرب قالتوا الحسن
ومن الواضح أن الأسباب الشخصية هي التي حركت هذا الشعر ودفعته إلى تلك المبالغة .

ومن اليمن حمل متاعه وماله - وما كان أكثره - وذهب إلى مصر فهنيّ له العيش فيها وصاحب طائفة من شعراء مصر فسعدوا به وبخفة روحه وظرفه ، وما يقدر عليه من دعاية وفكاهة ، ذكر ذلك ابن خلكان في وفياته وهو يترجم ابن سناء الملك .

ومن مصر زاد حنين ابن عنين إلى دمشق فأخذ يحتال إلى أن دخلها ، وما من شك في أن الفترة التي قضاها ابن عنين منفيا عن دمشق قد طالت حتى وصل بها بعض المؤرخين إلى عشرين عاما ، ولا شك أنه أحس في هذه الفترة بقلق واضطراب وربما كان عزائه الأوحى قبل أن يتجه إلى اليمن هو لقاءه للفخر الرازي ودرسه عليه ونواله من منحه وعطايا .

ولكنه عندما اتجه إلى بنى أيوب في اليمن بدأت الدنيا تبتسم له ؛ بالمقياس الذى طمح إليه وهو تحقيق المال وتثميته ، وقد بلغ من ذلك ما أراد ، فلما حل بمصر كانت نهاية مطاف وغاية رحلة ، ولكنه أخذ يحن إلى دمشق •

ولقد جاء شعره وهو في اليمن شعرا جيدا ، وجاء شعره وهو في مصر أكثر جودة ، حتى إن قصيدته التى قالها يستسمح فيها الملك العادل ويستأذنه في العودة إلى دمشق ، والتى تصدر ديوانه ، عدت من أحسن شعره ^(١) ، ومطلعها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو ساعهونى بالكرى

ج - عودته إلى دمشق وتولييه الوزارة

بعد أن أنس ابن عنيين إلى سيف الإسلام - أخى صلاح الدين - في اليمن ، اتجه إلى إرضاء الأيوبيين ، وعندما توفى صلاح الدين سنة تسع وثمانين وخمسمائة وآلت دمشق إلى ابنه الأفضل ثم إلى أخيه العادل - وكانت لابن عنيين صلة بالأفضل فسأه ابن عنيين أن يستولى العادل على دمشق من ابن أخيه الأفضل ، فى ذلك الوقت كتب إلى ابن عنيين أخوه يستدعيه إلى دمشق ، رفض ابن عنيين هذه الدعوة ، واتهم العادل بالطغيان على ابن أخيه الأفضل ، أملا منه أن يعود السلطان للأفضل •

غير أن الأمور سارت مع الأفضل إلى حيث لا يريد ولا يشتهى ، إذ أصبح العادل صاحب مصر والشام معاً ، بينما باء الأفضل بالفشل ، عندئذ حول ابن عنيين ولاءه نحو العادل ، وكأنه ينس من الأفضل ، فكان أن كتب للملك العادل قصيدته الرائية الجيدة يستعطفه ويستأذنه بالعودة إلى دمشق ولما أذن له العادل بذلك فرح واغتر ، وقال فى ذلك أبياتا منها :

هجوت الأكابر فى جلق ورعت الرفيع بسب الوضيع
وأخرجت منها ولكننى رجعت على رغم أنف الجميع

١ - خليل مردم : ديوان ابن عنيين - مقدمة الديوان ص ١٢ •

وفي دمشق استقر ابن عنين وهدأت بلابله وكان يسافر عنها ثم يعود إليها ، ولم يحن إلى بلد زاره بعد أن استقر في دمشق إلا إلى مصر حيث قال :

أحسن إلى مصر وياليت أن لي إذا ذكرت مصر جناحا أعاره ^(١)
فأوى إلى ظل ظليل ونائل جزيل وملك حالف العز جاره
وكان من حظ ابن عنين - وهو مقيم بدمشق - أن كان أمرها إلى الملك المعظم ابن الملك العادل ، وكان الملك المعظم في بنى أيوب كالمؤمن في بنى العباس عالم فاضل أديب ، برع في الفقه واللغة والنحو ، يقرب العلماء ويمجالسهم ويمجى عليهم الجرايات ، ويقترح عليهم تأليف الكتب ويضع الخطوط لها ٠٠ ألف هو نفسه كتابا يرد به على الخطيب البغدادي منتصرا للإمام أبي حنيفة ذكر في مقدمته أنه ألفه وهو يدفع هجوم الصليبيين عن نابلس ^(٢)

وقد أحب الملك المعظم ابن عنين وقربه وجعله من خواصه ، بل فتن به فكان لا يصبر عنه ، فيصحبه في سفره ويعتمد عليه في مهام الأمور ، وما زال تقدير الملك المعظم لابن عنين يتزايد حتى ولاء الوزارة بدمشق فضبط الأمور وأحسن السيرة وعف عن الأموال .

وبقى ابن عنين وزيرا للملك المعظم حتى توفي الملك سنة أربع وعشرين وستائة بل بقى وزيرا في حكم الملك الناصر بن الملك المعظم ، وما تركها إلا عندما آلت دمشق للأشرف موسى سنة ست وعشرين وستائة ، وكانت سن ابن عنين قد علت فلزم بيته .

وفي هذه المرحلة من مراحل حياة ابن عنين كان شعره الجم بل الرائع قد أنضجته التجربة وصقله السن وجودته مجالسة العلماء والفضلاء .

ومن مدائحه للأيوبيين ، مدحه للملك العادل واستئذانه بالرجوع إلى دمشق وهي الرائية التي تصدرت الديوان ، كما مدح بنى أيوب جميعا بقصيدة واحدة ومدح الملك الأشرف بواحدة ومدح الملك الناصر بأبيات .

١ - ديوانه : ص ٩١ .

٢ - خليل مردم : مقدمة الديوان . نقلا عن الكامل لابن الأثير والوفيات لابن خلكان .

ولكنه مدح سيف الإسلام بست قصائد ومدح الملك المعظم بسبع هكذا وجدت في ديوانه •

وتكاد هذه القصائد الست عشرة تبلغ ثلث ديوانه من حيث عدد الأبيات وفي باب الرثاء في ديوانه ثلاث قصائد منها اثنان في بنى أيوب إحداها في رثاء الملك المعظم والأخرى في رثاء ولد صغير للملك المعظم •

ثالثا : نماذج من شعره

سوف أذكر في هذه النماذج من شعره ، ماله صلة بالحروب الصليبية أو بقيادة الأيوبيين الذين حاربوا الصليبيين فتحدث عنهم ابن عنين في شعره مادحا أو راثيا •
أما سائر شعره فسوف أتحدث عنه عند الحديث عن ديوانه •

قال يمدح الملك المعظم ويذكر وقعة الفرنج على ثغر دمياط سنة تسع عشرة وستائة :
سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لُسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى كلُّ مفاضة دلاص كقرن الشمس قد أحكمت
وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجياذ وأرقلنا
فما برحت سمر الرياح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا مِنّا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمانا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من رزق الأسنة أحمرأ فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنّا
ومابرح الإحسان منا سجية توارثها عن صيد آبائنا الإبنّا

منحنا بقاياهم حياة جديدة
ولو ملكوا لم يأتلوا في دماننا
وقد جربونا قبلها في وقائع
فكم من ملك قد شددنا إساره
أسود وغى لولا قراع سيوفنا
وكم يوم حر مالقينا هجير
فإن نعيم الملك في شطف الشقا
يسير بنا من آل أيوب ماجد
كريم الثنا عار من العار باسل
لعمرك ما آيات عيسى خفية
سرى نحو دمياط بكل سميدع
فأجلى علوج الروم عنها وأفرحت
وطهرها من رجسهم بحسامه
مأثر مجد خلدتها سيوفه
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم

فعاشوا بأعناق مقلدة مناً
ولو غا ، ولكنا ملكنا فأسجنا
تعلم غمر القوم منابها الطننا
وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
لما ركبوا قيذا ولا سكنوا سجننا
بستر وقمر ما طلبنا له كتنا
ينال وحلو العز من مره يجنى
أبى عزمه أن يستقر به مغنى
جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
هى الشمس للأقصى سناء وللأدنى
نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا
قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
هام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى
لها نبأ يفنى الزمان ولا يفنى
مواقعها فيها فإن عاودوا عدنا^(١)

وقال يرثى الملك المعظم ويعدد مناقبه :
يادهر ويحك ماعدا مما بدا
أغمدت سيفاً مرفها شفراته
فافعل بجهدك ماتشاء فإننى
ما خلته يفنى وأبقى بعده

أرسلت سهم الحادثات فأقصدا
قد كان فى ذات الإله مجردا
بعد المعظم لا أبالى بالردى
يابؤس عيشى ما أمر وانكدا

ومنها قوله :

كم ليلة قد بت فيها لا ترى إلا ظهور الأعوجية مرقدا
تحمى حتى الإسلام منتصرا له بعزائم تستقرب المستبدا

ومنها قوله :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
وديبار مصر لو ونت عزماته عن نصرها لتمكنت فيها العدا
ولأمتست البيض الحرائر أسنهما فيها سبايا والموالى أعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة تحتاب ما بين البقيع إلى كدى
وبشفر دمياط فكم من بيعة عبد الصليب بها وكانت مسجدا
أنقذتها من خطة الخسف التي كانت أحلتها الحضيض الأوردا
أجلت ليل الكفر عنها فانطوى وأنرت في عرصاتها فجر الهدى
ولقد شهدتك يوم قيسارية والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشرف الأبراج أحكم بالصفيح وشيدا
فجعلت عاليها مكان أساسها وألنت للأخشاب فيها الجلمدا^(١)

وبعد : فهاتان القصيدتان مفعمتان كما نرى بالعوطف الإسلامية وفيها من تسجيل أحداث الحروب الصليبية ما يقنعنا بأن ابن عنين الشاعر - وإن برع في فن الهجاء والتهكم والسخرية - إلا أن الحروب الصليبية ظروفها وملابساتها قد أنطقه بهذا الشعر الجيد المسجل بأمانة لما دار من حروب بين الصليبيين والمسلمين في الفترة التي عاشها الشاعر .

١ - ديوانه : ص ٥٩ - ٦٢ باختصار .

رابعاً : إنتاجه الأدبي

ليس لابن عنين في هذا المجال سوى عملين غير الديوان أحدهما : أنه صنف « التاريخ العزيزى » في سيرة الملك العزيز عثمان • وهو مخطوط حتى الآن - ولم أطلع عليه • (١)

وثانيهما : « مختصر الجمهرة » ذكره صاحب كشف الظنون أما ديوانه ، فقد تواتر لدى من كتبوا عنه أنه لم يعن في حياته بجمع ديوانه ، وأنه كان ضنيناً بشعره •

وقد جمع ديوانه بعد وفاته بشان سنوات محمد بن المسيب بن بتهان الدمشقى الثعلبى (٢) •

والديوان ثمان نسخ مخطوطة في الظاهرية بدمشق وفي كمبرج ونسخة في الموصل ونسخة في باريس ونسخة حجازية ونسخة مصرية وثامنة للشاعر أحمد الصافى النجفى وهى لاتكاد تختلف عن نسخة كمبرج • (٣)

وقد حقق الديوان ونشره خليل مروم في شهر رمضان ١٣٦٥ هـ وقد أخرجه في سبعة أبواب هى :

- باب المديح
- وباب الرثاء
- وباب في الحنين إلى دمشق
- وباب في الوقائع والمحاضرات
- وباب في الدعاية والتهكم والسخرية
- وباب في الألفاظ
- وباب في الهجاء

١ - الإركلى : الإعلام

٢ - حاجى خليفة : كشف الظنون : ١/ ٢٢٨ •

٣ - خليل مروم : مقدمة الديوان •

ثم زاد المحقق على ذلك : « المستدرك من شعرا بن عنين » جمع فيها المحقق أشعارا لابن عنين عشر عليها في كتب التاريخ والأدب لم ترد في ديوانه في النسخ الثمانية التي ذكر .

ويقال إن قصيدته « مقراض الأعراض » التي هجا بها أهل دمشق والتي ورد في الديوان منها اثنان وخمسون بيتا وأورد محقق الديوان منها ثلاثة وخمسين بيتا ، يقال إن هذه القصيدة في الأصل خمسمائة وخمسون بيتا وأورد محقق الديوان منها ثلاثة وخمسين بيتا ، يقال إن هذه القصيدة في الأصل خمسمائة بيت .

وبعد فتلك صورة للشاعر ابن عنين نرجو أن تكون قد دلت على شاعر السام الذي أردنا أن نتحدث عنه .

وإلى الحديث عن شاعر مصر الذي اخترناه للحديث عنه في هذا الكتاب .



البهاء زهير

٥٨١ - ٦٥٦ هـ

أولاً : نسبه ونشأته :

هو أبو الفضل زهير محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عاصم المهلبى العتكى الأزدى - كما أملى هو نسبه على معاصره المؤرخ : ابن خلكان والمهلبى هذه نسبة إلى المهلب بن أبى صفرة المشهور فى التاريخ والذي وصفه عبد الله بن الزبير بأنه : سيد أهل العراق •

وكنية شاعرنا : أبو الفضل ، ولقبه : بهاء الدين

ولد بمكة فى خامس ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، هكذا قال بهاء الدين نفسه ، وقال هو أيضاً عن نفسه إنه ولد بوادى نخلة • ^(١) ولاتعارض فى ذلك فوادى نخلة داخل فى مكة على اعتبار أن مكة تعريف بالأعم الأشهر •

وقد قضى البهاء زهير طفولته فى الحجاز ثم انتقل إلى قوص فى صعيد مصر وهو صبى كذلك حتى إنه ينسب إلى قوص فيقال : القوصى •

وتلقى البهاء زهير دروسه الأولى فى مدينة قوص التى كانت حينئذ قصبه صعيد مصر والتى أدت الحروب الصليبية إلى ازدهارها فكانت مركزاً هاماً من مراكز العلم والثقافة ، ومن الواضح أن يكون البهاء زهير قد تلقى فى قوص علوم الشريعة وعلوم اللغة والأدب ، فضلاً عن المعارف والعلوم الأخرى التى أهلته لأن يكون يتولى ديوان الإنشاء ، وما كان من يتولاه إلا فى الدرجة العليا من المعرفة والبلاغة والبيان • ^(٢)

١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٨٥/٢ •

٢ - القلقشندى : صبح الأعشى .

تخرج البهاء من قوص « أحسن الفضلاء نظما ونثرا وخطا على حد تعبير ابن خلكان رفيق البهاء زهير وصديق طفولته في قوص .

ومن شعر البهاء ندرك أنه من أسرة فقيرة أو متوسطة لأنه كتب إلى أحد ممدوحيه يستعطفه ويستمنحه لأنه يعول أطفالا ونسوة ، يقول :

ولولا أمور ليس يحسن ذكرها لكنتُ عن الشكوى أصدوأصدف
ولكن أطفالا صفارا ونسوة ولا أحد غيري بهم يتلطف
سرورى أن يبدو عليهم تنعم وحزنى أن يبدو عليهم تقشف

ولكن أباه كان من الصالحين إذ وصف في مقدمة ديوان البهاء بأنه « العارف قدس الله روحه » (١)

وكان البهاء نفسه ذا وفاء ومروءة ، على الهمة ، صادقا فيما يقول ، يعين الناس على حوائجهم ويلقاهم ببشاشة ولطف ، بكل ذلك نطق شعره ، ولعل الأبيات التالية ترسم لنا صورة لأخلاق البهاء زهير .

ويارب داع قد دعانى لحاجة فعلت له فوق الذى كان أملا
سبقته صداه باهتامى لكل ما أراد ، ولم أحوجه أن يتمهلا
وأوسعته لما أتانى بشاشة ولطفًا وترحيبا وخلقا ومنزلا
بسطت له وجهها حيبا ومنطقا وفيًا ومعروفا هنيئا معجلا
وراح يرانى منعا متفضلا ورحلت أراه المنعم المتفضلا

١ - نسخة من ديوانه بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٥١ أدب مخطوطة .

ثانيا : أطوار حياته الأدبية :

كانت أطوار حياة البهاء زهير المتعددة تخدم في كل طور منها قدراته الأدبية وتصفقها ، كما كانت قدراته تمكن له عند وجهاء القوم وكبرائهم ونستطيع أن نقسم حياة البهاء زهير إلى أطوار ثلاثة :

أ - طور اتصاله بالكبراء والأعيان •

ب - طور عمله بالديوان والوزارة •

ج - طور خلعه من الديوان واضطرابه في الأرض •

وفي كل طور من هذه الأطوار نستعرض شيئا من شعره نستدل به على ما تتميز به هذا الطور من حياته •

أ - طور اتصاله بالكبراء والأعيان

من قوص قصبة صعيد مصر ، ومركز الثقافة والعلم والمكتبات ، استطاع البهاء زهير أن يكون شخصيته العلمية والأدبية ، وإن المتصفح لديوان البهاء زهير ليرى أثر هذه الثقافة في شعره ، وهي ثقافة إسلامية تعتمد القرآن الكريم والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام • ثم هي ثقافة عربية أدبية تعتمد الأدب والتاريخ وعلوم اللغة وفنونها من نظم ونثر •

وبعد أن استكمل البهاء زهير عدة العالم الأديب أخذ يتصل بكبار القوم وأعيان العلماء •

فكانت له صلة بجمال الدين بن مطروح الشاعر الأديب المعروف بخفة الروح وممارسة السياسة والحرب والشعر ، وقد التقى البهاء زهير مع ابن مطروح في مجلس الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللمطي ، وتوثقت بينهما العلاقة طوال حياة الرجلين ، يقول ابن خلكان عن ذلك : وتأكدت الصلة بينه وبين البهاء حتى كانا كالأخوين ^(١)

١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٣٠٦/٥ •

وكانت له صلة بأمير قوص : المكرم مجد الدين إسماعيل اللمطى •
فعندما تولى ابن اللمطى إمارة قوص سنة ست وستائة تشوقت نفس البهاء زهير إلى
أن يعقد به صلة فمدحه بقصيدته المؤرخة في ديوانه بسنة سبع وستائة ، والتي جاء فيها
تهنئته له بهذه الإمارة :

ورب قواف قد طويت برودها فلم أرض أن تغدو لغيرك ملبسا
أقمن حبيسات كحبسك مَنْ جنى على أنها لم تجن يوما فتحبسا
فها هي كالوحشى من طول حبسها عساها ببر منك أن تتأسا
ومنها :

به أصبحت قوص إذا هي فاخرت أعزّ قبيل في الأنام وأنفسا
وماهى إلا فترة حتى أصبح البهاء زهير كاتب ابن اللمطى وأثيره وجليسه واستمرت
العلاقة طيبة حسنة بينه وبين أميره أكثر من خمسة عشر عاما يغذيها شعر البهاء في مدح
أميره كلما سنحت سانحة حتى ليهنته بشهر الصوم بقوله :

وافاك شهر الصوم يامن قدره فينا كليله قدره لن يجحدا
ويمدحه بقصيدة منها قوله :

مولى بدا من غير مسألة بما جاز المدى كرما وعاد كما بدا
وأنال جودا لا السحاب ينيله يوما وإن كان السحاب الأجودا
ومن عمل بهاء الدين للمطى وشعره فيه يطير ذكره وتصل شهرته إلى الأسباع في
القاهرة ، وتحدث البهاء نفسه بأنه لو ذهب إلى القاهرة لكان أليق به وأحسن ، وربما انفتح
له باب السلطان فحقق الآمال ، غير أن الشاعر الوفى يعز عليه أن يهجر أميره هكذا طلبا
للمجد ، فيتخذ من قصائده إلى الأمير تعلات واعتذارات ذاكرا لأميره حسن رعايته وجميل
مودته ، فيقول له :

مولاي مجد الدين ، عطفاً إنّ لى لمحبةً فى مثلها لايمترى
يامن عرفت الناس حين عرفته وجهلتهم لما نبا وتنكرا

خلق كماء المزن منك عهدته ويعز عندى أن يقال تغيرا
مولاي لم أهجر جنابك عن قلى حاشاي من هذا الحديث المفتري
وما سمع وفاء البهاء زهير له بأن ينسى فضل أميره اللطى عليه حتى بعد أن استقر
فى القاهرة ونال حظا من صلته بأمرائها •

فبقول له فى إحدى قصائده :

أسفى على زمن لذك قطعته وكأتنى للفرقدين نزىل
وإذا انتسبت بخدمتى لك سابقا فكأتها لى معشر وقبىل
هذا هو الأدب الذى أنشأته فاهتز منه روضه المطلول
كما كانت للبهاء زهير صلة ومذائع بالوزير الصاحب صفى الدين بن شكر الذى وزر
للملك العادل الأيوبى ، ثم للملك الكامل ابن الملك العادل من بعد ، وكان ابن شكر
صاحب مكانة وله فى العلم قدم •
وقد كتب البهاء زهير لابن شكر قصائد يستمنحه فضله ، وقصائد يشيد فيها بعلمه
وفضله •

ب - طور عمله بالديوان والوزارة

عندما اتجه البهاء زهير إلى القاهرة كان طامعا فى أن تكون له بالملك العادل صلة ،
فمدحه وتقرب إليه ، فمن مدائحه فى قصيدته التى فيها قوله :
إلى العادل المأمول للدهر إن سطا به يتجلى ظلمه وظلامه
ومنها قوله :

أمنت بلقياك الزمان وحده ففىرى من يخشى عليه اهتضائه
ثم تولى الملك الكامل بعد أبيه العادل ، فحاول البهاء زهير أن يجد فرصة للقرب منه
فمدحه ، وحاول أن يحدث صلة بولديه الملك المسعود يوسف والملك الصالح نجم الدين ،
وينجح البهاء فى إحداث تلك الصلة •

وكان أن كتب البهاء زهير إلى الملك المسعود قصيدة يرجوه أن يجعل منه شاعر القصر
لينشر ذكر الملك المسعود بين الملوك ، فيقول له فيها •

فيا صاحبي هب لي بحقك وقفة يكون بها عندي لك الحمد والأجر
لدى ملك رحب الخليفة قاهر فمجلسه الدنيا وخادمه الدهر
سأذكى له بين الملوك مجامرا فمن ذكره نذ ومن فكرى الجمر
وقد قبله الملك المسعود وقربه ، وعظم هذا في عين البهاء زهير حتى تساءل أفي يقطعة
هوأم في منام ، فقال :

وقد قرب الله المسافة بيننا فهأ أنا يحوينى وإياه إيوان
أشك وقد عاينته في قدومه وأمسح عن عيني ، هل أنا وسنان ؟

لكن حظ البهاء زهير - بالمقياس الذى وضعه لنفسه وهو قربه من السلطان - وافاه
على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث يرغب الملك في أن تكون صلة الشاعر به
وثيقة ، ويطير البهاء زهير فرحا بهذه الرغبة ، فيصبح البهاء أثير الملك الصالح ثم سفيره
إلى عديد من البلاد •

ولما ملك الملك الصالح دمشق عين البهاء كاتبها ، ولما ضاعت دمشق من الملك
الصالح وأصبحت في ملك الناصر داود عاد البهاء زهير إلى مصر وظلت العلاقة بين الملك
الصالح والبهاء زهير حتى تغير عليه الملك قبيل وفاته فصرفه من منصبه •

ولما مات الملك الصالح وكلفت شجرة الدر زوجة الملك الأمير فخر الدين بن شيخ
الشيوخ بتدبير أمور الدولة ، أعاد البهاء زهير إلى منصبه •

ولكن توران شاه كان له موقف من الجهاز الادارى كله للدولة ، فصرف كبار الأمراء
والأعوان وصرف البهاء زهير معهم •

وبهذا تنتهى المرحلة الثانية من مراحل حياة البهاء زهير ، ويستعد لاستقبال غط آخر
من الحياة ليس فيه مما يريد شيئا ولا مما يئنى به نفسه من جاه أو سلطان قليل أو كثير •

غير أن هذا الطور الثاني من حياة البهاء زهير مضى وقد وقف فيه موقفين كريمين مع الملك الصالح ، يستحقان التسجيل •
أما أولهما ، فيوم استطاع عماد الدين إسماعيل أن يقهر ابن أخيه الملك الصالح وأن يفرق عنه جنده حتى لم يبق معه سوى مائة جندي ، في ذلك الوقت أثبت البهاء زهير أن الوفاء عنده فوق كل اعتبار فثبت مع الملك وأصر على أن يكون في صفه ، حتى أخرجه الله من تلك الأزمة •

والموقف الثاني يوم غضب الملك الصالح على البهاء وصرفه من خدمته فقد كان البهاء زهير قادرا على أن يتصل من تهمة ألصقت به ولكنه لم يفعل ، وحمل عبه خطأ ارتكبه السلطان نفسه ، وذلك أن البهاء كان قد كتب إلى الملك الناصر داود كتابا باسم الملك الصالح ، فلما قرأه الملك الصالح زاد فيه بين السطور عبارة فيها حرج وإهانة ، ثم بدا للملك الصالح أن يتراجع عما كتب فطلب من البهاء أن يغير الكتاب ، ولكن البهاء عندما جاءه كتاب الملك لم يغير فيه شيئا لأنه لم يطلع على تلك العبارة التي زادها الملك الصالح ، ولما وصل الكتاب إلى الملك الناصر بهذه العبارة غضب وكتب للملك الصالح يعاتبه ، فنار الملك الصالح على البهاء زهير وعزله من عمله •

ج - طور خلع من الديوان واضطرابه في الأرض

بعد أن خلع توران شاه بهاء الدين زهير من منصبه ، لم ييأس البهاء وإنما شرع بخط لنفسه طريقا آخر ، فمضى إلى بلاد الشام لعله يجد فيه متنفسا فمدح الناصر يوسف بن العزيز - وكان قد ملك دمشق سنة ثمان وأربعين وستائة - وعرض عليه شعره ومدائح ، وبثه شكواه ، وكان يفرجه بأن يجعله منه في مكان الأمير لإحدى الإمارات •
بث تلك الأمانى كلها في قصيدة طويلة جيدة جاء فيها :

لكم منى الود الذى ليس يبرح	ولى فيكم الشوق الشديد المبرح
وكم لى من كتب ورسلى إليكم	ولكنها عن لوعتى ليس تفصح
وفى النفس مالا أستطيع أبته	ولست به للكتب والرسلى أسمع

ومنها قوله :

وإن مديح الناصر بن محمد ليصبوا إليه كل قلب ويمنح
مديح ينبل المادحين جلالة ومدحا بمدح ثم يربو ويمنح
وليس محتاج إلى مدح مادم مكارمه تنسى عليه وقدح
وكل فصيح ألكن في مديحه لأن لسان الجود بالمدح أفصح
وقد قاس قوم جود يمناه بالحيا وقد غلطوا ، يمناه أسخى وأسمح

ومنها في التصريح بما يريد قوله :

وبعض عطاياء المدائن والقرى فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسمح
فلو سئل الدنيا رآها حقيرة وجاد بها سرًا ولا يتبجح
ومع كل ذلك فإن السلطان لم يعطه ، ولم يحقق آماله ، فاتجه البهاء إلى أسلوب آخر
معه ، إذ أخذ يشكو له بؤسه وفاقته ، ويطلب منه أن يعينه على نوب الزمان •

سجل ذلك فى قصيدة أخرى تعد من أجود شعره كان مطلعها :

طريقتك المثلى أجل وأشرف وسيرتك الحسنى أبر وأرأف
ولكن السلطان لم يستجب لأى من نداءات البهاء زهير ، فلم يحقق له أمله فى الإمارة
ولم يعنه على نوب الدهر وأحداث الزمان •

اتجه البهاء زهير بعد يأسه من الملك الناصر يوسف بن عبد العزيز إلى مدح الملك
المنصور على بن الملك العزيز بن الملك المعزأبيك الصالحى ، وكانت سنّ البهاء قد علت
وظروفه قد ساءت ، فمدح البهاء هذا الملك بقصيدة يؤكد فيها إخلاصه له ، ويرجوه أن
ينعم عليه ، ويذكره بأنه قد أصبح فى آخر أيام عمره •

ومن هذه القصيدة قوله :

لعل الذى فى أول العمر فاتنى تعوضنيه أنت فى آخر العمر
بل إن البهاء مدح من هم أقل من الملوك والسلطين لما ساءت حاله وطلب منهم
النوال والعون على الزمان •

غير أننا لانجد في تاريخه ولا في ديوانه ما يدل على أنه قد وجد في واحد من هؤلاء
الذين مدحهم في أخريات حياته من يخفف عنه آلامه ويؤسه فضلا عن أن يستوزره أو
يجعله أميرا .

وهكذا قدر للكاتب الوزير المقرب أن ينهى حياته فقيرا بائسا ، حيث مات سنة
٦٥٦ هـ ست وخمسين وستائة من الهجرة .

ثالثا : نماذج من شعره

على نحو ما فعلنا في ذكر النماذج الشعرية لابن عنين أنفا ، سوف نذكر من شعر البهاء
زهير ماله صلة بالحروب الصليبية ، مكتفين بذلك عما ورد في ديوانه من شعر جم غلب عليه
الغزل عند بعض الباحثين .

ومن هذه النماذج التي تنفع فيما نحن بصدد من تسجيل الشعر للحروب الصليبية ،
قصيدته الرائية الشهيرة التي مدح فيها الملك الكامل بن الملك العادل عندما انتصر على
الصليبيين واستعاد منهم ثغرمياط ، بعد أن كان قد ظل في أيدي الفرنجة قريبا من ثلاث
سنوات .

وقد كان لهذا النصر فرحة عمت العالم الإسلامي كله ، وتولى بهاء الدين زهير حمل
أنباء هذا النصره بشعره إلى العالم الإسلامي كله .

قال في هذه الرائية الجيدة :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر	ورُدّت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة	تقصر عنها نعمة الحمد والشكر
يقل بها بذل النفوس بشاراً	ويصغر فيها كل شيء من النذر
ألا فليقل ماشاء من هو قائل	ودونك هذا موضع النظم والنثر

إلى آخر القصيدة التي ذكرناها كاملة ونحن نتحدث عن موضوعات الشعر في هذه الفترة^(١) وهي خمسون بيتا ، عدها الباحثون من أجود شعره ، ونعدها من أهم شعره الذي تحدث فيه عن انتصارات المسلمين على الصليبيين .
ونكتفى بهذه المطولة ، لتتحدث عن ديوانه .

رابعا : إنتاجه الأدبي

ليس للبهاء زهير إنتاج أدبي له أهمية سوى ديوانه ، أما كتاباته في ديوان الإنشاء فلم تجمع بعد ، وإن كانت غير قليلة لكن ديوانه الشعري هو الذي يعنينا من هذا المجال .
ديوان البهاء :

روى ابن خلكان ديوان البهاء زهير - وكان البهاء قد أجاز له تلك الرواية ، وكان ديوان البهاء كثير الوجود في أيدي الناس على عهد البهاء زهير ، كما يذكر ابن خلكان .
ويذكر المستشرق إدوارد بالمر (١٨٤٠ - ١٨٨٣ م) الذي نشر ديوان البهاء زهير متنا وترجمة شعرية بمقدمة مسهبة وتعليقات حجة في جزئين (كمبريدج ١٨٧٦ - ١٨٧٧ م) .^(٢) ، يذكر أن الذي جمع ديوان البهاء زهير هو شرف الدين المعروف بابن الخلاوي الموصلي ، ويوضح أن ذلك مذكور في نسخة حسنة موجودة بمكتبة أكسفورد .
ولا تزال للديوان أكثر من نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية .
وقد طبع الديوان مرات عديدة منها :

طبعة في مصر سنة ١٢٧٧ هـ وثانية سنة ١٢٨٧ هـ وثالثة سنة ١٢٩٧ هـ ورابعة سنة ١٣٠٠ هـ وخامسة سنة ١٣٠٥ هـ وسادسة سنة ١٣١١ هـ وسابعة سنة ١٣٢٢ هـ .
وطبع في بيروت طبعته المكتبة العمومية وصاحبها سليم إبراهيم صادر ، ولكن هذه الطبعة دون تاريخ .

١ - جاء ذكرها في ص ٣٢٨ - ٣٣١ من هذا الكتاب .

٢ - نجيب العقيقي : المستشرقون ٤٨٢/٢ .

ولا يزال ديوان البهاء زهير - على الرغم من كل هذه الطبقات - يحتاج إلى عناية علمية وإخراج فنى جيد ، على نحو ما نرى في الدواوين التى خدمت هذه الخدمة .
ومما أثار عن البهاء زهير من آثاره الأدبية الثرية كتابه الذى رد فيه على تهديد لويس التاسع ، ذلك التهديد الذى وجهه لويس التاسع للملك الصالح أيوب .

د - بعض المذاهب الشعرية فى تلك الفترة

امتدت فترة الحروب الصليبية على مدى قرنين من الزمان ، فكان لابد أن تترك أثرها فى الفكر والأدب ، ولقد رأينا فيما سلف من الكتاب كيف تركت هذه الحروب أثرها فى موضوعات الشعر وأغراضه وفنونه ، بل كيف أثرت فى الشعراء أنفسهم .
ونود فى هذه الصفحات أن نلقى ضوءا على مآثر هذه الفترة من أثر فى بعض المذاهب الشعرية .

ومن المسلم لدى الباحثين فى مجالات الفكر والأدب أن كل فترة زمنية - مما اصطلح على تسميته عصرا - تبرز فيها مذاهب فى الفكر وفى الأدب ، نتيجة ضرورية للتغير المستمر فى الحياة ، واستجابة طبيعية لهذه التغيرات ، حتى نستطيع أن نقول مطمئنين :
إن كل عصر أو كل قرن من الزمان - بل ربما ، كل أقل من ذلك ، يحدث هذا التغير وينقسم الناس أمامه - فى الغالب - أقساما ثلاثة :

بعضهم يقف من هذه التغيرات موقف الرفض لمعطياتها ، المصر على أن يمضى على السنّة التى كان عليها ، بل ربما ازدرى هذه التغيرات وسخر من المستجيبين لها ، وهذا النمط من الناس لا يصح لنا أن نسميهم - كما يحلو للبعض أن يفعل - بالرجعيين أو المتخلفين ، وإنما الأصوب أن نقول عنهم : إنهم محافظون على القديم متمسكون به ، ولاضير عليهم طالما أن التمسك بهذا القديم لم يحدث لهم ضررا ، أو لم يجرمهم من خير .
نجد هذا النمط من الناس فى مجالات الفكر والأدب ، وغالبا ما يسميهم الباحثون فى مجالات الدراسة الأدبية بالتقليديين .

وبعض الناس يقف من هذه المتغيرات موقف من ينظر فيها ويبحث عن أفضل ما فيها فيارسه بينما يرى فيها مالا يلائمه فيرفضه ، وبالتالي تكون استجابة هؤلاء لتلك المتغيرات محدودة ، ولكنهم يأخذون منها بما يحبون ، ويصدقون عما لا يرضى أذواقهم أو عاداتهم أو ما ألفوه فيا ورثوا عن أسلافهم •

وهذا النمط من الناس أكثر تجاوبا مع متغيرات الحياة من سابقهم • بل أكثر عمقا في النظر إلى حياتهم وعصرهم ومالابذ أن يأتي به كل عصر من جديد •

وفضيلتهم أن مازوا ورازوا ، ونظروا واعتبروا ، وأخذوا وتركوا ، وتلك علامة نضج ومرونة مافي ذلك شك ، فهم يحافظون على بعض القديم ويأخذون ببعض الجديد ، وقد جرت عادة الباحثين أن يسموا هؤلاء : بالمحافظين •

والقسم الثالث من الناس يرمى في أحضان الجديد ، ويقبل عليه إقبال الراغب فيه المؤمن بجذواه ، المقتنع حقا بالكلمة التي تقول : الناس بزمانهم أشبه منهم بأبائهم •

غير أن مالملاحظ على أولئك المقبلين على الجديد - في كل عصر تقريبا - أنهم يتكبرون للقديم ويعدون التمسك به رجعة إلى الوراء ، وتقيداً بما لايد أن يتحرر الناس منه ، وهنا يكمن الخطر ، لأن القديم لن يكون شرا كله كما أن الجديد لن يكون خيرا كله ، لكنهم على كل حال متطورون مع كل تطور متغيرون استجابة لكل متغير •

يكاد الناس ينقسمون إلى هذه الأقسام الثلاثة في كل عصر من عصور حياتهم على هذه الأرض ، وإن جرت عادة الباحثين أن يجمعوا القسمين الثاني والثالث في قسم واحد ويسمونهم : المجددين •

وكان الأمر كذلك في فترة الحروب الصليبية التي امتدت قرنين من الزمان وكان الشعراء كذلك •

لذلك نحن في صدد هذا الموضوع من الكتاب نجد من الضروري أن نلقى ضوءا على المحافظين من الشعراء في هذه الفترة ، وعلى المجددين منهم كذلك •

ولن نسمى ذلك مدرسة وإنما نسميه مذهباً ، فإن تسمية « المذهب » أدق في الدلالة ، وأصل في لغتنا وتاريخنا وتراثنا ، فننتحدث عن مذهبين : مذهب المحافظين ، ومذهب المجددين .

أ - مذهب المحافظين من الشعراء في هذه الفترة

تمثل مذهب هؤلاء المحافظين في رفضهم للجديد الذي جاء به العصر جملة ، ثم انضمت أبعاد هذا المذهب في أمور عديدة منها :

المحافظة على إطار القصيدة العربية الأصيلة من حيث الوزن والقافية بحيث لم يستجيبوا لما طرأ على العصر من رغبة في التمرد على هذا القديم في مجال الوزن والقافية .
ومنها : المحافظة على مضمون القصيدة من حيث شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ والإصابة في الوصف ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الموضوعات التي فرضتها ظروف العصر لم ترفض وإنما استجاب لها الشعر وخاصة تجاربها ولكن في الإطار المعروف للشعر العربي .

وقد وجد هذا الاتجاه أنصاراً وأعواناً ليسوا بالقليلين ، فتقيد كل أولئك بالمحافظة على عمودية الشعر كما سهاها بعض العلماء ، ولم يخرجوا في أشعارهم على عمود الشعر بحال .
وعمود الشعر العربي كما عرفه المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة هو من الأهمية بمكان إذ يترتب على معرفته تمييز التليد من الطريف ومعرفة مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروا .

يقول المرزوقي : « ... فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ، ليميز تليد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث ، ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومراسم أقدام المزيفين على ما زيفوه ، ويعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلة الأتيّ السمع على الأبيّ الصعب فنقول وبالله التوفيق :
إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات -

والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتثامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكله اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينها .

فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها معيار ٠٠٠ «^(١) .
وبدا الشعر على ألسنة الشعراء المحافظين أصيلا رصينا محافظا على كل قواعد اللغة ، ولكنه ذو طابع يميزه عن شعر العصور السابقة ، طابع يتمثل في موضوعات فرضها العصر وأملتها الظروف الاجتماعية والسياسية وفرضتها فرضا الحروب الصليبية على النحو الذى ذكرنا ونحن نتحدث عن موضوعات الشعر وأغراضه وفنونه^(٢) .

ب - مذهب المجددين من الشعراء في هذه الفترة

قام هذا المذهب - كما ذكرنا - على الرغبة في التجديد ، سواء أكان تجديدا محدودا أم كان تجديدا كاملا .

ونستطيع أن نتعرف على خصائص هذا المذهب في أمور :
منها : الرغبة في التحرر من الوزن والقافية في بعض الأحيان والاتجاه إلى استحداث بحور غير البحور المعروفة الستة عشر ، حيث نجحت هذه المحاولات فكان من نتائجها بحور جديدة ستة هي : المستطيل ، والممتد والمتشد والمنسرد والمتوافر والمطرود .
ومنها : الرغبة في التحرر من بعض قيود اللغة من حيث الإعراب ومن حيث التساهل في استعمال العامى من الألفاظ في الشعر .
ومنها : الإقبال على ألوان من فنون الشعر لم تكن شائعة في المشرق وإنما كانت شائعة في الأندلس الإسلامية كالموشح والدوبيت والمواليا .

١ - المرزوقى : شرح ديوان حماسة أبى تمام : ٨/١ - ٩ نشرة : أحمد أمين وعبد السلام هارون ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م - القاهرة

٢ - ص ٢٩١ من هذا الكتاب .

ومنها : الإقبال على ألوان من فنون الشعر لا تقال إلا ملحونة وهي :

- الرجز والكان وكان ، والقوما والبلايق •

وأهم ما يلاحظ على الشعراء المجددين في هذه الفترة اتجاهان :

- أولها : الاتجاه إلى الإسراف في استخدام التورية •
- وثانيها : الاتجاه إلى الإسراف في استخدام الطباق والجناس •

أقبل الشعراء على التورية في هذه الفترة حتى أصبحت من لوازم الشعر ومن سيا التجويد فيه ، فأكثرُوا من استخدامها ، حتى تعصب لها بعضهم كابن حجة الحموي الذي ألف فيها كتاباً سماه « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » •

وقد شاعت التورية في مصطلحات العلوم والفنون ، وبخاصة في الحديث والفقه والنحو وغيرها من الفنون •

ولولا أن نطيل ونخرج عن سمت البحث لذكرنا للتورية نماذج وأمثلة •

وأما الاتجاه إلى الإسراف في استخدام المحسنات البديعية بعامة والطباق والجناس بخاصة ، فقد أكثر منه بعض الشعراء حتى دخلوا حيز التكلف والتصنع ، وأصبح في شعرهم عبثاً على المعنى بل عبثاً على اللفظ في كثير من الأحيان •

وبعض الشعراء في هذه الفترة اتخذوا من الطباق والجناس والاستعارة مذهباً في شعرهم التزموا به ، ولكنهم كانوا أقل في التكلف والتصنع من سابقهم الذين التزموا الطباق والجناس •

ولا نحب - كذلك - أن نذكر الأمثلة والشواهد ، حتى لا نخرج من سمت الكتاب إلى تلك المسائل الفنية التي تلتبس في مظانها من كتب البلاغة •

وبعد : فلعلنا بهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل عن فن الشعر نكون قد أوضحنا موقف الشعر من الغزو الصليبي للعالم الإسلامي ، في موضوعاته وأغراضه وفنونه وبعض ما عرف من مذاهبه •

الفصل الثانى : فن النثر

أ - موضوعاته وفنونه

لم يكن تأثير النثر الفنى بالحروب الصليبية قليلا ، كما لم يكن غير عميق ، وربما قلنا : إن أنواعا وفنونا من النثر قد تأثرت بهذه الحروب أكثر مما تأثر بها الشعر ، وبخاصة النثر الوصفى فى مجال وصف الصليبيين وذكر مثالبهم ، والنثر الديوانى فى مجال التهانى بالفتوح والتحريض على الحرب والجهاد فى سبيل الله •

ليس هدفنا الآن أن نقارن بين الشعر والنثر أيهما كان أشد تأثرا بهذه الحروب ، وإنما الهدف هو أن نوضح أن النثر تأثر بهذه الحروب كما تأثر الشعر •

وإذا كان للنثر موضوعات كان يعالجها قبل فترة الحروب الصليبية ، فإن هذه الموضوعات بقيت وربما دخلها بعض التطور استجابة لما تطلبتة الحروب الصليبية من أمور •

غير أن الموضوعات التى أدخلتها الحروب الصليبية على النثر ولم يكن لها قبل هذه الحروب وجود ، يمكن أن نشير إلى بعضها فى الآتى :

١ - ذكر مثالب الصليبيين وعيوبهم فى عقائدهم وعاداتهم وأخلاقهم •

٢ - الرد عليهم وعلى اليهود ، فيما يتصل بما فى ديانتهم من تحريف وتبديل وإبطال مزاعمهم فى ذات الله وفى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام •

٣ - وصف هؤلاء الصليبيين فى حياتهم •

٤ - تأريخ تلك الفترة التى دارت فيها الحروب الصليبية ، وقد جرت هذه الحروب إلى أن يتناول النثر فيما يتناول •

٥ - ذكر مناقب المسلمين وبخاصة مشاهير القادة والفاحين فى الماضى وفى تلك الفترة •

٦ - المناظرة بين السيف والقلم ، والإيمان والكفر ، والمسلمين والصليبيين مناظرة

تستهدف الإقناع حيناً وتبرير المواقف حيناً •

٧ - الإكثار من الأدعية والاستغاثات والمناجاة

٨ - تنميق الأذكار والأوراد •

٩ - الإكثار من المواعظ والتذكير والدعوة إلى خوض هذه الحروب •

١٠ - الاهتمام بتنميق التهاني بهذه الفتوح والاهتمام بأسلوب البشارات •

هذه الموضوعات شغلت النثر والنثرين وكانت مجالا تبارى فيه كبار الكتاب

والمنشئين •

فإذا أضفنا إلى ذلك ما تناولته الخطابة الدينية والخطابة في الحرب والجهاد من

موضوعات ، وجدنا أنفسنا أمام حصيلة ضخمة من موضوعات النثر الفنى •

وعندما نضيف إليه الموضوعات التى تناولها كتاب الدواوين ومحترفوا الكتابة الديوانية

من تقاليد وتواقيع ومناسير ووثائق ورسائل ، نصبح على يقين من أن النثر الفنى قد

تعددت أمامه الموضوعات استجابة لهذه الحروب إلى الحد الذى يؤكد لنا إيجابية فن النثر

وتجاوبه مع تلك الأحداث •

أما فنون النثر فى تلك الفترة ، فإنها الفنون التى عرفها فن النثر من قبل من رسالة

ومقامة وقصة وأدب وصفى يتناول عدیدا من الموضوعات •

غير أن الذى أضيف إلى هذه الفنون فى تلك الفترة ولم يكن له وجود من قبل - فيما

نعلم - هو : المناامات الأدبية ووصف الفرنجة والرد عليهم •

ونستطيع أن نقسم فنون النثر فى هذه الفترة إلى أقسام كبرى يندرج تحت كل واحد

منها أقسام أخرى ، أما تلك الأقسام الكبرى فيما أتصور فهى :

أولا : الكتابة الديوانية •

ثانيا : الكتابة الوصفية •

ثالثا : الخطابة •

وأما ما يندرج في تلك الأقسام من فروع فيمكن أن نتصوره على النحو التالي :
الكتابة الديوانية وتشمل :

- ١ - التقليد والتواقيع والمناشير .
 - ٢ - التهاني بالفتوح والبشارات بها .
 - ٣ - وصف الحروب والجهاد في سبيل الله .
 - ٤ - الوثائق السياسية من معاهدات ، وتهديدات وردود على تهديدات .
- الكتاب الوصفية وهي نوعان :

١ - كتابة وصفية موضوعية تشمل :

- أ - التاريخ .
- ب - التراجم والرحلات .
- ج - وصف الخيل وآلات الحرب .
- د - المقامات .

٢ - كتابة وصفية ذاتية تشمل :

- أ - الرسائل الإخوانية .
- ب - القصص .
- ج - المناومات الأدبية .

الخطابة وهي نوعان :

- ١ - خطابة دينية ، تتناول موضوعات عديدة مناسبة لتلك الحروب .
- ٢ - خطابة سياسية .

وأود أن ألقى ضوءا سريعا على هذه الفروع معرفا بها ، فأقول :

الكتاب الديوانية عموما في ديوان الإنشاء ، يقول عنها القلقشندي :

« ٠٠٠ كان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجل ، وكان يقال له

عندهم كاتب الدست الشريف ، وإليه تسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على

الخليفة من يده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها ، ويستشير الخليفة فى اتسر
أمره ، ولا يحجب عنه حتى قصد المثل بين يديه ، وربما بات عنده الليالى ٠٠٠ « (١) » .
تلك مكانة الكتابة الديوانية وهذا مكان كاتبها .

ومن أبرز فنون الكتابة الديوانية : التقليد والتواقيع والمناشير ، وهى كتب من الحاكم
إلى عماله ونوابه أو منهم إلى الحاكم ، وقد ازدهر هذا الفن من النثر لأن الحروب الصليبية
- فى هذه الفترة - قد جرت على البلاد بأحداث جسام أدت إلى كثرة التقليد والمناشير
والتواقيع .

والأحسن فى هذا النوع من النثر بسط الكلام ، وتعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب .
ويجب أن تراعى فيه أمور كثيرة : منها ٠٠ براعة الاستهلال ، ومراعاة المناسبة ، وما
تقتضيه الحال ، منها : اختيار الكلام والمعانى ، فإنه مما يذيع ويشيع ولا يعذر المقصر فى
ذلك بعجلة ولا ضيق وقت .

والتقليد - فى العادة - أقسام أربعة متقاربة المقادير : خطبة التقليد ، وذكر مواقع
الإنعام فى حق المقلد وذكر أوصاف المقلد ، والوصايا التى يجب على المقلد أن يوصى بها
المقلد ٠٠٠ « .
والتواقيع والمناشير مثلها .

أما كتب التهانى بالفتوح والبشارات بها ، فقد تفنن فيها الكتاب وأظهروا فيها غاية
الروعة فى الأسلوب ومنتهى التخير فى المعانى ، وكانت هذه الكتب تسير إلى البلاد حاملة
إلى الناس التهنة والبشارة إثر فتح من الله به على المسلمين ، وهزيمة يمنى الله بها الكافرين
الصليبيين .

وأما كتب وصف الحرب والنفير والجهاد ، فقد كان فيها لكتاب ديوان الإنشاء إجادة
أى إجادة ، حتى بدا بعضها فى وصف جيش أو أسطول قطعة أدبية جديرة بأن تحفظ على
أنها نص أدبى بالغ الإتقان .

١ - القلقشندي : صبح الأعشى : ٤٨٦/٣ .

٢ - السهاب محمود الحلبي : حسن التوسل فى صناعة التوسل : ١٠٩ - ١١٠ .

وأما الوثائق السياسية فقد كثرت في هذه الفترة لأن الأمة الإسلامية كانت متشابكة العلاقات بمن جاورها من أمم أجنبية ، فضلا عما أوجبه الحروب الصليبية من وثائق ومعاهدات وردود على تهديدات •

وسنذكر نماذج لهذه الفنون فيما بعد •

وأما الكتابة الوصفية الموضوعية ، كالتاريخ والتراجم والرحلات ووصف آلات الحرب ، والمقامات ، فلا تحتاج منها إلى تعريف بها فأسأؤها دالة عليها • أما المنامات الأدبية فهي أحلام يقص صاحبها ما يدعى أنه رآه في المنام ، وقد ينتقد في هذه المنامات ما لا يعجبه ، وكثير منهم أدعى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كذا وأوصاه بكذا •••

وكذلك الشأن في الخطابة فهي معروفة وإن كانت الحروب الصليبية في هذه الفترة قد أمدتها بموضوعات جديدة ، وفتحت لها في باب الجهاد مجالا للقول ربما لم يفتح بهذه الصورة فيما مضى من الأيام ؛ فقد كانت جيوش الكفر تغلب وتحتل الأرض وتهتك العرض ، وكان لا بد من إثارة حماس الناس ودعوتهم إلى النفير والجهاد وتجييبهم في أداء فرائض الله •

ولقد استطاعت الخطبة في هذه الفترة أن تثير النخوة وأن تحرك الناس إلى خوض غمار الحروب •

فضلا عن تلك الخطب التي قيلت عقب استعادة إحدى بلاد المسلمين من أيدي الكفار ، نعم لقد ازدهر فن الخطابة في هذه الفترة ازدهارا نستطيع أن ندرك أبعاده عندما نستحضر في أذهاننا أن المسلمين في هذه الفترة قد عاشوا قرنين من الزمان ما هدأت لهم نفوس ، ولا استراحت من عناء الحرب جيوش ، ولا شعروا بأمن وعدوهم يحتل بلادهم ، وكل ذلك من أهم العوامل التي تذكى أسباب الخطابة في نفوس الخطباء وقدهم من موضوعاتها بما لا تقدم به ظروف أخرى في فترات متطاولة من التاريخ ، ولعل النماذج الموجودة للخطب في هذه الفترة أقوى دليل على ما نقول •

ب - نماذج من موضوعات النشر في هذه الفترة

١ - من المناقب :

أدت الحروب الصليبية إلى الاهتمام بمناقب المسلمين وبخاصة الفاتحون والقادة منهم كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وخالد وغيرهم ممن خاضوا حروبا ضارية ضد أعداء الله .
واتجه الكتاب إلى أن يشيدوا بالقادة الذين واجهوا الصليبيين وانتصروا عليهم كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم ، ومما كتبوا في مناقب نور الدين ما نقله صاحب الروضتين عن ابن الأثير قال :

« حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين قال : كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو : تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو في مطالعة كتاب أناه ويحبب عنها .
وكان يصلي فيطيل الصلاة وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ويقدم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة ، فيظهر الركوب ويشغل بمهام الدولة .

قال : وإنما قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ ما يكفيها ما لها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال إلى ، فيبس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق - إن كان - من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل »^(١) .

١ - أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين .

وهناك مناقب كثيرة عن صلاح الدين رحمه الله تعالى .
كما سجلوا مناقب للمدن والقلاع والبلاد وبخاصة تلك التي حققت انتصارات على
الصليبيين .

٢ - من المثالب :

اهتم أدباء هذه الفترة بالحديث عن مثالب الصليبيين وعيوبهم ، ذلك أن مثالبهم كثيرة
حقا ، وأعمالهم المخزية المتوحشة التي مارسوها في الشرق الإسلامي لا تدع لأحد فرصة
السكوت عنهم ، فما كان يذكر الفرنجة في ذلك الوقت إلا ويقال : عليهم لعنة الله أو
يدعى عليهم بالخذلان .

تحدث أسامة بن منقذ الذي شاهد معائب الصليبيين فقال :

« ... وليس عندهم - أى الفرنج - شئ من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم
يمشى هو وامراته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف
ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع التحدث ومشى » .
وقال العباد الأصفهاني في وصفهم : « ... فظاظ غلاظ جهنميون ، كلامهم شرر ،
أنفاسهم شواظ ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا
يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ، خلق الله الخلق من طين
وخلقهم من حجارة فهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال : وقودها النار والحجارة ، وإلا
فالحجارة لا تستحق الوقود إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود » .

٣ - من المناظرات :

أدت الحروب الصليبية إلى ظهور تنافس شديد بين رجال السيف المحاربين وبين
رجال القلم المحرضين ، كل قبيل يفخر بما صنع ، كما قام تنافس بين بعض الأقاليم مثل
تفضيل مصر على الشام أو تفضيل الشام على مصر ، وسر هذا التفضيل البلاء في الحروب
الصليبية والوقوف في وجه أعداء الدين من الكفرة الصليبيين .

لجمال الدين بن نباتة المصرى فى المناظرة بين السيف والقلم :
« ٠٠٠ أما بعد : فإن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، ومجداح سبب
الخير إذا احتاجت الهمم إلى السقيا ، ومفتاح باب الثمن المجرب إذا أعيا ، وسفير الملك
المحجب ، وعذيق الملك المرجب ، وزمام أموره السائرة ، وقادمة أجنحته الطائرة ٠٠٠ به
رقم كتاب الله الذى لا يأتية الباطل ، وسنة نبيه ﷺ التى تهذب الخواطر الخواطل ،
فبينه وبين من يفاخر الكتاب والسنة ٠٠٠ » .

وقال السيف : « ٠٠٠ أما بعد : فإن السيف زند الحق الورى ، وزنده القوى ،
وحده الفارق بين الرشيد والغوى ، والنجم الهادى إلى العز وسبيله ٠٠٠ به أظهر الله
الاسلام وقد جنح خفاء ، وجلّى شخص الدين الحنيفى وقد جمع جناء ٠ وأجرى سيوفه
بالأباطح ، فأما الحق فمكث وأما الباطل فذهب جفاء وحملته اليد الشريفة النبوية ،
وخصته على الأقلام بهذه المزية ٠٠٠ »

وقد أراد ابن الوردى أن يصلح بين السيف والقلم فألف رسالة سهاها « إصلاح
الخصمين » أوضح فيها أنه لاغنى عن واحد منها بالآخر ، ولا غنى لدولة عنها معا .

٤ - من الرد على النصارى :

قال ابن القيم : « ومن بعض حقوق الله على عبده ردّ الطاعنين على كتابه ورسوله
ودينه ، ومجاهدتهم بالحجة والبيان والسيف والسنان والقلب والجنان وليس وراء ذلك حبة
خردل من الإيمان » .

لذلك ألف ابن القيم كتابه المشهور : هداية الحيارى فى الرد على اليهود والنصارى

جاء فى مقدمة الكتاب :

« ٠٠٠ وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على
عبادة الرحمن والعمل بما يحبه ويرضاه من الإخلاص فى السر والإعلان ، ومعاملة خلقه بما
أمر به من العدل والإحسان ، مع إثارة طاعته على طاعة الشيطان ، وبين دين أسس بنيانه
على شفا جرف هار ، فانهار بصاحبه فى النار ، أسس على عبادة النيران وعقد الشركة بين

الرحمن والشيطان ، أودين أسس بنيانه على عبادة الصليبان ، والصور المدهونة والسقوف والحيطان ، وأن رب العالمين نزل عن كرسى عظمتة فالتحم ببطن انشى وأقام هناك مدة من الزمان ٠٠٠ »

ثم أخذ يناقش النصارى فى دعواهم أن المسيح هو الله ، فيورد حججا قوية ويؤكد للقارىء أنه مطلع على النصرانية أحسن الاطلاع^(١) .

ولشيخ الإسلام أحمد بن تيمية كتاب فى هذا الموضوع جليل القدر عظيم النفع هو : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح^(٢) وهو كتاب ضخمة الحجم ألفه ردا على كتاب ورد من قبرص يحتج لدين النصارى .

٥ - من الأدعية والاستغاثات والمناجاة :

كانت الحروب الصليبية وما جرت من متاعب على المسلمين سببا فى انتشار الأدعية والاستغاثات والمناجاة ، واختلف الناس حينئذ فى جدواها منهم من ينكر ومنهم من يؤيد ، حتى سئل الإمام ابن تيمية فى ذلك فقل له ٠ ما رأيك فيمن يقول : لا يستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ٠٠٠ أفتونا مأجورين .

فكان رد ابن تيمية رحمه الله : « ٠٠٠ وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ، ولكن قال : لا يدعى إلا الله ، وأن الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله فلا تطلب إلا منه مثل غفران الذنوب وهداية القلوب وإنزال المطر وإثبات النبات ونحو ذلك ، فهذا مصيب فى ذلك ، بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضا »^(٣) .

وأما المناجاة فمن أشهرها مناجاة الرحمن بآى القرآن لمحي الدين بن عربى ومنها قوله : « يا مالك يوم الدين ، يا من جعل الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء

١ - ابن قيم الجوزية : هداية الحيارى : ص ٢ - ٣ ط القاهرة

٢ - طبع فى الرياض .

٣ - مجموعة الرسائل الكبرى لابن قيمية : ١/٤٧٠ - ٤٧١ ط المطبعة الشرقية بمصر .

فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ، يا من خلق لنا ما في الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليهم يا من أنزل الكتاب مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » •
وكذلك كان شأن الأذكار والأوراد •

٦ - من المواعظ :

اشتهرت المواعظ وراجت سوقها ، ولم يكن الناس بحاجة ماسة إلى الموعظة في وقت من الأوقات مثل ما كانوا بحاجة إليها في هذه الفترة فقد انتشرت بسبب هذه الحروب الضلالات وكثرت الانحرافات وساءت العادات •
ذكر الغزالي موعظة جاء فيها : « يا أيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم وانتهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل ، أو مدفون ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ، ثم يقال فلان أوصى ، ولما له أحصى ، ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك وثبت يقينك وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ، ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطق ، ثم حل بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك ، وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتنهنا بأعمالك »^(١) •

٧ - من وصف الفرنجة :

شغل بعض الأدباء بوصف الفرنجة ، فمنهم من وصف جيوشهم وحربهم ومنهم من وصف أخلاقهم وعاداتهم ومنهم من وصف نساءهم •

١ - الغزالي : إحياء علوم الدين : ٢/٢١١ ط المطبعة المصرية •

قال أبو شامة : « ٠٠٠ وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألّبوا ، وهم يسرون في الساحل بالفارس والراجل ، وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل ، وكانت الرجالة حولهم كالسور ، وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون وهم يرمون بالرنيبورك فتخرج خيول المسلمين وغيرهم ، ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشاب والعشرة مغرورة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، وثمّ قسم آخر من الرجالة مستريح يمضون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم العَمَل ، هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة لا غير ٠٠٠ » (١) .

ووصف العماد الأصفهاني بعض نساء الصليبيين وما كن يبذلنه في سبيل هذه الحرب من نفس ونفيس ، فقال :
« ٠٠٠ ووصلت أيضا في البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر ، وهي في بلدها مالكة الأمر ، وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلانهم وأشياهم وهي كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المتونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة ، وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها » (٢) .

٨ - ومن تاريخ تلك الفترة :

تاريخ تلك الفترة سجل في عشرات الكتب ، بل إن تاريخ تلك الفترة جر إلى تاريخ ما قبله حتى آدم عليه السلام ، فقد وصلت إلينا مؤلفات تاريخية لمؤلفين من هذه الفترة ، تعد حتى الآن من أجمع كتب التاريخ وأشملها .

١ - أبو شامة : الروضتين : ١٩٠/٣ .

٢ - العماد الأصفهاني : الفتح القس في الفتح القدسي : ٢٣٠ ط ليون .

فمن الكتب العامة التي ذكرت هذه الفترة :

الكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ دول الإسلام للذهبي ،
وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والمختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء ، وعيون التواريخ
لابن شاكر الحلبي ، والتبر المسبوك في تواريخ الملوك للملك عماد الدين الأيوبي .
وأما الكتب الخاصة بهذه الفترة أو بأشهر ملوكها وقادتها فهي كثيرة منها :

كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة والنوادر السلطانية
لابن شداد ، والفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني ، وسيرة صلاح الدين
لابن مماتي ، وسيرة الظاهر بيبرس لابن عبد الظاهر ، وسيرة الأشرف خليل لشافعي بن
على والبرق الشامي للعماد الأصفهاني وخطبة البارقي وعطفة الشارقي للعماد أيضا .

وغير ذلك مما سنذكره في مصادر البحث ومراجعته .

ومن الملاحظ أن بعض هذه الكتب أو كثيرا منها جاء بلغة مسجوعة ككتاب العماد :

الفتح القسي في الفتح القدسي . . وغيره .

٩ - ومن التقاليد والتواقيع :

جاء في تقليد كتبه الشهاب محمود لسلامس بمملكة الروم حين ورد كتابه قبل
حضوره ، قوله بعد خطبة التقليد : « وليعلم أن جيوشنا في المسير إليه متى قصد عدوا
سأبقت خيولنا خيالها ، وجارت جيادنا ظلالها ، وأبت سنابكها أن تجعل غير جماجم
الأعداء نعالها ، وهامى قد تقدمت وأقدمت ونهضت لانجاده ، فلو سامها أن تخوض البحار
في سبيل الله لخاضت أو تصدم الجبال لصدمت » (١) .

١٠ - ومن التهاني بالفتوح :

جاء في كتاب صلاح الدين إلى الخليفة الإمام الناصر لدين الله بإنشاء العماد قوله بعد
خطبة الكتاب وذكر الفتوح التي أفاءها الله على المسلمين : « وتلك سبع ليالٍ

١ - الشهاب محمود : حسن التوسل . ص ١١٤ .

وثانية أيام حسوما ، سخرها الله على الكفار فترى فيها القوم صرحى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية ، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة ، وكانت من الكفر باكية ٠٠ » ثم قال : وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصليبوت مأسور وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذى كان فى يد الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديدا مسلحا يعوق خطوات الكفر عن الإقدام ٠٠ « (١) .

١١ - ومن وصف الحرب والجهاد :

قال ابن الأثير : « وأقبلت أحزاب الكفر وهى معتصمة بصليبيها ، ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطيبيها ، ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك المرامة وأنه ذو شعب أربع والتربيع نحس فى حكم النجامة ، وكيف ترجو بكفرها ظهورها ولها منه معنى الاختفاء وللإسلام معنى السلام ٠٠ « (٢) .

ووصف القاضى الفاضل فتح بيت المقدس فقال :

« ٠٠٠ فنصبنا عليها المنجنيقات تمطر سماءها نيل الوبال ، وتقلأ أرضها بالنكاية والنكال ، وتهد بساريات حجارته راسيات الجبال ، وتنزل نوازل الأسواء بالأسوار ، وتوسع مجال الدوائر فى الديار ، وتخطف بخطافات أعمار الأغمار ، وتطير حمامها بكتب الحمام ، وتديم إغمد سهامها فى أهلها بتوفير سهام الإرغام ، وكشف النقابون نقاب السور المحجوب فتهدم بنيانه ، وتداعت أركانه بتظاهر المنجنيقات عليها والنقابين » .

١٢ - ومن المقامات فى تلك الفترة :

قال الشهاب محمود الحلبي فى وصف حصن - فى أسلوب مقامة :
« قد تفرط بالنجوم ، وتفرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله فى التخوم ،

١ - ابن واصل : مفرج الكروب : ٢٠٢/٢ ، ٢٠٥ .

٢ - ابن الأثير : المثل السائر : ٩١/١ .

تختال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ، ويظن من ساء إلى السها أنه في ذبالة
سراجة ، لا يعلوه من مسمى الطير غير نسر الفلك ومرزمه ، ولا يروق متبرجات بوجه غير
عين شمس ، والمقل التي تطرف من أنجمه ، وحوله من الجبال كل شامخ ، تتهيب عقاب
الجو قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى إذا توقلت في مصابه ، وتخاف العيون إذا رمقته
سلوك ما دونه من المحاجر ، ويتخيل الفكر صورة الترقى إليه ، ثم لا يبلغها حتى تبلغ
القلوب الحناجر وحوله من الأودية خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأنصافها ولا تعرف فيه
ولا تعرف فيه الأهلة إلا بأوصافها «^(١)» .

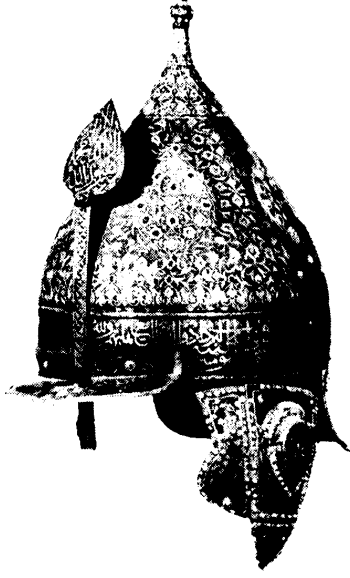
١٣ - ومن الخطب في هذه الفترة :

خطبة لمحيى الدين بن زكى قاضى دمشق وأشهر خطبائها ، ألقاها بعد فتح بيت
المقدس بحضور صلاح الدين الأيوبي في أول يوم جمعة بعد الفتح العظيم ٥٠٠ جاء فيها :
« قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذى خلق السموات
والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ٥٥٥ » وظل في تحميدات
إلى أن قال : « الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ،
ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ٥٥٥ »

أحمد على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيت المقدس
من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ٥٥٥
إلى أن قال : الله أكبر ، فتح الله ونصر وغلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر ، واعلموا
رحمكم الله - أن هذه فرصة فانتهزوها وفريسة ففانجزوها ومهمة فأخرجوا إليها همكم
وأبرزوها ، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها فالأمور بأواخرها ، والمكاسب
بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخدول ، وهم مثلكم أودون ، فكيف وقد أضحى
في قبالة الواحد منهم منكم عشرون ، وقد قال تعالى : « إن يكن منكم عشرون صابرون
يغلبوا مائتين » .

١ - الشهاد محمود الحلبى : حسن التوسل : ١٠١

ثم ختمها بقوله : « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن
أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين »^(١) .
وهي من أطول الخطب وأقواها ، ومن أراد أن يقرأها كاملة فليعد إليها في الروضتين أو
مفرج الكروب ، فهي جديرة بأن تقرأ حقاً .
وبعد : فأرجو أن أكون قد بلغت بذكر هذه النماذج ما أردت من الحديث عن
موضوعات النشر وفنونه التي تأثرت بالحروب الصليبية وعبرت عنها أصدق تعبير .



١ - ابن واصل : مفرج الكروب : ٢١٨/٢ - ٢٢٨ . والروضتين : ١١٠/٢ - ١١٨ .

ج - من كتاب فترة الحروب الصليبية

ضياء الدين بن الأثير

٥٥٨ - ٦٣٧ هـ

أولا : نسبه ونشأته :

هو : أبو الفتح ، ضياء الدين ، نصر الدين ، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الحاراني المعروف بابن الأثير الكاتب .
ولد يوم الخميس العشرين من شهر شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في جزيرة ابن عمر الواقعة أقصى الشمال الشرقي من بلاد الشام وعلى الشاطئ الغربي لدجلة ؛ ولذلك لقب بالجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر .

وهو أصغر أبناء الأثير الثلاثة بعد المبارك وعلى ، قضى طفولته في هذه الجزيرة ، ثم انتقل إلى الموصل ونشأ فيها ، وتلقى علومه الأولى بها ، وقد حفظ القرآن الكريم ، وسمع الحديث الشريف وحفظ منه ، وقد قال عن نفسه : « وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال ، ومازلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهى مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على ناظري وخاطري مايزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظا لايشذ عنى منه شيء »^(١)

ولقد نال حظا من اللغة والنحو والبيان ، وحفظ كثيرا من الشعر ، وقال هو عن نفسه : « ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفذت شطرا من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تُخص أساءة قائله ، فعند ذلك اقتضرت منه على ماكثر فوائده وتنشعب مقاصده »^(٢)

١ - ابن الأثير : الملل السائر : ١/ ١٢٨ .

٢ - السابق : ٢/ ٣٦٨ .

وفي اللغة قرأ لأبي على الفارسي كما قرأ الخصائص لابن جني والأمثال للميداني ،
وفي الأدب قرأ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ومقامات الحريري ، وديوان الحماسة
لأبي تمام يقول عن نفسه : « حفظت من الأشعار القديمة والمحدثه مالا أحصيه كثرة ثم
اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن أوس وأبي عبادة البحتري وشعر أبي
الطيب المتنبي فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها الدرس مدة سنين حتى
تمكنت من صوغ المعاني وصار الإدمان لي خلقا وطبعاً »^(١)

ومن الجدير بالذكر أن والده كان ذا جاه ومنصب ومال ، فقد كان يعمل لدى أتابكة
الموصل وبخاصة بيت قطب الدين ، وعمل أولاده في خدمة هذا البيت أيضا .
وضياء الدين أصغر أخويه الذين نالا شهرة وجاها وهما : مجد الدين الأكبر المحدث
المعروف والمولود سنة ٥٤٤ هـ وعز الدين المؤرخ الذي ولد سنة ٥٥٥ هـ .
وقد قضى ضياء الدين طفولته وشبابه في الموصل حيث حصل علومه وأعد نفسه لتولى
الأعمال ، ولم يرحل الموصل إلا وهو في سن التاسعة والعشرين ، حيث ذهب إلى الشام
وهناك وافاه حظه وأضحى له من الجاه والمكانة ماله .
تلك صورة مجملة عن نشأة ضياء الدين وأسرته أردت أن تكون موجزة دالة ، ولعلها
كذلك بإذن الله تعالى .

وليس في نشأة ضياء الدين ما يلفت الانتباه أو يستحق أن يؤخذ بعين الدهشة
والإعجاب ، فهو قد نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء الأسر ذات الجاه والمال وتتقف ثقافة
عصر ، لم يشذ عن أمثاله في لون من الثقافة يتفرد به .

ثانيا : أطوار حياته الأدبية

مرت حياة ضياء في طورين كان لهما في مكانته أبلغ تأثير وهما :

- ١ - طور ذهابه إلى الشام سنة سبع وثمانين وخمسمائه .
- ٢ - وطور اتصاله بالملك الأفضل وماجره على الملك من متاعب .

١ - السابق : ٢٦٩/٢ .

وهناك طور ثالث بعد أن ترك الأفضل وحاول الاتصال بالظاهر ثم استقر به المقام في الموصل منشئه ومرباه والتي تنقل منها إلى بغداد وإربل وسنجار وهي فترة استمرت تسعة عشر عاما .

١ - الطور الأول من أطوار حياته الأدبية

وهو الطور الذي رحل فيه عن الموصل متجها إلى الشام ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وذلك - كما يذكر ابن خلكان - أنه لدى وصوله إلى دمشق اتصل أولا بالقاضي الفاضل - وكان القاضي الفاضل سمحا يعطف على الأدباء والعلماء ويقربهم ويعمل في نفعهم .

ويذكر ابن خلكان أن القاضي الفاضل قدم ضياء الدين بن الأثير للسلطان صلاح الدين في شهر جمادى الآخرة من سنة سبع وثمانين وخمسةائة وهي نفس السنة التي وصل فيها ضياء الدين إلى دمشق ، وكان السلطان إذ ذاك مستجما في بيت المقدس شتاء وقد سرح جنده في إجازة استجمام ، وكان ابنه الأفضل في دمشق ، فسمح السلطان بالتحاق ضياء الدين بخدمة ابنه الأفضل على ، وأعجب الأفضل بالأديب الشاب ورغب إليه أن يلازمه ، فاستأذن أباه في ذلك ، فبعث السلطان إلى ضياء الدين يخيره بين البقاء في خدمة السلطان أو اللحاق بابنه الأفضل ، فاختر ضياء الدين أن يلازم الأفضل ، ولحق به في شهر شوال من سنة ٥٨٧ هـ .

وظل ضياء الدين في صحبة الأفضل ، وفي بداية عام ٥٨٨ هـ خرج مع الأفضل حيث كانت جيوش السلطان تتجمع من جديد متربصة بجيوش الصليبيين الذين كانوا متحفرين على الساحل قرب يافا وغيرها من الثغور . ويذكر ضياء الدين أنه كان بأرض فلسطين : قبالة العدو الكافر من الفرنج - لعنهم الله - وتقابل الفريقان على مدينة يافا عام ثمان وثمانين وخمسةائة ، ^(١) ولكن لم يحرز أى من

١ - السابق : ٥٥/١ .

الفريقين نصرا حاسما على الآخر ، فتوقفا عن القتال ، وعقدت الهدنة ، وعاد السلطان وولده الأفضل وكبار رجال الدولة كالقاضي الفاضل والعماد الأصفهاني والقاضي ابن شداد ، وضياء الدين بن الأثير ، عادوا جميعا إلى دمشق .

استمرت علاقة ضياء الدين بالأفضل منذ قدومه على الشام سنة ٥٨٧ هـ إلى سنة ٥٨٩ هـ حيث لحق صلاح الدين بربه ، وتولى بعده ابنه الملك الأفضل مخدوم ضياء الدين .

وهي فترة قصيرة نسبيا في عمر ضياء الدين ولكنها هامة إذ فيها استطاع ضياء الدين أن يكون بالنسبة للأفضل وزيره ومستشاره وجليسه وأثيره فعلا ، وركن إليه الأفضل - وهو أمير - واطمأن إلى تدبيره وأعجب به وقدمه على كل من يحيطون به .

ب - طور عمله مع الملك الأفضل .

عندما تولى الملك الأفضل بعد أبيه صلاح الدين ملك دمشق فآلت الأمور كلها إلى ضياء الدين فاستقل بالوزارة وأصبح بيده الأمر والنهي ، وذلك أن الملك الأفضل كان شابا قليل التجربة فيه من غرور الشباب وتسرعه شيئا كثيرا ، بل كان - على ما تذكر بعض كتب التاريخ - مضطربا تنتابه من حين لآخر حالات اكتئاب فيبكي ، ويكون في بعض الأحيان في غاية القسوة ، وربما استبد به الوجد فتصوف وغالى في العبادة ، وكان كثيرا ما يترك الأمور كلها بيد ضياء الدين .

وقد أفاد ضياء الدين من ذلك فاستبد بأمور الدولة بعد أن أصبح الأفضل زاهدا منقطعا إلى العبادة يقرأ القرآن وينسخه بخطه .

غير أن الملك الأفضل أخذ يعتسف في سياسته مع الناس ، ويتصرف تصرفا يتصف بالتسرع الذي يصل إلى حد الحمق أحيانا ، فيسى إلى رجال الدولة ، بل يسي إلى كثير من الناس ، والمؤرخون يكادون يجمعون على أن هذه التصرفات كانت بتأثير ضياء الدين وإيحائه ، وربما كانت بسبب ما كان يعانيه الأفضل من اضطراب نفسى .

يقول ابن كثير : وكان الأفضل بعد وفاة أبيه قد أساء التدبير ، فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب ، وأقبل على اللعب . . . واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، وهو الذى كان يحذره إلى ذلك فتلف وأتلفه ، وضل وأضله وزالت النعمة عنها .^(١)

وقال العماد الأصفهاني « ووزير الجزرى قد بلى الناس منه ببلايا وهو في غفلة عن تلك القضايا ، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه ، وأنهم يميلون إلى أخيه ، فيصدقه الأفضل فيما يدعى ، فصار يبلغ العادل عنه أحوالاً ماتعجه ، بل تغضبه ، وصار يتصل به كل من هاجمه من الشام إلى مصر ومانهم إلا من يشكو الوزير الجزرى »^(٢) وقد سخط الناس على ضياء الدين وسياسته حتى قال فيه الشهاب فتيان الشاغورى ، يتمنى قلعه من الوزارة :

متى أرى وزيركم وماله من وَّزْر؟
يقلعه الله فذا أذان قلع الجزر(ى)

وأيا ماكانت درجة الحق في أقوال المؤرخين في ضياء الدين ، فإنه على الرغم من أننا سوف نتهم المؤرخين - جدلاً - فإننا نأخذ عليه أنه لم يكن الناصح الأمين للملكه الذى كان في هذه الظروف النفسية والعصبية ولو نصحه - وهو المصدق لديه - لاستجاب .

وما يعنيننا أن نقره الآن أن وزارة ضياء الدين للأفضل وسياسة الرجلين معا قد جرت عليهما النكال والوبال ؛ فقد تجمع كارهو الأفضل ووزيره في القاهرة عند العزيز أخى الأفضل ، وبدأت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل وزين الأمراء للعزيز أن يستبد بالملك دون الأفضل وبرروا تزيينهم بسوء سياسة الأفضل وفساد تدبيره وسخط الناس عليه .

١ - ابن كثير : البداية والنهاية : ٩/١٣ .

٢ - أبوشامة : الروضتين ١٣٠/٢ .

وخرج العزيز من مصر قاصداً الشام للاستيلاء عليها من أخيه فهاجمه سنة ٥٩٢ هـ واستعان عليه بعمه العادل وقال له : تكون دمشق لك وتكون الخطبة والدعاء لى ، وفعلا استوليا على دمشق وطردا الأفضل إلى صرخد وهم الأمراء يقتل ضياء الدين ولكن حاجبه أخرجه مخفياً في صندوق .

ولما هدأت الأمور استدعى الأفضل إلى القاهرة ليلى نيابة ابن أخيه الملك المنصور فذهب إليها وقد اصطحب وزيره ضياء الدين ، ولما جاء العادل إلى مصر أخرج منها الأفضل وعوضه الديار الشرقية ، وخرج ضياء الدين مستخفياً مرة ثانية اتقاء لغضب الناس وظل يحتال حتى وصل إلى الأفضل في سميساط وظل معه حتى فارقه - بعد اختلاف - سنة ٦٠٧ هـ ، وكان ذلك آخر العهد بالملك الأفضل .

ج - طور اتصاله بالظاهر غازى ملك حلب ثم استقراره بالموصل

لما ترك ضياء الدين الملك الأفضل اتصل بالظاهر غازى ملك حلب غير أن اللقاء بينهما لم يكن ودياً ولم يكن على الصورة التى يرغب فيها ضياء الدين لأن الظاهر كان يحذر ضياء الدين ويحذر أثر كراهية الناس له على ملكه ، لذلك لم تصف الحياة لضياء الدين فى حلب ، فعزم على الرحيل عنها إلى موطنه « الموصل » والتحق هناك بخدمة أميرها مسعود الثانى فى أولى سنوات حكمه من (٦٠٧ هـ إلى ٦١٥ هـ) .

وأخذ ضياء الدين يتنقل بين الموصل وبغداد وسنجار وكان بين البلاد الثلاثة عداً ونزاع انتهى بتحالف إربل مع الموصل ، وكان أمير الموصل إذ ذاك ناصر الدين محمود وكان طفلاً يقوم على دولته أتابكه بدر الدين لؤلؤ ، وقد لزم ضياء الدين بلاط ناصر الدين محمود وخدم أتابكة لؤلؤا وكتب له الإنشاء .

وظل ضياء الدين فى الموصل تسعة عشر عاماً وهى آخر فترات عمره ، وقد كانت أحفل فترات حياته فى التأليف والقراءة والتعليم ، إذ كان يدرس كتابه : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، كما درّس كتب أخيه مجد الدين المبارك .

وقد تمنى ابن خلكان أن يتلقى على ضياء الدين شيئا ولكنه لم يوفق في ذلك .^(١)
ثم آذنت حياة الرجل بالانتهاء ، فلقى ربه في سنة سبع وثلاثين وستائة وقد بلغ عمره
ثلاثين عاما ، تاركا وراءه ثروة علمية أدبية تستحق التقدير .

ثالثا : نماذج من نثره :

نحاول في هذا الجزء من البحث أن نذكر لضيء الدين نماذج من نثره في مجالات
ثلاثة : مجال نثره الديواني ومجال نثره الذاتي ومجال نثره في التأليف .
أما نثره الديواني فمنه تقليد للسلطان صلاح الدين من الخليفة المستضيء وهذا
التقليد قصة ، فقد كان كتبه الصابى أولا ثم عرض على ابن الأثير فوجد فيه - على حد
قوله - كلاما نازلا بالمرء ، وسأله بعض إخوانه بمدينة دمشق أن يعارضه بتقليد في معناه ،
فأنشأ تقليدا معارضا ومتحديا جاء فيه :

« وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمينية غورا ونجدا ، وما اشتملت عليه
رعية وجندا ، وما انتهت إليه أطرافها برا وبحرا ، وما يستنقذ من مجاورها مسالمة وقهرا ،
وأضاف إليها بلاد الشام ، وما تحتويه من المدن الممدنة والمراكب المحصنة »^(٢)

والنثر الديواني عنده جم كثير ويلاحظ عليه تغلب السجع والمحسنات البديعية ،
ولابن الأثير في المحسنات البديعية رأى يلتمس في كتابه : المثل السائر وهو جدير بالتأمل
والمناقشة .

ومن نثره في ذم المشيب قوله :

« والعيش كل العيش في سن الحداثة ، وما يأتى بعدها فلا يدعى إلا بسن الفتاة ،
وليس بعد الأربعين من مصيف للذة ولا مربع وهى القوة الصالحة من الطبايع الأربع ،
فإذا تجاوزها المرء أشفت ثمار عمره على خرصها ، وصارت زيادته كزيادة التصغير التى هى

١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢٦/٦ .

٢ - ابن الأثير : المثل السائر : ٢٣٠/١ .

زيادة تدل على نقصها ، وأصبح بعد ذلك يدعى أباً بعد أن كان يدعى ابناً ، وتقص ثوبا من المشيب لايحرقه خيلاء ، ولا يزهى به حسنا .

وإن قيل : إن أحسن الثياب شعار البياض ، قيل إلا هذا الثوب فانه مستثنى ، ويكفيه من الفطاعة أن ينظر الأحباب إليه نظر القتال ، ولولا أن الحمد بعده لما استعير له لفظ الاشتعال ٠٠ « (١)

ومن ثره في فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين قوله :

« لو جمعت العصور كلها في صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فائرا ، وفاز بسبق أوائلها وإن جاء آخرها ٠٠٠

ومن أحسن ما فعل أنه آس قبلته الثانية بقبلته الأولى ، وأطال منه كل ما قصرته يد الكفر وكانت هي الطولى ٠٠

وكانت وجوه المؤمنين في هذا المقام أحظى بلباس الإشراف وأتم أهدرا والبدور لا يكون تمامها في المحاق ، فما منهم إلا من عرض نفسه ليوم العرض ، ومشى إلى جنة عرضها السموات والأرض ٠٠

ولما رأى الكفار أن زفيرهم قد انقلب خوارا ، أذعن أيديهم باستسلامها وصانت بالمال عن الرقاب واسترقاقها ، وبالبلد عن النفوس وحماتها ، فأبى السيف أن يترك رقابا تغذى بأكلها ٠٠ «

ومن ثره التأليف ما جاء في مفتتح كتابه : المثل السائر بعد حمد الله والثناء عليه قوله : وبعد : فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتباً وجلبوا ذهباً وحطبا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غته وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب « الموازنة » لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدى ، وكتاب « سر الفصاحة » لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا وأجدى محصولا ، وكتاب سر التفصاحة وإن

١ - السابق : ١٣٩/١ طهضة مصر ١٣٧٩ هـ .

نبه فيه على نكتب منيرة ، فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره ، ومن الكلام في مواضع شذ عنه الصواب فيها ، وسيرد بيان ذلك كله من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى » .^(١)

رابعاً : إنتاجه الأدبي

أهم إنتاج ضياء الدين بن الأثير إنتاج أدبي ، فقد ترك في هذا المجال عدداً من الكتب الجيدة - على الرغم من مشاغله العديدة في ديوان الإنشاء والوزارة والعمل في بلاط عدد من الملوك .

ومن أبرز هذا الإنتاج كما عدد ذلك ابن خلكان :

١ - « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » - « وهو في مجلدين جمع فيه فأوعى ،

ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره .

ولما فرغ من تصنيفه ، كتبه الناس عنه فوصل إلى بغداد منه نسخة وقد طبع هذا

الكتاب مراراً في القاهرة .

٢ - « الوشى المرقوم في حل المنظوم » وهو مع جازته في غاية الحسن والإفادة ، وهو

مطبوع كذلك .

٣ - « الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور » وهو مطبوع كذلك .

٤ - « البرهان في علم البيان » مخطوط .

٥ - « ديوان الترسل » وهو في عدة مجلدات والمختار منه في مجلد واحد . مخطوط .

٦ - « المعاني المختصرة في صناعة الإنشاء » مخطوط .

٧ - له مجموع اختيار ، اختار فيه من شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي وذيك الجن ،

وهو مجلد واحد كبير .

وله رسائل ومكاتبات ديوانية كثيرة قال عنها ابن خلكان : تقع في عدة مجلدات^(٢) .

١ - السابق : ٢٥/١ - ٢٦ .

٢ - ابن خلكان : وفیات الأعان : ١٥٩/٢ .

محيى الدين بن عبد الظاهر

٦٢٠ هـ - ٦٩٢ هـ

أولاً : نسبه ونشأته :

هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجدة الجذامى المصرى مولداً ووفاة .

ولد فى مدينة القاهرة فى شهر المحرم من سنة عشرين وستائة ونشأ فى القاهرة وتلقى على شيوخها علومه فى المساجد ، ولكنه برع فى الفقه والأدب ، وكان تلميذاً على كتب القاضى الفاضل ، وكان شديد الإعجاب بطريقته فى الكتابة ، حتى تعصب له ولطريقته وجمع له عدداً من الرسائل سماها الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، وما يدلنا على مدى إعجاب ابن عبد الظاهر بالقاضى الفاضل قوله فى مقدمة « الدر النظيم » أما بعد لقد جمعت فى هذا الكتاب من رسائل القاضى الأجلّ الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله ما ينتفع به المبتدى ويتذكر به المنتهى والخير أردت وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت .

وعاش ابن عبد الظاهر ولماً للطريقة الفاضلية فى الكتابة ، حتى برع فى فن النثر براعة أطلقت فى مدحه ألسنة العلماء قال النويرى :

« كان رحمه الله من أجل كتاب العصر وفضلاء المصر ، وأكابر أعيان الدول والذى افتخر بوجوده أبناء عصره الأول ، له من النظم الفائق مارق صناعة وحسناً ومن النثر الرائق مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ورسائله بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه فى البلاغة أسهل طريق وفى الفصاحة أوضح محجة »^(١)

١ - النويرى : نهاية الادب : ١٠١/٨ ط دار الكتب المصرية .

وقد عكف على دراسة الشعر فحفظ كثيرا منه ثم نظمه ، فجاء شعره في المرتبة الثانية بعد نثره .

وكانت ثقافته التاريخية موضع إعجاب الدارسين له ، حتى اعتمد عليه المقرئ في خططه ، وهو مؤرخ ممن اهتموا بسير الملوك والبلاد ، وله في كل مجال منها إنتاج جيد .
بدأ عمله في ديوان الرسائل وظل يتدرج فيه حتى تولى رئاسة الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس ، وكان أول من تولى منصب « صاحب ديوان الإنشاء » وكان أول من تولى كتابة السر لسلطين المماليك ، فهو الذى يشير على السلطان فى الرسائل والمراسيم ويتلقى عنه المرسوم شفاهاً لصوغه بعبارة ثم يوقع السلطان عليه بخاتمه .

ثانيا : أطوار حياته الأدبية

لم نستطع أن نفصل هذه الأطوار من الناحية الزمنية ، وإنما استطعنا أن نتعرف له على أعمال ثلاثة ربما تمثل أطوار حياته الأدبية .
تلك الأطوار هى :

١ - طور عمله فى ديوان الإنشاء .

٢ - طور عمله فى القضاء .

٣ - طور عمله فى التأليف .

أما عمله فى ديوان الإنشاء فقد أفاد منه وأفاد فيه ، حتى عد فيه علما من أعلامه وإماما من أئمة قال عنه ابن كثير : آخر من برز فى هذا الفن على أهل زمانه وسبق سائر أقرانه ^(١)

وكان ابن عبد الظاهر صاحب مذهب فى الكتابة الديوانية يأتسى فيه بمذهب القاضى الفاضل ويتبع طريقته ، فالتمز السجع واتبع المحسنات البديعية ، وأكثر من التورية .
وفى الحق إن محمى الدين بن عبد الظاهر قد وضع كثيرا من صيغ الكتابة الرسمية ، التى ظل الكتاب محافظين عليها طوال مدة عصر المماليك وفترة من عصر العثمانيين .

١ - ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٤/١٣ .

وأما عمله في القضاء ، فلعله أخذه عن أبيه القاضي محيي الدين ، ولم نعرف من أخباره في القضاء ما يفيدنا فيما نحن بصدده ، وإنما كان عمله ذلك دليلا على أن عمله في الديوان أهم وأصل وألصق بمواهبه الفنية والأدبية .
أما عمله في التأليف فهو بحق أبرز أعماله وهو طور النضج من أطوار حياته ، وسوف نتحدث بالتفصيل عما وصل إلينا نبأه من مؤلفاته بعد أن نذكر طرفا من نماذج نثره .

ثالثا : نماذج من نثره :

من رسالته الشهيرة برسالة ابن عبد الظاهر ، مخطوطة في ست ورقات وهي رد على شخص تنقصه وذمه ، وقد جاء فيها :

« بلغني أعزك الله ولا برحت رحيب فناء الفخر ، قشيب ملابس العمر ، يانع ثمر الشكر ، مفعم حياض البر ، أن فلانا غضّ منى كل غض الجنى ، وأنه عبث بى عبث الأيام بالمنى ، وأنه ردنى إلى أرذل العمر في الاطراح ، وغلق في وجه تنجسى أبواب النجاح ، وزعم أن إناء أناى غير مفعم ، وبناء مجدى غير محكم ، وجواد إجادتى غير ملجم ، وأن ميلاد مجدى حديث ، وسبب سعدى رثيث ، وأن جوارح إجادتى جريجة ، وقرائح ارتجالى قريجة ، وأن صدور المجالس تنكر أقدامى ، وبطون الطروس لا تلقح بوطه أقلامى ، وأنى لا أعد في جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لأدخل معهم في باب . »

وإذا أتتكم مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنسى كامل
ومن نثره في وقعة حصن المرقب الذى خلصه المنصور قلاوون من الصليبيين يقول :
« وهو حصن عظيم منيع مازال مولانا السلطان الملك المنصور - نصره الله - يدأب في أمره ويتحيل في تحصيله للإسلام ويستفيد الرأى والتدبير في افتتاحه ، وإصحاب جماعه ، لأنه كان أعجز الملوك ، ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه فكيف النزول عليه ، واجتهد الملك الظاهر في الإغارة عليه مرارا فما قدر الله ذلك ولا سهله ، ولا عجله ، وتوجه إليه مرة

من حماة فصادفته ثلوج وبرد وأمطار وحجبتة عنه ، وحجزته المضايق والأوعار ، ومرة من غير حماة ولم يحصل له منه قصد بالجملة الكافية ، وخبأه الله لمولانا السلطان ، ليكون من فتوحاته المثيرة ، ولتطرز به أحسن سيره .

وكان بيت الاستتار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فسادهم ، حتى بقيت أهل البلاد المجاورة لهم كأنهم في حبس بل في رفس ، وكان الفرنج يعتقدون أنه لا يدرك بحول ولا حيلة ، وأن الحيلة فيه قليلة واستمروا على هذا الطغيان ، ولم يقفوا عند الإيمان ، وعملوا في نوبة القليعات كل قبيح من العذر والأسر والنهب ، ومولانا السلطان المنصور رابض لهم كالأسد المصور ، وهو يهتم بأمر هذا الحصن من غير إظهار ، وكلما أوقدوا نارا للحرب أمدته من الهداية الربانية الأنوار . . . وطلع مولانا السلطان يوم السبت ، واجتمع الأمراء الأكابر في خدمته ، وضرب مشورة بين يديه في هدم القلعة أو إبقائها ، فمنهم من أشار بهذا ومنهم من أشار بهذا ، ورأى مولانا السلطان يتقد نوره نفاذا ، فرأى إبقائها لخصائنها ومنعتها ، وتحسينها وتزيينها وصمم على إبقائها حسرة في قلوب الكفار ، وعضدا للحصون التي لها عليها حق الجوار»^(١)

ومن ثمره الذي استغل فيه علمه بالنحو ، فجاءت طريقة خفيفة حيث قال : « حرس الله نعمة مولاي ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ، ومناذى جوده لا يرخم وأحمد عيشه لا ينصرف ، ولا عدم مستوصل الرزق من براعته التنى لا تنف الوصل ، ولا عدمت نحاة الجود في نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود ، ولا خاطبت الأيام ملتسمه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود ، هذه المفاوضة إليه أعزه الله ، تفهمه أنا بلفنا أن فلانا أضمر سيدنا له فعلا غدا به منتصبا للمكاييد ومعتلا ، وليس موصولا كالذى بصله وعائد ، وماذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير وقدرها من الاحتمالات أسوأ التقدير ، ونعوت صحبته تكررت فجاز قطعها بسبب ذلك التكرير .

١ - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والدهور في سيرة الملك المنصور ص ٨٠ .

وسيدنا يعلم بالعلمية المدكون من الإنافة ، وما الإضافة إلى جلالته من الانتهاء الذى
يجب أن يكون لأجله عيشه به خفضا على الإضافة •
وكان الظن أن الأشغال التى جمعت له لاتكون جمع تكسير بل جمع سلامة ، وآية
لاتكلف تعليما على وصول لأنه فى الديوان كالحرف لايجبر به ولا عنه ، والحرف ليست له
علامة •

وحاشى لله أن يصبح معرب إحسانه مبينا ، وأن نزيل كرمه يكون للنكرات بأى
محكما ، أو أن يأتى سيدنا بالماضى من الأفعال فى معنى الاستقبال أو أن لايجعل لمبتدأ محبته
مخبرا ، أو أن لا يكون له من أبنيته تدبير سيدنا مصدرا •
ولا يرح سيدنا نسيح وحده فى أموره ، ولا زال حلمه يتناسى الهفوات لا يشتغل مفعوله
عن فعله بضميره «^(١)»

ولنا أن نلحظ على هذه الرسالة أنها تكاد تكون قد جمعت من مصطلحات النحو
ملازميد عليه لراغب فى الاقتباس من هذه المصطلحات ، ولنا كذلك أن ندرك أن فى
بعض هذه الاستعانات بمصطلحات النحو تكلف يجعل المصطلح النحوى فى بعض
الأحيان كأنه مقصود لذاته •

فضلا عما يحفل به أسلوبه من سجع ومحسنات بديعية تنحو نحو الطريقة الفاضلية
وتقفوا فى طول الجمل وقصرها أثرها •

رابعا : إنتاجه الأدبى :

لعل أهم إنتاج ابن عبد الظاهر كان فى التاريخ ، فقد اهتم بأن يؤرخ للسلطين
الذين وزر لهم وكتب لهم فى ديوان الإنشاء وهم :

• الظاهر بيبرس

• والمنصور قلاوون

• الأشرف خليل بن قلاوون

الفلقشندي : صبح الأعشى • ١٧٦/١ - ١٧٧ ط دار الكتب المصرية •

فقد كتب تاريخ هؤلاء الثلاثة الذين خدمهم ، ويقال إن المقرئى أفاد كثيرا من ذلك التاريخ واعتمد عليه واستشهد ببعض ما جاء فيه ، وهو بصدد الكتابة عن تاريخ هؤلاء الثلاثة .

ومؤلفات ابن عبد الظاهر فيما استطعنا أن نحصل عليه من مراجع هي :
١ - سيرة الظاهر بيبرس وهي منظومة شعرية أرخ فيها للسلطان الظاهر بيبرس ولم أطلع عليها .

وقد نثرها : شافع بن على بن عباس العسقلانى ، بأمر من محبى الدين بن عبد الظاهر نفسه .

ولكى نتعرف على محتويات تلك السيرة نستمع إلى قول شافع بن على فيها : « وكان كاتب سره البليغ محبى الدين بن عبد الظاهر - قد افتتح أيامه بنظم سيرة ، رتل منها محاسنه صورة صورة ، وأرخ وقايحه فى صحايف حسناته مسطورة ، فأطال وأطاب ، وخطب بأمتع خطاب وأتى على مجموع أيامه يوما يوما ، لكن اقتضى الحال أن يشبث منها الغث والسمين ، وأن يكرر ما يشافه به سمع سلطانه من إطرء وإن كان فيه صادقا لايين ٠٠ » (١)

٢ - الألفاظ الخفية فى سيرة الملك الأشرف خليل بن قلاوون مطبوع .

٣ - الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة .

وقد أفاد منه المقرئى فى خطظه ، وإن كان ضائعا حتى الآن فيما قرأت . أما سائر

كتبه فهى :

٤ - رسالة ابن عبد الظاهر .

٥ - الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم .

٦ - تمانم الحمانم .

٧ - رسالة فى الخيل .

١ - المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ورقة ١٤ - لابن شافع .

٨ - النجوم الدرية في الشعراء المصرية •

٩ - مقامة في مصر والنيل •

١٠ - ديوان شعر منه نسخة خطية بمكتبة الجامعة الأزهرية •

وبعد فذاك إنتاج القاضى ابن عبد الظاهر الذى توفى فى القاهرة سنة ٦٩٢ هـ •
ولعلى بذلك أكون قد عرفت ببعض مشاهير الكتاب فى تلك الفترة من الشام ومن
مصر على نحو ما فعلت وأنا أعرف ببعض مشاهير الشعراء فى هذه الفترة ، ولعلى - كذلك -
أكون قد أشرت بهذا التعريف إلى ما تركه الغزو الصليبي للعالم الإسلامى فى كُتاب هذه
الفترة الهامة من تاريخ الأمة الإسلامية •
ولكى تتم الصورة عندى أتحدث الآن عن بعض المذاهب النثرية التى عرفت وشاعت
فى هذه الفترة •• والله الموفق •



د - بعض المذاهب النثرية في تلك الفترة

هذه الفترة التي نتحدث عنها وهي القرنان السادس والسابع الهجريان ورثت عن الأسلاف في أسلوب النثر الأدبي طريقة كان الناس متمسكين بها معجبين بها غاية الإعجاب ، وهي طريقة تقوم على العناية باللفظ والشكل والتزام التأنيق اللفظي حتى لو بلغ حد التكلف ، كما تقوم على العناية بحسن اختيار الكلمة حتى ولو بلغت حد الغرابة . وربما كان أبو العلاء المعري أباً لهذه الطريقة في عصره - الذي سبق هذه الفترة بأكثر من قرن من الزمان - غير أن الحريري صاحب المقامات وهو من أبناء بدايات هذه الفترة - إذ عاش بعد بدء الغزو الصليبي عشرين عاما تقريبا ، وسبق هذا الغزو بنحو نصف قرن - هو الذي أذكى في النثر الأدبي روحا جديدة ربما كانت أكثر تكلفا مما فعل أبو العلاء المعري ، ولقد أغرم الكتاب بأسلوب الحريري في كتابته يقول العماد الأصفهاني في ذلك : « وثني بلاغة الحريري ذهبى الطراز ، سحبانى الإعجاز ، قُتبي الإسهاب والإيجاز ، ومتى قَدَرُ قُتسَ على ترصيع كلمة وتصريع حكمه ، حريري الوشى ، عراقى الوشم ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر وقيمة النحر »^(١)

ولعلنا لنعُدو الحقيقة عندما نقول إن أدباء هذه الفترة التي نتحدث عنها من النثرين قد اعتبروا طريقة الحريري هي الطريقة المثلى في الكتابة وهي طريقة تقوم على الإغراب وبعد الإشارة والتزام السجع وسائر المحسنات البديعية وكل وسيلة من وسائل ترصيع الأسلوب ونقشه .

بل قد اعتقد معظم الكتاب في هذه الفترة أن الكتابة الجيدة هي التي تكون على هذا المستوى الذي ورثوه عن الحريري وكان الحريري ورثه عن التبريزي عن أبي العلاء المعري .

١ - العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر : ١ و ١٨٣ .

وقد ترتب على ذلك أن ظهر في الكتابة النثرية في هذه الفترة مذهبان أحدهما يقفواثر
الحريرى ، ونستطيع أن نسميه « مذهب المحافظين » والثانى يحاول أن يتخلص من هذه
القيود وتلك الأتقال اللفظية ، ويمكن أن نسميه « مذهب المجددين » .
ولنلق ضوءا على كل من المذهبين لننهى بذلك حديثنا عن الفكر والأدب في الحروب
الصليبية .

أ - مذهب المحافظين

وقام هذا المذهب على القواعد والأسس التى وضعها الحريرى في مقاماته من ناحية
الألفاظ والأساليب ، وقام على رأس هذا المذهب الكاتب المبدع عبد الرحيم البيسانى
القاضى الفاضل ، وكان القاضى الفاضل كاتباً مبرزاً قبيل نهاية الدولة الفاطمية .
والقاضى الفاضل في كتابته النثرية كان محافظاً على ذاك الأسلوب الذى لقته العصر
عن الحريرى ومن لف لفه من الكتاب ، وكان شيخاً في هذا الفن رئيساً لايبارى
ولايجارى ، وله قلم ساحر آخذ ، اعترف به صلاح الدين نفسه حيناً قال : « والله ماملكت
البلاد بسيفوكم ولابرماحكم ، ولكن بقلم القاضى الفاضل » ويؤكد هذا المعنى ابن فضل
الله العمرى إذ يقول : « كان القاضى الفاضل هو الدولة الصلاحية ، كان كاتبها ووزيرها
وصاحبها ومشيرها »^(١)

وكان القاضى الفاضل في كتابته يعتمد أمورا قلما تفارقه ، يمكن أن نشير من هذه
الأمر إلى ما يأتى :

الاهتمام بألوان البديع اهتماما يجعله لا يدع عبارة من عباراته تمر دون أن يجعلها بإحدى
المحسنات البديعية ، وكان الجناس من أحب الألوان البديعية إليه .
وتتميز عباراته بالطول ، ولعل هذا الطول هو الذى مكنه من الجناس والتنظير
والتشخيص في معظم ماكتب .

الميل إلى التشخيص فيما يكتب ، والاهتمام الزائد بالتورية .

١ - ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار . ح ٧ ورقة ٦٥٦ مخطوطة بدار الكتب المصرية .

كما لا يخفى على قارىء لرسائل القاضى الفاضل أنه يقتبس من القرآن الكريم ليزين أسلوبه ، وأنه أحيانا يقتبس من الشعر أو من مشهور كلام السابقين .
وبما اهتم به القاضى الفاضل فى كتابته الاقتباس والاستعانة بمصطلحات العلوم وبخاصة علم النحو .

ومن رسالة للقاضى الفاضل بعد أن من الله على صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، تؤكد لنا هذه الدعائم التى أقام عليها أسلوبه - قوله : « وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستتب عقائد أهله على بصائرهما ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه ، فلما وقع الشرط حصل المشروط ، وكان الدين غريبا فهو الآن فى وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس فى ثمنه ، وأمر الحق وكان مستضعفا ، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ، فأولجت السيوف إلى الآجال وهى نائمة ، وصدق وعد الله فى إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين ، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم أبقا ، وظفروا بقطعة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأى طارقا ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تُشفى بالماء غُلَّهم »^(١)

وكان من أئمة مدرسة المحافظين إلى جوار القاضى الفاضل تلميذه فى فن الكتابة وفى فن المحافظة على هذا النمط الفنى الحافل بالمحسنات البديعية : العماد الأصفهاني .

فقد كان العماد الكاتب مغرما بالقاضى الفاضل وبطريقته فى الكتابة محتذيا حذوه فى كتابته ، حتى إن العماد قد فاق أستاذه فى التقيد بالمحسنات البديعية فى كل شئ ، حتى فى كتابه : التاريخ ، وإن نظرة إلى كتابة الفتح القُببى فى الفتح القدسي ، لتطلعنا على أسلوب كنفس الأسلوب وطريقة تحتذى حذو الطريقة وتعترف له بالأستاذية .

١ - الفلشندي : صبح الأعشى : ٤٩٧/٦ .

وإن نظرة في مقدمة الكتاب لتطلعنا على ذلك إذ يقول : « وسميته الفتح القدسي تنبيها على جلالة قدره ، وتنهوها بدلالة فخره ، وعرضته على القاضي الأجل الفاضل ، وهو الذى فى سوق فضله تعرض بضائع الفضائل ، فقال لى : سمى « الفتح القُسى فى الفتح القدسى » فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدر فى البيان عن صياغته »^(١)

ولعل فى حديثه عن التاريخ والتزامه السجع والمحسنات وإطالة الجمل وكل ما ذكرنا عن أسلوب القاضي الفاضل ما يؤيد ما نقول ، فهو يقول : « ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزله الخروبة ، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر فى خيمته المضروبة ، وعكا محصورة ، وجموع الفرنج إلى حصارها محشورة ، وعلى تعذرها عليهم محصورة .

وخرجت هذه السنة والمحصر مستمر والسلطان فى ملازمة القتال مستمر ، وحيا النصر فى الأحيان مستدر ، وقد تسنت للإسلام مباحج ، ووضحت للسعادة مناهج ، وبانت للقتال مداخل ومخارج ، وانقطعت بين الوشيح وأرحام الأرواح وشائج ، واشتدت لتباريح الأشواق إلى لقاء الأعداء لواعج ، وتألفت فى الإقدام مقدمات ونتائج ، ولناجح المنى منا فى مدى الرجاء مدارج ولخطباء الطلى فى منابر الطلى معارج ، وللجهاد جهات ، وللعزمات أزمات ، واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات ، وكانت لنا مسرات هى لأعدائنا مساءات ووقعت عجائب ، وأعجبت وقائع ، وأبدعت غرائب وأغربت بدائع »^(٢)

ومن الواضح أننا نقرأ هذا الكلام وكأننا نقرأ للقاضي الفاضل ، فهنا الاهتمام بألوان البديع مع التعلق بالجناس ناقص وتام ، وهنا الجمل الطويلة إلى حد ما ، والتنظير الذى بدأ أوضح ما يكون ، والتشخيص ، وسائر ما ذكرنا من أمور اهتم بها القاضي الفاضل فى كتابته .

١ - العباد الأصفهاني : الفتح القُسى فى الفتح القدسى : مقدمة الكتاب ص ٩ ط مطبعة الموسوعات القاهرة - دون تاريخ .

٢ - السابق : ص ١٧٤ - ١٧٥ .

فالعهد الأصفهاني إذن من عمد المذهب المحافظ على ما أثر عن أسلوب الحريري في عنايته الزائدة بالمحسنات وغيرها من تشخيص واقتباس ، وحب للتورية والجناس .
ونستطيع بعد هذا العرض الموجز لمذهب المحافظين أن نجمله في أمور : الإكثار من البديعيات وبخاصة الطباق والجناس ، والاهتمام بالتورية مع الإكثار من الاقتباس ، والتشخيص .

ب - مذهب المجددين

لعل ظهور مذهب في التجديد في أسلوب النثر أمر ضروري في مواجهة المذهب المحافظ ، تلك سنة الأدب في مختلف عصوره ، ما إن يتمسك بالمحافظة فريق حتى يخرج عن هذه المحافظة فيهتم بالتجديد فريق .
وربما كان لمذهب المحافظين دعم وتأيد بالقاضى الفاضل ومكانته الرفيعة وبالعهد الأصفهاني وقدراته المتعددة ، ولكن ذلك لم يمنع أبدا من وجود مذهب مجدد ، يلوم المحافظين على محافظتهم ، ويتهم أسلوبهم بالعقم حيناً وبالشكلية والسطحية حيناً ، ويكيل التهم جزافاً للمحسنات البديعية عموماً وللسجع على وجه الخصوص في بعض الأحيان .

غير أن هذا المذهب الذى تبناه المجددون لم يكن له تأثير حقيقى إلا في القرن السابع الهجرى وكان ذلك على يد ضياء الدين بن الأثير - الذى قدمه القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين - كما أشرنا آنفاً - فابن الأثير كاتب متحرر فيه اعتداد شديد بنفسه وبعمله ، وقد نظر ابن الأثير إلى ما تركته طريقة القاضى الفاضل في الكتاب - وهو شيخهم ورئيسهم - من رغبة ملحة في تقليد هذا الأسلوب والنسج على منواله .
لم يعجب ابن الأثير هذا الأسلوب كما لم تعجبه هذه التبعية ، فنار على هذا وذاك ، ونادى أولاً : بأن هذا الأسلوب متكلف مفرق في الإغراب والتعقيد ، لا يعدو أن يكون عبثاً لفظياً وعبثاً على المعنى والفكر ، وهذه الأحكام التى أصدرها ابن الأثير على مذهب

المحافظين كانت معاول هدم لهذا المذهب ، كما كانت ذات أثر في تنفير بعض الكتاب من التأسي بهذا الأسلوب .

وكان ابن الأثير قد سبق بكاتب آخر ثار على الأسلوب المثقل بالمحسنات البديعية ذلك هو محمد بن عبد الله بن ظفر المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، فلقد كان ابن ظفر من القصاص والوعاظ الذين حرروا قصصهم ووعظهم من السجع والمحسنات ، غير أن ابن ظفر لم ينل من الشهرة مثل مانال ابن الأثير ولا كان لرأيه ذلك التأثير الذي كان لرأى ابن الأثير في تلك القضية .

ولننظر الآن فيما قال ابن الأثير في السجع وهو عمود المحسنات البديعية في الكلام المنشور . .

يقول : « هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنشور على حرف واحد . . وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم . . فإن قيل إن النبي ﷺ قال لبعضهم منكراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع : « أسجعا كسجع الكهان » ؟ ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي ﷺ ؟

فالجواب على ذلك أنا نقول : « لو كره النبي ﷺ السجع مطلقاً لقال : أسجعاً ؟ ثم سكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لِمَ كان ، فلما قال : أسجعاً كسجع الكهان « صار المعنى معلقاً على أمر وهو إنكار الفعل لِمَ كان على هذا الوجه . . وأعلن أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع . . بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة . . وأن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ »^(١)

١ - ابن الأثير : المثل السائر : ٢٧١/١ - ٢٧٨ باختصار واختصار .

ثم شرع ابن الأثير مهاجم أسلوب الحريري وأسلوب ابن نباته الذي كان يحذو حذو الحريري - وفي هذا هجوم على أسلوب القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني إذ هما على ذلك المذهب - فقال :

« ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيها على الأسلوب الذي أنكرته »^(١)

ولكن ابن الأثير - وقد وضع للسجع شروطا ورأى له أقساما - لم يستقبحه على الإطلاق وإنما استقيح المتكلف منه ، ولما تناول هو السجع في كتابته تناوله بنفس الشروط التي وضعها وفي الرسائل الديوانية والتقاليد السلطانية فحسب ، وربما في بعض الرسائل الإخوانية .

أما ماوراء ذلك من مؤلفاته فلم يلتزم فيها السجع وإنما كان يرد في كلامه عفوا غير مقصود في أغلب الأحيان ، وإن الناظر في كتابه المثل السائر ليجد مصداقا لما نقول .
وخلاصة مذهب ابن الأثير وهو رأس المجددين في عصره يمكن أن نشير إليه في أمور منها :

استخدام السجع بشروطه التي وضعها والتي أهمها أن تكون ألفاظه حلوة حارة ، طنانة رنانة لا غثة ولا بارة ، وأن يكون المعنى فيه تابعا للفظ ، وأن يكون استخدامه مقصورا على بعض الكلام دون بعض .

استبعاد غرائب الألفاظ واستعمال مألفها ومعروفها مع الدقة في الاختيار إذ لا بد على حد قوله من أن يدرك الكاتب الفرق بين كلمتي غصن وعسلوج وكلمتي أسد وفدوكس ، كما استبعد التعقيد في المعنى .

هجر التصنيع والتكلف في أى صفة من صفات الأسلوب ، فقد سخط سخطا شديدا على الحريري عندما وجد له مقامه معجمة الكلمات كلها وأخرى مهملة الكلمات كلها ،

١ - السابق : ٢٧٨/١ .

ومقامة فيها كلمة معجزة وأخرى مهمة وهكذا ، وعد ذلك من التكلف ، وجعله سببا في أن معانيه أتت غثة باردة ، لأن الألفاظ استكرهت إكراها فلم تلائم أخواتها •

وبعد : فإن مذهب المجددين على يد ابن الأثير قد أثار ضجة كبرى لدى الأدباء والعلماء بل ولدى بعض الخلفاء كالخليفة العباسي في بغداد •

وانقسم الناس حول هذا المذهب إلى قسمين : مؤيدين له راضين عن مذهبه وقد تمثل ذلك في عدد من كتاب الشام والموصل ، ومعارضين له محاربين لمذهبه وقد تمثل ذلك في بغداد •

ولقد كان ابن الأثير حادا في مهاجمة معارضيه واتهمهم بأنهم يجعلون همهم مقصورا على الألفاظ التي لاحاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها ، وأكد أن هؤلاء أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم •

وبهذا أكون قد بلغت بعض ما أريد من التعرف على بعض المذاهب الشريفة في تلك الفترة ، إكمالا للصورة وبحثا عن أبعادها المتعددة ، وأملا في أن أكون قد وفقت في تعريف القارئ بالفكر والأدب في الحروب الصليبية ، وأن تكون صورة الغزو الصليبي بأبعادها المتعددة قد وضحت من خلال هذا الكتاب الذي أرجو أن يكون بداية سلسلة من الكتب تتبع الغزو الصليبي للعالم الإسلامي في مراحل التاريخ التي أشرت إليها في التمهيد لهذا الكتاب •

•

•

•

•

•

•

•

•

خاتمة

لله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين ، وله الشكر والامتنان على ما وفق إليه وأعان عليه ، في كل صواب قلته ، ومنه المغفرة والرحمة لكل خطأ وقعت فيه .
وعلى نبي الهدى والرحمة والملحمة أركى الصلوات وأطيب التسليّات ، فهو القدوة ولا قدوة غيره ، وهو الذى هدى البشرية إلى الصراط المستقيم ، صراط الله ، وهو الذى جاءنا بالقرآن الكريم دستورنا الخالد ، ثم فصله لنا بسنته التى من تمسك بها نجا وحقق بالأخذ بها سعادة الدنيا والآخرة .

بهذا الحمد وبذاك الثناء وبتلك الصلوات والتسليّات كنت قد بدأت الكتاب وبها - وانفضل لله - أختمه ، وهى خير ما يفتح به عمل وخير ما يختم به .
وليس بوسعى وأنا أكتب هذه الصفحات الأخيرة من الكتاب إلا أن أتوجه بخالص الدعاء إلى المولى سبحانه وتعالى أن يلهم الأمة الإسلامية في حاضرها ومستقبلها نعمة الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في مختلف ظروف حياتها ، فإنها إن تفعل تقف بقطعة متبهاة لكل غزو يدبرها ، ولكل كيد تحاط به من أعدائها .

فالغزو للعالم الإسلامى مستمر وإن لبس المسوح وتفنن بالمصالح المشتركة وتغلف بالسلام العالمى وحقوق الإنسان ، والأمة الإسلامية في الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر مطمعة أعدائها والهاقدين عليها من كل ضال أو مغضوب عليه ، ومن كل صاحب مذهب مارق أو نظرية خادعة أو نظام ضال مضل ، وليس للأمة الإسلامية منجى من هذا الكيد ولا مهرب من هذه الحرب ولا فرصة لتحقيق النصر على عدوها إلا بالتمسك بهذا الدين والعرض على نظمه وأدابه بالنواجز .

وكما أشرت في التمهيد لهذا الكتاب - ما أتيت الأمة الإسلامية من قبَل عدو أضر عليها - في الماضى والحاضر والمستقبل - من بعدها عن التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولقد حاولت جهدى فى الباب الأول من هذا الكتاب أن أوضح دوافع الغزو الصليبي للعالم الإسلامى - فى الفترة الواقعة فى القرنين السادس والسابع الهجريين - سواء أكانت دوافع دينية تقودها الكنيسة ومن يسمون أنفسهم رجال الدين ، أم سياسية يقودها الملوك الطامعون ، أم اجتماعية واقتصادية يقودها التجار والإقطاعيون وينخرط فيها رقيق الأرض من الأفصال والأقنان والعبيد ، أوضحت هذه الدوافع لأنه أمتنا الإسلامية ، حتى تأخذ الأمة الإسلامية حذرنا وتعرف على وجه اليقين عدوها ، فتحسن التصدى له وتبطل عليه خططه لغزوها فى الحاضر أو المستقبل .

وعندما كتبت ما كتبت فى الباب الثانى كانت تقوم فى نفسى رغبة ملحة فى أن أكشف بما قلت فيه لأمتنا الإسلامية اليوم عن المواطن التى ضرب فيها العالم الإسلامى فى الماضى فى غربته حيث الأندلس المسلمة وفى شرقه حيث مصر والشام وفلسطين ، وأن أوضح أسباب انهزام المسلمين أمام أعدائهم أول الأمر ، ثم أسباب انتصارهم على هؤلاء الأعداء آخره .

مع اهتمامى بأن أبرز للضوء فى نظر الأمة الإسلامية صورة مشرفة لهؤلاء الأبطال من المسلمين الذين واجهوا الصليبيين فانتصروا عليهم لأنهم أدركوا أهم أسباب النصر وهى رفع راية الجهاد فى سبيل الله - لا فى سبيل قومية أو إقليمية - والوحدة فى وجه العدو . أسأل الله واسع رحمته ومغفرته لأولئك الأفاضل من قادة المسلمين عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم .

فعلت ذلك أملا فى أن تدرك الأمة الإسلامية اليوم وهى تخوض أى معركة - وما أكثر المعارك التى تخوضها والمعارك التى تنتظرها - أن أهم أسباب النصر على أى عدو للأمة الإسلامية هى أخذ هذه الأمة الإسلامية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فى سلمها وحربها ، ثم رفع راية الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ثم اتحاد الكلمة ووحدة الصف ، لأن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان

مرصوص .

وفي الباب الثالث من الكتاب كان رائدى أن أرصد نتائج هذا الغزو الصليبي للعالم الإسلامي ، رسدا يتتبع سلبياتها وآثارها الضارة في المسلمين ، كما يذكر إيجابياتها من حيث حثّ المختلفين من المسلمين على الاتفاق ، ودعت المتفرقين منهم إلى الاتحاد .

ركزت على ذلك طمعا في أن تنظر الأمة الإسلامية اليوم إلى أعدائها فتتجنب مايمكن أن تتركه معاركها مع أعدائها من سلبيات كالعادات المزدولة التي يفرسها عدونا في مجتمعاتنا غرسا ، ومثل إذكائه لنيران العداوة والبغضاء بين المسلمين .

كما جعلت من همى في نفس الباب أن أتحدث عن نتائج الغزو الصليبي للعالم الإسلامي في أوروبا نفسها ، لأوضح لأبناء الأمة الإسلامية أن حضارتنا الإسلامية كانت ذات أثر عميق في حضارة أوروبا التي قامت على معطيات عصر النهضة الأوروبية الذي يشيدون به ، ويتفنى به من يعرف ومن لايعرف ، حتى يحدث ذلك في نفوسنا اعتزازا بحضارة الإسلام تعصمنا من مجرد التصور بأن حضارة أخرى كائنة ماكانت قادرة على أن تعوضنا عن حضارتنا الإسلامية ، فضلا عن أن تكون في صالح حاضرتنا أو مستقبلنا ، وتحول بيننا وبين الارتقاء على الحضارات المعادية حقيقة لكنير مما جاء به ديننا الذي أكمله الله لنا وأثم به نعمته علينا .

وفي الباب الرابع والأخير أردت أن أؤكد أن الفكر والأدب عند المسلمين - في تلك الفترة - لم يقف مكتوفا إزاء هذا الغزو ، وإنما سَجَلَه وسَجَل كل ما أحاط به من سلبيات وإيجابيات ، ووقف بوجه القادة والحكام من المسلمين إلى أن وحدة الصف ضرورة في مواجهة العدو وإلى أن الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا هو هدف كل معركة .

فعلت ذلك لكي أشير إلى المفكرين والعلماء والأدباء في هذا العصر الذي نعيشه إلى أن عليهم واجبا دينيا في مساندة معارك الأمة الإسلامية في كل مكان ، وأن عليهم عبئا كبيرا - بحكم أنهم ورثة الأنبياء - في التوجيه المخلص النابع من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لأئمة المسلمين وعامتهم .

ولعلى أكون بهذا الكتاب قد بلغت ، وأملى كبير فى أن أكون قد قدمت فى هذا شينا
يفيدنى ويفيد من بلغتهم وينفعنى وإياهم فى دنيانا وآخرتنا •
وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب •

الرياض : على عبد الحليم محمود
غرة المحرم من عام ١٣٩٩ هـ



مصادر البحث ومراجعته ثبت بأهم مراجع الكتاب

- ١ - ابن الأثير « عز الدين » الجزرى :
أ - التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل ط القاهرة ١٩٦٣م
ب - الكامل فى التاريخ ط بيروت بدون تاريخ
- ٢ - ابن الأثير « ضياء الدين » الجزرى :
أ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ط نهضة مصر ١٩٥٩م
ب - الوشى المرقوم فى حل المنظوم
- ٣ - أرنولد « توماس » :
الدعوة إلى الإسلام - مترجم ط القاهرة ١٩٥٧م
- ٤ - أسامة بن منقذ :
أ - الاعتبار برنستون ١٩٣٠م
ب - لباب الآداب القاهرة ١٣٥٤ هـ
ج - المنازل والديار موسكو ١٩٦١م
- ٥ - الأصفهاني « عماد الدين الكاتب »
أ - تاريخ دولة آل سلجون ط القاهرة ١٣١٨ هـ
ب - الفتح القسى فى الفتح القدسى ط القاهرة ١٣٢٢ هـ
ج - خريدة القصر وجريدة العصر ط بغداد والقاهرة
- ٦ - ابن إياس :
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ط القاهرة ١٣١١ هـ

- ٧ - باركر أرست :
الحروب الصليبية - مترجم
ط القاهرة ١٩٦٠م
- ٨ - ابن جبير :
رحلة ابن جبير
ط بغداد ١٩٥٦م
- ٩ - ابن الجوزى :
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم
ط الهند ١٣٥٩ هـ
- ١٠ - ابن حجة الحموى :
أ - ثمرات الأوراق
ب - خزنة الأدب
ج - كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام
ط بولاق ١٢٩١ هـ
ط بيروت ١٣١٣ هـ
- ١١ - حسن إبراهيم
أ - تاريخ الإسلام السياسى
ب - النظم الإسلامية بالاشتراك مع أخيه على
ط النهضة المصرية
١٩٧٠م
ط النهضة المصرية
١٩٧٠م
- ١٢ - حسن حبشى
ج - تاريخ الدولة الفاطمية
ط القاهرة ١٩٥٨م
- أ - الحرب الصليبية الأولى
ب - نور الدين والصليبيون
١٣ - ابن خلدون :
أ - المقدمة
ب - بقية كتابه : العبر وديوان المبتدأ والخبر «تاريخه»
ط القاهرة ١٩٤٧م
ط القاهرة ١٩٤٨م
- ١٤ - ابن خلكان :
وفيات الأعيان
ط بولاق ١٢٨٤ هـ
ط بولاق ١٢٨٤ هـ
ط القاهرة ١٢٩٩ هـ

- ١٥ - الحفاجى :
شقاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل
١٦ - خليفة « حاجى خليفة »
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون
١٧ - ابن تغرى بردى :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
١٨ - ابن رشيى :
العمدة فى صناعة الشعر وأدابه
١٩ - الزركلى
الأعلام
٢٠ - سبط بن الجوزى
مخطوطة بدار الكتب
المصرية
ط الهند ١٣٥١ هـ
٢١ - السخاوى
التبر المسبوك فى ذيل الملوك
٢٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور
أ - الحركة الصليبية
ب - أوروبا فى العصور الوسطى
٢٣ - أبوشامة
أ - كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
ب - ذبل الروضتين
٢٤ - ابن شداد :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
- ط القاهرة ١٢٨٢ هـ
ط بيروت ١٩٧٠ م
ط القاهرة ١٩٢٩ م
ط القاهرة ١٩٥٥ م
ط بيروت ١٩٦٩ م
ط القاهرة ١٩٧١ م
ط القاهرة ١٩٦٢ م
ط القاهرة ١٢٨٧ هـ
ط القاهرة ١٩٤٧ م
ط القاهرة ١٩٦٢ م

- ٢٥ - ابن شاعر :
فوات الوفيات
ط بولاق ١٨٨١م
- ٢٦ - شافع بن على :
أ - الأحكام العادلة فيما جرى بين المنظوم والمنثور
من المفاضلة
ب - الدر المنتظم في مناهضة السيف والقلم •
ج - سيرة الأشرف خليل بن قلاوون
د - مخالفة المرسوم في الوشى المرقوم
٢٧ - الشهاب محمود الحلبي :
أ - حسن التوسل إلى صناعة الترسل
ب - أسنى المنائح في أهنى المدائح
٢٨ - شوقي حفيف :
أ - فصول في الشعر ونقده
ب - الفن ومذاهبه في الشعر العربي
ج - الفن ومذاهبه في النثر العربي
٢٩ - صفى الدين الحلبي :
أ - العاقل الحال والمرخص الغالى
ب - ديوان شعره
٣٠ - الصفدى :
أ - الوانى بالوفيات
ب - أعيان القصر
ط طهران ١٩٦١م
مخطوطة بدار الكتب
المصرية
- ٣١ - ابن ظفر
سلوان المطاع
ط بيروت ١٣٠٠ هـ

- ٣٢ - ابن العبري
تاريخ مختصر الدول
ط بيروت ١٩٥٨م
- ٣٣ - ابن العديم
زبدة الحلب في تاريخ حلب
ط دمشق ٤٥-١٩٥١م
- ٣٤ - ابن عساكر:
أ - التاريخ الكبير «تاريخ دمشق» - مخطوط بالظاهرية بدمشق
ب - تهذيب تاريخ ابن عساكر اختصار الشيخ عبدالقادر بدران
ط القاهرة ١٩٧١م
- ٣٥ - العسكري
كتاب الصناعتين
ط بيروت بدون تاريخ
- ٣٦ - ابن عنين
ديوانه - تحقيق خليل مردم
ط بيروت بدون تاريخ
- ٣٧ - العمرى:
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
ط دار الكتب المصرية
١٣٤٢ هـ
- ٣٨ - الغزالي:
إحياء علوم الدين
ط القاهرة
- ٣٩ - الغزولي:
مطالع البدور
ط القاهرة ١٣٥١ هـ
- ٤٠ - ابن العباد:
شذرات الذهب
- ٤١ - ابن عبد الظاهر:
أ - الفاضل في رسائل القاضي الفاضل
ب - الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة

- ٤٥ - أبو الفداء
المختصر في أخبار البشر
القاهرة ١٣٢٥ هـ
- ٤٦ - القفطى
إنباء الرواة
٤٧ - ابن القلانسى
ذيل تاريخ دمشق
بيروت ١٩٠٨ م
- ٤٨ - ابن كثير :
البداية والنهاية
القاهرة ١٣٥٨ هـ
- ٤٩ - المقرئى :
أ - السلوك لمعرفة دول الملوك
ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
القاهرة من ٣٤-١٩٥٨ م
بولاى ١٢٧٠ هـ
- ٥٠ - القلقشندى :
صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء
مصورة عن المطبعة
الأميرية ١٣٣٢ هـ
- ٥١ - ابن القوطى
أ - الدور الناصعة فى شعراء المائة السابعة
ب - ذيل تاريخ بغداد
٥٢ - النويرى :
نهاية الأرب فى فنون الأدب
ط وزارة الثقافة القاهرة
- ٥٣ - ابن واصل :
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
٥٤ - ابن الوردى
أ - تنمة المختصر المعروف بتاريخ ابن الوردى
القاهرة ١٢٨٥ هـ

ب - أبكار الأفكار

ج - أرجوزة في تعبير النامات

٥٥ - ياقوت الحموى :

أ - معجم الأدباء

ب - معجم البلدان

القاهرة ١٩٢٠م

بيروت ١٩٥٥م



ثبت الموضوعات

٥	إهداء
٧	تمهيد
١٧	المدخل إلى الكتاب
٨٩	الباب الأول : دوافع الصليبيين في حرب المسلمين . ويتناول :
٩٣	١ - توطئة في دوافع هذه الحروب
٩٥	٢ - الدوافع الدينية
٩٨	البابا إيريان الثاني يعد للحروب الصليبية
١١١	٣ - الدوافع السياسية
١١٣	الغزو الصليبي للأندلس
١١٧	الغزو الصليبي الذي قام به البيزنطيون
١٢٦	الغزو الصليبي الغربي للشرق الإسلامي
١٢٦	أ - الكنيسة وهذه الحروب
١٣١	ب - الدول الأوروبية التي شاركت في هذه الحروب
١٤٠	ج - الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي
١٤١	الحملة الصليبية الأولى
١٤٣	- حملة الشعوب
١٤٦	- حملة الأمراء
١٦١	الحملة الصليبية الثانية
١٦٩	الحملة الصليبية الثالثة
١٨١	الحملة الصليبية الرابعة
١٨٢	الحملة الصليبية الخامسة
١٨٦	الحملة الصليبية السادسة
١٩٠	الحملة الصليبية السابعة
١٩٩	د - الممالك الصليبية في الشرق الإسلامي
٢٠٠	مملكة بيت المقدس

٢٠١	إمارة الرها
٢٠٣	إمارة أنطاكية
٢٠٥	إمارة طرابلس
٢٠٩	هـ - إخراج الصليبيين من الشرق الإسلامي
٢٠٩	أو : بداية النهاية
٢١٤	٤ - الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب
٢٢١	الباب الثاني : العالم الإسلامي في مواجهة الصليبيين . ويتناول :
٢٢٥	١ - ظروف العالم الإسلامي جملة
٢٣٨	٢ - الدول الإسلامية التي واجهت الصليبيين
٢٣٩	أ - مسلمو الأندلس
٢٤٨	ب - العباسيون
٢٥٣	ج - الفاطميون
٢٦٠	د - السلاجقة
٢٦٤	عماد الدين زنكي
٢٦٧	نور الدين محمود
٢٧٠	هـ - الأيوبيون
٢٧٠	صلاح الدين الأيوبي وبيت المقدس
٢٨٠	و - المماليك
٢٨٦	٣ - فلول الصليبيين .. وقضاء العثمانيين عليهم
٢٨٩	الباب الثالث : نتائج الحروب الصليبية . ويتناول :
٢٩٥	أولاً : نتائج الحروب الصليبية في العالم الإسلامي
٣٠٦	أ - تأثير الحروب الصليبية في الحالة السياسية
٣١٢	ب - في إذكاء العواطف الدينية
٣٢٢	ج - في التأثير ببعض العادات
٣٢٤	- مبدأ توريث الإقطاع
٣٢٦	- رباطات الصوفية وتكايهم
٣٣٠	- انتشار الرقيق والاتجار فيه

٣٣٤	ثانياً : نتائج الحروب الصليبية في دول أوروبا
٣٣٧	أ - في الاجتماع والاقتصاد والسياسة
٣٤٣	ب - في النهضة العلمية والأدبية والحضارية
٣٥٨	ج - في إثارة المطامع في العالم الإسلامي
٣٦٧	الباب الرابع : الفكر والأدب في الحروب الصليبية . ويتناول :
٣٧١	١ - توطئة
٣٧٧	٢ - الفصل الأول : فن الشعر ، ويشتمل :
٣٧٧	أ - موضوعاته وأغراضه وفنونه
٤٠٦	ب - نماذج من موضوعات الشعر
٤٢٦	ج - من شعراء فترة الحروب الصليبية
٤٢٨	- شرف الدين ابن عنين
٤٢٨	نسبه ونشأته
٤٢٩	أطوار حياته الأدبية
٤٣٧	نماذج من شعره
٤٤٠	إنتاجه الأدبي
٤٤٢	- البهاء زهير
٤٤٢	نسبه ونشأته
٤٤٤	أطوار حياته الأدبية
٤٥٠	نماذج من شعره
٤٥١	إنتاجه الأدبي
٤٥٢	د - بعض المذاهب الشعرية في تلك الفترة
٤٥٤	أ - مذهب المحافظين
٤٥٥	ب - مذهب المجددين
٤٥٧	٣ - الفصل الثاني : فن النثر
٤٥٧	أ - موضوعاته وفنونه
٤٦٢	ب - نماذج من موضوعاته
٤٧٢	ج - من كتاب فترة الحروب الصليبية
٤٧٢	- ضياء الدين بن الأثير

٤٧٢	نسبه ونشأته
٤٧٣	أطوار حياته الأدبية
٤٧٨	نماذج من نثره
٤٨٠	إنتاجه الأدبي
٤٨١	محيي الدين بن عبد الظاهر
٤٨١	نسبه ونشأته
٤٨٢	أطوار حياته الأدبية
٤٨٣	نماذج من نثره
٤٨٥	إنتاجه الأدبي
٤٨٨	د - بعض المذاهب النثرية في تلك الفترة
٤٨٩	أ - مذهب المحافظين
٤٩٢	ب - مذهب المجددين
٤٩٧	خاتمة الكتاب
٥٠١	مصادر البحث ومراجعته
٥٠٨	ثبت الموضوعات

رقم الإيداع ٨٠٥٨ / ١٩٩٣ م

الترقيم الدولي

I.S.B.N. 977-265-083-5

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هاليء الأندلسي ت : ٦١٨١٣٧

